كتاب السياسة

أو

الإشارة في تدبير الإمارة

لأبي بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي المتوفى سنة ٤٨٩ هـ



ويليه

ج المسلوك في سياسة الملوك

نهاية الرتبة في طلب الحسبة

هما للشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر الشيزري المتوفى سنة ٥٩٠ هـ

ويليه

اية الرتبة في طلب الحسبة

لمحمد بن أحمد بن بسام المحتسب

تحقيق

محمد حسن محمد حسن إسماعيل — أحمد فريد المزيدي

منشورات

محمد علي بيضون

لنشر كتب السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

كتاب السياسة

أو

الإشارة في تدبير الإمارة

لأبي بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي المتوفى سنة ٤٨٩ هـ

ويليه

النهج المسلوك في سياسة الملوك

ونهاية الرتبة في طلب الحسبة

كلاهما للشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر الشيزري المتوفى سنة ٥٩٠ هـ

ويليه

نهاية الرتبة في طلب الحسبة

لمحمد بن أحمد بن بسام المحتسب

تحقيق

محمد حسن محمد حسن إسماعيل

أحمد فريد المزيدي

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

كتاب السياسة

أو

الإشارة في تدبير الإمارة

لأبي بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي

المتوفى سنة ٤٨٩ هـ

تحقيق

محمد حسن محمد حسن إسماعيل   أحمد فريد المزيدي



ترجمة المصنف

هو أبو بكر محمد بن الحسن المرادى الحضرمى، المتوفى سنة (٤٨٩هـ)، ولد فى القرن الخامس، ومات آخره، نشأ فى قيروان، وكان رجلاً، نبيهًا، عالمًا، وإمامًا فى أصول الدين، عالم بالاعتقاد، والأصول، والأدب، والشعر، وكان ذو حظ وافر فى البلاغة والفصاحة.

قال ابن بشكوال: إنه كان عالمًا بالفقه، وقد أهله هذا لتولى القضاء، وارتبط المرادى بالأمير أبى بكر بن عمر، ثم عاد المرادى بعد أن قضى مع الأمير زمنًا، إلى الصحراء، حيث توفى فى مدينة أزكى.

انظر: الصلة لابن بشكوال (١/٥٤٧ - ٥٤٨)، الذخيرة لابن بسام (١/٣٦٤ - ٣٦٧) القسم الرابع.

تنبيه: ترجع أهمية هذا الكتاب، أن كثيرًا من أهل العلم كان ينقل منه، ويظهر هذا فى التحقيق، خاصة ابن الأزرق فى بدائع السالك، حيث كان يأخذ منه نصوصًا برمتها.

* * *

شكر خاص

إلى معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، لعقده ندوة «تراث العرب السياسى»، وإلى الأستاذ الدكتور أحمد يوسف أحمد، مدير المعهد ومشرف الندوة، وإلى الدكتور فيصل الحفيان، منسق برامج الندوة، والأستاذ الفاضل عصام الشنطى، المحاضر بالندوة، والأستاذ الدكتور رضوان السيد، صاحب مجلة الاجتهاد اللبنانية، والمحاضر بالندوة، والأستاذ/ محمود الدهشان، والأستاذ محمد سلطان، لإشرافهما على الندوة.

وذلك لحسن اهتمامهم بالتراث السياسى عند العرب، والحث على نشره.

ونتوه أننا قد قمنا بتحقيق مجموع كتاب فى السياسة الشرعية، وغيرها من أنواع السياسات، أوله: السياسة الشرعية لابن دَدَه أفندى، وآخره: السياسة لابن سينا، قيد الطبع، دار الكتب العلمية، بيروت، تحت إشراف الحاج/ محمد على بيضون، حفظه الله ووفقه الله لنشر التراث العربى والإسلامى.

المحققان

* * *

وصف المخطوط

لقد اعتمدنا فى إخراج هذا النص بفضل الواحد الأحد، الفرد الصمد، على ثلاث نسخ خطية، أحدها: نسخة الرباط، والثانية: نسخة الخزانة الملكية، والثالثة: نسخة تونس، حتى خرج على هذا الوجه الضعيف الحقير، أسأل الله أن ينتفع به طلاب العلم، والملوك، والرؤساء، والوزراء، ومن شاكلهم، وأن يتقوا الله فينا، ويعملوا بما فى الكتاب والسُنة وأقوال الصحابة، ومن فهمها من أرباب المذاهب المشتهرة المعروفة.

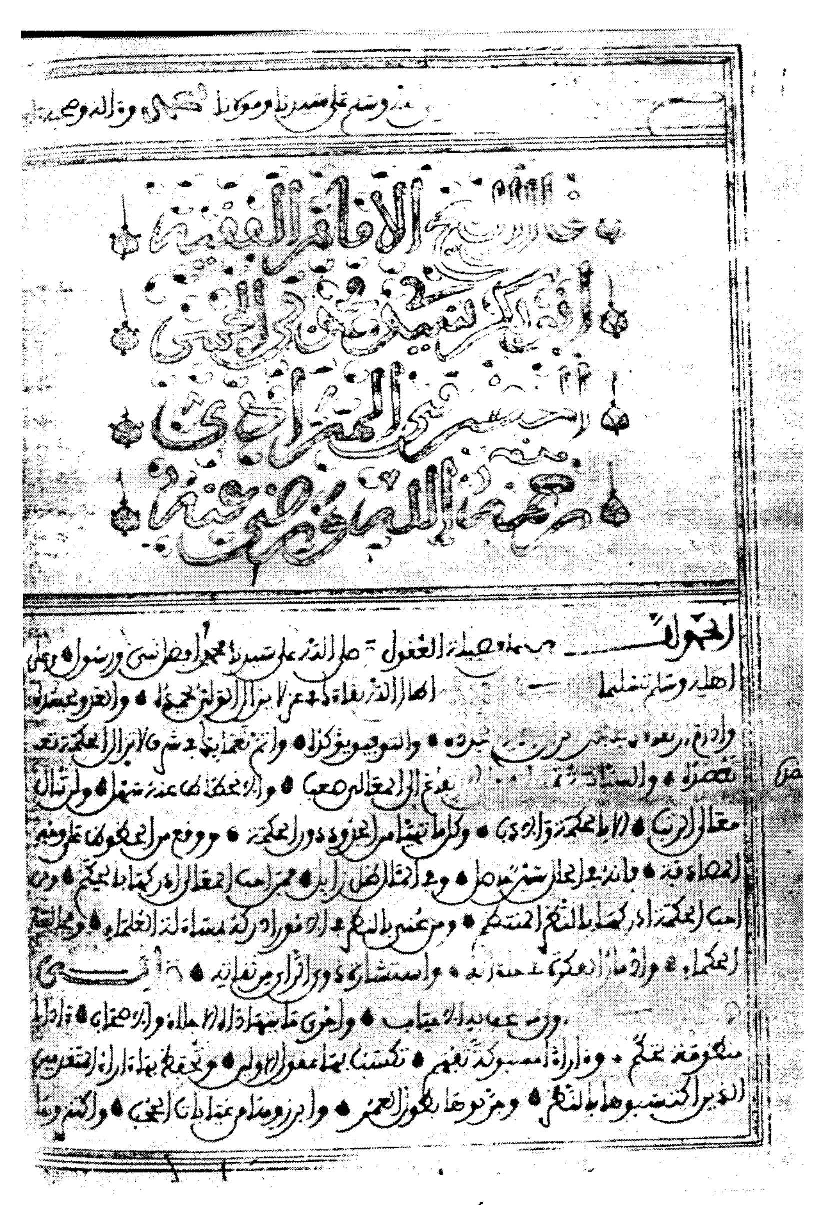
طالب العلم

محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعى

١٨ ذو القعدة ١٤٢٢هـ

* * *

صور النسخ الخطية



اللوحة الأولى من نسخة الرباط

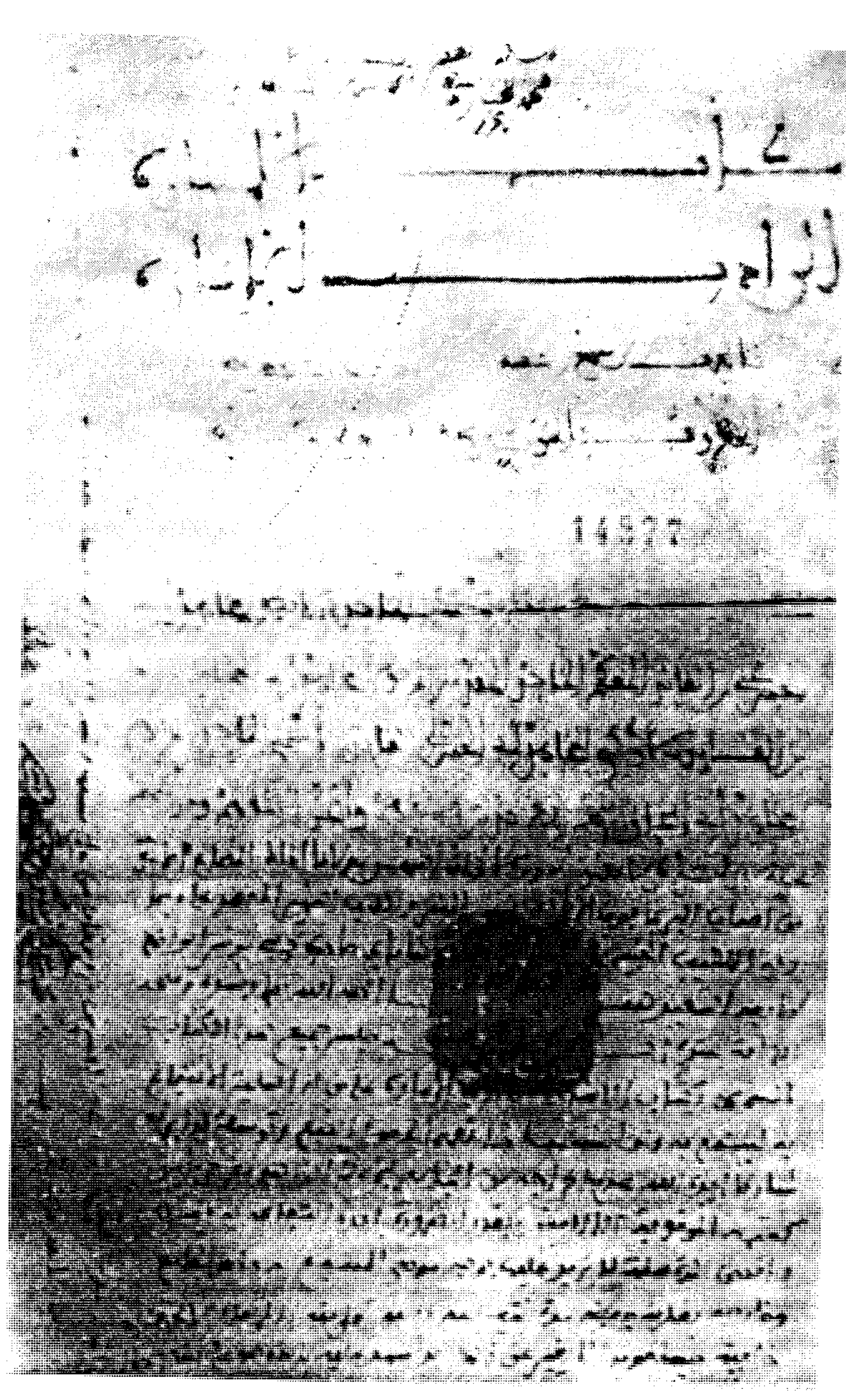
اللوحة الأخيرة من نسخة الرباط



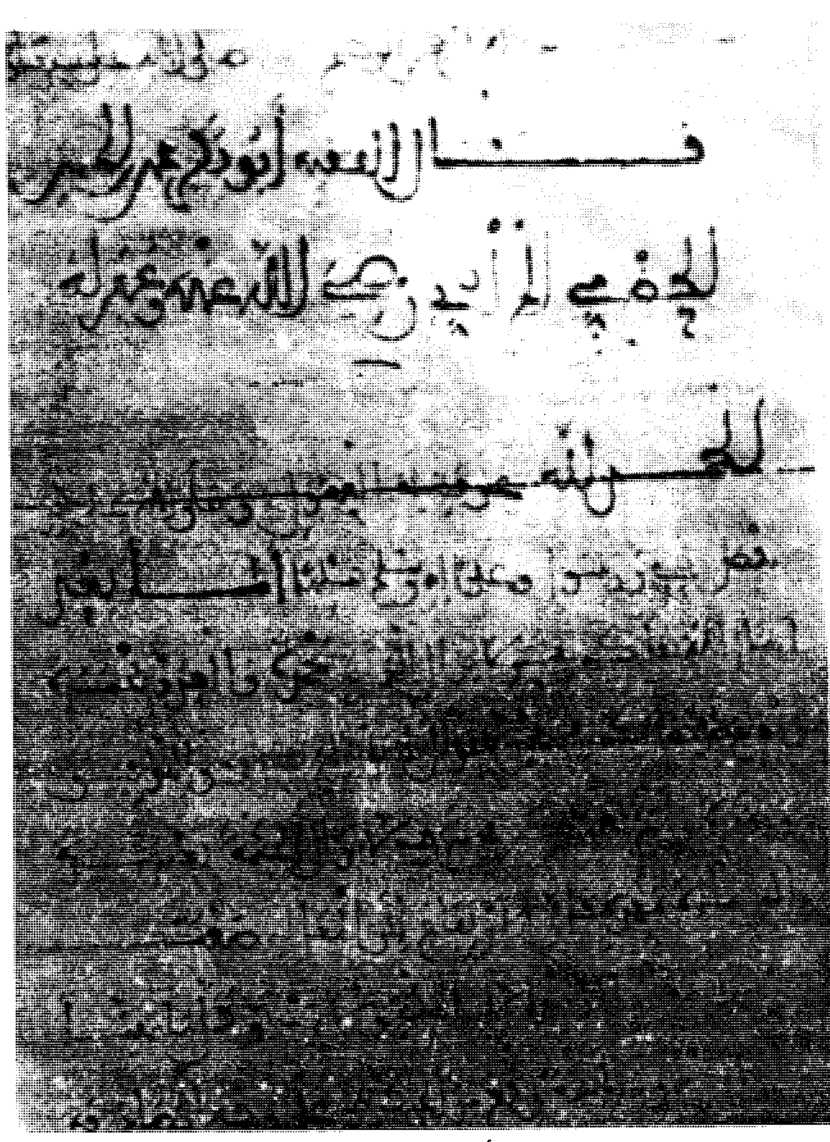
طرة نسخة الخزانة الملكية

اللوحة الأولى من نسخة الخزانة الملكية

اللوحة الأخيرة من نسخة الخزانة الملكية



طرة نسخة تونس



اللوحة الأولى من نسخة تونس



وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه آمين

قال الشيخ الإمام الفقيه أبو بكر سيدى محمد بن الحسن الحضرمى المرادى، رحمه الله ورضى عنه: الحمد لله على فضيلة العقول، وصلى الله على سيدنا محمد أفضل نبى ورسول، وعلى أهله وسلم تسليمًا، أما بعد:

أطال الله بقاءك فى عز لا يزال الولى يحمده، والعدو يحسده، وأدام ارتقاءك فى مجد لا تزال الأيام تجدده، والتوفيق يوطده، وأتم نعماءك فى شرف لا تزال الحكمة تعضده، والسياسة تعهده، فإن الارتفاع إلى المعالى صعب، والانحطاط عنها سهل، ولن تنال معالى الرتب إلا بالحكمة والأدب، وكل ما تهيأ من الحدود دون الحكمة، ووقع من الحظوظ على وجه المصادفة، فإنه فى الحال شىء حاصل، وفى المآل ظل زائل، فمن أحب المعالى أدركها بالحكمة، ومن أحب الحكمة أدركها بالنظر المنتظم، ومن عنى بالنظر فى الأمور، أدركه بمساءلة العلماء، ومجالسة الحكماء، وإدمان الفكرة فى خلواته، واستشارة ذوى الرأى من ثقاته.

وإنى وجدت أولى ما يتحف به الأحباب، وأجدى ما يتهاداه الأجلاء والأصحاب، آدابًا منظومة تحكم، وآراء مسبوكة تفهم، تكسب بها عقول الأولين، وتحفظ بها آراء المتقدمين الذين اكتسبوها بالنظر، وجربوها بطول العمر، وأبرزوها من غيابات الجب، واكتنزوها كما يكتنز الذهب، فإنهم كانوا أطول أعمارًا، وأكثر بأعمارهم للأمور اختبارًا، وأحد أذهانًا، وأشد بأذهانهم للأمور إتقانًا، ووجدناهم قد خلدوا فى الآراء والحكم الكتب الباقية، وضربوا التجارب والنظر الأمثال الشافية، فكفونا بذلك مؤونة البحث الذى لا نصل إليه إلا بشق الأنفس، ولا نبلغه إلا بسهر الأعين.

وقد وَلَّدَ المتأخرون بعدهم حكما استخرجوها من كتبهم، وَرُتَبًا بنوها على رتبهم، فكملت لهم الفائدة، واستوسقت لفهمائهم الحكمة.

وقد ذكرت لك فى هذا الكتاب من ذلك أبوابًا، إذا أحطت بحفظها علمًا، وانعطفت تحفظها فهمًا، كانت لك ميزانًا تزن بها آدابك، وميدانًا تروض فيه أخلاقك، وأصلاً تسند إليه قياسك، وجبلاً توطد عليه أساسك.

وأولى الأسنان بحفظ الحكمة، وأجراها بنفع الموعظة، سن الحداثة، فإنى وجدت فيه فوائد أربعًا، ليست فى غيره من الأسنان: أولها: سرعة الحفظ، والثانية: ذكاء الفهم، والثالثة: فقد التجارب، والرابعة: تقديم الحكمة قبل سوء العوائد، فإن الكهول والأشياخ ربما علموا بتجاربهم ما لا يعلمه الأحداث، فكان الأحداث أحوج منهم إلى حفظ الحكمة، وتقديم الموعظة، ولأن الأحداث أطوع منهم لسلطان الشهوة الذى هو فى غالب الأمر متضمن لسوء العادة، ونزع العادة السيئة شديد، وعلاجها بعد استحكامها بعيد.

فلذلك نظمت لك فى هذا الكتاب دررًا من آداب الإمارة والوزارة، وفصلت لك ثناياه فصولاً من أنواع الإدارة والاستشارة، واصفة لآداب المتقدمين، كاشفة لأمر الدنيا والدين، فإذا استقبلتها بذهنك، وتأملت غوامضها بفكرك، واستعملت معانيها بجوارحك، مع ما رزقك الله من نجابة، ووهب لك من رصانة، قل مثالك، وجلت أحوالك، وشرفت آدابك، وكرم أصحابك، وامتنع جنابك، وحوى الفضائل كلها بابك، وبالله تدرك المطالب، وإليه تبذل الرغائب.

وقد قسمت أبواب هذا الكتاب على ما فيه من الآداب، فكانت ثلاثين بابًا:

أولها: باب فى الحض على القراءة والتعلم.

والثانى: باب فى آداب النظر والتفهم.

والثالث: باب فى الاستشارة وصفة المستشار.

والرابع: باب فى المعيشة وسياسة الأجسام.

والخامس: باب فى الفرار من سوء العادة، ورياضة النفس قبل الحاجة.

والسادس: باب فى الخلطاء والأصحاب.

والسابع: باب فى صفة الكتاب والأعوان والحجاب.

والثامن: باب فى الظهور والحجبة.

والتاسع: باب فى هيئة الجلوس والركوب وسائر التصرفات.

والعاشر: باب فى سياسة الحاشية والجند.

والحادى عشر: باب فى تقسيمهم على الأعمال.

والثانى عشر: باب فى معاشرة أصحاب السلطان بعضهم لبعض.

والثالث عشر: باب فى أقسام السلاطين وكيفية سيرهم.

والرابع عشر: باب فى أقسام الناس وما تقابل به طبقاهم.

والخامس عشر: باب فى الأدلة التى يستدل بها على أهل الفضل والنقيصة والتوسط.

والسادس عشر: باب فى الكلام والصمت.

والسابع عشر: باب فى الحلم والصبر.

والثامن عشر: باب فى ترك الحلم إذا أدى إلى الفساد.

والتاسع عشر: باب فى الغضب والرضى.

والموفى عشرين: باب فى التجبر والخضوع.

والحادى والعشرون: باب فى الحزم والتفريط.

والثانى والعشرون: باب فى الكتمان والإذاعة.

والثالث والعشرون: باب فى العجلة والتأنى والتوسط.

والرابع والعشرون: باب فى الإنفاق وصفة الجود والإمساك.

والخامس والعشرون: باب فى الشجاعة والجبن.

والسادس والعشرون: باب فى الحروب والمسالمة.

والسابع والعشرون: باب فى التحبب والمواصلة.

والثامن والعشرون: باب فى الحيلة والمكر والخديعة.

والتاسع والعشرون: باب فى التداهى والتغافل.

والموافى ثلاثين: جامع لفنون الحكم والآداب، غير منتظمة فى الأبواب.

فهذه ثلاثون بابًا، إذا تحفظ الفَطِنُ منها كل يوم بابًا، لم يأت عليه الشهر إلا وقد حفظ صدرًا كبيرًا من الحكمة، وتعلم أصلاً عظيمًا من السياسة، وقد انتخبت فى هذا الكتاب من فوائد الحكم وجواهر الكلم، فيجب على دارسه إمعان التأمل له، فبذلك يصل إلى الانتفاع به، فإن كل حرف منه متضمن لحكمة، ومنطو على فائدة، والله سبحانه يوفقك إلى حسن العناية به، ويأجرنى على جميل النية بمنه وفضله.

* * *

الباب الأول

فى الحض على القراءة والتعلم

أقول: إن الأحياء الناطقين، والحكماء المتقدمين، فرقوا بين الجماد والحيوان بالحياة، وفرقوا بين البهيمة والإنسان بالعقل، وفرقوا بين الشريف والخسيس بالعلم، فالعقل الطبيعى أصل للعقل الكسبى الذى يستفاد بالتعلم، ويعلم بالدرس والتأمل، وهو فائدة الحياة، وروح العيش، وبه يفرق بين اليقظة والنوم، وبه تظهر الحقائق والطرق، وبه تبصر الأشياء كما تبصر بالسُّرج، وبه تعرف المنافع من المضار، وبه يفرق بين الإنسان والحمار، وهو الذى يمسك أَعِنَّةَ النفوس عن الأهواء، وبه تقتات الأجسام كما تقتات بالغذاء، وهو الحاكم على القوَّة، والمصرف لها بحسب المنفعة، ومن لا علم له ضعيف، وإن كان قويًا، وفقير وإن كان غنيًا، ونفسه زاهقة بأدنى حيلة، وماله ذاهب بأقل حادثة، والذى تفعله القوة بالتعب يفعله العلم بالراحة، والذى تهيئه القوة بالمعيشة، تهيئه الحكمة بالهُوينى.

فقد بان بذلك أن العلم أصل، وأن القوة فرع، وأن العلم روح، وأن القوة جسم، وأن الأسد الذى يتناهى فى الجرأة، يصيده الطفل بأدنى حيلة، وأن البعير العظيم الجثة، يسخره الشيخ الضعيف المُنَّة، وذلك دليل على فضل المعرفة، فيا طالب العلم بالدراسة، إن كنت للعلم درست، والانتفاع به أردت، فأقرن درسك بالفطنة، وتعاهد محفوظك بالفكرة، فإنك فى ما حفظته بمثابة صاحب الجوز الصحاح الذى لا يفوز بنفعه حتى يستخرجه من قشره، وكمثل الرجل الذى عنده كنز فى داره وهو لا يشتغل بحفره، ومُشَابِهٌ لصاحب السمسم الذى يمشى فى الظلمة، ولا يتشاغل بعصره، وكمثل الطبيب الذى يُحسنُ الدواء، ولا يتشاغل بكسبه، ويكسبه ولا ينظر فى شربه.

واعلم أنك إذا قست الأمور، فهمت المستور، وإذا فهمت المستور، بلغت السرور، وتجنبت المحذور، وتلك نهاية المراد، وغاية الاستعداد، إن شاء الله تعالى.

* * *

الباب الثانى

فى آداب النظر والتفهم

أقول: إن العاقل متعوب بحذره، وإن الأحمق مستريح بطمأنينته، وإن الذى يفرق به بين تعب العاقل وتعب الأحمق، أن تعب العاقل يفضى إلى راحة، وراحة الأحمق تفضى إلى تعب، فمن حُرم العقل والفطنة، سُلب ثوب العز والكرامة، وقربت أحواله كلها من الهلكة، ومن لم يستعمل فكرته فى ما عليه وله، ماتت فطنته، وطالت حسرته، وعميت بصيرته، فقدِّم النظر الصحيح قبل جميع أفعالك، واختبر بالعبرة جميع أحوالك، ولا تفعل من الأفعال ما لا منفعة فى فعله، فإن ذلك هو الفضول بعينه الذى حذرت الحكماء من مواقعته، فقالوا: من ترك ما لا يعنيه من الأمر، تهيأ له جميع الفضل، وقالوا: من فعل ما لا يعنيه، وقع فيما يتقيه، ولو لم يكن فى ذلك إلا مشقه عارية من نفع، وكلفة لا تعود بحظ، لكان ذلك كافيًا فى ذمه، وداعيًا إلى تركه، ثم إن الأفعال المستحسنة تنقسم إلى فعل تطلب به منفعة، وفعل تدفع به مضرة، والنظر فى هذه الأفعال يكون فى فصول عدة:

أولها: النظر فى الفعل والترك، أيهما أنفع فى الحال والمآل.

والثانى: النظر فى الفعل والترك لما يخشى فيهما من المضرة، ويتقى من سوء العاقبة.

والثالث: النظر فى دفع ذلك، إن كانت فى دفعه حيلة.

والرابع: النظر فيما يكون الفعل عليه من الصفة، إن كانت فيه منفعة، فإن الأفعال ربما نفعت على بعض الوجوه، وضرت على بعضها.

والخامس: النظر فى الفعل إذا كانت فيه مضرة ومنفعة، أيهما أولى بالإيثار والتقدمة، فعله لمنفعته، أو تركه لمضرته، وهذا الباب هو النظر فى أضر الضررين وأنفع النفعين من دقائق الحكمة، ومحتاج إلى فضل التأمل والمعرفة، فإذا تفقدت هذه الوجوه من أفعالك، وتدبرتها بفطنتك فى جميع أحوالك، فزت بالحكمة، وأخذت بنصيب وافر من السياسة، فأيقظ فهمك إليها، فإن صحة الفهم، أوعظ واعظ يدعو النفس إلى الحذر من الغلط، واعلم أنك إذا علمت فيما سلف من أمرك مواقع الخطأ، فقد استقبلت اليقين

بوجوه الآراء، فإن التجارب والدربة لهما حظ من العلم والإجادة، فدرب نفسك على تدبير الأمور قبل نزولها بك، كما تدبرها باللعب قبل دخول الحرب مع أترابك، وإذا نزلت بك الأمور فى أوقات الضيقة، فلا تشتغل عنها بالحزن على المصيبة، وليكن شغلك بإعمال الحيلة التى تلتمس بها الخلاص من وحلتك، والانتهاز لفرصتك، فإن فعلت ذلك ذهب خاطرك شعاعًا، وألفاك عدوك مضاعًا.

* * *

الباب الثالث

فى الاستشارة وصفة المستشار

أقول: إن الاستشارة تفيد المستشير عقلاً يزيده إلى عقله، وهداية يجمعها مع هدايته، كما يزيد النهر ماء بما يمده من أنهاره، وكما تزيده النار العظيمة بما يصب عليها من الدهن الكثير(١). والحكماء تقول: خاطر من استغنى برأيه(٢).

ومن كلام على، رضى الله عنه: من أعجب برأيه ضل، ومن استغنى بفعله زل، والذى يستشير ولا يقبل من نُصحائه، كالعليل الذى يترك ما يبعث له الطبيب، ويعمل ما يشتهى بغير علم.

والمشورة يحتاج إليها لأوجه أربعة:

أحدها: تقصير المستشير عن معرفة التدبير.

والثانى: خوفه من الغلط فى التقدير، وإن لم يكن من أهل التقصير.

والثالث: أن الفطن النَّحرير ربما ستر عليه الحب والبغضة وجوه الرأى والروية، فإنهما يعدلان بالفكر عن الإصابة، فيحتاج إلى مشورة من رأيه، صاف من كدر الهوى، مبصر لوجوه الآراء.

والرابع: أن المستشار ربما كان فى الفعل شريكًا، أو عليه معينًا، فيكون مشورته داعية إلى استلافه، وإغراءاً له فى معونته، إن كان الفعل إنما يفعل برأيه، وقد قيل: ربما أخطأ العاقل رشده، وأصاب الأعمى قصده، وإن الله تعالى جعل لكل ذى عقل

---

(١) انظر: الأدب الصغير لابن المقفع (ص١٤)، عيون الأخبار لابن قتيبة (١/٢٧).

(٢) انظر: الشهب اللامعة لابن رضوان (١/٨٧).

نتيـــجة، وعند كل إنسان معرفة، وأولى ما التمس العاقل فيه الرأى مواضع الالتباس، فإنه إذا فعل على الشك، كان كالماضى على غير طريق، والجارى إلى غير غاية، فإنه كلما زاد فى جريه جهدًا، زاد على الحقيقة بعدًا، وكدودة القز التى كلما زادت على نفسها نسجًا، زادت من الهلاك قربًا.

فيا أيها المستحى من المشورة، إن الرأى لم ترده للافتخار، وإنما أردته لإدراك الصواب، ولو أنك للفخر أردته، لكان افتخارك بالاستشارة أمدح من افتخارك بترك النصيحة، فإن الحكماء قد قالوا: الجاهل لا يقبل من نُصَحَائِه، والناقص لا يشعر بنقصه. واعلم أن المستشار فى الأمور يجب امتحانه بالاختبار، حتى يخلص من أوصاف تَخِلٌ بالنصيحة، ولا تؤدى مستشيره إلى النقيصة.

فمن ذلك أن يكون عاقلاً فطنًا، فإن الأحمق الجاهل إذا استشرته، زادك فى لبسك، وأدخل عليك التخليط فى رأيك، و لم يقم بحقيق نصحك[١].

ومنه أن يكون محبًا صافيًا، فإنه إذا كان كذلك، أمنت من غشه، واجتهد لك فى نصحه، ونظر فى أمرك بجميع أجزاء قلبه[٢]، ولا يستشار العدو إلا فى موضع واحد، وهو أن يكون صلاح الرأى بصلاحه، وفساده بفساده، كعدوين يكونان فى سفينة مثلاً، يستشير أحدهما الثانى فى صلاحها ونجاتها من هلاكها، واحترز أن يكون فى عقبى إرشاده شيء يخصك بفساده[٣].

ومنها أن يكون كاتمًا لسرك، وغير مُطلعٍ لأحد من إخوانه على شيء من أمرك، فإنه إذا أطلع على رأيك بعض أصدقائه أو غيرهم من جلسائه، أخبر كل صديق صديقه، وفاه كل جليس إلى جليسه، حتى يصل أمرك إلى عدوك، ويتصل رأيه بأهل بغضك، فيبغضونك الغوائل، وينصبون لك الحبائل، فيفسد أمرك قبل إحكامه، وينتقص حكمك قبل إبرامه، وربما كانت الاستشارة فى سد ثلمة من ثلمك، أو فى التخلص من غرة من أمرك، وعدوك عنها غافل، وحاسدك بسواها متشاغل، فلا يزيدك بنمِّه إلا تنبيه عدوك على ثلمتك، وإغراء حسادك على انتهاز فرصتك[٤]، فيكون فى ذلك عطب ومهلـــكة،

---

(١) انظر: بدائع السلك فى طبائع الملك لابن الأزرق (٣٠٩/١).

(٢) انظر: بدائع السلك فى طبائع الملك لابن الأزرق (٣٠٩/١).

(٣) انظر: بدائع السلك فى طبائع الملك لابن الأزرق (٣١٠/١).

(٤) انظر: بدائع السلك فى طبائع الملك لابن الأزرق (٣١٢/١)، الشهب اللامعة لابن رضوان (ص٩٢).

أو خسارة ومنقصة، فتجنب من هذه سبيله باستشارتك، وحصن عنه أسرارك بجهدك وطاقتك.

ومنها أن يكون المستشار لا يؤدى نصحك إلى ضره، ولا إلى ضر أحد من إخوانه، فإنه إن أدى نصحك إلى ضره، وإلى نقصان شيء من أمره، لم يفضلك على نفسه، و لم يخصك بنصحه، وكذلك إذا كان ذلك مضرًا بإخوانه، فإنك لا تدرى لعل مودة صاحبه آثر عنده من مودتك، ونصيحته بغشك أولى فى رأيه من نصيحتك[(١)].

ومنها أن لا يكون المستشار حاسدًا، فإن الحسد يبعث أهل المحبة على البغضة، وأهل الولاية على البعد والفرقة، فحينئذ يعتمد ضرك بجميع الوجوه التى تتقيها على نفسك، ويكون داعيًا إلى فساد رأيك[(٢)].

واعلم أن الحسد أمر مركب فى الطبيعة، وغريزة موجودة فى أصل الخليقة، فلا يقدر على التحرز منه بالمصانعة، ولا يطمأن لمن عرف فيه بكثرة المصادقة، فلذلك جعلته قسمًا زائدًا على المحبة، واشترطت التوقى منه فى أصل الاستشارة.

ويا أيها المستشار، إنك مشارك فى عقلك ومروءتك، وموثوق بدينك وأمانتك، فإن خنت فى رأيك، وقصرت من جهدك، فقد انتفيت بقدرك من جميل خصالك، ولا خير فى العيش بعد ذلك.

واعلم أنك إذا أشرت بالنصيحة، قبلها منك العدو المبغض، وإذا تكلمت بالهوى، رده عليك الصديق المخلص، واتبعك العدو مدحًا على صوابك، وقطعك الصديق لومًا، و لم يعبأ بك.

فاحرص على شكر عدوك وصديقك باجتهاد فى النصيحة وتحقيقك، وإذا أشرت برأى من الصواب، فكان النجاح عقيبه، فلا تكثرن من الافتخار برأيك، والاحتجاج على فساد رأى غيرك، فإن ذلك من سيئ الآداب، وتقريع الأصحاب، ومذموم الإعجاب، واقتصر فى ذلك على الصمت والتوقر، والشكر لأصحابك بالتخشع أو بالتلطف، فلا بد لهم أن يحوجهم الإنصاف إلى شكرك، أو يقودهم شاهد الحال إلى

---

(١) انظر: بدائع السلك فى طبائع الملك لابن الأزرق (٣١٢/١).

(٢) انظر: بدائع السلك فى طبائع الملك لابن الأزرق (٣١٢/١)، الشهب اللامعة لابن رضوان (ص٩٢).

الاعتراف بحسن رأيك، فتكون محببًا لأصحابك، ممدوحًا بما أشرت لهم من صوابك.

و اعلم أيها المشير له، ليس عليك القبول ضربة لازم، وإن الترك لرأيك ليس فى فضلك قادحًا، فلا تقابل التنكيب عن رأيك بالإنكار والاحتجاج، وكثرة المراء واللجاج، والغضب الظاهر، والتعرض بأفعال المكابر، فإن هذا ليس من أخلاق الأشراف، ولا جار فى حلبة الإنصاف.

وإذا كانت آراء الوالى مخالفة لرأيك، فلا تزين له المحال من آرائه، فإن ذلك غاية فى غشه، ونهاية فى خديعته، ولا تجاهده على الرجوع إلى رأيك بكرهه، فإن هذه رياضة صعبة، وطريقة وعرة، تؤذنه ببغضك، وتدعوه إلى إطراحك، فتكون بذلك زائدًا فى غلطه، مؤذيًا لنفسك فى إطراحه وجفوته، ولكن نبهه على الصواب من رأيه، واتركه حتى يظهر على غلطه، فإن ذلك مما يحمله على اتباعك، ويزيده معرفة بقدرك، وإن قدرت على أن ينتحل أصحابك صواب رأيك فافعل، فإن ذلك أجمل لك، فأما أن تنتحل أنت صواب رأيهم فافعل، فلا خير فى ذلك، فإنه غاية فى سوء الأدب، وداعية إلى الذم، مع ما فيه من الكذب، وإن أشار عليك أحد برأى أفضى منه إلى الغلط، وزل به عن الصواب، فلا تأخذن فى تأنيبه وتوبيخه، فإن الآراء ربما خفيت وجوهها، وغابت أسبابها، وليس كل الرأى مقطوعًا على صوابه، بل الآراء فيها ما هو مبنى على غالب الظن، ومدرك صوابه بالوهم، فإذا لمته على غلطه، مع تصحيح قصده، أدبته بسوء أدبك، وجازيته بالقبيح على مجاملتك، وقطعت غيره من النصاح عن نصحك، فعلى هذه الأمور فَقِسْ تُصِب فى الاستشارة إن شاء الله تعالى[1].

* * *

الباب الرابع

فى المعيشة وسياسة الأجسام

أول ما أوصيك به فى هذا الباب، أن تأخذ نفسك بالاعتدال فى جميع الأحوال، فى مطعمك، ومشربك، وملبسك، ومنكحك، ونومك، ويقظتك، وتعبك، وراحتك.

واعلم أن بطنك لا يسع جميع الأطعمة، فاختر له أفضلها، وفضل الطعام من عدة أوجه: أولها: قرب وجوده، والثانى: تمام نفعه، والثالث: قلة ضرره، والرابع: لذاذة

(١) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص١٢٣).

طعمه، والخامس: ذكاء ريحه، والسادس: إحكام صنعته. فإن لم تجتمع هذه الأمور فى طعامك، فاعمد إلى أقرب الأطعمة من نفعك، وأشبهها بحالك.

واعلم أن ما أخللت به من هذه الأوصاف التى وصفتها لك مضر بك فى نفسك، ومزر عليك عند مواكلك، وإن مطاعم الرجال يستدل بها على عقولها، ويستشهد بها على هممها ومروءها، فإنه لا يحكم أراءه من ليس يحكم غذاءه.

واعمد فى لباسك على التوسط من لباس أجناسكم، فإنه إن كانت حالك فوقه، كنت به متواضعًا، وإن كانت حالك دونه، كنت به متجملاً، وكنت خليقًا بالدوام عليه فى حالتى يسرك وعسرك، وحريًا بالوجود له فى يومى غناك وفقرك، وانظر فى لباسك إلى إحكام صنعته، واعتدال قده، ونظافة لونه، وتعمد هذه الأمور ترسلاً، ولا تعمدها تصنعًا، فإنها مع الترسل أجمل منها مع التصنع.

واقصد فى منكحك إلى ثلاثة أوصاف، إن أخللت بوصف منها، خسرت صفقتك، وعظمت وحلتك، وخشن ذكرك، وهجن ولدك، أولها: طيب الأصل، والثانى: حسن الخلق، والثالث: كمال الدين.

فما كان بعد ذلك من الجمال واليسار، وكثرة العشيرة والأنصار، فهو ربح، وإن عدمته لم تخل بالأصل، ولا تحمل نفسك من الباءة ما يثقل على جسمك، فإنه داء مهلك، ولا تأخذ المرأة، وإن حسنت، بمجامع قلبك، تملكها قياد أمرك، ولا تشعرها بجميع حبك، فتستولى على حالك، ولا بجميع بغضك، فتبغيك المهالك.

واحرص على أن تخفى قدر مالك على بنيك وجندك وعمالك، فإنه إن كان قليلاً حقروك، وإن كان كثيرًا، حقروا إنفاقك عليهم منه، وامتدت أيديهم منك إلى فوق ما تريد.

وخذ من نومك ما يصلح به جسمك، ويجود به فهمك، ولا تكثر منه إكثارًا يموت به قلبك، ويفوت به شغلك، واجعل أكثر أحوالك فى اليقظة صمتًا، وأكثر صمتك فى الأمور عبرة، فإن فى كثرة صمتك راحة لقلبك وإجمامًا لفكرك.

واجعل أكثر كلامك جدًا، ومزاحك كله مستطرفًا صدقًا، وأقلل المزاح بجهدك، واجعله فى كلامك كالملح فى طعامك، واستعن على طلب المعيشة بسعة خلقك، واستعن على سعة خلقك بالسلو عما قصر عنه وجدك، وارض عن الله عز وجل فى

جميع ذلك، تكن أطيب الناس نفسًا، وأكثرهم عزًا.

وليكن دهنك غبًا، وكحلك ليلاً، ولا عيب عليك فى تعيشك وتلذذك، إذا نظرت فى الجسيم من أمرك، وفوضت إلى الكفاءة ما بقى من شغلك، وحبب إلى نفسك العلم حتى تألفه، فيكون فيه لهوك وراحك ولذتك وسلوتك.

واعلم أن من العلوم علومًا للمنافع، وعلومًا لتزكية العقول ونشاطها، ولكل علم منها وقته من الزمان، ومكانه من الخواطر والأذهان[١].

واعلم أن الملوك العلماء بقيت من العلم أذكارهم، وأن الملوك الجهال ماتت معهم أخبارهم، وليس للسلطان أن يكون حسودًا، فإن الحسد من خلق اللئام، وآلات السفال، وهو التحكم على الله عز وجل فى قسمة فضله، والاعتراض عليه فى إمضاء حكمه، وفيه عذاب الحاسد فى وقت ينعم فيه المحسود، فليكن مما يصرف به ذلك أن يعلم الحاسد أن جليسه وقرينه إذا كان أقوى منه دفع عنه بقوته، وإذا كان أعلم منه أفاده من علمه، وإذا كان أملأ منه أفاده من ماله، وأن جميع ذلك لا يزيله بحسده، فإن زواله عن صاحب غير عائد بنفعه، إذ لم ينتقل إلى ملكه[٢].

ومن أخلاق المروءة خفض الصوت، ولين الكلمة، وسكون الريح، إذا لم يخالط ذلك الكبر، ولم يمازجه العجب، فإن مازجه العجب، فهو من دواعى المقت، وإياك أن تكون منقبضًا عن الناس كل الانقباض، فيكسبك ذلك البغض، ويكسوك العداوة، ولا تكن منبسطًا كل الانبساط، فيكسبك ذلك أصدقاء السوء الذين إن قطعتهم شانك اسم القطيعة، وإن وصلتهم كملت لديك المضرة.

والحزم أن تلبس الانقباض للعامة، والانبساط للخاصة، وتحمل الجميع على الخبرة، ولا تتركن مباشرة الصغير من أمرك، فيعود شأنك صغيرًا، ولا تتركن مباشرة الكبير، فيكون الكبير ضائعًا، ويعود قدرك صغيرًا[٣].

واستكف الكفاة فيما لا تباشره بنفسك من صغير أمرك، واعلم أن كثرة الأشغال مشغلة عن اللذات، وقاطعة عن جميع الراحات، وأن الذى تشغله من رأيك فى غير المهم

---

(١) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص١٥٩).

(٢) انظر: الأدب الكبير لابن القفع (ص١٦٠).

(٣) انظر: الأدب الكبير لابن القفع (ص١٠٩).

يزرى بك فى المهم، وما تصرفه من مالك فى الباطل، تفقده فى الحق الواجب، وما تبذله من كرامتك لأهل التقصير، يزرى بك عند أهل الفضل، فاردد الأشياء إلى أصولها، وابن الأمور على قواعدها، وتصرف بحكم الحقيقة لا بحكم الشهوة.

و اعلم أنك إذا اتبعت الشهوات، ساقتلك إلى أصناف الرذالات، والرذالات يقود بعضها إلى بعض، حتى يؤدى ذلك إلى اختلال الأحوال، وفساد العرض والدين والمال، والله يعيذك من هذه الخصال بمنه.

* * *

الباب الخامس
فى الفرار من سوء العادة، ورياضة النفس قبل الحاجة

قالت الحكماء: العادة طبيعة خامسة، فجعلتها كالطبائع الأربع اللازمة، وفى الحديث: «ولكل امرئ ما اعتاد».

ووجدنا العادة تسهل الأمور الصعبة، وتصعب الأمور السهلة، والعادة السوء إذا استحكمت، كالطبع الردئ فى الثوب الجيد إذا وسخ، وربما زال الطبع الردئ فى الثوب، وأعوز زوال العادة من المعتاد.

و التحرز من سوء العادة يكون بوجهين:

أحدهما: التدرب على العادة الجميلة قبل اتخاذ القبيحة من سن الحداثة، وهذه الطريقة أسهل ما تعالج به العادة القبيحة بعد اتخاذها، وذلك مختلف بقدر اختلاف الأسنان، واستحكام العوائد، فإن كانت العادة قديمة والسن كبيرة، فعلاجها مُعنى فى غالب الأمر، ومن الأمثال المحكمة فى ذلك قول من قال:

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ... ولن تلين إذا قوَّمتها الخُشب[1]

وإن كانت فى السن بقية، والعادة السوء غير مستحكمة، فهاهنا يرجى الصلاح بما يتجرعه المعالج بالانتقال عنها على التدريج، بأن يزيد فى كل وقت من أوقات العادة شيئًا قليلاً فى الإمساك عن الزيادة، حتى يقف على حد السلامة، فيأخذ نفسه حينئذ بالدوام، وإيضاح ذلك بالمثال: إن المعتاد لكثرة الأكل، يأكل فى كل يوم عشرة أرطال مثلاً، فإذا أحب الانتقال عن هذه العادة، نقص عن غذائه كل يوم درهمًا، حتى يقف على الحد الذى يقتضى صواب الرأى كونه عادة، وكذلك المعتاد للبخل ولإذاعة

---

(١) ذكره الثعالبى فى التمثيل والمحاضرة (ص١٦٤).

السر، يدرج نفسه على العطاء القليل، وبكتمان ما يحتاج إلى كتمانه من الأمور، حتى تستولى على ذلك عادته ويصير طبعه.

وهذا الذى ذكرته منبه على ما كان فى بابه، وتحفظ من سكر الشباب، وسكر المال، وسكر المنزلة، وسكر العلم، وسكر السلطان، فإن هذه الأمور تولد فى النفس عزة خارجة عن الاعتدال، وربمًا تجرئ اليد واللسان على غير الصواب، ودواء ذلك التثبت قبل القول والفعل، واعتبار الأمور بالعقل(١).

وأول ما يجب عليك، أن تدرب نفسك فى معرفة جميع عيوبك، والدربة على الزوال عنها، وإن لم تعرف جميعها، فتصفح أحوالك بالنظر، وتعقب أفعالك كلها بالتأمل، فكل ما ظهر لك منها، فاعمل فيه على ما ذكرناه، وكل ما علمته منها، فاحذر أن تعيبه على غيرك وأنت مرتكب لمثله فى نفسك، وإذا ذكرت عن أحد خليقة سوء، فإياك أن تناضل عنها مناضلة المدافع عن نفسه، أو مناضلة المستحسن لما عيب عليه من خليقته، فإن ذلك مؤذن باتهامك بمثل عيبه، وغير موجب لاستحسان ما ذم من فعله.

و مما يجب أن تأخذ نفسك به، ترك الإفراط فى المدح إذا مدحت، وفى الذم إذا ذممت، ولتكن من ذلك على حد من التوسط جميل، فإنه من كل أحوال الممدوح والمذموم قريب، وإذا كنت فى جملة من الناس، فلا تعب قبيلاً من القبائل، ولا جنسًا من الأسماء، فإنك لا تدرى لعل فى جلسائك من ذلك الاسم اسمه، أو اسم أبيه، أو قبيله، أو قبيل مناسبه، فتكون بذلك مؤذيًا لجليسك، وفاتحًا لأبواب العداوة والخصام على نفسك(٢).

وإياك والملال لحالة من أحوالك، أو لأحد من جلسائك وأصحابك، فإن الملل يفضى بفساد العقل، ويخبر عن لوم الطبع؛ لأن الملول لابد له من حالتين، إما أن يكون أولاً استحسن ما لا يجب استحسانه، وإما أن يكون ثانيًا استقبح ما لا يجب استقباحه، وكل ذلك قبيح فى العقل واختلاط فى الرأى.

واحذر أن تدخل فى أمر من الأمور حتى تعرف منتهاه، وتعرف أحواله، فإن توقفك فى الفعل من قبل أن تفعله، هو الحذر الممدوح من أهل الحكمة، وإذا دخلت فى الفعل فاضطربت ورجعت عنه بعد ابتدائك فيه، فذلك هو الحذر المذموم عند أهل العقل والمروءة(٣).

---

(١) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص١٥١، ١٥٢).

(٢) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص١٨٤).

(٣) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص١٨٥).

ومن سوء العادة أن تذم الدنيا عندما تذكر منها لجليسك أو لصاحبك، وذلك محمول منك على الحسد والضجر بما رزقه الله منها، وليس بمحمول على الموعظة، ولا تفتخر عند نفسك بالحلم حتى تكون قادرًا على الامتعاض، ولا بالزهد حتى تكون قادرًا على الدنيا، واضبط أصول دينك باعتقاد الحق، والتتره عن الكبائر، واضبط أصول دنياك بالتقدير والنظر فى العواقب[١].

وإذا أردت أن تغم عدوك، فازدد فضلاً فى نفسك، ولا تفرح بالمال والسلطان، فإنهما ظلان زائلان، ولكن تفرح إذا عظمت بالعقل والديانة والعلم والمروءة، فإن هذه الصفات لا تفارقك فى الدنيا ولا فى الآخرة[٢].

وإذا أشكل عليك الصواب فى أمر من الأمور، فاقصد إلى ما كان أبعد من هواك، فإن الصواب فى غالب الأمر يكون فى مخالفة الهوى، وقل ما يكون الهوى فى النفع، كما أنه قليل ما يكون الدواء فى الحلو.

وإذا أشكل عليك التخلق الجميل مع الإخوان والأصحاب، فاكره لهم ما تكرهه، وأحبب لهم ما تحبه لنفسك، وأوجب لهم ما تحب أن يوجبوه لك، فإنهم فى الخليقة من جنسك.

وتصور الأمور العظيمة فى نفسك من لقاء الملوك والعلماء، ومن ممارسة الحروب والأعداء، ومن الاحتجاج على الخصوم، ولقاء المحافل والجموع، والجوابات عن أنواع المحاورات والمناقضات، وغير ذلك من الأمور المهمات.

وروض نفسك عليها لو نزلت بك ما كنت صانعًا فيها، فإن ذلك مما يعين على الدربة، ويشحذ الخواطر قبل الحاجة.

واعلم أن الملوك ربما احتاجوا فى الهزائم والحوادث إلى ضروب من الخشانة وأنواع من الصنعة، فيجب على السلطان أن يحفى وينتعل، ويخشن ويترفه، ويدرب نفسه أحيانًا على الطعام الخشن، ويديه أوقاتًا على العمل الصلب، ورجليه أحيانًا على المشى، ويكون قويًا على المصارعة والمشابكة والمكاسبة، وإن استحيى من ذلك صنعه فى خلواته ومع ثقاته، حتى إذا احتاج اليه وجد نفسه فيه.

---

(١) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص١٨٥).

(٢) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص١٧٥، ١٨٦).

فهذه لمحة دالة على هذا الباب، مغنية عن الإطالة والإسهاب، إن شاء الله تعالى.

* * *

الباب السادس

فى الخلطاء والأصحاب

أقول: إن الصاحب السوء من الأشغال الشاغلة، والآفات النازلة، والأدواء القاتلة، وإنه يستحب من تخير الأصحاب، ما يستحب من تخير الطعام والشراب.

وصحبة الصاحب السوء للاختيار، كشرب السم للتجربة، وإن الصاحب السوء يغذيك من دناءة طبعه، فتتغير به طباعك، ومن لكنة لفظه، فيفسد بها كلامك، ومن فساد آدابه، فيلين بها رأيك، ويدربك على سوء الأدب، ويذيع لك مكتوم السر، ويدل بنقصه على نقصك، وبقلة دينه على قلة دينك، فإن الحكماء قد تقرر بينهم أن دين المرء على دين خليله، وأن الشكل منجذب إلى شكله.

و من الحكم فى ذلك قول الشاعر[1]:

عن المرء لا تسل وسل عن قرين   فكـــل قرين بالمقـــارن مقتـــد

ثم إنك إذا أردته للنصرة خذلك، وإن أردته للرأى غرك، وإن أطلعته على عورتك كشفك، وإن خالفته ساعة عاداك وقذفك، ثم إنه يزهد أهل الفضل فى مودتك، ويطمع الأرذال فى صحبتك.

والصاحب الفاضل إن كان عالمًا أفادك من علمه، وزينك بوقاره، وأرشدك برأيه، وحسن ذكرك بحسن ذكره، وإن كان حليمًا علمك من حلمه، وإن كان شجاعًا أمدك بنصرته، وإن كان جوادًا أفادك من بره، وهو حقيق بسد ثلمتك، وستر عورتك، وجمال مغيبك وحضرتك.

فاجتهد فى اختياره، وتثبت فى اختباره؛ لأنه لا شىء أخفى على الحواس من تخير طبقات الناس، وقد قيل: إن الناس كالسيوف، سيف بألف، وسيف بدرهم، وكلاهما مثل الآخر فى العيان، من قبل مشاهدة البرهان.

---

(١) هو عدى بن زيد العبـــادى التميمى، من شـــعراء الجاهلية. انظر: التمثيـــل والمحاضرة للثعالبى (ص٥٢)، عيون الأخبار لابن قتيبة (٧٩/٣).

ولا تجالس أصحاب الصنائع، فإنهم يرفعون بك على صنائعهم، ومع السفلة من جلسائهم ومهنتهم، ولا تجالس الخدام والعبيد، فإنهم يرتفعون بك عن مهنتهم، فيخل ذلك بخدمتهم، ومن الأمثال فى ذلك: إن الجديم لايكون نديمًا، وإن العبد لا يكون للحر قريبًا، والمغتاب، والنمام، والكذاب، ليس لهم إلا الإبعاد، والمغتاب أخفهم، والكذاب أشرهم.

وأربعة لا يصبر عليها السلطان لأحد من جلسائه: إفساد حريمه، وإخراج سره، والطعن فى دولته، والاستخفاف بحقه.

وامتحن الأصحاب بالاختبار قبل الصحبة، وإياك والطمأنينة قبل الخبرة، فإذا ظفرت يداك بالكريم، فاستدم إخاءه باللين والمودة، فإنهما قرابة مستفادة.

وابذل للصديق الصالح نفسك ومالك، ولمعارفك رفدك وصيانتك، وللعامة بشرك وتحببك.

ولتكن الغاية التى تجرى إليها مع صديقك الرضى، والغاية التى تجرى إليها مع عدوك العدل، فقد قالت الحكماء: إن العدو خصم يحاكمك إلى العدل، وإن الصديق ليس بينك وبينه قاض سوى حكمه، فبرضاه يزداد فى محبتك، ولا تطلب رضى الكافة، فإنها غاية لا تدرك، ومرام لا يبلغ(١).

وكيف يصح لك بلوغ أهوائهم، وهى على غاية الاختلاف ونهاية التباين والشتات، فالتمس رضى أهل الفضل، ولا حاجة بك إلى رضى من رضاه الجور، ومراده الظلم.

صحبة الكريم على الهوان، خير من صحبة اللئيم على الإحسان؛ لأن كل واحد منهما راجع إلى ضد ما بدأ به.

وكل من صحبته من سلطان أو إخوان أو ذى مترلة، فوطن نفسك فى صحبته على إقالة العثرة، والتغافل عن الهفوة، ولا تمل معه إلى المعاتبة، فإنها ربما أملت الصحبة، وأخبرت بتقفى الزلة، ولا تمل معه إلى الاستزادة، فإنك تصل بالاسترسال إلى فوق الإرادة، مع بقاء المروءة والعرض والدين. ولا تسترسلن مع أحد وإن صحبته إلا بالمروءة، فإن الاسترسال الكثير ربما أخرج إلى سخف المترلة، والاستخفاف بالحرمة، ولا تلتمس غلبة صاحبك عند كلامه، ولا تبتغ بالحجة إفساد مذاهبه فى الأمور على جهة

---

(١) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص١٤٩ - ١٥٠).

المغالبـــة، فإن ذلك مما يدله على انتقاصك إياه واستخفافك بحقه.

وافتقر إلى الناس بلين كلمتك، وإظهار مودتك، واستغن عنهم بنزاهة عرضك، ولا تجالس أحدًا بغير طبعه، ولا تكلمه بغير طريقته، كما يفعله من لا يعرف الآداب من الوزراء والكتاب، يجالسون الألكن بالنحو، والجاهل بالفقه، وأنت إذا فعلت ذلك التمس لكلامك المعائب، وقوبل رأيك بالتسفيه، وآذيت جليسك بالتجهيل، وأضعت علمك، وأتعبت نفسك بغير منفعة، ولا رجوع إلى فائدة، ولتكن أرفق الناس بصديق صديقك، وأجرأهم إلى إجلاله، وأثناهم عليه بجميل خلاله.

وإياك والولوع بشىء من مضرته، والتعرض إلى شىء من عرضه، فإن ذلك مؤذ لصاحبك، ومغير له عن مودتك، والجزع عند مصائب الإخوان أجمل من الصبر، والصبر عند مصائب النفس أجمل من الجزع، وإظهار الفرح عند المحزون، والحزن عند المسرور، من سوء الأدب، وإظهار التكذيب للمجالس فى حديثه، والاستخفاف برأيه، ليس من أفعال أهل الفضل.

فإن خشيت على أحد من جلسائك ضلالاً بقول الجليس، أو سكونًا إلى سوء رأيه، فالطف فى انتقاده، وتخيل على أشعاره، مع الإبقاء على أدبك، وكل من علمت نصحه، ووثقت بحبه واجتهاده، فلا تلمه على غلطه، إلا لوم تقويم وتنبيه، ولاسيما إن كان عارفًا، فزل بعد اجتهاده، ووقع فى التقصير بخلاف مراده.

وقد قالت الحكماء: الملك بمن غلط من أصحابه فاتعظ، أشد انتفاعًا منه بمن لم يغلط ولم يتعظ؛ لأن الأول كالقارح الذى أدبته العبرة، وأصلحته الندامة[1]، والثانى كالجذع المتهوك الذى هو راكب للغرة، وراكن إلى السلامة، والعرب تزعم أن العظم إذا جبر من كسر، عاد صاحبه أشد بطشًا، وأقوى يدًا.

لوم صديقك على مجالسة عدوك ليس من الإنصاف، إن كان صديقًا مخلصًا، كان غرضه حقدًا يحلله عنك، أو عورة يسترها عليك، أو عاقبة يطلع عليها لك، وإن لم يكن مخلصًا، فما قدرتك على قطعه، وما فضلك عليه، فإن كنت ذا سلطان فمنعته بسلطانك، فإنما أنت مانع لأعدائك، لا سائس لأصدقائك.

وإذا أصابت الصديق مصيبة، فقد أصابت صديقه معه؛ لأنه بين أمرين: إما أن يكون مواسيًا مشاركًا، فيحمل ثقل المصيبة، وإما أن يكون خاذلاً، فيحمل ثقل العار

---

(١) انظر: بدائع السلك فى طبائع الملك لابن الأزرق (١/٣٨١).

والفضيحة، فاحتل فى دفع مصائب إخوانك، كما تحتال فى دفع مصائب نفسك.

وأول ما يبدأ به اللئيم إذا ولى ولاية، أو نال منزلة، هدم داره، وطلاق زوجه، ومقاطعة إخوانه، وقد كان يقال: إذا تولى صديقك ولاية، فارض منه بعشر ما كنت تعرف قبلها من المودة، فإن كثيرًا من الناس ينتقلون بانتقال الأحوال، وإذا تولى صديقك ولاية، أو ارتقى منزلة، فلا ترى أنك زدته إجلالاً لمكان سلطانه، ولكن أشعره أنك إنما زدته فى إجلاله، لمكان ما زادك من إحسانه.

وهذا الباب واسع جدًا، فقس ما بقى منه على ما ذكرته لك تصب إن شاء الله تعالى.

* * *

الباب السابع

فى صفة الكتاب والأعوان والحجاب

من كلام الحكماء المتقدمين: كاتبك لسانك، وحاجبك وجهك، وعونك يدك، فاختر لنفسك وجهًا، ولسانًا، ويدًا، و أقل ما يحتاج إليه فى الكاتب أن يكون فصيح اللسان، حسن الخط، عارفًا بالأدب، كاتمًا للسر، فما أخل به من هذه الصفات، كان وصمة فى مستكتبه، وإخلالاً بكتابته.

وأقل ما يحتاج إليه كاتب الزمام، أن يكون صحيح الأمانة، عارفًا بوجوه الجباية، بصيرًا بالحساب، رفيقًا بالرعية، وأقل ما يحتاج إليه كاتب القاضى أن يكون فى غاية العدالة والنزاهة، والمعرفة بالفقه والفصاحة، وإذا كان الكاتب فصيحًا، أبان عن مراد مستكتبه، وأظهر الباطن من حجته، وكسر القوى من شبهات خصمه؛ لأن الكاتب الماهر يصور الحق فى صورة الباطل، والباطل فى صورة الحق، حتى يشكل ذلك على الحذاق، كالمصور الحاذق الذى يصور صورة، فتراها كأنها خارجة من الحائط، ويصور أخرى فتراها كأنها داخلة، وليس الأمر كذلك[١].

وإذا لم يكن هذا، كانت حجة صاحبه داحضة، وشبهة خصمه قائمة، وكان حقيقًا ألا يرغب فى وعده، ولا يخوف من وعيده، ولا يبرز من المعانى ما فى نفسه، وإن كان مذيعًا لسره، أتى معه من مأمنه.

---

(١) انظر: كليلة ودمنة لابن المقفع (ص١٠٠).

ويجب أن يكون كاتب الأمير موثوقًا بمروءته؛ لئلا يخل به فى ساعة عسرته، وأوقات شدته، كما فعل بعض الكتاب برئيسه، لم تمر عليه أدنى ضيقة، حتى هرب من خلفه، وكما قال مروان لصاحب شرطته فى حربه: احمل عليهم، قال: احمل أنت إن أحببت، قال له:والله لئن لم تحمل، لأجعلنك نكالاً، قال له: وددت والله أنك كنت على ذلك قادرًا، وهمز فرسه، وانقلب لشأنه.

ويجب أن يكون الحاجب سهل الوجه، لين العريكة، سالم الجوارح من كل آفة، عارفًا بالناس ومنازلهم وأقدارهم عند رئيسه، حتى يكون وجهه عنوانًا عن وجه محجوبه من غضب ورضى، وإبعاد وإدناء، وأن يكون بينه وبين محجوبه رسول لطيف المعنى، يشعر بحضور كل من حضر، وعلى أى صفة وصل، فإن أحب الإذن له أعلمه فاستأذن له، وإلا اعتذر عن الاستئذان على محجوبه قبل تصريحه بمنعه؛ لأن الاعتذار عن الاستئذان أنزل لقدر الممنوع، وأوسع لعذر الرئيس من التصريح بالمنع على لسان صاحب الأمر.

ولهذا كان الحاجب عند الخلفاء الماضين والملوك المتقدمين فى رتبة الوزارة، ومتجاوز القدر للتوسط فى الجلالة، وأما العون، فإنه مفتقر إلى أربع خصال: أولها: الشدة، والثانية: السياسة، والثالثة: الصدق، والرابعة: الطاعة.

وإنما احتاج إلى السياسة ليضع الإكرام والإهانة فى مواضعها على قدر من أمر فيه بها، فلا يعامل الخاصة بمعاملة العامة، ولا العامة بمعاملة الخاصة، واحتاج إلى الصدق لما يتصرف فيه من الأخبار.

ويجب على العون أن يكون فيه التوقر بحضرة رئيسه، والمبادرة إلى إنفاذ أمره، فما أخل به من هذه الصفات، فقد أخل به من أدب مخدومه.

ومن لا يحسن اختيار كتابه وحجابه وأعوانه، فأحرى ألا يحسن التصرف فى سلطانه.

* * *

الباب الثامن

فى الظهور والحجبة

يجب أن تكون الحجبة والظهور على قدر محكم، وحد معتدل، سالم من عيوب الرفق بالحجبة، وعيوب الظهور بالإكثار والخفة، فيكون الظهور فى أوقات النـــزهة عند

ترادف الصفة، وقلق النفس من كثرة الغيبة، أو عند قضاء الحاجة، والبروز للمهم من أمر الخدمة، أو عند استعلام أحوال الرعية، والتعرض لمن عسى أن يكون بلغته مظلمة.

فإن زاد ذلك، فإنه مسقط للهيبة، وناقص فى قلوب الرعية من المخافة، ومجزئ لسائر الطلاب على كثرة المسألة، وممكن للمرتصد الغرة من انتهاز الفرصة.

فأما الحجبة، فمضيعة للأشغال، ومبعدة للإخوان، ومفسدة للرعية، وقاطعة عن معرفة الأخبار الحادثة، وموقعة للمحتجب فى أبواب التهمة، وممكنة لمن يريد الخلاف عليه من الفرصة، فيجب أن يجرى منها على حد معتدل.

ويجب أن يكون للرئيس فى أوقات حجبته، من يعلمه بجميع ما يجرى فى رعيته، وبجميع ما يقدم عليه بحاجته، فإنه إذا كان كذلك، اكتفى ما فى الحجبة من المضرة، وحصل على ما فيها من الراحة.

* * *

الباب التاسع

فى هيئة الجلوس والركوب وسائر التصرفات

اجعل جلوسك للحاجة فى غاية الانقباض، والتوقر، والصمت، والتجمل، وقلة الضحك والالتفات والتمايل، وبسط الأرجل، والمشاورة، والمجاورة، والقيام، والقعود، ولا تتحول عن الحالة التى يجدونك عليها، ولتكن كل أحوالك بعيد الغور، ساكن الفور، ولا تكثر الانشراح الدال على الفرح، ولا الانقباض الدال على الحزن، ولتكن من التوسط على حال لا يدرى معها ما فى نفسك، ولا يستدل بها على شىء من أمرك.

واجعل جلوسك للخاصة أبسط منه للعامة، وأنعمهم بالتحية، وأظهر لهم المودة، وعاشرهم بلين الكلمة، وترفيع المترلة، وتحفظ معهم من السقط، وأرهم أنك مسقط للتحفظ[1].

واقسم بشرك بينهم على أقدار منازلهم، ولاسيما فى محافلهم ومجامعهم، ولا تنقص الكريم من قدره، فإن ذلك موجب لحقده، وناقص من وده، ولا ترفع اللئيم فـــوق

---

(١) انظر: بدائع السلك فى طبائع الملك لابن الأزرق (١/٣٧٨).

منزلته، فإن ذلك موجب لتمرده، ومشعر للكريم أنك جاهل بحقه.

واعلم أن المنازل الرفيعة إذا أهلت لها اللئام، صغرت عند الكرام، وحسبوا أنك لم ترفعهم إليها بالفضل، وإنما أعطيتها لهم بالمصادفة، فتهون كرامتك، ويزهد فى التوجه بالفضائل عندك، ويزدرى على عقلك ورأيك، والانقباض مع الخاصة دال على الغل، وكثرة البشاشة دالة على السخف، فكن من ذلك من على حد جميل من التوسط، وغم السفيه بالسكوت، ودار الأحمق بالرفق، وخذ الأخرق بضرب من الملق، وعامل العالم بالحجة والصواب، وليكن ضحكك تبسمًا، وجلوسك تربعًا.

وإياك وتشبيك الأصابع، وإدخالها فى الأنف، والعبث بالقلنسوة، ووضع اليد على اللحية، وتقليم الأظفار بحضرة الناس، أو بحضرة السلطان، وإذا مشيت، فلا تضرب برجليك الأرض، ولا تنظر فى عطفيك، ولا تتمايل تمايل المرأة، ولا تثب وثوب الطفل، ولا تقف على الجماعات، ولا تنتظر أحدًا إن تأخر عنك، ولا تقف عنه إن كان معك، وإذا ركبت فاهمز بعقبيك، ولا تكثر من تحرك رجليك، ولا تضرب الدابة. واقتصر من حركتها على جذب العنان وإرساله، فإن أحوجت فتوقى الرأس، وأدب على العثار، وأقلل الأدب على النفار، ولا تتقدم الناس، فتلقى من يرد عليك دون حاجب، ولا تتأخر عنهم فيؤذونك بغبارهم.

وكن على حد من التوسط، يكون فيه من خلفك أكثر ممن أمامك، وليكن بإزائك من رجالك أفهمهم، ويليهم أشدهم وأنفعهم. وإذا شكا أحد إليك فى طريقك، فإن كان أمره خفيفًا، فانصفه فى حالك، أو فعده إلى مجلسك، ولا تعرض عنه، وإن نويت إنصافه، فإن ذلك مشعر بظلمك، ومخبر عن قلة إنصافك، ومسلط من وراءك على سبك. وإذا أتيت مجلس قوم، فإذا استطعت أن تجلس دون رتبتك فافعل، فإن ذلك أرفع لقدرك.

* * *

الباب العاشر

فى سياسة الحاشية والجند

الجندى المراد للحرب، يجب أن تعتبر فيه خصلتان: إحداهما: الشدة، والثانية: المروءة؛ لأنه بالشدة يقاتل، وبالمروءة يثبت، ويشتد بها حميته، فيزيد فى شجاعته، ومائة

من كبار الجند، يتبعهم خلق كثير، ومائة من صغارهم، يهرب منهم جزء كبير، ويجب تثقيف الجند بأزمتهم وقوادهم وعرفائهم، ومن لا يخفى على الوالى والأمير شيئًا من أحوالهم، ولا يغفل عن حوائجهم وأرزاقهم، فيؤدى ذلك إلى اختلال أحوالهم، وفساد قلوبهم، ويجب على الوالى أن يعرف لكل واحد منهم حق نجدته، ومكان اختصاله، ولا يُنْسَ له محمود أفعاله، وليعلمهم بالغرض الذى يجرون إليه من خدمته، والقدر الذى يستحقون عليه من كرامته، وإن لم يعلمهم ذلك بلسانه، أعلمهم إياه بعاداته، ولا يمكن أهل البلاء منهم عنده بالتدلل عليه، ولا من الافتيات على رعيته، وليرضهم رياضة تؤذن كل واحد منهم بالوقوف عند حكمه، والمبادرة إلى امتثال أمره.

وإذا قوى السلطان جنده بإضعاف رعيته، فهو مضعف لجنده، ومتلف لملكه، وإذا أضعف جنده بقوة رعيته، فهو متلف لجنده، ومفسد لملكه، فليكن غرضه العدل فى سيرته وجبايته بين جنده ورعيته.

وإذا قبل السلطان من عماله العطاء، فقد أذن لهم فى الأخذ، وإذا قبل عليهم أقوال الشاكين والناقلين من غير الصحة، فقد عرض بهم إلى العزل.

وإذا كان السلطان جديد الدولة، فلا يغرنه استقامة جند بغير رزق، ولا نفع، وعمل بغير حزم ولا تدبير، فإن الأمر الجديد ربما تكون له هيبة فى بعض القلوب، وحلاوة فى بعضها، ثم ترجع الأمور إلى حقائقها بأدنى مكث، فينحل عقده، وينتقض إبرامه، وإذا كان السلطان إنما يصول بقوم ليس بينه وبينهم قرابة، فيحملهم على الأدب والحفيظة التى تثبت بها بينهم المودة، وإلا فهو معهم كراكب الأسد الذى يهابه الناس، وهو لما ركبه أهيب.

ويستحب للسلطان أن يكون جنده أجناسًا مفترقة، وقبائل شتى، لا يتهيأ لها الاتفاق على رأى واحد فى الخلاف، وأن يسوس جنده سياسة تخرج شيوخه وقادته عن الاتفاق والصداقة، وعن الخلاف والعداوة، فإن الأمرين جميعًا يعودان عليه بالمضرة[١].

ومما يجب أن يتجنبه إيثار أحد من الأجناد والحاشية من الكرامة بما لا يليق به لجنسه، ولا يستحقه بعمله، فإن ذلك مفسد لمن فضله، ولمن فضل عليه، أما الذى فضلته، فإنه يتيقن أن عطيتك بالهوى، فيخاف أن ينتقل هواك عنه، فهو أبدًا خائف من جهتك، مترقب لتنقلك، وأما الذى فضلت عليه، فقد أعطيته الحجة على نفسك، وأعلمته أن

---

(١) انظر: بدائع السلك فى طبائع الملك لابن الأزرق (١/١٩٨).

غيره آثر منه فى رأيك، وأقرب منه بغير استحقاق إلى قلبك، وفى ذلك أيضًا داعية إلى الاتكال على المصادقة، وترك الأعمال التى تنال بها المنزلة(١).

وينبغى أن يدرب السلطان قائد جنده على وثبات كوثبات الأسد، وخطفات كخطفات الحداة، وختلات كختلات الذئب، وروغان كروغان الثعلب، وصبر كصبر الحمار، وهجمات كهجمات الخنزير، وبكور كبكور الغراب، وحراسة كحراسة الكركى(٢).

ويجب عليه أن يدرب قاضيه على وقار كوقار الفيل، وعلو كعلو النسر، وقرب كقرب الحمام، وصيانة كصيانة الغزال، وفطنة كفطنة الفأر، واحتراس كاحتراس القرد، وجسر كجسر النمر، وعبادة كعبادة الهدهد، وبيان كبيان الببغاء.

ومن أمثال العجم أن أحزم الملوك يحتاج إلى وزير، وأشجع الناس يحتاج إلى سلاح، وأجود الخيل يحتاج إلى سوط، وأحد الشفار يحتاج إلى مسن، ومثل الوزير الفاسد مع الملك الصالح، كمثل التمساح فى الماء الصافى(٣).

* * *

الباب الحادى عشر
فى تقسيم الجند والحاشية على الأعمال

قالت الحكماء: إن السلطان مع أصحابه كالكرمة تتعلق بما التصق إليها، ولا تختار من تختصه بتعلقها، وإن السلطان لابد له أن يتصور كثيرًا من الناس بخلاف منازلهم التى هم فى الحقيقة عليها، لما يلقونه به من التصنع، ويعاملونه به من التعمل، ثم لا يلبث ذلك أن ينكشف بسرعة إن كان السلطان فهمًا، أو بعد مدة إن كان السلطان جاهلاً، كالثمرة المرة التى تطلى بالعسل، فلا تلبث أدنى لبث، حتى ينكشف عنها، وترجع إلى طبعها، ويظهر الذائق على مرارتها.

وأكثر من يرضى بالتعمل السقطة والأنذال، فأما أهل الفضل والسيادة، فإنهم

---

(١) انظر: بدائع السلك فى طبائع الملك لابن الأزرق (٢٠٠/٧).

(٢) انظر: عيون الأخبار لابن قتيبة (١١٥/١)، التمثيل والمحاضرة للثعالبى (ص١٥٤)، بدائع السلك فى طبائع الملك لابن الأزرق (ص٢٠٤).

(٣) انظر: التمثيل والمحاضرة للثعالبى (ص١٤٣).

يرغبون بأنفسهم عن هذه الخطة، بل ربما عكسوها، فأخفوا من فضائلهم، وكتموا من مناقبهم، ما لو علمه السلطان، لم يقدم غيرهم عليهم، ولا أنزل سواهم مكانهم.

وقد قالت الحكماء: إن الأصحاب ثلاثة: صاحب كالغذاء، وصاحب كالدواء، وصاحب كالداء، والذى هو كالداء يجب إبعاده والتحرز منه قبل خلطته، كما يفعل بالداء الذى هو مشبهه، والغذاء والدواء يجب استعمال كل واحد منهما فى موضعه، واعلم أن من استعمل الدواء فى موضع الغذاء أضر ذلك بجسمه، وأخبر استعماله لذلك عن فرط جهله.

فيجب على السلطان الحازم أن يتحفظ بأعماله ممن هذه صفته، ويبحث كل البحث عن أهل الفضل فيمن غاب عنه، وفيمن صحبه، وأن لا يقتصر من عامله على مجرد صحبته فقط دون البحث عن أمره.

وقد قالت الحكماء: إن الذى يصرف واحداً من أصحابه فى غير ما هو صالح له، بمنزلة من يلبس حلية رأسه رجليه، وحلية رجليه فى رأسه، فجميع لباسه غير مغن عن العضو الذى لبسه، ولا زائد على الدلالة على جهله، ولا مغن عنه أكثر من تضييع شغله، وفساد ما أهله إليه من عمله.

واعلم أن الناس تختلف أحوالهم باختلاف طبائعهم، وأنه من يصلح لأمر، ولا يصلح لغيره، كالشجاع الذى لا رأى له، يصلح للقتال بنفسه، ولا يصلح للإمارة على غيره، والشجاع المدبر ذى الرأى الحسن، والحيلة والنصيحة، يصلح للقتال بنفسه، وهو أصلح ما يكون للإمارة على غيره، وربما صلح للسرية القريبة، والمعركة الحاضرة، إذا لم يكن معه من الجود وحسن الذكر والصحبة ما يستديم به الإمارة، وكالفصيح الماهر الحسن الخط الذى يصلح للكتابة، وكالفصيح الذى لا خط له يصلح للخطابة، ولا يصلح للكتابة، ومثل هذا كثير.

فيجب على الرئيس والوالى أن يضع عماله فيما يصلحون له، وألا يولى أحدًا منهم فى غير موضعه.

وقد كانت الفلاسفة القدماء لا يستعملون أحدًا إلا فيما دل عليه مولده، فإن خفى عليهم ذلك، أدخلوه فى بيت الهياكل الذى فيه جميع الصور، فما رأى وأنس به، وجلس إليه، أدخلوه فيه، فيكون مجيدًا أبدًا.

ويجب على الوالى والأمير إذا ولى عاملاً أو قاضيًا بعد اختباره، أن يتعاهده بالنظر، ويدس عليه من يأتيه بالرشوة والزمام فى تبديله الحقيقة، فإذا رآه استدام على الامتناع من ذلك، حمد أمره وشد أزره.

ويجب أن ينظر من عامله وكاتبه إلى سيرته ومجلسه وأصحابه، فإذا رأى من ذلك عيبًا متباشعًا، استبدل به غيره، واستدل بذلك على فساد طبعه، وقلة تدبيره، وإذا رأى من الفساد ما يشتبه، أمره بإصلاحه، وأخذ على يده فى العودة إلى مثله.

ويجب على السلطان إذا كان على حد من الضعف، يمكن معه تغلب العمال عليه، ألا يطيل بقاء الحازم منهم على عمله؛ لئلا يستبد بأمره، ويخرج عن طاعته، وهذه لمحة تدلك على ما جانسها من هذا الباب.

* * *

الباب الثانى عشر
فى معاشرة أصحاب السلطان بعضهم لبعض

ليعلم أصحاب السلطان أنهم كالبنيان المرصوص الذى يشد بعضه بعضًا، وكأسنان المشط الذى لا ينفع أحدهما إلا بصاحبه، ولا يستعين على شغله إلا به، فإنهم يوم يقتل أحدهم بالبغى، قد قتلوا به جميعًا، وأنهم على حد من الخطر لا مثال له، ولا شىء يشبهه، وقد مثلهم الحكماء براكب الأسد الذى يهابه الناس، وهو لما ركبه أهيب[(١)].

وقد قالت الحكماء: إن الوزير أكثر أعداء من السلطان؛ لأن أعداء السلطان كلهم يعادونه، وأصحاب الوزير أكثرهم عداوة ومنافسة وهم حاضرون مجاهرون، فليستعن على ذلك بالصحة وثبوت الحجة، ثم ليرح قلبه منهم، كأنه لا عدو له؛ لأنه إذا خاف منهم، كان خائفًا فى أمنهم، ومصطليًا بنار أحقادهم[(٢)].

ويجب لصاحب السلطان أن يزيد فى هيبة رئيسه وإجلاله، كلما زاد الرئيس فى رفعته وإعظامه، ولا يؤنسه قربه منه، فيحمله على معصيته، أو على ترك الاحتياط لنفسه من غضبه.

وإذا قربك السلطان، فلا تكثر من الدعاء له، والثناء عليه فى كل كلمة، وعند كل حركة، فإن ذلك مما يحدث الوحشة، ويريه أنك معامل له بالملق، وقصد ما يبلغه، لا ما

(١) انظر: عيون الأخبار لابن قتيبة (١/٢١)، الأدب الكبير لابن المقفع (ص١١٣).
(٢) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص١٢٧).

ينفعه. والناس أشبه بزمانهم، وصفة الخدمة مشتقة من سجايا سلطانهم، والإبقاء على حرم السلطان كالإبقاء على ماله، والإشفاق على حاشيته وحشمه، كالإشفاق على ديناره ودرهمه[١].

ويجب على أصحاب السلطان أن يراعى بعضهم بعضًا، ويتخذ بعضهم عند بعض يدًا، وإن كان عند السلطان كبيرًا، فإنه راجع إلى أيدى أصحابه بأدنى جفوة وبأقل إعراض ومعتبة.

ويجب على أصحاب السلطان أن يتولى بعضهم بعضًا قضاء حاجة صاحبه، دون ارتفاعها إلى رئيسه، فإن ذلك أطيب لنفوسهم، وأبقى عليهم عند رئيسهم.

ويجب على الحاذق الماهر من خدمة السلطان ألا ينافس نظراءه فى الكلمة، يتقربون بها، والعمل يؤمرون به، فإنه فى ذلك بين أمرين: إما أن يكون عنده فى ذلك فضل عليهم، فيبدو ذلك ويحتاج إليه، ويلتمس منه وهو متأدب مسالم، وإما أن لا يكون عنده من هو أولى من المأخوذ عليه، وأنت مصيب بموافقتك لهم وموافقتهم لك، أكثر مما تناله المنافسة.

وإذا كان أصحابك عند السلطان معترفين بفضلك، ومسلمين لحسن رأيك، وجميل بلائك، فلا تجترين على خلافهم، ثقة منك بذلك، فإنك غير آمن أن يحملهم ذلك على خلافك ومنازعتك، ونصب الشبه على بطلان قولك، وجعل ذلك سببًا لعداوتك، فقد شاهدنا من يتعلم منا الأدب، ويسأل الفائدة، ويحضر المجالس، فإذا حضر السلطان، نازع فى أقل من كلمة، وتطلب إدخال أدنى منقصة[٢].

فاعمل فى هذا على ما قلت لك، فإنك غير واجد فى كل أمر حجة، ولكل حجة مستمعًا، وبكل حق عاملاً، ولا تطمح نفسك إذا نلت منزلة من السلطان إلى مزايلة أصحابه عنه، وإفساد مراتبهم عنده، وإن كان قولك فيهم حقًا، فإنه ربما كانت لصحبتهم ومؤانستهم فى قلبه رتبة وعنده شفاعة، وفى نفسه لذة لا يجدها لغيرهم ممن هو أفضل منهم، وقد رأينا من يخف عليه بعض أصحابه، ويثقل عليه غيره، من غير إنكار لفضله.

---

(١) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص١٣٥).

(٢) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص١٣٤، ١٣٥).

ولا تدعونك نفسك إلى الدخول بين السلطان وبين أقاربه، كنسبائه، وأبنائه، وإن ارتفع شأنك، وعظم عنده مكانك، إلا بالإصلاح، وما ترجو منه الصلاح، فإن الذى بينه وبينهم أقرب مما بينه وبينك، فإنهم راجعون إليه بعد انصرام تلك الجفوة، ووحشة ما أوقعت بينهم فى وقت الوحشة، فاعلم ذلك.

وإذا رأيت من بين السلطان هوى يخالف رأيك، وشيئًا ينكره طبعك، فلا تشكونه إلى أصحابه وأهل خدمته، فإنهم لا يرجعون بقولك إلى خلافه، ولا تزيد نفسك على أن تدلهم على مرادك، وتغريهم باتباعه، وتجعل لهم أو لمن رضى منهم إلى القول فيك طريقًا، وإلى إسقاط منزلتك عنده سبيلاً(١).

وإذا غضب السلطان على أحد من رجاله، فلا تظهر الرضى عنه فى وجهه، ولا تقيم له عذرًا، ولا تنم له سرًا، ولا يجمعك وإياه مجلس، فإذا تقضى نقص غضب السلطان عليه، ورجوت حيلة فى الرضى عنه، فانظر فى عذره، والطف فى إصلاح أمره، ولا تغضبن من شتم السلطان، فإنه فى كثير من الأحيان غير دال على المنقصة، ولا مسقط للحرمة، مع استدامة الخدمة، وإنما يبسط لسانه ريح العزة، ويحمله على ذلك فرط النخوة، وأنت على رد قوله بالتلطف، أقدر منك عليه بالتجهم(٢).

ولا تحضرن عند الوالى كلامًا لا تُعْنَى به، ولا تُجب عمًّا لا تسأل عنه، فإن الذى فى ذلك من الدرك أكثر مما فيه من المنفعة، فهذه نكت دالة على ما وراءها من هذا الباب إن شاء الله تعالى(٣).

* * *

الباب الثالث عشر

فى أقسام السلاطين وكيفية سيرهم

قالت الحكماء: إن السلاطين ثلاثة: سلطان عدل وأمانة، وسلطان جور وسياسة، وسلطان تخليط وإضاعة.

فسلطان العدل والأمانة له فضائل أربعة: الأجر، والثناء، والنصر، والبقاء، ومن

---

(١) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص١٣٨).

(٢) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص١٢٨، ١٢٩).

(٣) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص١٢٨).

الأمثال فى ذلك: إذا نطق لسان العدل فى دار الإمارة، فليبشر ساكنها بالعز والعمارة. ومن كلام أرسطوطاليس: العالم بستان، سياجه الدولة، والدولة سلطان تحميه السنة، والسنة سياسة يسوسها الملك، والملك راع يعضده الجيش، والجيش أعوان يكفلهم المال، والمال رزق تجمعه الرعية، والرعية عبيد يجمعهم العدل، والعدل مألوف، وبه صلاح العالم(١). وقد قالوا: العدل يزيد السلطان فى علوه، وينصره على عدوه، والعدل أنصار من الرجال، ودرة عمر، رضى الله عنه، كانت أهيب من سيف الحجاج. فهذا القسم من السلاطين إذا بذل لجنده ورعيته ما عرفوه عدلاً، رضى به جميعهم، وإن سخط بعضهم لم يلتفت إلى سخطه، إذا كانت العامة على خلاف مذهبه.

وأما سلطان الجور والسياسة، فإنه يحتاج إلى فنون من التدبير يستعطف بها القلوب، وتزين بها الأبصار، ويجب أن تكون سياسته على قوانين مألوفة، ولا يكثر من تغييرها، فإن الظلم المألوف تصبر عليه النفوس أكثر من صبرها على الظلم المتغير، ومع ذلك فلا يسلم من حقد، ولا يؤثر ذلك فى دنياه، إذا عمل بالحزم.

وأما سلطان التخليط والإضاعة، فإنما هو لذة الساعة، ودمار الدهر، وفساد الدين والعرض، وخسارة الدنيا والآخرة، واستعجال الفقر والذلة، وربما صحب ذلك تلف المهجة.

وإذا تقلدت شيئًا من أمر السلطان، فكن فيه أحد رجلين، إما رجلاً محافظًا عليه، ناظرًا فى دوامه، سائسًا له بالحزم، وإما رجلاً كارهًا له، مكرهًا عليه، تابعًا فيه لآراء السلاطين، فإذا كنت محافظًا، فإياك أن يظهر لك التدبير شيئًا من العجز والهوينى، وترك النظر فى إصلاح أمرك وتدبير ولايتك.

واعلم أنه قد يتصور العجز أحيانًا فى صورة التوكل، فيظن العاجز أنه متوكل على الله عز وجل بعجزه وبتركه النظر فى أمره، وهذه خدعة من السلطان، مخالفة للعقل والشريعة؛ لأن الرسل، عليهم السلام، قد حزموا وأمروا بالحزم.

وإذا كنت كارهًا فى ولايتك، وظهر ذلك إلى موليك، فاعمل فيها بما يصلح دينك وعرضك، وبما تأمن به على نفسك فى وقت عزلتك.

واعلم أن هذين القسمين قد ينتقل أحدهما إلى الآخر، وذلك أنه قد يبتدئ الوالى الولاية راغبًا فيها، فلا يزال يفتق على نفسه الفتوق، ويجلب إليها بتدبيره عظائم الأمور،

---

(١) انظر: السياسة لأرسطو (ص١٢٧).

حتى يعود كارهًا فى ولايته، وطالبًا للخلاص من عظيم وحلته، وقد يبتدئ الوالى ولايته كارهًا، فلا يزال يفعل الأفعال التى يأمن على نفسه معها فى حين عزلته، حتى يعود راغبًا فى ولايته، فيجب أن تكون السياسة لكل واحد من هؤلاء حكم الحال التى هو فيها، لا حكم الحال التى ابتدأ عليها.

وليكن مطلوب السلطان من الولاية ثلاثة أشياء: رضى ربه، ورضى سلطانه الذى فوقه، ورضى أهل الفضل والخير من رعيته، وما عليه أن يلطف المال والذكر والتنعم، فإنها ثابتة على كل حال ما أحرز الثلاثة.

وخير السلاطين من كان كالنسر، حوله الجيف، وشرهم من كان كالجيفة حولها النسور[١].

وليعلم السلطان أن الناس يرمون الولاة بسوء العهد، وقله الإنصاف، فإذا استطاع أن يزيل ذلك عن عرضه، وأعراض نظرائه فليفعل، وإذا أراد السلطان أن يفعل فعلاً ما من الأفعال، فلينظر كيف ذلك الفعل عنده وعند الناس، فإذا كان عنده صالحًا، وعند الناس فاسدًا، فليتركه ما استطاع، فإنه ليس كل من رآه من الناس يصنع نكرًا، يستطيع أن يوسعه عذرًا[٢]، وأحق الناس أن يأخذ نفسه بالعدل السلطان فيما قال أو فعل؛ لأنه نافذ الأقوال، مسؤول عن جميع الخلق.

ويجب عليه ألا ينظر بعين المقت والمحبة؛ لأنهما يحسنان القبيح، ويقبحان الحسن، ولا يسمع كلام من يتهمه بالبغى، فإنه يهلك العمال بقوله، كما يهلك المعمول فيه، وليعلم الوالى أن أكثر رعيته على دينه ورأيه، فليكن للخير والفضل عنده نفاق، فإنه سوق، ما نفق عنده حمل إليه، فإذا نفق عنده الشر هلك الناس[٣].

والسلطان والوالى يحتاج فى ولايته إلى سياستين، ومن أهل بطانته إلى جنسين: سياسة وبطانة لتقوية ملكه، وسياسة وبطانة لجماله، وسياسة القوة أولى؛ لأنها إذا انخرمت زال الجمال، وسياسة الجمال أحضرها لذة، وأظهرها حلاوة، وقد تكون القوة من الجمال، والجمال من القوة، ولكن الشىء إلى معظمه[٤].

---

(١) انظر: عيون الأخبار لابن قتيبة (١/ ٣٠٠).

(٢) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص١١٦).

(٣) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص١١٨).

(٤) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص١١٨، ١١٩).

ويجب أن تعرف رعيتك بما عودتها من عاداتك، الأبواب التى ينالون بها الخير عندك، والأبواب التى يخافون منها الضير من قبلك، فإن ذلك داعية لهم إلى التقرب بها لديك، وليكن العامل منهم للخير واثقًا بأنه غير خفى عنك، وليكن عقابك معجلاً ومؤجلاً، حتى يظن السالم منه أنه سيأتيه، فلا ينبسط على العودة إلى مثل فعله؛ لخوفه من عقوبته، واجعل لذنب السر عقوبة السر، ولذنب العلانية عقوبة العلانية، فإنك إذا عاقبت على ذنب السر علانية، رأى الناس العقوبة، وغفلوا عن الذنب، فذموا رأيك بالفساد، ونسبوا رأيك إلى الظلم، وإذا عاقبت على ذنب العلانية سرًا، انبسط عليك الذنوب، واجترى الظالم والسفيه، وقد تندر من ذلك ندرات، يعاقب فيها السلطان على ذنب العلانية سرًا إذا أراد أن يتصف بالحلم[(١)].

وليكن السلطان لفريق من أعدائه مصاحبًا ومداهنًا؛ ليعرف به أخبار بقيتهم، ويهدم به اتفاق جميعهم، ويتسبب به إلى خلافهم، وتشتيت آرائهم، وإذا ابتلى السلطان بقوم ذى نفاق وشدة وقلة انقباض إلى الحقيقة، فليقم منهم رءوسًا، ويلقى بينهم الخلاف حتى يكفيه بعضهم مؤونة بعض، ويبقى هو فى أمن وراحة، فإنه إن انصلح ما بينهم رجعوا كلهم عليه، فاتبعوه وأهلكوه، فليدبرهم بهذا التدبير قبل تدبيرهم بالحرب[(٢)].

* * *

الباب الرابع عشر

فى أقسام الناس وما تقابل به طبقاتهم

اعلم أن العلماء الماضين، والملوك المتقدمين، قد قسموا الناس على ثلاثة أجناس: كريم فاضل، ولئيم سافل، ومتوسط بينهما، صار اللؤم إليه من أحد أبويه، أو أصحابه، أو معاشريه، أو من الأعمال التى تقتضيه، فأما الكريم، فضبطه وملكه بالإكرام والإنصاف والمودة والاستعطاف، فإذا جعلته سيدًا، كان لك عبدًا، والكريم مأمون إذا شبع وقدر، ومخوف إذا جاع وقهر، واللئيم مخوف إذا شبع وقدر، ومأمون إذا جاع وقهر، فارفع الكريم جهدك، فإنك كلما رفعته تواضع لك، وضع اللئيم جهدك، فإنك إن رفعته ترفع عليك.

وعامل المتوسط بقدر ما فيه من الإكرام والإهانة، فامزج له الرغبة بالرهبة، وقابل له

---

(١) انظر: كليلة ودمنة لابن المقفع (ص١٢٥).

(٢) انظر: عيون الأخبار لابن قتيبة (١/٢٢٢).

الإكرام بالإهانة، فإنه يطيعك خوفًا من عقابك، ورجاء فى ثوابك، فأما الكريم، فلا بقاء له مع خوف العقوبة عندك.

واعلم أنك إذا أهنت الكريم، فتحت على نفسك بابًا للؤم والمضرة، وإذا أكرمت اللئيم، اقتضيت منه شرًا، وزادك عليك بإكرامك له تمردًا، وإذا عاملت المتوسط بأحد الطرفين، انتقص عليك الطرف الثانى منه.

وقد كان بعض ملوك الفرس يجعل لكل طبقة من الناس جنسًا من اللباس، يعرف به مكانه، فلا ينتقل عن لباسه حتى يرى له من الفعل ما يستدل به على فضله، فينتقل بإذن الوزير إلى الطبقة التى فوقه، وذلك إحرازاً منهم لإيقاع السياسة فى مواضعها، ومعاملة كل طبقة بما تستحقه لنفسها وفضلها، فاحصر هذه الأقسام بتدبيرك، فإنها لن تخل بالحـــزم، إن شاء الله.

وقد قالت الحكماء: إن الناس طبقات فى الطبائع والأخلاق، ومذاهبهم شتى فى جميع الأحوال، فعاشر فى وقت كل إنسان بما يحمله خلقه، ولا ينكره طبعه، وتخلق له بموافقته بعد دلالتك على حظه، وإلا فلست بحكيم فى التدبير، ولا لطيف فيما تريد، واعلم أن المداراة درجة رفيعة لا يستغنى عنها ملك ولا سوقه، وأن القلوب جبلت على بعض من استعلى عليها، فعامل الناس بالموافقة فى غير أماكن الغلظة.

واعلم أن الخلاف يهدم المحبة، ويدعو إلى الفرقة، وأهون ما تكون عند الناس إذا كانت بك إليهم حاجة، فتعزز عليهم بالاستغناء، واملكهم بقضاء الحاجة، واعلم أنهم عبيدك ما دامت لهم إليك حاجة، وأعداؤك ما دام لهم عنك غنى، فعاشرهم فى وقت استغنائهم عنك بخلاف معاشرتهم فى وقت حاجتهم إليك، وقارب عدوك من الناس بعض المقاربة، ولا تباعده كل المباعدة، ولا تقاربه كل المقاربة، فيجترئ عليك، ويطلع على سرك، ويضعف بمقاربتك جندك، ويذل بذلك نفسك[1].

وقد ضربت الحكماء لذلك مثلاً، فقالوا: إن الخشبة المنصوبة فى الشمس، إن أملتها قليلاً زاد ظلها، وإن جاوزت الحد فى إمالتها نقص الظل، وأما صديقك فقربه أنفع لك من بعده، وبعده قريب من فقده، فعلى هذا فقس أقسام الناس تصب، إن شاء الله تعالى.

* * *

---

(١) انظر: الأدب الصغير لابن المقفع (ص١٤).

الباب الخامس عشر

فى الأدلة التى يستدل بها على أهل الفضل والنقيصة والتوسط

أقول: إن الناس على ضربين، منهم معروف بالأصل، والأبوة، والمنشأ، والمروءة، ومنهم طارئ غير معروف الأصل، ولا مشهود له ببلد، ولا أهل، فالأول يحكم له بحكم منصبه وأبوته، إذا لم يعرف بغير مروءته، بأن يظهر منه نقص، فيخرج به عن حكم الأصل، والطارئ ينظر أولاً إلى الطبقة التى يألفها، والمنازل التى يسكنها، والحرفة التى يتحرفها، وينظر إلى علومه وآدابه وأحواله، فيحمل على مروءة جنسه، حتى يدل على خلافها بفعله.

وإذا أشكل عليك عقل الرجل، فشاوره فى مهم من الأمر الذى لم يترل بك، ولا أنت محتاج إليه فى وقتك، فإنك تستدل برأيه على موضع عقله، وإذا أحببت أن تعرف قدر سخائه، فشاوره فى شىء تجود به على من تعرفه بقدر فضله، فإنك تستدل برأيه على قدر سخائه، وإذا أحببت أن تعرف قدر علمه، فسله عن مشكلات المسائل، وعن أنواع العلوم المختلفة، وإذا أحببت أن تعرف قدر دين العالم، فعرض به إلى الشبهات، فإن رأيته متسامحًا فيها من غير ضرورة إليها، فاقض بلطافة دينه، وإذا أشكل عليك كريم الطباع، فاختبره بلطفك ولحظك، فإن زادك تواضعًا فهو كريم، وإن ترفع عليك أدنى ترفع فهو لئيم. شعر:

وإذا جهلت من امـــــرئ إعراقه وقديمه فانظر إلـــى مـــا يصنـــع

* * *

الباب السادس عشر

فى الكلام والصمت

أقول: إن الحكماء قد قالوا: قلب العاقل أمام لسانه، يتدبر الأمر قبل النطق به، وقلب الأحمق خلف لسانه، يقول الشىء قبل تدبيره. وقالوا: إذا تم العقل، نقص اللفظ، فتدبر كلامك قبل النطق به، وانظر من كلامك فى ضره، ونفعه، ووقته، وموضوعه، وفصاحته، ووزنه، وليكن كلامك مترسلاً، سهلاً، قليل لأهل الفضل، مبسوطًا لأهل الجهل، متوسطًا لأهل التوسط، كل كلمة منه متعلقة بفائدة متضمنة لمنفعة، وليكن صوتك به بين الجهر والخفوت، وإيرادك له على الاعتدال من توالى الحروف، واهجر الكلام السوقى الذى ابتذلته العامة، والغريب الوحشى الذى تستثقله الخاصة.

وإياك أن تؤتى من سوء فهم مخاطبك، فيكون ذلك عائدًا بسوء فهمك، ولا تصل بكلامك الحشو الذى لا يفيد شيئًا، كقولهم: اسمع، وافهم، وحاشاك، وما أشبه ذلك من كلام الضعفاء، والمنتقصين: ولا تكثر فى أثنائه من السعال والبصاق والتثاؤب، ولا تمزجه بالأيمان، وإن كنت صادقًا، فإن ذلك مما يزرى بفصاحتك، ويؤذن المخاطب بتهمتك.

وإذا سُئلت فأجب على قدر مسألتك، ولا تخلط ما لم تسأل عنه بكلامك، وإذا سُئل غيرك، فلا تكن أنت مجيبًا، وإن كنت بالمسؤول عنه عالمًا، وإن كان السؤال عامًا، فلا تبتدر بالإجابة، فإن الحضور معك، يتبعون كلامك بالتأمل، ويجتهدون لجوابك فى التنقص، ويكون لهم عليك الخيار(١).

وإذا تأخر جوابك، كان لك أن تفعل بهم ذلك، مع ما تضيفه إلى رأيك من آرائهم، وتزيده من جوابك من إبطال أقوالهم، وإذا لم يصل القول إليك حتى اكتفى بصواب غيرك، فلا يؤثرن ذلك فى نفسك، فإن الحكماء قد قالوا: إن صيانة القول خير من وضعه فى غير موضعه، مع أن كلام العجلة من قبل الروية موكل به الزلل، ومصروف إليه الخطأ والخطل.

وإذا تمارى قوم بحضرتك، فاستقبلهم بصمتك، وسايرهم بحسن وقارك، فإنك إن ماريتهم، كنت كأحدهم، وإن صمت عنهم، رجع الأمر إلى قولك، واعتمد فى الصواب على رأيك، وتكلم حين تصيخ الأسماع إلى كلامك، ولا تتحدث بكل ما سمعته، ولا تكذب بكل ما أشكل عليك.

وإذا أصغيت إلى كلام، فلا تظهرن العجب به، ولا تكثرن التحدث عن بلد بعينه، ولا ضرب من ضروب الرأى، ولا رجل من أصناف الناس، حتى يغلب ذلك على كلامك، فإن ذلك مؤذن بنقصك، ولا تكثر التحدث بفضل والدك، ولا ولدك، ولا امرأتك، ولا دارك، ولا دابتك، ولا تقطع كلامك بعد ابتدائه، ثم تعد المستمعين بإتمامه، كأنك رويت فيه، فرأيت أن الصمت خير من إتمامه، ولتكن رويتك فيه من قبل إنشائه، وتعلم حسن الاستماع، كما تتعلم حسن الحديث، فإن الاستماع إمهال المتكلم حتى يستوفى حديثه، وقلة التلفت إلى جوابه، والإقبال بوجهك ولحظك على لفظه(٢).

---

(١) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص١٣١، ١٣٢).

(٢) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص١٤٣، ١٤٤).

ولا تغالب أحدًا على كلامه لترى الجماعة أنك أعلم منه بقوله، واقطع كلامك عمن لا يقبل عليك ببصره، ويصغى إليك بسمعه، ويفهم عنك بذهنه، وإياك أن تفعل ذلك بأحد مخاطبيك من أمير وغيره[١].

وإذا جالست أهل العلم، فأرهم أنك على استماع كلامهم أحرص منك على كلامك.

وإذا تكلمت فلا تعجب بكلامك، ولا تدع سامعه إلى الإعجاب به، ولا تهزأن بالجد، ولا بما يقع موقعه من النفس، فإن ذلك يثير الأحقاد، ويمحو الوداد، وإذا مازحك أحد، فلا تخلطن بمزاحه جدًا، فإذا أخذ المخاطب فى مزاحه فأمسك[٢].

وإذا تعرضك بنقص، فإن استطعت أن تجعل جوابه جدًا بألفاظ الهزل فافعل، والتزم مع ذلك رحب الذرع، وطلاقة الوجه، والأحوال التى يجرى عليها صاحب المزح، بغير أمر يؤلم النفس، فإن ذلك أردع لقوله، وأشد للاستخفاف بحقه، وإن استطعت أن تفعل أفعالك كلها دون الوعد بها فافعل، فإن فعلك لما لم تقل أجمل من قولك لما لم تفعل، وإن غلبت على الكلام، فلا تغلبن على الصمت، فإنه أزين فى بعض المحافل، وأحسن فى كثير من المواطن، وفيه جزء من الوقار، وظل من الأمن من سقطات الكلام، وقد قيل: أحسن البلاغة الصمت حين لا يحسن الكلام.

* * *

الباب السابع عشر
فى الحلم والصبر

الصبر محمود عند الحكماء، ومرجوع إليه فى المكاره والأرزاء، والصبر صبران: صبر على ما تكرهه، وصبر عما تحبه، وكلاهما محمود، فأما الصبر على ما تكرهه، فإنه ينقسم قسمين:

أحدهما: أن تكون فى مقابلته منفعة أعظم منه قدرًا، وأجل خطرًا، كالذى تصبر عليه من مرارة الدواء، لما ترجوه من زوال الداء، فهذا صبر محمود عند الحكماء.

والثانى: أن يكون صبرًا بلا منفعة، وتجرعًا لكربة بغير فائدة، فهذا من الصبر المذموم عند العقلاء[٣].

---

(١) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص١٣٨، ١٣٩).

(٢) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص١٤٤، ١٤٥).

(٣) انظر: التمثيل والمحاضرة للثعالبى (ص٤١٥)، الأدب الكبير لابن المقفع (ص١٥٨).

فأما القسم الثانى من أقسام الصبر، فإنه صبر المكره على الأمر الذى لا يجد سبيلاً إلى خلافه بالجزع الشديد، والحزن الذى لا يفيد، فهذا أجمل مآله الصبر على المصيبة، وانتظار العاقبة، وقد قيل: إن الصبر يناضل الحدثان، وأن الجزع من أعوان المصائب، واحتمال الضيم أقر على الحظ، وأجمل من الحدة بالحر.

وقد قالوا: من ملك شهوته صان قدره، ونما شرفه، ومن غلب نفسه، أمره قومه، ومن ركب العجلة، لم يأمن العثار.

وقالوا: بالاحتمال يجب السؤدد، ومن جزع على ما ذهب منه، كمن جزع على ما لم يصل إليه، وإنما تكون الدعة فى الأمن والسعة.

والصبر على المصيبة، مصيبة على الشامت، والصبر على البلية أحسن من ركوب الهلكة، وإن كان الصبر مرًا، فعقباه حلو، والصابر الحازم يتجرع الغصص، وينتظر الفرص، ومن تبع الصبر اتبعه النصر، والكرام أصبر نفوسًا، واللئام أصبر أجسادًا، وليس الصبر المحمود إلا أن يكون لنفسه غالبًا، ولشهوته مخالفًا، وبما يقتضيه التدبير المحكم عاملاً، وعند الضر محتملاً[1]، ووطن نفسك على الصبر فى مؤاخاة الأخ الصالح، والتجلد على ما يطرأ من هفواته، واعتقد أنه لا سبيل إلى فراقه.

وقد قيل فى المثل: من لك بأخيك كله، ومن طلب صديقًا بغير زلة، أبقته الأيام بغير صاحب، وعود نفسك الصبر على ما يخالفك من رأى أهل الصنيعة، والتجرع لمرارة قولهم، ولا تسهل سبيل ذلك إلا لأهل العقل والفضل والمروءة والستر، فإنك إن سهلت ذلك لغيرهم، تجرأ عليك السفيه، واستخف بك النذل، وتحمل على الجمع بين الأخذ بأقوالهم، والعمل بما يقتضيه التدبير، فإن لم يجمع لك ذلك، فأجمل الاعتذار، وتحيل فى حسن الانصراف.

والحلم هو الصبر على مكافأة الظالم والسفيه على وجه جميل مع المقدرة على الانتصار عليه، ومع العجز يكون ذلاً، ومع الاضطراب ورجاء النفع فى الحال أو فى الاستقبال يكون صبرًا.

وقد قالوا: متى حلمت على السفيه، كثر أنصارك عليه، ومن حلم زاد، ومن تفهم ازداد، وبالله سبحانه التوفيق.

* * *

---

(١) انظر: التمثيل والمحاضرة للثعالبى (ص٤١٥)، الأدب الكبير لابن المقفع (ص١٥٨).

الباب الثامن عشر

فى ترك الحلم إذا أدى إلى الفساد

اعلم أن الاتساع فى الحلم، ومجازاة كل سفيه بالترك، والأخذ عليه بالفضل، يؤدى إلى ضروب من الفساد، فيصير معها ترك الحلم حلمًا، والصواب فى ذلك أن يتجاوز السلطان عن زلات أهل الخير والصيانة والبيوت الكبيرة والسالفة، ويتجاوز فى بعض الأوقات عمن رحمه من السفهاء، فما جناه عليه من نفسه خاصة، ولا يتجاوز عن أهل السفه والجُرأة، إذا افتاتوا عليه، أو على غيره من الرعية.

وإنما يكون الحلم فى غير الأحكام المتعلقة بالشريعة، ومتى انخرمت هذه فى الحليم، أدى ذلك إلى فساد كثير، فاعمل عليها تصب، إن شاء الله تعالى.

* * *

الباب التاسع عشر

فى الغضب والرضى

الحب، والبغض، والغضب، والرضى، يعدلن بالفكر عن الإصابة، ويصورن الأشياء على غير الحقيقة، ولكل واحد منها صورة يتقى معها السقط، ويخشى منها التناقض والغلط، فيجب على العاقل أن يفزع معها إلى التثبيت، ويدمن فيها كثرة التأمل، ويجب على العاقل أن يطفئ جمرة غضبه بالحلم، ويتمسك فى حال بغضه بالعدل، ويجرى فى رضاه وحبه إلى التوسط، فإن الإفراط فى كل شيء مذموم، وذلك أن الإفراط فى الخير يؤدى إلى الانقطاع عنه، والإفراط فى الشر يؤدى إلى الهلكة دون تمامه.

وأقبح ما يكون فى الغضب أن قومًا من الملوك وغيرهم يغضبون على من جنى عليهم، إذا لقوه فى أوقات غضبهم، فيلقونه بالتجهم، والتنكر، والترق، والتوثب، ويرضون عن غيره ممن أرضاهم وأحسن إليهم، فيلقونه بالإكرام والتهلل، وربما أعطوا فى أوقات الرضى عطاء جزيلاً لمن لا يستحقه، وقضوا أمورًا جليلة لمن لا يستوجبها.

فاحذر هذا الباب حذرًا شديدًا، فإنه ليس أحد أسوأ حالاً فيه من السلطان الذى يبالغ فيه فى حال حبه، بوضع الإكرام فى غير موضعه.

وفى الحديث: «إذا استشاط السلطان حضر الشيطان»[1]، فاحترس من سورة

---

(١) بلفظ: «إذا استشاط السلطان تسلط الشيطان»، أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤/٢٧٧) (ح ١٨٠٠٧)، والطبرانى فى الكبير (١٧/١٦٧، ١٦٨) (ح٤٤٤)، وقال الحافظ الهيثمى: رجاله=

الغضب، وسورة الحمية، وسورة الشباب، وأعد لكل شيء من ذلك عدة تجاهد بها من الحلم، والتفكر، والروية، وذكر العاقبة، وإيثار الفضيلة.

وقد قالت الحكماء: إن كل إنسان قد ركب فيه جزء من سوء الطبيعة، ولن يقدر العاقل على دفعه إلا بالمجاهدة.

ومن عيوب الغضب أنه يتلف الحجة الحاضرة، ويثير الأحقاد الكامنة، ويصدئ العقول الصقيلة، ويهون الأمور العظيمة[(١)]، وقد قيل: من أطاع غضبه، أضاع أدبه[(٢)].

وقد قالت الحكماء: لا يقوم عز الغضب بذل الاعتذار، وقالوا: غضب العقلاء مستور، وغضب الجهال مشهور، ومن ظهر غيظه ضعف كيده، فإذا غضبت، فلا تثلم دينك، ولا تقبح صورتك، ولا تخرق ثوبك، ولا تكثر أثاثك، فتتلف ملكك، وتشفى عدوك من نفسك[(٣)].

وإذا خاصمت، فاصبر على خصمك، وأر الحاكم بينكما حلمك، وإذا سخف خصمك فتوقر، وإذا سكت فتكلم، وتحفظ من حدتك، وفكر فى حجتك، فإن ذلك مما يبعث الحاكم على نصرتك، وأهل المجلس على شكرك.

* * *

الباب الموفى عشرين

فى التجبر والخضوع

لا يحسن التجبر بالأحرار، ولا يجمل إلا على الكفار، والتجبر داع إلى الهلاك، وضامن للمقت، ومزر بالحسب، وذاهب بحسن الأدب، وعجب المرء بنفسه أحد حساد عقله، ومن خرج من قدره، لم يرجع إلا إلى دونه، ومن خشنت عريكته، وازور جانبه،

=ثقات، انظر: مجمع الزوائد (٨/٧١)، وقال فى موضع آخر: فى إسناده من لم أعرفه، انظر: مجمع الزوائد (٤/١٩٤)، وهو ظاهر فى تناقض الحافظ الهيثمى، رحمه الله.

قلت: وفيه عروة بن محمد وأبوه وثقهما ابن حبان فقط، على أن الحافظ ابن حجر قال فى عروة: مقبول، أى عند المتابعة، وقال فى أبيه: صدوق، والله أعلم.

(١) انظر: التمثيل والمحاضرة للثعالبى (ص٤٥٠).

(٢) انظر: التمثيل والمحاضرة للثعالبى (ص٤٤٩، ٤٥٠).

(٣) انظر: التمثيل والمحاضرة للثعالبى (ص٤٥٠).

ملـــه أهله، وقل مصاحبه، وليس لذى عنف شمل ولا ألف، ومن عادات القلوب أنها تكابر من استولى عليها، ومن سما فوق قدره، استحق الحرمان من ذوى النعمة عليه، والعجب مذهب للمحاسن، وقبيح فى كل المواطن، إلا فى موضع المسايفة، ومأزق المحاربة، فإنه يحسن فيه إظهار القوة، والمشى بالتجبر والصلافة، والخضوع قبيح بالأحرار، ودلالة على الفقر، ومخبر بدناءة النفس، ومنبئ عن سقوط الهمة والقدر.

وقد قيل: إن الخضوع لا يحسن الا للعالم، والوالدين، والسلطان العدل، فأما غير هؤلاء، فالخضوع لهم قبيح.

* * *

الباب الحادى والعشرون

فى الحزم والتفريط

الحزم هو النظر فى الأمور قبل نزولها، وتوقى المهالك قبل الوقوع بها، وتدبير الأمور على أحسن ما يكون من وجوهها[1].

وقد قالت الحكماء: تضييع الحزم جالب للندامة، ومقرب من الهلكة، وقالوا: من الحزم الوقوف عند الشهوة، والأصل فى الحزم الاحتراس من جميع الناس، والحذر من كل مكروه يحذر، ثم معاشرة الناس بالاسترسال مع شدة الاحتراس، والتيقظ لما عسى أن يدخلوا عليك منه الغفلة، ويأخذوك عليه من الغرة.

وقد قالت الحكماء: الملوك ثلاثة: حازمان، وعاجز، فأحد الحازمين الذى ينظر فى الأمور قبل نزولها، ويحتال لها قبل الوقوع فيها، فيجتلب خيرها، ويجتنب شرها، كاللاعب الماهر فى الشطرنج الذى يرى الحركة الرديئة من قبل وصوله إليها فيحترس منها، ويرى الحركة الجيدة قبل وصوله إليها، فيُلجئُ ملاعبه إلى اللعب بها، والحازم الثاني: هو الذى لا يدبر الأمور حتى تحل به، فإذا حلت عرف وجوه التخلص منها، وهذا أخفض رتبة من الأول، وأقرب منه إلى التغرير، وأدنى منه إلى أسباب الهلكة فى بعض الأمور؛ لأنه ربما وقع بغفلته وتوانيه فى أمر يتعذر منه الخلاص على ذى الحيلة والاجتهاد.

---

(١) انظر: بدائع السلك فى طبائع الملك لابن الأزرق (١/٤٩٨).

والثالث العاجز المتوانى الذى لا يزال فى لبس من توانيه، وعجز وغفلة عن إصلاحه، حتى يقوده ذلك إلى الهلكة[(١)].

وضربت الحكماء لهذه الأقسام مثالاً، فقالوا: إن صيادًا مر بأجمة فيها سمكات ثلاث، فقال لصاحبه: عد بنا إلى هذه الأجمة بعد فراغنا من التصيد، لنصيد ما فيها من السمك[(٢)].

فأما أحزم السمكات، فخرجت من منفذ الماء إلى البحر فأمنت، وأما الثانية التى تليها فى الحزم، فمكثت حتى أتى الصياد، فسد المنفذ، فأيقنت بالهلكة واحتاجت إلى الحيلة فتماوتت، وطفت فوق الماء، فأخذها الصياد فطرحها غير بعيد من البحر، فوثبت إلى البحر، فسلمت بعد التغرير والمخاطرة، وأما الثالثة العاجزة، فلم تزل تجئ وتذهب حتى صيدت.

واعلم أن الحازم يجب عليه استفراغ الوسع، وإعمال الاجتهاد فى أسباب الفائدة والخلاص، فإن غلبت الأقدار، كان بذلك معذورًا، وكان قلبه مستريحًا، وغير عجيب أن يغلب الخالق سبحانه مخلوقاته، وأن يتصرف الصانع عز وجل فى مصنوعاته.

وقد قيل: اعط الآراء حقها، واستفرغ نفسك فى وسعها، فإن خانتك الحقائق، وجاءتك الأمور على خلاف العوائد، فاعلم أنه قدر سابق لا حيلة فيه، وليس نفوذ الأقدار مما يقول الفاضل إلى تضييع الحزم، وذلك من أخلاق الجهال.

وقد ضربت الحكماء لذلك مثلاً، فقالوا: بينما رجل يحتش حشيشًا، إذ قصده ذئب، فلم يفطن به الرجل حتى دنا منه، فلما رآه الرجل اشتد وجله منه، وفر هاربًا نحو قرية على شاطىء نهر، فلما انتهى إلى النهر، وجد عليه قنطرة مكسورة، ورهقه الذئب، فقال: كيف أصنع؟ الذئب يتلونى، والنهر عميق، والقنطرة مكسورة، ولست أحسن السباحة، إلا أنى على حال لا أجد شيئًا أحرز لى من أن ألجأ بنفسى إلى الماء، فوقع فى الماء، فرآه أهل القرية، فأرسلوا إليه من أخرجه، وقد أشرف على الهلكة، فأتاهم به، فلما صار إليهم تساند إلى حائط، فلما أفاق أخذ يحدثهم بما لقى، وعظم هول ما خلصه الله

---

(١) انظر: الشهب اللامعة لابن رضوان (ص١١٥، ١١٦)، بدائع السلك فى طبائع الملك لابن الأزرق (١/٤٩٩، ٥٠٠).

(٢) انظر: كليلة ودمنة لابن المقفع (ص١٢٠، ١٢١).

منه، فبينما هو كذلك، إذ تهدم عليه الحائط فقتله[١].

فهذا على سعيه مشكور، وفيما نزل به من ربه مغفور، ولو كان جاهلاً متوانيًا، أو عاجزًا مفرطًا، لألقى بيده إلى الذئب، وقال: لعلى إذا عبرت النهر غرقت، وإذا بلغت إلى العدوة قتلت.

وقالت الحكماء: إن من الحزم التوقف عند كل لحظة، ورب حرب جنيت من لفظة، وقالوا: ولا يدع الوالى التثبت عندما يقول، وعندما يعطى، وعندما يعمل، فإن الرجوع عن الصمت أحسن من الرجوع عن الكلام، والعطية بعد المنع أجمل من المنع بعد العطية، والإقدام على الأعمال بعد الأناة فيها، أحزم من الإمساك عنها بعد الإقدام عليها. وكل الناس يحتاج إلى التثبت، وأحوجهم إليه ملوكهم الذين ليس لقولهم وفعلهم دافع، ولا عليهم مستحث.

وقالوا: ثلاثة على كل عاقل أن ينظر فى إصلاحها، ولا يلقى بيده إلى تضييعها: إصلاح دينه، وإصلاح معيشته، وإصلاح ما بينه وبين الناس. وأربعة من كن فيه لم يستقم له عقل: التوانى، وتضييع الحزم، والتصديق لكل مخبر، والتكذيب لكل عالم[٢].

ويجب على الحازم أن يجرى الأخبار كلها على التأمل، ويأخذ الحق من أهل الباطل، ولا يأخذ الباطل من أهل الحق، فإنه إذا صدق كل مخبر، كان مثاله مثال المصدق المخدوع.

وقد ضربت الحكماء مثلاً، فقالوا: إن سارقًا رقى بيتًا، فلما أحس به صاحب البيت، قال لأهله سرًا: اسأليني من أين هذا المال الذى عندى؟ فسألته، فقال: إنى كنت سارقا، فأرقى على البيوت، وأقول كلمات، فذكرها، فإذا قلتها تعلقت بضوء القمر، فنزلت سالمًا، فإذا قضيت من الدار حاجتى، قلتها فصعدت. فغافله السارق قليلاً، ثم قالها، فسقط مكسورًا، فقال له صاحب الدار: من أنت ؟ فقال: أنا المصدق المخدوع، فإذا قبل الإنسان كل ما سمع من غير نظر فيه، اعتراه مثل ذلك[٣].

ويجب على الحازم اللبيب ألا يتوانى فى أوائل الأمور، رجاء أن يدرك أواخرها، فإن ذلك هو العجز بعينه.

---

(١) انظر: كليلة ودمنة لابن المقفع (ص٩٤).

(٢) انظر: كليلة ودمنة لابن المقفع (ص٦٦).

(٣) انظر: كليلة ودمنة لابن المقفع (ص٧٧ - ٧٩).

وقد ضربت الحكماء لذلك مثلاً، فقالوا: إن رجلاً كان عريانًا، وله شىء من قوته، فبينما هو ليلة نائم، إذ دخل عليه سارق، فجعل يأخذ طعامه ويجعله فى كسائه، فقال: لأمهلنه حتى إذا فرغ من أخذه نهضت، فأخذت كساءه وأحرزت طعامى، ثم أخذه نوم، فانصرف السارق بطعامه، فكان ذلك من جناية تضييعه، حيث لم يحتط للأمر من أوله[(١)].

وقد قالت الحكماء: إن الحازم من صفاته أن يكون فارغًا من أشغاله، متحرزًا لجميع أموره، حتى لو مات من ساعته، لم يندم على ما أخره من فعله.

* * *

الباب الثانى والعشرون

فى الكتمان والإذاعة

الكتمان من رأس المروءة وقواعد التدبير، والإذاعة مؤذنة بانخرام الأشياء قبل إحكامها، فلا تفاوض فى سرك إلا من تثق بكتمانه وتأنس لأمانته.

واعلم أنك على إذاعة ما كتمته، أقدر منك على كتمان ما أذعته، ومن أمثالهم فى كتمان الأسرار: سرك أسيرك، فإذا أذعته صرت أسيره، وإذا كتمت أسرارك، فجاءت الأمور على غير اختيارك، صنت بالكتمان عرضك، ووقرت به نفسك، وإذا جاءت الأمور على مرادك، قدرت على إذاعتها من بعد ذلك.

واعلم أن صديق الصديق من آفات الأسرار؛ لأن الصديق يحدث صديقه، ويحدث كل واحد منهم صديقه، حتى يذيع الأسرار، ومن الحزم والمروءة ألا تذيع أسرار أحد من أصدقائك إلى صديق ثان، فإنه إنما ائتمن على أسراره أنت، ولم يأتمن صديقك، واحذر الإذاعة من الجليس والرسول والبريد والمشاور. وإذا قدم جواسيسك، فاستبدل بهم، فإنهم ربما انقلبوا عليك.

واعلم أنه قد ينعكس التدبير، فيحتاج إلى الإذاعة فى بعض الأمور، وتضطر الحال إلى التشنيع والتهويل، فيكون الحزم فى ذلك.

* * *

---

(١) انظر: كليلة ودمنة لابن المقفع (ص٦١، ٦٢).

الباب الثالث والعشرون

فى العجلة والتوانى والتوسط

العجلة مذمومة على وجهين، وممدوحة على وجهين، فأما الوجهان اللذان هى مذمومة عليهما، فأحدهما: العجلة فى الأمور قبل تأملها وتدبرها، فذلك مذموم عند جميع العقلاء، ومفسدة فى آراء الحكماء، ومن أمثالهم فى ذلك: رب عجلة تهب ريثا. وقالوا: العجلة مفتاح الندامة، والتأنى حصن السلامة، وقالوا: التأنى مع الخيبة خير من النهوض مع النجاح، وفى الحديث: «من عجل أخطأ أو كاد، ومن تأنى أصاب أو كاد»، وقالوا: التأنى فى الأمور أول الحزم، والتسرع إلى الخطأ عين الجهل[1].

والوجه الثانى: الذى تذم عليه العجلة، هو أن يطلب الشىء قبل أوانه، ويلتمس وجوده قبل إبانه، فإنه من الأمور أسباب لابد لها من الأناة والصبر، فطالبها قبل حينها كطالب الثمرة قبل أوانها، فمن ذلك ما لا يتهيأ إلا فى سن الشيخوخة، وما لا يبذله الملوك لعمالهم ووزرائهم إلا بعد طول الصحبة، وأكيد التجربة، فطالب هذه الأمور قبل أوقاتها منسوب إلى العجلة، موصوف بضد الحكمة، ومن ذلك السرعة فى قطع المسافة، ومن أمثالهم: شر السير الحقحقة.

وأما الوجهان اللذان تمدح بهما العجلة، فأحدهما: انتهاز الفرصة بعد إحكام المعرفة، فإن الأمور منها ما يفوت بمرور الوقت، ومفارقة المكان، ألا ترى أن الخطيب الماهر إذا فكر فى المعنى المصيب بعد نزوله، فقد فاتته الفرصة بإيراده، وصار مضيعًا له فى وقته ومكانه، وأن اللاعب المحسن الشطرنج إذا فكر فى الحركة بعد مفارقته النصبة، كان بتوانيه مذمومًا، وبعجلته محمودًا.

والحزم أن توضع الأشياء فى مواضعها، وتفعل فى أوقاتها. ألا ترى أن الهر إذا وثب على الجرذ من قبل خروجه من الجحر، كان مؤذيًا لنفسه بالتعب، ومؤذنًا لعدوه بالحذر، وإذا أمهله بعد خروجه حتى يعود إلى جحره، كان مضيعًا لفرصته، مفسدًا لعمله.

والوجه الثانى الذى تمدح فيه العجلة هو الذى ضدها التوانى المذموم، وهو أن يترك الأمور إلى آخر أوقاتها، فإنه ربما عرضت حينئذ عوارض تمنع من إتمامها، فيكون ذلك داعية إلى انخرامها، ومن أمثال ذلك: أن رجلاً أتى نهرًا بينه وبين منزله، فقال: أنام على

---

(١) انظر: التمثيل والمحاضرة للثعالبى (ص٤٢٠).

هذا النهر، حتى إذا تملأت من نومى، قمت وأتيت مترلى، فبينما هو نائم، إذ حمل الوادى بسيله، فمنع الرجل الوصول إلى مترله. وقيل لبنى أمية: بأى شىء ذهب ملككم؟ فقالوا: بتضييع الحزم، وترك شغل اليوم إلى الغد[١].

فأما التوسط، فإنه يكون فى غير الأماكن التى تمدح فيهما العجلة، ويذم فيها التأخير، ومن أمثالهم فى ذلك: ما كان الرفق فى شىء إلا زانه، ولا كان الخرق فى شىء إلا شانه. وقالوا: إذا لم تدرك الحاجة بالرفق والدوام، فبأى شىء تدرك ؟.

* * *

الباب الرابع والعشرون

فى الإنفاق وصفة الجود والإمساك

الأصل فى الجود أن تؤتى الحقوق أهلها، وتتفضل بعد ذلك ببعض التفضل، ثم إن استطعت أن تكثر من الفضل، فافعل.

وقالت الحكماء: الجود أن تكون بمالك متبرعًا، وعن مال غيرك متورعًا، واعلم أن الجود لا يتهيأ إلا مع التنمية، ولا يستقيم مع التضييع، ولا مع التبذير، ولا مع ترك النظر فى تنمية المال.

وقد قالت الحكماء: لا يزهدنك فى التقدير كثرة مالك، فإن أكثر الناس مالاً أشدهم إلى التقدير حاجة، فإن بقليل الإتلاف يتلف كثير من مالك.

والملوك أشد الناس ذنبًا فى الإتلاف؛ لأنهم لا قوام لهم إلا بالمال، وأقل الناس عذرًا فى البخل؛ لأنهم آمنون من الفقر، والسوقة بخلاف ذلك؛ لأن الفقر لاحق بهم، وهو دون الغنى ممكن.

واعلم أنه لا يكون الشبع والإخوان والأهل والأعوان والحشم إلا مع المال، ولا تظهر المروءة والرأى والقوة إلا به[٢].

وقد وجدنا من لا مال له إذا أراد أن يتناول أمرًا، قعد به العدم عنه، كالماء الذى يبقى فى الأودية عن مطر الصيف، فلا يصل إلى نهر ولا إلى بـــحر؛ لأنه لا مادة له،

(١) انظر: سراج الملوك للطرطوشى (ص٥٥).

(٢) انظر: الأدب الكبير لابن المقفع (ص١١٤).

ووجدنـــا من لا مال له، فلا أهل له، ومن لا أهل له، فلا ولد له، ومن لا ولد له، فلا ذكر له، ومن لا مال له، فلا عقل له، ولا دنيا ولا آخرة.

فيجب على العاقل إذا أحب الجود أن ينظر فى التنمية، فإن جبال الكحل ما لم يكن لها مادة، فنيت بما يجعل منها فى الأعين ويتناول منها بالمراود، وتحر القصد تخف عليك المؤن، وخذ من الجود بشعبة، ومن الضنانة بأخرى، فإنه لا جود لمن لا ضنانة له، ولا ضنانة لمن لا تدبير له، ولا مال لمن لا جود له.

واعلم أن الجود ساتر العيوب، غارس للمحبة فى القلوب، وإنه ربما يكون سببًا لتكسب المال، ومحرزًا لكثير من جميل الخصال، وأنه مع الإسراف فيه يكون الانقطاع عنه، وأحسن ما فى ذلك أدب الله لنبيه، عليه السلام، فى قوله عز وجل: **﴿وَلاَ تَجْعَـــلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُـــقِـــكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾** [الإسراء: ٢٩].

وأحسن ما رأيت فى الجود والإمساك من أقوال الحكماء والشعراء، قول أبى الطيب المتنبى:

فلا ينحلل فى الجود مالك كلـــه ... فينحـــل مجد كان بالمال عقـــده
ودبره تدبير الـــــذى المجد كفه ... إذا حارب الأعـــداء والمال زنده
فلا مجد فـــى الدنيـــا لمن قل ماله ... ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده[1]

قلت: ومن صفات جود العقلاء أن يكون معتدلاً فى مقداره، معجلاً لا يكدر بانتظاره، محقرًا لا يتابع بالمن، منسيًا لا يجدد بالذكر، فإن احتقاره يعظمه، وستره يظهره؛ لأن المطلوب منه تمكين المحبة، وتحسين الثناء، وتعزيز النصرة، ولا يصح ذلك فيه إلا بوصوله إلى قابله فى أجمل صورة وأحسن هيئة.

واعلم أن الفقر خير للبخيل من ماله؛ لأن ماله مع البخل يضر بعرضه، ويحض على مضرته، فهو يذل نفسه، ويصون ماله، فماله حسرة عليه، ووديعة فى يديه.

وقال الحكيم: لا تسأل البخيل، فإنه إن حرمك أخزاك، وإن أعطاك استعداك، فأما سائر النفقات، فالآداب فيها التوسط، ويكفى من ذلك قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾** [الفرقان: ٦٧].

* * *

---

(١) انظر: ديوان المتنبى (١٤٥/٢).

الباب الخامس والعشرون

فى الشجاعة والجبن

الأصل فى الشجاعة ربوط الجأش، وقلة التخوف فى مواطن البأس، فإن صحب ذلك الحذر، والتوقى، ووضع القتال فى مواضعه، كان ذلك شجاعة، وإن صحبه ترك التوقى، وقلة الحذر، ووضع القتال فى غير مواضعه، كان هوجا.

والجبن شدة الخوف، واضطراب الجأش، والنكول عن مواضع الحرب، فإن كان النكول عن مواطن الهرج لا غير ذلك، فهو تثبت، وليس بجبن، والجبن والشجاعة غرائز فى أصل الخليقة، والشجاعة تحسن فى مواطن ثلاثة:

أحدها: أن يغلب الظن مع القتال على الظفر والسلامة.

والثانى: أن يكون القتال واجبًا بالشريعة، أو خوفًا من العار والفضيحة.

والثالث: أن يكون الهلاك متيقنًا مع الفرار كتيقنه مع الإقدام.

فهاهنا يكون القتال أكرم وأسلم؛ لأنه ربما أدى إلى الخلاص، وقاد إلى الظفر. والشجاعة من محاسن الأخلاق، وغرائز الكرام، والشهرة بها محمودة؛ لأنها تكفى كثيرًا من القتال، ويكون صاحبها منصورًا بالرعب، بخلاف الوصف بالدهاء والحيلة، فإن الوصف بهذا مضرة على صاحبه، على ما نبينه فى بابه، إن شاء الله تعالى.

ومما يرغب فى الشجاعة أنا نجد الهزائم يموت فيها من الجبناء والضعفاء أكثر مما يموت فيها من الشجعان والأقوياء، فالجبن على هذا ليس بسبب إلى السلامة، مع ما فيه من العار والفضيحة والذلة وحرمان الحاجة.

ومما يستحق الإنسان به اسم الشجاعة، أن يكون لا يحدث نفسه بالفرار، ومما يبالغ فيه له فى الوصف بالشجاعة، أن يكون أول حامل، وآخر منصرف، مع شدة التوقى والحذر، والمدافعة فى موضع الضرر، وهذه النكت فى الشجاعة تغنى عما سواها إن شاء الله تعالى.

* * *

الباب السادس والعشرون

فى الحرب والمسالمة

للملك أن يبدأ عدوه باللين، والمسالمة، والبذل، وطلب المواصلة، والسكون، فإن لم يفعل، أو كان فى الحال ما يقتضى ذلك، رجع معه إلى الكيد، والحيلة، وتشتيت الأصحاب، وتأليب الأعداء عليه، وتسليط الغرباء له على عداوته، وأخذ الأمور بما ينفق فيه القول دون الفعل، ولا يصل معه إلى الحرب حتى تعوزه الحيل كلها، فإن الحكماء قد قالوا: أكيس القوم من لم يلتمس الأمر بالقتال ما وجد إلى غيره سبيلاً، ولأن الحرب ينفق فيها من الأعمار، وغيرها ينفق فيها من الأموال.

وقد قالت الحكماء: إن العدو مثل الخراج الذى يُبتدأ فى علاجه بالترطيب والتحليل والتسكين، فإن لم ينجح بذلك، رجع فيه إلى الكى، وهو آخر العلاج، والحرب آخر ما يجب استعماله.

واعلم أن العاقل، وإن وثق بقوته ومنعته وفضله، لا يجب أن يحمله ذلك على أن يجنى على نفسه عداوة وبغضًا هو عنها فى غنى، اتكالاً على ما عنده من الرأى، وثقة بما لديه من القوة، فإنه فى ذلك بمثابة الطبيب الماهر الذى عنده الترياق الفائق، لا يحسن منه أن يشرب السم القاتل، اتكالاً على ما عنده من الدواء النافع.

واعلم أن الصلح أحد الحروب التى يدفع بها الأعداء عن المضرة، فإذا كثر أعداؤك فصالح بعضهم، وأطمع بعضهم فى صلحك، واستقبل بعضهم بحربك[1].

وإذا ابتليت بحرب، فلا تأمن عدوك وإن كان صغيرًا، فإن العدو كالنار التى تتربى من الشرارة، والنخلة التى تنبت من النواة، وربما نال العدو بصغره، ما عجز عنه عدوه مع كبره، كالسيف الذى يقد الهامة، ويعجز عن فعل الإبرة.

ولبعض الشعراء فى هذا المعنى:

ولا تحقــرن عدوًا رمــاك وإن   كان فى ساعديـــــه قـــصر
فإن السيوف تحز الرقــــاب   وتعجـــز عمـــا تنـــال الإبـــر

ويجب على العاقل إذا بعد عدوه، أن لا يأمن معاودته، وإذا انهزم، لا يأمن كرته، وإذا

(١) انظر: الشهب اللامعة لابن رضوان (ص٩٦).

قرب، أن لا يأمن مواثبته، وإذا رآه وحيدًا أن لا يأمن مكره، وإذا رأى عسكره قليلاً، أن لا يأمن كمينه.

ويجب على العاقل أن يكون متأهبًا للحرب فى حال سلمه، خائفًا من العدو فى حال صلحه، فإن العدو الذى يصالحك لأمر يضطر إليه، لا يخرج بالصلح عن طبعه، وإنما مثله الحكماء بالماء الجارى الذى تضطره النار إلى حرارته، فإذا زايلته رجع إلى طبعه، وما كان عليه من برده.

واعلم أن الجهل كل الجهل تضييع الفرصة، إذا أمكنت فى العدو، والأمر الجسيم إذا ظفر به، فإن الحكماء قالوا: من التمس فرصة الأمر، ثم أمكنته فضيعها، و لم يقدر عليها.

ومن وجد عدوه ضائعًا ومغررًا، فلم يسترح منه، أصابته الندامة حين يقوى العدو ويستعد، ثم لا يقوى عليه[1].

ومن وجد إلى اختلاف أعدائه، وتسليط كل فريق منهم على صاحبه سبيلاً، ثم تولى هو الحرب بنفسه، فلا شىء أعظم من جهله، وكان يقال: إن من الأعداء من يعمل فى صلاح عدوه بإزاحته من غيره من أعدائه، أو فى الحيلولة بينه وبين من هو أعظم من ضده، ومنهم من يعمل فى بعاده، ومنهم من يعمل فى هلاكه.

وقالت الحكماء: إذا طلب اثنان أمرًا، ظفر به أفضلهما مروءة، فإذا استويا فى المروءة، فأمضاهما رأيًا وأشدهما ساعدًا، فإن استويا فى ذلك، فأسعدهما جدًا وأتمهما سعدًا.

واتخذ من أعوانك ورجالك ووزرائك من يحسن الفعل، وإن لم يحسن القول، ولا تتخذ من يحسن القول ولا يحسن الفعل، فإن الذى يحسن الفعل، إن أبدى الصمت ضعفه، كشف الفعل عن قوته، والذى يحسن القول، إن أبدى القول قوته، كشف الفعل عن ضعفه.

وقد قيل: إذا كان الملك جاهلاً، ووزراؤه عالمون، استقام أمره، وإن كان عالمًا ووزراؤه جاهلون، تفرق عليه أمره، واضطرب عليه رأيه. وقيل: اختر رسولك فى الحرب والمسالمة، فإن الرسول يلين القلب ويخشنه، ويبعد الأمر ويقربه، ويصلح الود ويفسده،

---

(١) انظر: الشهب اللامعة لابن رضوان (ص٩٧).

وبه يستدل على عقل مرسله، ومنه يسترق ما خفى من خبره.

وإذا ابتليت بالحرب، فأذك العيون بالنهار، وبالغ فى الحرس بالليل، وخندق إن كنت مقيمًا، وحصن مضاربك[١]، وليكن جندك عليك حصنًا، ولأنفسهم حرسًا، واحتل للشمس أن تكون معك فى وقت اللقاء، وللريح أن تكون معك فى وقت الهجوم، وللماء وللمرعى أن يكونا معك فى مكان النزول، واخف آثارك عن عدوك، واعمل فى حين لقائه على إراحة ظهرك، وكراعك، وثقف جهاته بمن تثق به من رجالك، واحذر من الإطراد أن تستمر هزيمة، ومن الكمين أن يأتيك غفلة، ومن رحلك أن يخالف إليه، وإن استطعت أن تخالف عدوك إلى رحله فافعل، وإن انهزم عدوك فلا تحل بينه وبين الهزيمة طمعًا فى استئصاله، فإن ذلك ربما كان سببًا لثباته، والذى تنال منه فى ظهره أكثر من الذى تنال منه فى وقوفه.

وإذا هزمت قومًا فاثبت ثبتًا فى محلك، وإذا غلبت فعم آثارك، واجعل الليل جنتك، واعلم أن الهزيمة تحل العزيمة، وأن الهارب لا يعرج على صاحب، وأن الفرار فى وقته ظفر، وأن القتال فى غير مكانه عناء، والله يبقيك للمكارم، ويصونك من المكاره[٢].

* * *

الباب السابع والعشرون

فى التحبب والمواصلة

من لانت كلمته، وجبت محبته، ومن لان عوده، كثرت أغصانه، وبالرفق يملك الأمر كله، وأفضل الناس من تواضع عن شرف، وعفا عن قدرة.

واعلم أن البغضة خوف وعذاب، وأن المودة أمن وراحة، فأكثر ممن يؤمنك ويريحك، واهجر من يعذبك ويخيفك. واعلم أن المحبة تكفى الحروب، وتبلغ المطلوب، وتنفى المرهوب.

واعلم أن الكلمة الطيبة تسهل الوعر، وتذلل الصعب، وتكثر الصحب، وتملك القلب، ولو لم يكن فى هذا الباب إلا قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، لكان كافيًا، بل وافيًا، فقد قالوا: حسن الخلق يدل على طيب الأصل، وكرم الفرع، ويقود إلى راحة القلب.

---

(١) انظر: الشهب اللامعة لابن رضوان (ص٩٨).

(٢) انظر: التمثيل والمحاضرة للثعالبى (ص١٥٣).

وقالوا: أطهر الناس أعراقًا أحسنهم أخلاقًا. وقالوا: المروءة ألا تعمل فى السر ما تستحى منه فى العلانية. وقال أرسطوطاليس: المروءة استحياء المرء من نفسه. وقالوا: من عاشرته بحسن الخلق، وكريم الأدب، استنصرت بقلبه عليه.

وأربعة أشياء إذا اجتمعت فى السلطان، كسر صحبه، ووجب حبه: العدل، والبذل، والتحبب، والمروءة فى الخلق السجيح، والكف عن القبيح.

* * *

الباب الثامن والعشرون

فى الحيلة والمكر والخديعة

يجب أن تعرف الحيلة ليعمل بها، وليحترز منها، وفى الحديث: «الحرب خدعة»، وأدنى الحيلة ما كان بالرياء والتلاعب بالديانة، والغضاضة أردى خصال الحيلة. وتحتاج الحيلة إلى التلطف والتمرن، والاحتراس منها أن تنعكس، والاستعداد لها إذا فطن بها كيف التخلص منها، والاعتذار لها.

وقد قالت الحكماء: من لم يتأمل بعين عقله، لم يقع سيف حيلته إلا على مقاتله. وربما احتاجته الحيلة إلى مقدمات، تؤنس المحتال عليه بها، حتى يطمئن إليها.

واعلم أن كثيرًا من الحذر قد يكون عونًا على صاحبه، ومشعرًا بما يخفيه فى قلبه، فيجب على العاقل ألا يأتى من ذلك إلا ما ينكتم له، ولا يفطن به.

والحيل فى الحروب وغيرها كثيرة الوجوه، وقد ضرب الناس لها أمثالاً، وأكثر ما تكون فى الحروب بالكتب المستخرقة، والجواسيس المأخوذة، وإشعار العدو أن أصحابه عليه لا له، وأنهم يضمرون خلافه، وأن عدوه قد تضافر عليه مع غيره من أعدائه، وأن كثيرًا من عماله قد مالأ عليه، وأرسل إلى عدوه، وأن تعمى عليه الوجوه التى يلقاه عدوه عليها، ويريه أنه يضرب له على أبعاض أنظاره ليشغله بالاحتياط على غير جهته بتفريق عسكره، وأن يريه أنه راجع عن قتاله لتفريق حشوده، ليرجع إلى مأمنه[١].

ووجوه الحيل أكثر من أن يحاط بها، وإنما هى مواد العقول، ونتائج الفكر والتجارب، وقد قالت الحكماء: لطيفات الحيل أنجح من الوسائل، والحيلة أنجح من القوة.

---

(١) انظر: الشهب اللامعة لابن رضوان (ص١٨٠).

واعلم أن الإقبال ينصر من الحيل ما لا معنى له، ولا يعتد بمثله، والتعذير يفسد منها ما لا مثيل له، وقد قالت الحكماء: إذا انقطعت المادة، كان الحتف فى الحيلة، وقالوا: لا تحمل الحركة فى التعذير، فإنها تعذر، وقالوا: لا يجب للعاقل أن يتكل على الإقبال، فيترك التحذر والاحتيال.

* * *

الباب التاسع والعشرون

فى التداهى والتغافل

الدهاء اسم لوضع الأمور فى مواضعها، والكف عما لا نفع فيه انتظارًا لما فيه النفع، وقد يوقع أيضًا هذا الاسم على من كثرت حيلته، وقويت فطنته، وكان وصوله إلى أغراضه بألطف الوجوه، التى يمكن التوصل بها إليها، فتراه أبدًا كأنه أبله، وهو متباله، فهو يحصى دقائق الأمور، ويدبر لطيفات الحيل، فلا ينطق حتى يرى جوابًا مسكتًا، أو خطابًا معجزًا، ولا يفعل حتى يرى فرصة حاضرة، ومضرة غائبة، فعدوه مغتر بعداوته، ومقدر عليه الغفلة والبله بغوايته، وهو مثل النار الكامنة فى الرماد، والصوارم المكنونة فى الأغماد[1].

واعلم أن الدهاء منه عند الحكماء التبرؤ من اسمه، وألا يوصف المتداهى والمتغافل بفعله، فإنه إذا لم يفطن له، وصل مع الغفلة عنه إلى فرصته، وأخذ عدوه وهو فى غرته، وإذا اشتهر بالدهاء، لم يأمن أن ينصت له حكيم، أو يتحرز منه ضعيف.

ومن آداب العاقل دفن [إربه][2] ما استطاع، وأن يعرفه الناس بالمسامحة فى الخليقة، والاستقامة على الطريقة.

وإذا كنت هيابًا للأمور بما معك من التحرز والتعقب، فإياك أن تشعر الناس بهيبتك لها، فإن ذلك مما يجرؤ عليك العدو، ويهينك عند الصديق، ويدعو إليك منهم كل الذى هبته.

وإذا كنت للمدح والثناء محبًا، فإياك أن تشعر الناس بذلك، فإنهم إذا شعروا به، كان

---

(١) انظر: بدائع السلك فى طبائع الملك لابن الأزرق (ص١٦٣).

(٢) ما بين المعقوفتين زيادة من الأدب الكبير (ص١٦٣)، والإرب هو العقل. انظر: لسان العرب (١/٥٥) (مادة/ أرب).

ثلمة يقتحمون عليك منها، وصرت كمادح نفسك، ولكن اصنع من الفضائل والمعروف ما تستحق به المدح، فسيأتيك وأنت مظهر لكراهيته، ومتبرئ من استحقاقه، واعلم أن الدهاء كل الدهاء مقاربة الناس فى عقولهم، فإنه السبب إلى السلامة من غوائلهم، ومنه أيضًا التغافل عن كل ذنب لا يستطاع على العقوبة عليه، وعن عداوة كل من لا يقدر على الانتصار منه، فأما التغافل عما لا يعنى، فهو العقل.

وقد قالت الحكماء: لا يكون المرء عاقلاً حتى يكون عما لا يعنيه غافلاً، وجامعه ألا تتكلم حتى ترى نكتة، ولا تفعل حتى ترى فرصة، وأن تتحلى بالغفلة، وأنت فى نهاية الفطنة.

* * *

الباب الموفى ثلاثين

فى فنون من الحكم والآداب

الأدب أكرم الجواهر طبيعة، وأنفسها قيمة، وبه ترتفع الأحساب الوضيعة، وتفاد الرغائب الجليلة، وبه يعتز من غير عشيرة، وينتصر من غير دربة، وهو المؤنس فى الوحشة، والصاحب فى الغربة، والمجمل فى المغيب والحضرة.

وأدب النفس أصل أدب الدرس، فلا ينمى الشىء دون مادته، ولا يطول الفرع إلا بأصله، وحلى الرجال ما يحسنون من الأدب، وحلى النساء ما يلبسن من الذهب، والفطنة الإصابة بالظن، ومعرفة ما لم يكن بما كان، والعاقل ينظر أولاً لصيانة دينه، ثم لصيانة نفسه، ثم لصيانة ماله.

وقدم الآخرة، تتبعك الدنيا، وقدم الدنيا، تذهبهما جميعًا، وتقوى الله عز وجل هى العدة الباقية، والجنة الواقية، وظاهر التقوى شرف الدنيا، وباطنها شرف الآخرة، وسادات الدنيا الأسخياء، وفى الآخرة الأتقياء، وعادات السادات، سادات العادات، ومن عفت أطرافه، حسنت أوصافه، ولا سرف فى الخير، ولا خير فى السرف، والشرف فى العلم، والعلم فى الشرف.

وإذا لم تدرك الفضائل بآبائك، تدركها بحسن أفعالك لأبنائك، والجود غاية الزهد، والزهد غاية الجود، وإن الله تبارك وتعالى يقتضى الإنعام منك بالإنعام عليك، فأفد من فائدته، واستفد بفضلك من فضله، والتواضع فى الشرف أشرف منه، والتواضع مصيدة

الشرف، والحق ظل ظليل، والباطل منقطع قليل، وحق مغلوب خير من باطل غالب. وإذا غلبت الحق فإنما غلبت نفسك، وإذا احتجت للباطل، فإنما خادعت عقلك، وما فات اليوم لا يدرك أبدًا.

ومن الفراغ تكون الصبوة، وعمل الناس فى الفراغ والصحة، والماضى بعيد وإن قرب، والآتى قريب وإن بعد، وما وافق الطباع تمكن، وما خالفها تغير، وأثبت المروءات مالم ينهنهه الفزع، ولم يغيره الطمع، والشكر قيد النعم، وعصمة من النقم، وأنت أخو العز ما التحفت بالقناعة، وأنت أخو الدوام، ما وقفت دون الغاية، وما أقبح التفريط بالعاقل، وما أوحش النعم عند الجاهل. وما توانيك وأنت للفوات خائف، وخذ من توانيك لارتحالك، ومن شبابك لاكتهالك، ومن صحتك لسقمك، ومن صباك لهرمك.

وقال ابن المقفع فى آخر كتابه المعروف بيتيمة الدهر: إنى مخبرك عن صديق لى، كان من أعظم الناس فى عينى، وكان الذى عظمه فى عينى، صغر الدنيا فى عينيه، كان خارجًا من سلطان بطنه، فلا يبغيها ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، وكان خارجًا من سلطان فرجه، فلا يستخف له رأيًا ولا بدنًا، وكان خارجًا من سلطان الجهالة، فلا يقدم يدًا ولا بدنًا إلا على ثقة بمنفعة، وكان أكثر دهره صامتًا، فإذا قال بذ القائلين، وكان ضعيفًا مستضعفًا، فإذا جاء الجد، فهو الليث عاديًا.

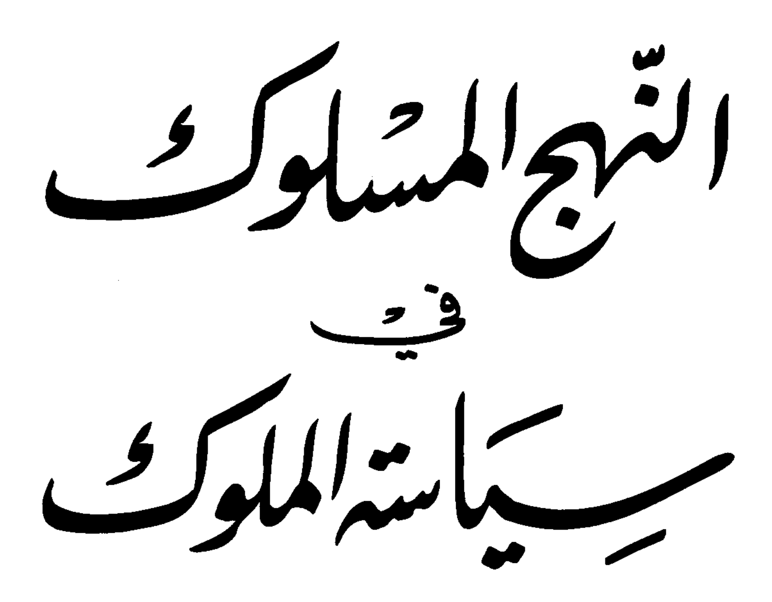
وكان لا يدخل فى دعوى، ولا يشارك فى مراء، ولا يدلى بحجة حتى يرى قاضيًا منصفًا، وشهودًا عدولاً، وكان لا يلوم أحدًا على ما قد يكون العذر من مثله، حتى يعلم ما وجه عذره، وكان لا يشكو وجعًا لمن لا يرجو عنده البرء، ولا صاحبًا لمن لا يرجو عنده النصيحة لهما جميعهما، وكان لا يتبرم، ولا يسخط، ولا يتشكى، ولا ينقم من الولى، ولا يغفل عن العدو، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشىء من اهتمامه بحيلته وقوته، فعليك بهذه الفضائل إن أطقتها، وإلا فخذ ما أطقت منها، فإن أخذ القليل خير من ترك الجميع.

والحمد لله حق حمده، والصلاة على سيدنا محمد نبيه وعبده. انتهى.

* * *



المحتويات



للشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر الشيزري

المتوفى سنة ٥٩٠هـ

تحقيق

محمد حسن محمد حسن إسماعيل

أحمد فريد المزيدي





ترجمة المصنف

الشيزرى

هو العلامة الأديب الفقيه الطبيب القاضى المعتبر: عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله أبو النجيب، جلال الدين العدوى الشيزرى، وقيل: الشيزرى، والشيرازى، قاضى طبريا، شيخ صلاح الدين الأيوبى وطبيبه، نسبته إلى قلعة شيزر قرب المعرة من أعمال حلب.

مصنفاته

١ - النهج المسلوك فى سياسة الملوك، بتحقيقنا.

٢ - نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، بتحقيقنا.

٣ - الإيضاح فى أسرار النكاح، بتحقيقنا.

٤ - خلاصة الكلام فى تأويل الأحلام، بتحقيقنا.

وهو كغيره من كثير من المصنفين، لم يُنصف فى ترجمته، وقد توفّي على الراجح سنة ٥٩٠هـ، وقيل: ٥٨٩هـ.

مصادر ترجمته

١ - الأعلام للزركلى (٣/٢٤٠).

٢ - كشف الظنون (١٩٨٧).

٣ - هدية العارفين (١/٥٢٨).

٤ - مجلة الكتاب (٢/٦٥٩).

٥ – معجم سركيس (١١٧٥).

٦ – فهرس معهد المخطوطات العربية.

٧ – فهرس دار الكتب الظاهرية.

٨ – فهرس مكتبة شستربتى (٤٨٨).

٩ – ٨٢٢ BROCK.S.I.

١٠ – قائمة دار الكتب العلمية، بيروت.

ولقد اعتمدنا فى تحقيق كتاب النهج المسلوك فى سياسة الملوك للشيزرى، على نسخة طبعت بمطبعة الظاهر سنة ١٣٢٦هـ.

كتبه: محمد حسن محمد حسن إسماعيل

أحمد فريد المزيدى

١٥ ذو القعدة ١٤٢٢هـ

* * *

 (١)

الحمد لله(٢) الذى عجزت العقول(٣) عن معرفة ذاتـه، والأفكـار عـن الإحاطـة بكنـه

---

(١) الباء للملابسة، والظرف مستقر، حال من ضمير ابتدئ الكتاب، كما فى: دخلـت عليـه بثيـاب السفر، أو للاستعانة، والظرف لغوّ، كما فى: كتبت بالقلم، من اختار الأول نظم إلى أنـه دخـل فى التعظيم، ومن اختار الثانى نظر إلى أنه مشعر بأن الفعل لا يتـم مـا لـم يصـدر باسـمه تعـالى، وإضافة اسم الله تعالى إن كـانت للاختصـاص فـى الجملـة، تشـمل أسـماءه كلهـا، وإن كـانت للاختصاص وضعًا لذاته تعالى المتصف بالصفات الجميلة، اختص بلفظ اللـه للوفـاق علـى أن مـا سواه معان وصفات، وفى التبرك بالاسم والاستعانة به كمال التعظيم للمسـمى، فـلا يـدل علـى اتحادهما، بل ربما يستدل بالإضافة على تغايرهما.

والرحمن الرحيم: اسمان بنيا للمبالغة، من رحم، كالغضبان من غضب، والعليم من علم، والأول أبلغ؛ لأن زيادة اللفظ تدل على زيادة المعنى، ومختص به تعالى بحسب الوضع، وليس كذلك، بل لأن معناه المنعم الحقيقى البالغ فى الرحمة غايتها، وتعقيبه بالرحيم من قبيـل التتميـم، فإنـه لمـا دل على جلائل النعم وأصولها، ذكر الرحيم ليتناول ما خرج منها.

انظر: القاموس المحيط للفيروزأبادى (٤/٢٩٢ - ٣٤٤)، غرر الأحكام لمنلاخسرو (١/٣).

(٢) افتتح المصنف، رحمه الله، بعد التيمن بالبسملة بحمد الله تعالى، أداءً لحق شىء بما يجب عليـه مـن شكر نعماته، التى تأليف هذا الكتاب أثر من آثارها، واقتداءً بالكتاب العزيز، وعملاً بخبر: «كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم، فهو أقطع»، وفى رواية: «بالحمد»، وفى رواية: «بالحمد لله»، وفى رواية: «وكل كلام لا يبدأ فيه بالحمد، فهـو أجـذم»، رواه أبـو داود وغـيره، وحسنه ابن صلاح وغيره، ومعنى ذى بال، أى حال يهتم به، وفى روايـة للإمـام أحمـد: «مـا لا يفتتح بذكر الله، فهو أبتر وأقطع». انظر: نهاية المحتاج للشمس الرملى (١/٢٤).

(٣) جمع عقل، وبه تعرف حقائق الأمـور، ويفصـل بـين الحسـنات، وقـد ينقسـم قسـمين: غريـزى، ومكتسب، فالغريزى هو العقل الحقيقى، وله حدّ يتعلق بـه التكليـف لا يجـاوزه إلى زيـادة، ولا يقصر عنه إلى نقصان، وبه يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان، فـإذا تـم فـى الإنسـان سـمى عـاقلاً، وخرج به إلى حد الكمال، كما قال صالح بن عبد القدوس:

إذا تـم عقـل المـرء تمـت أمـوره   وتمـت أمانيـه وتـم بنـاؤه

وروى الضحاك فى قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠]، أى من كان عاقلاً.

واختلف الناس فيه وفى صفته على مذاهب شتى، فقال قوم: هـو جوهـر لطيـف يفصـل بـه بـين حقائق المعلومات. ومن قال بهذا اختلفـوا فـى محلـه، فقـالت طائفـة منهـم: محلـه الدمـاغ؛ لأن=

صفاته، وتحيرت الأبصار فى بدائع مصنوعاته، وشهدت له بالوحدانية عجائب أرضه وسمواته، وبعد: فأحمده على مننه العظام، وأياديه الجسام، حمد معترف بسوابغ الأنعام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إلهًا منعوتًا بالجلال، موصوفًا بالكمال، منزهًا عن الحركة والسكون والانتقال، مقدسًا عن الجسم والشج والخيال، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، أرسله ببرهان لامع المنار، وقرآن ساطع الأنوار، قاطع بإعجازه حجج الكفار، وقامع بإيجازه ألباب أولى الأفكار، صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأطهار، صلاة قائمة بالعشىّ والإبكار، وبعد:

قال عبد الرحمن بن عبد الله: لما كان المولى الناصر صلاح الدين يوسف ملك الإسلام والمسلمين، أبو المظفر ابن أيوب بن شادى مجده أمير المؤمنين، أدام الله دولته، وحرس على الإسلام طلعته، قد أتاه الله ملكه العظيم، وهداه صراطه المستقيم، وأورثه مشارق الأرض ومغاربها، وأوطأه من الملوك رقابها ومناكبها، ممن يعز الأدب وفضله، ويؤثر العلم وأهله، ضممت لخزانة علومه هذا الكتاب، وهو يحتوى على طريق من الحكمة، ومن الأدب، وأصول من السياسة وتدبير الرعية، ومعرفة المملكة، وقواعد التدبير، وقسمة الفىء والغنيمة على الأجناد، وما يلزم الجيش من حقوق الجهاد، ونبهت فيه على الشيم الكريمة، والأخلاق الذميمة، وأشرت فيه إلى فضل المشورة، والحث عليها، وكيفية مصابرة الأعداء، وسياسة الجيش، وأودعته من الأمثال ما يسبق إلى

=الدماغ محل الحس، وقالت طائفة منهم: محله القلب؛ لأن القلب معدن الحياة ومادة الحواس.
قال الشيخ الماوردى: وهذا القول فى العقل بأنه جوهر لطيف فاسد، من وجهين، أحدهما: أن الجواهر متماثلة، فلا يصح أن يوجب بعضها ما لا يوجب سائرها، ولو أوجب سائرها ما يوجب بعضها، لاستغنى العاقل بوجود نفسه عن وجود عقله. والثانى: أن الجوهر يصح قيامه بذاته، فلو كان العقل جوهرًا لجاز أن يكون عقل بغير عاقل، كما جاز أن يكون جسم بغير عقل، فامتنع بهذين أن يكون العقل جوهرًا.
وقال آخرون من المتكلمين: العقل هو المدرك للأشياء على ما هو عليه من حقائق المعانى، وهذا القول وإن كان أقرب مما قبله، فبعيد من الصواب من وجهٍ واحدٍ، وهو أن الإدراك من صفات الحى، والعقل عرض يستحيل ذلك منه، كما يستحيل أن يكون متلذذًا، أو ألمًا، أو مشتهيًا. وقال آخرون من المتكلمين: العقل هو جملة علوم ضرورية، وهذا الحد غير محصور لما تضمنه من الإجمال، ويتناوله من الاحتمال والحد، وإنما هو بيان المحدود بما ينفى عنه الإجمال والاحتمال.
وقال آخرون: إن العقل هو العلم بالمدركات الضرورية. قال الشيخ الماوردى: وهو القول الصحيح. انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص٤).

الذهن شواهد صحتها، ومعالم أدلتها، مع نوادر الأخبار، وشواهد من الأشعار، وفصلته أبوابًا تتضمن حكايات لائقة، ومواعظ شائقة، وحكمًا بالغة، وسلكت فى ذلك كله طريق الاختصار، ومذهب الإيجاز؛ لئلا تمجه الخواطر، وترفضه الأسماع، وسميته: «النهج المسلوك فى سياسة الملوك»، وكنت فى إيداعه خزانة علومه، كمهدىء الماء إلى هجر، أو الكافور إلى قيصور، ولكن قصدت بذلك إيصال الحكمة لأهلها، وأن أضعها فى محلها، وبالله أعتصم، وعليه التوكيل، وهو عشرون بابًا، وبالله التوفيق، وهو حسبى ونعم الوكيل، حسبى الله.

الباب الأول: فى بيان افتقار الرعية إلى ملك عادل.

الباب الثانى: فى بيان فضل الأدب وافتقار الملك إليه.

الباب الثالث: فى معرفة قواعد الأدب.

الباب الرابع: فى معرفة أركان المملكة.

الباب الخامس: فى معرفة الأوصاف الكريمة والحث عليها.

الباب السادس: فى معرفة الأوصاف الذميمة والنهى عنها.

الباب السابع: فى كيفية رتبة الملك مع أوليائه حال جلوسه.

الباب الثامن: فى بيان فضل المشورة والحث عليها.

الباب التاسع: فى بيان أوصاف أهل المشورة.

الباب العاشر: فى معرفة أصول السياسة.

الباب الحادى عشر: فى معرفة جلوس الملك لكشف المظالم.

الباب الثانى عشر: فى ذكر أدب صحبة الملك.

الباب الثالث عشر: فى معرفة ما تكاد به الملوك فى غالب الأحيان.

الباب الرابع عشر: فى ما ينبغى للملك من سياسة الجيش وتدبير الجنود.

الباب الخامس عشر: فى ما يلزم أهل الجيش من حقوق الجهاد.

الباب السادس عشر: فى مصابرة المشركين.

الباب السابع عشر: فى معرفة قتل قطاع الطريق وأهل الردة والبغى.

الباب الثامن عشر: فى معرفة قسمة الفىء والغنيمة.

الباب التاسع عشر: فيما ينبغى للملك فعله عند قفول الجيش.

الباب العشرون: فى الحث على استماع المواعظ وقبولها من النساك.

* * *

الباب الأول

فى بيان افتقار الرعية إلى ملك عادل

قال عبد الرحمن: لما كانت الرعية ضروبًا مختلفة، وشعوبًا مختلطة متباينة الأغراض والمقاصد، متفرقة الأوصاف والطباع، افتقرت ضرورة إلى ملك عادل يقوم بأودها، ويقيم عمدها، ويمنع ضررها، ويأخذ حقها، ويذهب عنها ما أشقاها، ومتى خلت من سياسة تدبير الملك كانت كسفينة فى البحر اكتنفتها الرياح المتواترة، والأمواج المتظاهرة، قد أسلمها الملاحون، واستسلم أهلها إلى المنون.

واعلم أن الرعية تستظمىء إلى عدل الملك وتدبيره، استظماء أهل الحرث إلى الغيث الوابل، وينتعشون بطاعته كانتعاش النبت بما يناله من ذلك القطر، بل الرعية بالملك أعظم انتفاعًا منها بالغيث؛ لأن للغيث وقتًا معلومًا، وسياسة الملوك دائمة لا حد لها، ولا وقت، والرعية فى تباين أوصافها كنبات الأرض، فمنه الطيب المثمر، ومنه الخبيث القاتل، فما كان منه طيبًا، فإنه لا تزكوا أصوله فى أرضه، ولا تندى فروعه إذا جاوزه الخبيث فيها؛ لأن الخبيث يسبق مادته فى القرار، فيشربها وتكشف فروعه فى الفضاء، فلا يصل إلى الطيب حظه من النسيم، فإذا أصلحت الأرض، وأخرج ما فيها من النبت الخبيث، انتعش نبتها الطيب، وقوى أصله، ونما فرعه، وطاب ثمره، وكذلك الرعية لما جاور الخبيث طيبها، افتقرت ضرورة إلى ملك يصلح فاسدها، ويقمع صائلها، ويكسر شوكة أهل التعدى عليها لتنتعش أحوالها، وتزكو أموالها، ويكثر خيرها، وتصلح أمورها.

وقد قيل: الرعية بلا وال، كالأنعام بلا راع، فانظر سائمة الأنعام فى مراعيها إذا خلت من راعيها، ما أشد اختلال حالها، واختلاف أفعالها، بل الرعية أشد اختلالاً، وأكثر اختلافًا، فلابد من سلطان يمنعهم من المظالم، ويفصل بينهم فى التنازع والتخاصم، ولولاه لكانوا فوضى مهملين، وهمجًا مضاعين، وقال الأفوه الأودى:

لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا
والبيت لا ينبنى إلا بأعمدة ... ولا عماد إذا لم ترس أوتاد
إن تجتمع فيه أوتاد وأعمدة ... لا شك نال أهالوه الذى رادوا

* * *

الباب الثانى

فى فضل الأدب وافتقار الملك إليه

قال عبد الرحمن: لما اقتصرت الرعية فى تدبيرها إلى تدبير الملك، وكان الأدب مجموع خلال حميدة، وخصال جميلة، افتقر إليه الملك ضرورة لتصدر عنه تصاريف التدبير فى المملكة على قانون العدل الذى به دوام المملكة، فقد قيل: من حسنت سياسته، دامت رئاسته.

واعلم أن الأدب أحد الأوصاف الأربعة التى يشترط قيامها بالملك فى تدبير المملكة، على ما سنوضحه فى موضعه، فإذا خلى الملك منه، اختلت سياسته وتدبيره، وقيل: الأدب صورة العقل، فمن لا أدب له، لا عقل له، ومن لا عقل له، لا سياسة له، ومن لا سياسة له، لا ملك له، وقال بعضهم: قرأت فى التوراة: أحسن الحلية الحسب، ولا حسب لمن لا مروءة له، ولا مروءة لمن لا عقل له، ولا عقل لمن لا أدب له. وقال بعض الحكماء: الأدب عصمة الملوك؛ لأنه يمنعهم من الظلم، ويردهم إلى العلم، ويصدهم عن الأذية، ويعطفهم على الرعية، فمن حقه أن يعرفوا فضله، ويعظموا أهله.

وقال بعض الحكماء: ليس للمرء أن يفخر بحلة جليلة نالها بغير عقل، ومنزلة رفيعة جلبها بغير أدب، فإن الجهل ينزله منها، ويزيله عنها، ويحطه إلى رتبته، ويرده إلى قيمته بعد أن تظهر عيوبه، وتكثر ذنوبه، ويصير مادحه هاجيًا، ووليه معاديًا. وكان يقال: عقل الأديب أبدًا فى إرشاد، ورأيه فى سداد، فقوله سديد، وفعله حميد. وقال رجل من قيس لسيد من قريش: اطلب الأدب، فإنه زيادة فى العقل، وكمال فى المنصب، ودليل على المروءة، وصاحب فى العزلة، وصلة فى المجالس، ويقال:

أدب المرء كلحم ودم ... ما حواه جسد إلا صلح
لو وزنّا رجلاً ذا أدب ... بألوف من ذوى الجهل رجح

وكان يقال: الأدب مال، واستعماله كمال. وأوصى ملك ولده، فقال: يا بنى، خصلتان يسود بهما المرء إن كان غير ذى مال: العلم، والأدب، يا بنى، جالس الكبراء، وخالط العلماء، فإن مؤاخاتهم كريمة، ومجالستهم غنيمة، وصحبتهم سليمة.

وأوصى رجل ولده، فقال: يا بنى، عليك بالأدب، فإنك إن كنت غنيًا كنت شريف قومك، وإن كنت محتاجًا لم يستغن عنك، ويحتاجك رؤساء البلاد وأشرافهم. وقيل:

من قعد به نسبه، نهض به أدبه. وقال بزر جمهر: ما أورث الآباء أبناءهم شيئًا أفضل من العلم والأدب؛ لأنهم إذا أورثوهم الأدب والعلم، اكتسبوا بهما الأموال، ونالوا بهما أعلى المراتب، وإذا أورثوهم الأموال أضاعوها وبقيوا هم عدمًا من قلة الأدب.

وكان يقال: الأدب خير ميراث، وحسن الخلق خير قرين، والتوفيق خير قائد، والاجتهاد أربح تجارة، ولا مال أغنم من العقل، ولا عقل أوثق من المشورة، ولا فقر أشد من الجهل. وقيل: الأدب ثوب جديد لا يبلى، والعلم كنز عظيم لا يفنى. وقيل: من أدب ابنه أرغم عدوه. وقيل: ثلاثة ليس معهن غربة: حسن الأدب، ومجانبة الريب، وكف الأذية.

وقال نصر بن سيار: كل شىء يبدأ صغيرًا ثم يكبر، إلا المصيبة، فإنها تبدو كبيرة ثم تصغر، وكل شىء يرخص إذا كثر، إلا الأدب، فإنه إذا كثر غلا، واعلم أن فضل الأدب أشهر من أن يسطر، وفى النفس الأبية باعث إليه إذا كانت تأبى ضده، وتكره مخالفته، وله قواعد تبنى عليها أركانه سنذكرها إن شاء الله تعالى.

* * *

الباب الثالث

فى معرفة قواعد الأدب

لما كان الأدب وصفًا مشروطًا للملك فى تدبير المملكة، افتقر فى ذلك إلى معرفة قواعده الذى لا يتحقق بدونها، ولا ينبنى إلا عليها، وهما قاعدتان لا يسع للملك تركهما، إذ هما أصلان فى السياسة والتدبير، القاعدة الأولى العلم، اعلم أن العلم بأحكام الدين، وضبط الشريعة، واجب على كل مسلم، وعلى الملوك أشد وجوبًا؛ لافتقارهم إلى إقامة الحدود الشرعية، وأخذ الحقوق من وجوهها، وصرفها إلى أربابها وجهاتها؛ ليتحقق منهم العدل الذى قامت به السموات والأرض، ومتى كان الملك جاهلاً من تدبيره، كان ذلك هدمًا لقواعد المملكة.

وقال عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه: من عمل بغير علم، كان ما يهدم أكثر مما يبنى[1].

---

(١) وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: يا بنى، تعلموا العلم، فإن كنتم سادة فقتم، وإن كنتم وسطًا=

وقال عبد الرحمن: ولا محالة إذا كان ملك المدينة خاليًا من العلم، ركب هواه، وتخبطه ما يليه إذ لا تحجبه فكرة سليمة، ولا تمنعه حجة صحيحة، ويكون كالفيل الهايج فى البلد القفر، لا يمر بشىء إلا تخبطه، وإذا كان الملك عالمًا، كان له من علمه رادع يقمع هواه، ويميل به إلى سنن الحق، كالفيل الهايج إذا خرج من البلد القفر إلى الأنيس، ذللته السلسلة، وقهرته الكلاليب حتى تحمل عليه الأثقال.

وقال بعض الحكماء: الملك إذا لم يطرزه علم، كان مذلة آجلة، والعلم إذا لم يؤيده عقل كان مضلة عاجلة.

وكان يقال: إذا أراد الله بأمة خيرًا، جعل العلم فى ملوكهم، والملك فى علمائهم، وقال بعض الحكماء: العلم عصمة الملوك؛ لأنه يمنعهم من الظلم، ويردهم إلى الحلم، ويصدهم عن الأذية، ويعطفهم على الرعية.

وقال ابن عباس، رضى الله عنه: إن سليمان بن داود، عليهما السلام، خيره الله تعالى بين العلم والملك، فاختار العلم، فأعطاه الله تعالى العلم والملك جميعًا.

وأوصى ملك من ملوك اليمن ولى عهده، فقال: اتق من فوقك يتقك من تحتك، وكما تحب أن يُفعل معك فافعل برعيتك، فانظر كل حسن فافعله، واستكثر من مثله، وكل قبيح فارفضه، وبالنصحاء يستبين لك ذلك، وخيرهم أهل الدين، وأهل النظر فى العواقب، واستكثر من العلم، فإنه أساس التدبير، وما ليس له أساس فمهدوم، وإنما رأيت الملوك تؤتى من ثلاثة أمور، فاحسم عنك واحدًا، وأحكم اثنين، وهى: اتباع الهوى، وتولية من يستحق، وكشف أمور الرعية، فإنك إن ملكت هواك، لم تستأثر، ولم تعمل إلا بالحق، وإن وليت المستحق كان عونًا لك على ما تحب، ولم تضيع على يديه الأمور، وإذا تناهت إليك أمور رعيتك، فاستفهم من الوضيع فى حق الرفيع، وأمسك المظالم، وآمن المظلوم والسالم.

وحكى أن عبد الله بن صالح بن على دخل بغداد على بعض شباب بنى العباس، فحادثه فوجده على خلاف ما عهد إليه أسلافه فساءه ذلك، فلما خرج من عنده قال:

=سدتم، وإن كنتم سوقة عشتم. وقال بعض الحكماء: العلم شرف لا قدر له، والأدب مال لا خوف عليه. وقال بعض الأدباء: العلم أفضل خلف، والعمل به أكمل شرف. انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص١٣).

إن الجهل يحط أولى المراتب، ويصغر ذوى المناصب، ثم أنشد:

تعلم فليس المرء يولد عالمًا وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده صغير إذا التفت عليه المحافل

وقال بعض العلماء: الجهل مطية من ركبها زل، ومن صحبها ضل، وأنشدنى بعض أهل العلم شعرًا فى المعنى:

احفظ العلم ما استطعت فإنـ ـك إن كنت خاملاً رفعك
اترك الجهل ما استطعت فإنـ ـك إن كنت عاليًا وضعك

وقال بعض العلماء: من غرس العلم اجتنى النباهة، ومن غرس الزهد اجتنى العزة، ومن غرس الإحسان اجتنى المحبة، ومن غرس الفكرة اجتنى السلامة، ومن غرس الكبر اجتنى المقت، ومن غرس الحرص اجتنى المذلة، ومن غرس الطمع اجتنى الخزى، ومن غرس الحسد اجتنى الكمد.

القاعدة الثانية من قواعد الأدب نهى النفس عن الهوى، وذلك لازم للملك فى التدبير؛ لأن صواب الرأى وخطأه إنما يكون بحسب قوة التخيل الفكرى وضعفه، فمن قوى تخيل فكره، كان على سلطان الهوى غالبًا، وإنما يضعف التخيل الفكرى إذا استولت على النفس الشهوات، فيحتجب العقل عن صواب الرأى، فإذا قهر الملك نفسه عن هواها، ومنعها شهواتها الضارة بها ونهاها، ظهر له صواب الرأى والتدبير فى أمره بالعقل، ومتى لم يملك الملك ضبط نفسه عن هواها، وهى واحدة، لم يملك ضبط حواسه، وهى خمس، وإذا لم يملك ضبط حواسه مع قلتها وذلتها، صعب عليه ضبط الخاصة من أعوانه والعامة، مع كثرة جمعهم وخشونتهم، ومن لم يضبط خاصته من أعوانه وهم نصب عينيه، لم يضبط عامته من رعيته فى أقاصى بلاده وأطراف مملكته، وليس للآدمى عدو أقوى من نفسه، فبقهر الآدمى نفسه يقهر حواسه الخمس؛ لأنها أعوان النفس، ودليلها على الشهوات الموبقة، وقد رأينا قوة الحاسة الواحدة منهن على انفرادها إذا أتت على نفس من النفوس القوية الحذرة، ألهتها عن مصلحتها حتى توردها موارد الموت، فكيف إذا اجتمعت خمس على نفس واحدة.

فمن ذلك أن الظبى مع شدة نفوره إذا سمع صوت أواتى القفر مع تواتر النقرات واصطحابها، ألهاه سماع ذلك عما يراد به، فيلبث فى مكانه حتى يأتيه الصياد فيقبضه،

والفيل مع عظم جسمه وشدة قوته، يلهيه لين اللمس، ويذهله عن نفسه حتى تنصب لـه المصائد، فيصاد ويذل ويركب عنقه، والجـراد الـذى يستكن مـن حـر الشـمس إذا رأى ضوء النار أعجبه نورها، وحسن منظرها، فيلهيه ذلك حتـى يلقـى نفسـه فيهـا فتحرقـه، وذباب الورد المتتبع لطيب الروايح، يطلب ما يقطر من أصل أذن الفيل عند هيجانه، فإنه يكون فى طلب رائحة المسك، ولا يهوله تحريـك أذن الفيـل، بـل يلهيـه شـم ذلـك عـن الاحتراز حتى يلج فى أصل أذنه، فتقع عليه الأذن فتقتله، والسمك فى البحر يسلبه ذوق الطعم، ويلهيه عن الصنارة التى فيها اللحم فيبلعها، فيكون فيها حتفه، فمـن ملـك هـذه الحواس الخمس، فقد ملك نفسه، ومن ملك نفســه حسـنت سياسـته، ودامـت رئاسته، ومن أعطى نفسه هواها باتباع ملاذ شهواتها، اشـتغل عـن تدبـير مهماتـه، فتخـل أمـور دولته، وتنحل عرى مملكته.

وسُئل رجل من بنى أمية عن سبب زوال دولتهم، فقال مثل ما قال بزرجمهر: شـغلتنا لذاتنا عن مهماتنا، وقل عطاؤنا لجندنا، فقل ناصرنا، وجرنا علـى أهـل خراجنـا، فدعـوا علينا، وطلبوا الراحة منا، وأشد من ذلك أنا استعملنا صغار العمال على كبار الأعمـال، فآل ملكنا إلى ما آل. وقال بعض الحكماء: العقل كالزوج، والنفس كالزوجـة، والجسـم كالبيت لهما، فإذا كان سلطان النفس غالبًا قاهرًا، اشتغلت النفس بمصـالح الجسـم، إمـا لمنفعة تجلبها، أو لمضرة تجتنبها، كما تشتغل الزوجـة التـى قهرهـا زوجهـا بمصـالح بيتهـا العائدة عليها وعلى زوجها، وإن كان سلطان النفس على العقل غالبًا، كان سعى النفس فاسدًا، ونزعاتها مذمومة، كفعل الزوجة التـى قهـرت زوجهـا، وكـان يقـال: إن الملـك الحازم يخاف ظهور عدوّه عليه، حتـى يتجـاوز عـدوه قضايـا العقـل إلى قضايـا الهـوى، فحينئذ يبشر بالغلب، ويثق بحسن المنقلب.

وكان يقال: الهوى كالنار إذا عسر إيقادها عسـر إخمادهـا، والسـيل إذا اتصـل مـدة تعذر رصده. وقال المـأمون: الهـوى يبـين مـن الأخـلاق قبائحهـا، ويظهـر مـن الأفعـال فضائحها، ولهذا شعر:

إذا مـا رأيـت المرء يقتـاده الهـــوى ... فقـد ثكلتــه عنــد ذاك ثواكلــه
وقـد أشـمت الأعـدا جميعـًا بنفســه ... وقـد وجـدت فيـه مقـالاً عواذلــه
وما يزع النفس الحـرون عن الهوى ... مـــن الناس إلا حـــازم الرأى كاملـه

وقال أزدشير: ما استعان ملك على رعيته بعدل أفضل مـن مجانبتـه الهـوى. وأوصى

رجل ولده، فقال: يا بنى، اعص هواك والنساء، وافعل ما شئت. وكان يقال: إذا غلب عليك عقلك فهو لك، وإذا غلب عليك هواك فهو لعدوك. وقال بعض الحكماء: أكثر مخالفة الهوى، فإن النفس أمارة بالسوء، تكره ما لها، وتحب ما عليها، ولا يسلم من الندم من استنصح الهوى والنفس، ولهذا شعر:

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى   إلى بعض ما فيه عليك مقال

وأوصى ملك من ملوك حمير أخاه، فقال: لا يكن الإفراط من شأنك فى نكال، ولا نوال، فإنه من النكال يجحفك، ومن النوال يؤثمك، وإذا أنكرت نفسك فأمسك وغالب هواك، فإنه أضر ما اتبعت، واعمل بالحق، فإنه لا يضيق مع شيء، ولا يتعب فيه عاقل، ولا يعقبك فيه تبعة، وليكن خوف بطانتك لك أشد من أنسهم بك.

وأوصى ملك من العرب ولى عهده، فقال: كن بالحق عمولاً، وعما جهلت سؤولاً، وأول شيء تؤدب به نفسك منعها عن شهواتها، وردعها عن هواها، فلا شيء أضر بالمملكة من اتباع الهوى، واخفض عن الأمور يظهر لك حقائقها، واستبطن أهل التقوى وذوى الأحساب تزين نفسك، وتحكم أمرك، وإياك وقبول التزكية فيما لا تشك أنك مكذوب فيه، فإنها خدعة تتبعها صرعة، ولا تضع سرك إلا عند من يكتمه، ولا تثق برجل تتهمه، ولا تعوّد لسانك الخنا، ولا تكلف نفسك ما لا تقوى عليه، وإذا هممت بخير فعجله، وإذا هممت بخلافه فتأن فيه، وإياك وكثرة التأنى، فمن تأنى على الله أكذبه، وارحم ترحم، شعر:

قد يدرك الحازم ذو الرأى المنا   بطاعة الحزم وعصيان الهوى

* * *

الباب الرابع

فى معرفة أركان المملكة

اعلم أن المملكة تبنى على قاعدة كلية، لا قوام لها بدونها، ولا تثبت إلا عليها، وهى منها بمنزلة الرأس من الجسد، فكما لا بقاء للجسد بعد الرأس، كذلك لا بقاء للمملكة بدون هذه القاعدة، وهذه القاعدة لها أركان خمسة بها قوام القاعدة، فإذا انتقص منها ركن أوهن القاعدة، وأفضى إلى اضطرابها، فتحل المملكة، كما أن النفس يقوم بها

أركان خمسة، وهى: الغذاء، والشحم، والدم، والمخ، والعظم، فإذا انتفض منها ركن فى شخص، بطل عنه البواقى، وخرج عن السلامة، وهذه القاعدة وأركانها الخمسة لها أساس لا تثبت إلا عليه، فإذا اتسع هذا الأساس اختلت الأركان، واضطربت القاعدة وأفضى الأمر إلى هدم الجميع، وسنوضح ذلك إن شاء الله تعالى.

أما القاعدة التى تنبنى عليها المملكة، فهى: الملك المنتصب لتدبير الرعية، وسياسة الملك، ويقيمه أوصاف أربعة لا ينفك عنه واحدة منهن، وهى: أدبه، وعقله، وعدله، وإقدامه، فإذا عرى عن شىء من ذلك، ذهبت قوته، وضعفت عن عمل المملكة، كالطبائع الأربع المركبة فى جسد الإنسان لا قوام لها إلا بها، فإذا خلا عن واحدة منهن، انحل تركيب الجسم، وزهقت منه النفس، فإذا استقام الملك بهذه الأوصاف، قامت به المملكة.

والركن الأول من أركان المملكة هو الوزارة: وهو على ضربين: وزارة تفويض، ووزارة تنفيذ، فأما وزارة التفويض، فهو أن يستوزر الملك من يفوض إليه تدبير الأمور برأيه؛ لأن ما وكل إلى الملك من تدبير الرعية لا يقدر على مباشرة جميعه إلا بالاستعانة، وأما وزارة التنفيذ، فالنظر فيها مقصور على رأى الملك وتدبيره، والوزير هو واسطة بين الملك وبين الرعية، يؤدى عنه ما أمر به، وينفذ ما ذكر، ويمضى ما حكم، ويخبر عنه بتقليد الولاة، وتجهيز الجيوش، ويعرض عليه ما ورد من أمرهم، وما تجدد من حدث ملم، ولا مندوحة للملك عن نظر الوزير واستعمال رأيه فيما يجهله من أمور التدبير والوقائع الحادثة، وقد روت عائشة، رضى الله عنها، أن النبى ﷺ، قال: «من استعمل على عمل وأراد الله به خيرًا، جعل له وزير صدق، إن نسى ذكره، وإن ذكر أعانه»[1].

وقد ينجو المغلوب من الملوك برأى وزيره، حتى يغلب من غلبه بقوة رأيه، وإن كان ضعيفًا بلطف حيلته، والغالب له أقوى منه. واعلم أنه لابد للوزير أن يستعمل فيه عشرة أوصاف:

الأول: العلم؛ لأن تدبير الجاهل يقع مخالفًا للشرع، فيكون وبالاً.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٣١/٣) ح (٢٩٣٢)، والإمام أحمد فى مسنده (٧٠/٦) ح (٢٤٤٥٩)، وابن حبان فى صحيحه (٣٤٥/١٠) ح (٤٤٩٤)، والبيهقى فى الكبرى (١١١/١٠) ح (٢٠١٠٧)، وعزاه الحافظ الهيثمى للبزار، وقال: رجاله رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد (٢١٠/٥).

الثانى: السن؛ لأن الشيخ حنكته التجارب، وعركته النوائب، وشاهد من اختلاف الدول ونزول الحوادث ما أوضح لعقله صواب الرأى فى التدبير.

الثالث: الأمانة، حتى لا يخون فيما اؤتمن عليه، ولا يغش فيما استنصح فيه.

الرابع: صدق اللهجة، حتى يوثق بخبره فيما يؤديه، ويعمل بقوله حتى ينهيه.

الخامس: قلة الطمع، حتى لا يرتشى، ولا ينخدع.

السادس: أن يصلح وأن يسلم فيما بينه وبين الناس من عداوة أو شحناء؛ لأن العداوة تصد عن التناصف، وتمنع من التعاطف.

السابع: أن يكون ذكورًا لما يؤديه إلى الملك، أو ينقله عنه؛ لأنه شاهد له وعليه.

الثامن: الذكاء والفطنة، حتى لا يدلس عليه فيشتبه، ولا تموه عليه الأحوال فتلتبس؛ لأن الأمور لا يصح مع اشتباهها عزم، ولا يتم مع التباسها حزم.

التاسع: أن لا يكون من أهل الأهواء، فيخرجه الهوى من الحق إلى الباطل، ويتدلس عليه المحق من المبطل؛ لأن الهوى خادع الألباب، وصارف عن الصواب.

العاشر: أن يكون من أهل الكفاءة فيما وكل إليه من أمر الحرب والخراج، خبيرًا بهما، عارفًا بتفصيلهما، فلا يكون مباشرًا لهما تارة، ومسيبًا تارة أخرى.

وعلى هذا الوصف مدار الوزارة، وهذه الأوصاف العشرة بها تنتظم أمور السياسة، ومتى لم تجتمع فى الوزير هذه الأوصاف العشرة، كان تدبيره ناقصًا بقدر ما نقص منها.

وحكى أن المأمون كتب فى اختيار وزير: إنى التمست لنفسى وتدبير أمورى رجلاً جامعًا لخصال الخير، ذا عفة فى خلائقه واستقامته فى طريقه، قد هذبته الآداب، وحنكته التجارب، إن اؤتمن على الأسرار قام بها، وإن قلد مهمات الأمور نهض فيها، يسكته الحلم، وينطقه العلم، وتكفيه اللحظة، وتغنيه اللمحة، له صولة الأمراء، وأناة الحكماء، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، إن أحسن إليه شكر، وإن ابتلى بالإساءة صبر، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه.

قال عبد الرحمن: وهذه الأوصاف إن كملت فى الوزير، فقل أن يكمل فى الصلاح

بنظر عام، وبتدبير تام، وإن اختلفت، فالصلاح بحسب نقصها مختل، والتدبير على قدرها معتل. وقد كان الفضل بن سهل وزير المأمون يبعث أصحابه إلى البلاد عيونًا، يسمعون ما تقول الناس فيه من خير أو شر، فيطالعونه بذلك، فما سمع من خير ازداد منه، وما سمع من عيب فيه أزاله، وإن وفدًا قدموا على المأمون من بلاد الروم فأكرمهم، فلما رجعوا إلى بلادهم قال عقلاؤهم: ما رأينا مثل المأمون جلالة، وعقلاً، ولا رأينا مثل وزيره فى سمته وكمال أوصافه، لولا أنه حديث السن، ومن شأن الملوك أن يستوزروا المشايخ الذين اجتمعت لهم الحيلة والرئاسة والعلم والتجربة، فأخبره أصحابه بذلك، قال: فاحتجب ثلاثة أيام فى داره يعالج لحيته حتى ظهر للناس وهى بيضاء.

ولا يجوز أن يكون الوزير امرأة؛ لقوله ﷺ: «ما أفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة»[1].

الركن الثانى من أركان المملكة الرعية: اعلم أن الرعية ركن شديد من أركان المملكة، وهى قسمان: خاصة وعامة، والخاصة قسمان: متصنع فى خدمة الملك، ومطبوع على الانكماش، والقيام بحقوق الخدمة، فليعرف الملك المتصنع منهم والمطبوع، فإن العون من الخاصة المتصنع فى خدمته يكون فى أول ذلك نشيطًا مواظبًا للخدمة، ثم يدركه فتور الطبيعة، وقصور الهمة، فيفتر عما يتعاطاه أولاً، ويذهب تصنعه، والمطبوع على الانكماش فى الخدمة يكون نشطًا فى كل وقت مثل نشاطه فى أول خدمته، وأما العامة، فهم ثلاث طبقات: أخيار، وأشرار، ومتوسطون بين ذلك، ولكل طبقة منهم سياسة سنذكرها فى مواضعها إن شاء الله تعالى.

والمطلوب من الرعية طاعة الملك، وذل الجانب، وعمارة البلاد، وأداء الحقوق، وإنما يحصل ذلك بنشر العدل عليهم، على ما سنذكره فى بابه إن شاء الله تعالى.

الركن الثالث من أركان المملكة القوة: فقوة الملك تنقسم إلى ثلاثة أقسام، أحدها: قوة رتبته فى الناس، وهيبته عليهم، وما يقع فى نفوسهم من عزته وسطوته واستعلائه وقدرته، الثانى: قوة احتماله بنفسه لما يرد عليه من الأمور واستقلاله بذلك، الثالث: قوة التدبير لأمور المملكة والنفاذ فيها بحسن نظر العواقب فى الأمور.

---

(١) لم أجده فى مظانه.

أما القوة الأولى، فتحصل بحسن السياسة على ما سنذكره فى موضعه، والقوة الثانية تحصل بآداب النفس كما ذكرناه فى الباب الذى قبله، والثالثة تنقسم على ثلاثة أقسام، أحدها: تدبير إبرام الأمور بعد الاحتيال فيها، ووضع الأصول لها، الثانى: تدبير معرفة الوقوف على الأمر الذى لا يوجد للتدبير فيه حيلة حتى لا يصير إلى ما يصير إليه، ثم يطلب الحيلة فيه بعد ذلك، الثالث: تدبير ما لا حيلة فيه.

واعلم أن أفضل هذه القوى قوة التدبير، فأما الأمر الذى لا حيلة فيه ولا رفق، فالحيلة فيه الصبر واللين؛ لأن متعاطى الشدة فيه ينقلب اللين عليه إذا لم يرفق، ألا ترى أن ذا القوة لقوته يناله الضرر من سباحة الماء على ليونته، ولم يقطعه بقوته، فإذا رفق سهل عليه عبوره الماء، وأمكنه قطعه، وكذلك من حاول أن يقعد بكفه على الهواء صعب عليه، ولم يجد إلى ذلك سبيلاً، ولو أن الفيل بقوته تعاطى ثلم الجبل بنابه، انكسر ولم يؤثر فى صفوانه شيئًا، والرجل على ضعفه برفقه وحيلته يتخذ من الجبل الصلد مسكنًا، وقد يذيب الحديد الشديد برفقه وحيلته.

واعلم أن الملك القوى قد ينبو عن حد قوته إذا لم يعنه رفق، كما ينبو السيف عن ضربته، وإن كان من الحديد الشديد حتى يسقى من الماء الذى هو لين سيال، فتشحذ مضاربه، حتى إذا حمل على الحديد الذى هو من جنسه قطعه كله، ذلك إنما يحصل بالرفق دون الخرق، وسنوضح كيفية التدبير فى مواضعه إن شاء الله تعالى.

الركن الرابع من أركان المملكة المال: اعلم أن بيت المال ركن عظيم للمملكة، تتعلق به المصالح الكلية من أرزاق المقاتلة، والولاة، وأعوانهم، وتجهيز الجيوش، وأرزاق الفقراء والمساكين، وأهل العلم، وسد الثغور، وبناء المعاقل والحصون، وغير ذلك مما تقوم به مصالح الرعية، وبقدر زيادته ونقصانه يكون حال المملكة، وناموس الملك عند نظرائه وخاصته وأعوانه؛ لأنه ذخيرة يرجع إليها الملك والأعوان والرعية عند نزول الحوادث، فإذا اشتهر بكثرة أنواع الأموال، واختلاف أجناس الجواهر، اشتد أزر الرعية، وقويت نفوس الجند، وعظم قدر الملك عند أمثاله، وإذا اشتهر بالنفاذ والقلة، صغر قدر الملك، واختلت أمور الملك، وطمع فيه أعداؤه، فيجب حفظ بيت المال واحتياطه عليه بتوليته الثقاة، وأهل الأمانة، وبتوقى الملك الإسراف فى بذله وصرفه إلى غير أهله، ولا يمنعه أهل الحقوق فيحصل بذلك الزلل، ويتطرق إليه الخلل، سيما الجند وأعوانه، فإن تقتير الأرزاق يفضى بالملك إلى المهالك.

وقد كان يقال: المال ناموس تظهر به هيبته، وتقوى أبهته، حكى أن سابور ملك الفرس اتخذ أعمدة وقواعد من الذهب، وجعلها على باب خزانة المال، يجلس عليها الخزنة وغيرهم، فعظم بذلك عند نظرائه وأهل مملكته، فلما أفضت المملكة إلى ولد ولده، جعل يفرق الأموال، ويسرف فى العطايا، فلما نفدت تلك الأموال، أخذ تلك الأعمدة وسبكها، فوجدها مجوفة، وقد ملئت رملاً، فذهب حينئذ ناموسه، وتظاهرت أعداؤه، وقلت هيبته عند أهل مملكته حين علموا سر هذه الأعمدة.

وحكى عن بعض ملوك مصر أنه أخذ جبايا من الخزف وملأها ذهبًا، ثم سبكه، ثم كسر الخزف وأزاله، فبقى كهيئة الجباب، ثم جعلها على باب قصره يجلس عليها الناس، وسماها الحسرات، وإنما قصد ذلك أيضًا لإقامة ناموس مملكته، وتقوية نفوس جنده، فلهذه المعانى يجب حفظ المال والاحتياط عليه.

الركن الخامس من أركان المملكة الحصون: اعلم أن الحصون التى يتحصن بها الملوك، ويمتنع بها جانبهم، تنقسم إلى خمسة أقسام، كل نوع منها يحصل به التحصن وامتناع الجانب، وهى: المال، والجبال، والمفاوز، والقلاع، والرجال، وأحصن هذه الحصون الرجال، ثم القلاع، وتحصين الرجال بالأموال، وأفضل الأموال الأطعمة، وجمع الأطعمة وتحصيلها إنما يتحقق بالعدل، قيل: كان مكتوبًا على منطقة بعض ملوك الفرس: لا ملك إلا برجال، ولا رجال إلا بالمال، ولا مال إلا بالرعية، ولا رعية إلا بالعدل، وقالت أم جيفونة ملكة طبرستان لنصر بن سيار الملك الحازم: من اتخذ إلى نفسه سبعة أشياء، حصن يلجأ إليه إذا تظاهر عليه نظراؤه، ووزير صالح يثق برأيه ويفضى بسره إليه، وذخيرة خفيفة الحمل يرجع إليها عند النوائب، وفرس يثق بجريه إذا داهمته الأعداء، وسيف إذا نازل الأقران لم يخف أن يخونه، وامرأة حسناء إذا دخل عليها ذهب همه، وطباخ إذا لم يشته الطعام صنع له ما يشتهيه.

وكتب ملك إلى حكيم، فقال: دلنى على ما تبقى به المملكة؟ فقال، واختصر فى ذلك بأربعة أشياء: حصن شاهق، ووزير حاذق، ومال وافر، وعدل عامر. وبلغ بعض الملوك حسن سياسة ملك، فكتب إليه: قد بلغت من السياسة ما لم يبلغه ملك قبلك، فدلنى إلى ذلك؟ فكتب إليه: إنى تحصنت بالرجال، وحصنت الرجال بالأموال، ولم أهزل فى أمر ونهى، ولا وعد ولا وعيد، وأودعت القلوب هيبة لم يشبها مقت، وودًا لم يشبه كذب، وأخذت بالقوة، ومنعت بالتفضل.

وسأل ملك من ملوك الفرس حكيمًا من حكمائهم: ما عز الملك؟ فقال: الطاعة، قال: فما سبب الطاعة؟ قال: التودد إلى الخاصة، والعدل فى العامة، قال: فما حصن الملك؟ قال: وزراؤه وأعوانه، فإنهم إذا صلحوا صلح الملك، وإذا فسدوا أفسد الملك، قال: فما سبب صلاحهم؟ قال: البذل والإنعام والإحسان الشامل، قال: فأى الأمور أحمد للملك؟ قال: الرفق بالرعية، وأخذ الأموال من غير مشقة، وأداؤها إليهم عند أوانها، وسد الثغور، وأمن السبل، وإنصاف المظلوم من الظالم، وزجر القوى عن الضعيف، قال: فأى خصلة تكون فى الملك أنفع؟ قال: الصدق فى جميع الأحوال، وأما الأساس الحامل للمملكة فهو الدين.

اعلم أن الدين أساس المملكة، لا قوام لها إلا به، ولا تثبت أركانها إلا عليه، وهو إقامة منار الإسلام، وإظهار شعائر الحق، واتباع أحكام الشرع، والعمل بالفرائض والسنن ومندوبات الشريعة، وإقامة الحدود، وامتثال أمر الشارع، والانتهاء عن نواهيه، وإيصال الحقوق الواجبة إلى أربابها، والعمل بما يرضى الله تعالى سرًا وعلانية، فإنه لا دوام للملك بغير هذه الأشياء. قال رسول الله ﷺ: «من أصلح سريرته، أصلح الله علانيته، ومن أصلح فيما بينه وبين الله، أصلح الله فيما بينه وبين الناس».

وحكى أن أزدشير قال لولده: إن الملك والدين أخوان لا غنى لأحدهما عن الآخر، ولا قوام له إلا به، الدين أس، والملك حارس، فمن لم يكن له أس فمهدوم البناء، ومن لم يكن له حارس فضائع، يا بنى، اجعل مرتبتك مع أهل المراتب، وعطيتك لأهل العلم ولأهل الجهاد، وبشرك لأهل الدين، وبرك لمن يعنيه ما عناك من أهل العقل. قال الأحنف بن قيس: من هدم دينه كان لمجده أهدم، ومن ظلم نفسه كان لغيره أظلم. وقال بعض الحكماء: الدولة بلا دين كالبناء على الثلج.

* * *

الباب الخامس

فى معرفة الأوصاف الكريمة وفضلها وحث الملك عليها

ينبغى للملك المنتصب لتدبير الرعية أن يتصف بالأوصاف الكريمة، ويتلبس بها، ويجعلها له خلقًا مطبوعًا، ولا يهمل منها وصفًا واحدًا، إذ بها قوام دولته، ودوام مملكته، وهى خمسة عشر وصفًا: العدل، العقل، الشجاعة، السخاء، الرفق، الوفاء، الصدق،

الرأفة، الصبر، العفو، الشكر، الأناة، الحلم، العفاف، الوقار، وسنشرح فضل هذه الأوصاف وما يتعلق بها من المصالح الكلية فى تدبير المملكة.

الوصف الأول العدل[١]: اعلم أن العدل أفضل أوصاف الملك، وأقوم لدولته؛ لأنه يبعث على الطاعة، ويدعو إلى الألفة، وبه تصلح الأعمال، وتنمى الأموال، وتنتعش الرعية، وتكمل المزية، وقد ندب الله عز وجل الخلق إليه، وحثهم عليه، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [النحل: ٩٠]. قال الحسن: الله تعالى جمع الخير كله والشر كله فى هذه الآية[٢]، وقال: إن استقامة الملك بالثلاثة المأمور بها فى الآية، واضطرابه بالثلاثة المنهى عنها فيها.

وقال رسول الله ﷺ: «ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات، فأما المنجيات: فالعدل فى الغضب، والرضى وخشية الله تعالى فى السر والعلانية، والقصد فى الغنى والفقر، وأما المهلكات: فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»[٣].

وحكى أن الإسكندر قال لحكماء الهند، وقد رأى قلة الشرائع فى بلادهم: لم صارت سنن بلادكم قليلة؟ قالوا: لإعطائنا الحق من أنفسنا، ولعدل ملوكنا فينا، فقال لهم: أيهما أفضل العدل أم الشجاعة؟ قالوا: إذا استعمل العدل استغنى عن الشجاعة. وقال أزدشير: إذا رغب الملك عن العدل، رغبت الرعية عن الطاعة. وعوتب كسرى أنو شروان على ترك عقاب المذنبين، فقال: هم المرضى إذا لم نداوهم بالعدل فمن لهم. وقال أفلاطون: بالعدل ثبات المملكة، وبالجور زوالها. وقيل لأزدشير: من الذى لا

---

(١) قال ابن مسكويه: الإمام العادل الحاكم بالسوية، يخلف صاحب الشريعة فى حفظ المساواة، فهو لا يعطى ذاته من الخيرات أكثر مما يعطى غيره. انظر: تهذيب الأخلاق لابن مسكويه (ص١٥٦).

(٢) عزاه الحافظ السيوطى للبيهقى فى شعب الإيمان. انظر: الدر المنثور (٢٤١/٤).

(٣) إسناده ضعيف: أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٢١٢/٤، ٢١٣) ح (٥٧٥٤) من حديث ابن عمر مرفوعًا بتحقيقنا، وقال الحافظ الهيثمى: فيه ابن لهيعة، ومن لا يعرف. انظر: مجمع الزوائد (٩٤/١)، وأخرجه القضاعى فى مسند الشهاب (٢١٤/١) ح (٢٣٥) من حديث أنس بن مالك مرفوعًا، وكذلك الطبرانى فى الأوسط (١٢٩/٤) ح (٥٤٥٢) وإسنادهما فيه حميد بن الحكم الجرشى. قال ابن حبان: منكر الحديث جدًّا، لا يجوز الاحتجاج بخبره إذا انفرد. انظر: لسان الميزان (٣٦٣/٢).

يخاف أحدًا؟ قال: من عدل فى حكمه، وكف عن ظلمه، نصره الحق، وأطاعه الخلق، وصفت له النعمة، وأقبلت عليه الدنيا، فهنئ بالعيش، واستغنى عن الجيش، وملك القلوب، وأمن الحروب.

قال بعض العلماء: إن أيدى الرعية تبع لألسنتها، فمتى قدرت أن تقول، قدرت أن تصول، فلن يملك الملك ألسنتها حتى يملك جسومها، ولن يملك جسومها حتى يملك قلوبها فتحبه، ولن تحبه حتى يعدل عليها عدلاً يتساوى فيه الخاصة والعامة. قال كسرى أنوشروان لبزرجمهر: ابن لى قبة، واكتب عليها كلمات أنتفع بها فى بقاء الدولة ودوام المملكة، فبناها وكتب فى طرازها: العالم بستان، وسياجه الدولة، والدولة ولاية تحرسها الشريعة، والشريعة سنة يستسنها الملك، والملك راع يعضده الجيش، والجيش أعوان يكفيهم المال، والمال رزق تجمعه الرعية، والرعية عبيد يستعبدهم العدل، والعدل مألوف به قوام العالم.

وقال الوليد بن هشام: يفسد الملك بفساد الملك، وينصلح بصلاحه. وقال سفيان الثورى للمنصور: إنى لأعرف رجلاً إن صلح صلحت الأمة، قال: ومن هو؟ قال: أنت.

واعلم أن العدل لا يتحقق من الملك إلا بلزوم عشر خصال:

أحدها: إقامة منار الدين، وحفظ شعائره، والحث على العمل به من غير إهمال له، ولا تفريط بحقوقه.

الثانى: حراسة البيضة الإسلامية، والذب عن الرعية من عدو فى الدين، أو باغ فى النفس والمال.

الثالث: عمارة البلدان باعتماد الصلاح وتهذيب السبل والمسالك.

الرابع: النظر فى تعدى الولاة وأرباب المناصب والأعوان على الرعية؛ لأن تعديهم منسوب إليه، قال الشاعر فى المعنى:

ومن يربط الكلب العقور ببابه   فعقر جميع الناس من رابط الكلب
كذلك من ولى ابنه وهو ظالم   فظلم جميع الناس من قبل الأب

الخامس: النظر فى أموال الجند وغيرهم من أهل الرزق؛ لئلا يبخسهم العمال أرزاقهم، أو يؤخروا العطاء عنهم، فيجب الانتصار لهم.

السادس: الجلوس لكشف المظالم، والنظر بين المتشاجرين من الرعية، والفصل بينهم بالنصفه على وجه الشرع.

السابع: تقدير ما يخرج من بيت المال على طبقات أربابه من غير إسراف ولا إقتار.

الثامن: إقامة الحدود على أهل الجرائم بالشرع المطهر على قدر الجريمة.

التاسع: اختيار خلفائه فى الأمور، وولاته، وقضاته، وعماله، بأن يكونوا من أهل الكفاية والأمانة والحذق والدراية فيما هم بصدده.

العاشر: تنفيذ ما وافق من أحكام القضاة وأهل الحسبة، وما عجزوا من تنفيذه لقوة يد المحكوم عليه وتعززه، فينفذ الملك ما حكموا به عليه بالشرع.

فإذا فعل الملك هذه العشر خصال، كان مؤديًا لحق الله تعالى فى الرعية بالعدل الذى أمر الله تعالى، وكان مستوجبًا لطاعتهم، ومستحقًا لمناصحتهم، وإن ترك شيئًا من ذلك، كان للعدل ناكبًا، وفى الجور راغبًا، وفى المعنى شعر:

اختم وطينك رطب إن قدرت فكم ... قد أمكن الختم أقوامًا فما ختموا
زلوا فما عدلوا أيام دولتهم ... حتى إذا عزلوا زلوا فما رحموا

الوصف الثانى العقل(١): اعلم أن العقل وصف شريف، وخلق عظيم لا يبطل حقًا، ولا يحق باطلاً، وهو عبارة عما يستفاد من التجارب بمجارى الأحوال. وقيل: هو العلم بجواز الجائزات، واستحالة المستحيلات، ومن نتائجه الفكرة السليمة، والنظر الثاقب فى حقائق الأمور ومصالح التدبير. وسُئل بعض الحكماء عن العقل، فقال: الإصابة بالنظر، ومعرفة ما لم يكن بما كان.

وقال بعض الحكماء: خير مواهب الملك العقل، وشر مصائبه الجهل. وكان يقال: الجاهل يعتمد على أجله، والعاقل يعتمد على عمله، وقيل: نظر العاقل بقلبه وخاطره، ونظر الجاهل بعينه وناظره. وقال ابن المعتز: بأيدى العقول تمسك أعنة النفوس عن اتباع الهوى. وقال بعض الحكماء: العاقل من أتعب نفسه والناس منه فى راحة، والأحمق من نفسه فى راحة والناس منه فى تعب، وقال بعضهم فى المعنى:

---

(١) تقدم تعريفه فى الهامش رقم (٣) ص (٧٥)، واعلم أن الذى يحد هو العقل الغريزى، أما المكتسب فهو نتيجة العقل الغريزى، وهو نهاية المعرفة، وصحة السياسة، وإصابة الفكرة، وليس لهذا حدٌّ؛ لأنه ينمو إن استعمل، وينقص إن أهمل. انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص٤).

وأفضل قسم الله للمرء عقله ... وليس من الأشياء شىء يقاربه
إذا كمل الرحمن للمرء عقله ... فقد كملت أخلاقه ومناقبه

وقال بعض الحكماء: العقل قائد، والعلم سائق، والنفس حرون، فإذا كان قائد بلا سائق، حرنت النفس، وإذا كان سائق بلا قائد، عدلت يمينًا وشمالاً، فإذا اجتمع القائد والسائق، سارت طوعًا أو كرهًا، وقال بعضهم شعرًا:

تأمل بعينك هذا الأنام ... وكن مثل من صانه عقله
فحيلة كل فتى فضله ... وقيمة كل امرء بذله
ولا تتكل فى ارتفاع العلا ... على نسب ثابت أصله
فهل من فتى زانه عقله ... بشىء يخالفه فعله

وقال بعضهم: يعرف العاقل بحسن سمته، وطول صمته، وصحة تصرفه. وقال بعض الحكماء: ليس للمرء أن يتحجج بحالة جليلة نالها بغير عقل، فإن الجهل ينزله منها، ويزله عنها، ويحطه إلى رتبته، ويرده إلى قيمته بعد أن تظهر عيوبه، وتكثر ذنوبه، ويصير مادحه هاجيًا، ووليه معاديًا[1].

وكان يقال: الناس ثلاثة: عاقل، وأحمق، وفاجر، فأما العاقل، فإن الدين شريعته، والحلم طبيعته، والرأى الحسن سجيته، إن كلم أجاب، وإن نطق أصاب، وإن سمع العلم وعى، وإن حدث الفقه روى، وأما الأحمق، فإن تكلم عجل، وإن حدث وهل، وإن استنزل عن رأيه نزل، وأما الفاجر، فإن ائتمنته خانك، وإن حدثته شانك، وإن استكتمته أمرًا لا يكتمه، وإن علم علمًا لم يعمل به، وكان يقال: لا عطية أعظم من عقل، ولا داء أقوى من جهل. وقال المبارك الطبرى: ليس العاقل الذى يحتال الأمر الذى غشيه، بل العاقل الذى يتحذر الشدائد قبل الوقوع فيها حتى لا يقع.

وقال فيروز بن حصين: إذا أراد الله أن يزيل عن عبده نعمة، كان أول ما يغير منه عقله، شعر:

يعد رفيع القوم من كان عاقلاً ... وإن لم يكن فى قومه بحسيب
إذا حل أرضًا عاش فيها بعقله ... وما عاقل فى بلدة بغريب

الوصف الثالث الشجاعة: اعلم أن الشجاعة من أحمد الأوصاف التى يلزم الملك أن

(١) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص٨).

يتصف بها ضرورة، وإن لم تكن له طبعًا تطبع بها لتحسم بهذا مواد الأطماع المتعلقة بقلوب نظرائه، ويحصل منها حماية المملكة، والذب عن الرعية، وحقيقة الشجاعة ثبات الجأش، وإظهار الرعب على الأعداء، وإذهاب الرعب عن الأوداء، وزوال هيبة الخصم، واستصغاره عند لقائه، ولابد أن يسبق ذلك رأى ثابت، ونظر صائب، وحيلة فى التدبير، وخداع فى الممارسة، فقد قال ﷺ: «الحرب خدعة»، وفى المعنى شعر للمتنبى:

الرأى قبل شجاعة الشجعان ... هو أول وهى المحل الثانى
فإذا هما اجتمعا لنفس مرة ... بلغت من العلياء كل مكان
ولربما قتل الفتى أقرانه ... بالرأى قبل تطاعن الفرسان

واعلم أن ثمرة الشجاعة من الجند الكرّ والفر، وثمرتها من الملوك الثبات حتى يكون قطبًا يدورون عليه، ومعقلاً يلجأون إليه، هذا إذا كان بحضرته من يذب عنه، والأحسن منه حيئنذ أن يذب عن نفسه، إما بالإقدام وإما بالانهزام.

ولقد حكى أن فيلاً اغتلم، فدخل قصر كسرى أنوشروان، والفيل إذا اغتلم أنكر ساسته، ولا يمر بشىء إلا حطمه، وأن ذلك الفيل قصد الإيوان الذى فيه كسرى وعنده جماعة من خاصته، فلما نظروا إلى الفيل مقبلاً إليهم، خافوا غائلته، وفروا من حول كسرى، وثبت كسرى على سريره، ولم يتغير عن سريرته، ولا عن هيبته، وثبت عنده واحد من الرجال بيده طبر، فقام ذلك الرجل، أما كسرى، فقصده الفيل فثبت، فلما غشيه ضربه الرجل بالطبر على خرطومه فقدّه، فولى الفيل راجعًا، وكسرى فى هذا كله لم يزحزح عن سريره، ولا تغير لونه، ولا فارقته الهيبة، وهذه غاية الشجاعة المطلوبة من الملوك.

وكذلك حكى أن موسى الهادى كان يومًا فى بستان على حمار له، وليس معه سلاح، وبحضرته جماعة من أهل بيته وبطانته، فدخل عليه حاجبه، وأخبره عن رجل من الخوارج كان ذا بأس شديد، ونكاية فى الناس، وأنه قد ظفر به بعض القواد وهو معه على الباب، فأمر الهادى بإدخاله عليه، فأدخل بين رجلين قد قبضا عليه، فلما نظر الخارجى إلى الهادى جذب يديه من الرجلين، واخترط سيف أحدهما وقصد الهادى، ففر عنه كل من كان بحضرته من أهله وبطانته، وبقى الهادى وحده على حماره بمكانه ذاك حتى دنا الخارجى منه، ورفع يده بالسيف ليعلوه، فقال: يا غلام اضرب، فالتفت الخارجى ينظر من خلفه، فوثب الهادى من سرج حماره، فإذا هو على الخارجى، فقبض

عليه، وانتزع السيف من يده فذبحه، ثم عاد إلى حماره من فوره، وتراجع إليه خاصته يتسللون وقد ملئوا منه رعبًا وحياء، فما خاطبهم بشيء من ذلك، ولم يكن بعد ذلك يفارق السلاح، ولم يركب إلا جوادًا من الخيل، وهذا أعجب ما يكون من الشجاعة وثبات الملوك.

الوصف الرابع السخاء: اعلم أن السخاء عماد البر الذى هو سبب الألفة لما يوصل إلى القلوب من الراحة والألطاف، وكذلك ندب الشرع إليه، وحث الخلق عليه؛ لما فيه من عموم المصلحة فى الدنيا والآخرة؛ لأن فى السخاء رضى الله سبحانه وتعالى، ورضى الناس أجمعين، قال رسول الله ﷺ: «السخى قريب من الله، قريب من الناس، بعيد من النار»[(١)]، وقال رسول الله ﷺ: «تجافوا عن ذنب الكريم، فإن الله يأخذ بيده كلما عثر»[(٢)]، وقالت عائشة، رضى الله عنها: الجنة دار الأسخياء، والنار دار البخلاء. وقيل: أوحى الله إلى موسى، عليه السلام: أن لا تقتل السامرى، فإنه كريم.

وحدث أبو القاسم، فقال: حضرت الحكم بن المطلب لما مات بمدينة متيخ، وقد أخذ فى النزع وشخص بصره، فقال أبو معيوف الحمصى: اللهم أرفق به، فإنه كان جوادًا، شجاعًا، صوامًا، قوامًا، قال: فلما أفاق من غشيته، قال: من المتكلم؟ فقال أبو معيوف: إن ملك الموت يسلم عليك، ويقول لك: إن الله تعالى أمرنى أن أرفق بكل كريم، ثم اضطجع، فكأنه كان فتيلة طفئت، رحمه الله. وكان يقال: سؤ ود بلا جود، كملك بلا جنود. وقيل: من جاد ساد، ومن ضعف ازداد. وكان يقال: جود الرجل يحببه إلى أضداده، وبخله يبغضه إلى أولاده.

واعلم أن السخاء على نوعين:

النوع الأول: هو أن يبتدئ به الإنسان من غير سؤال، وهذا طبع السخاء، وأشرف

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الترمذى (٣٤٢/٤) ح (١٩٦١)، وقال: حديث غريب. والعقيلى فى الضعفاء الكبير (١١٧/٢)، وابن عدى فى الكامل (١٢٣٨/٢)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٤٢٨/٧، ٤٢٩) ح (١٠٨٤٩)، والطبرانى فى الأوسط (٢٢/٢) ح (٢٣٦٣)، وفيه سعيد ابن محمد الوراق الثقفى أبو الحسن الكوفى، ضعيف. انظر: التقريب (ت٢٣٧٩).

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه القضاعى فى مسند الشهاب (٤٢٣/١) ح (٧٢٦)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٤٣٣/٧) ح (١٠٨٦٧)، وفيه انقطاع، والطبرانى فى الأوسط (٢٠٠/٤) ح (٥٧١٠)، وقال الحافظ الهيثمى: فيه جماعة لم أعرفهم. انظر: مجمع الزوائد (٢٨٥/٦).

العطاء؛ لأن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، سُئل عن السخاء، فقال: ما كان منه ابتداء، فأما ما كان منه عن مسألة، فحياء وتكرم. وقال بعض الحكماء: أجل النوال ما كان قبل السؤال، وقال بعض الشعراء:

وفتى خلا من ماله ومن المروءة غير خال
أعطاك قبل سؤاله وكفاك مكروه السؤال

وهذا النوع الأول من السخاء، والسخاء قد يكون لأسباب ثلاثة:

أحدها: أن يجد خلة يقدر على سدها، أو فاقة يتمكن من إزالتها، فلا يدعه الكرم وسماحة النفس أن يهمل ذلك، بل يكون مكفلاً بنجازها رغبة فى الأجر.

الثانى: أن يرى فى ماله فضلة عن حاجته، فيرى انتهاز الفرصة فيضعها عند ما يكون له دخرًا.

الثالث: أن يفعل ذلك سجية قد فطر عليها، فلا يميز بين مستحق ومحروم، ولا يفرق بين محمود ومذموم، وهذا هو السخاء طبعًا، غير أن هذا لا يصلح بالملك؛ لأنه خارج إلى السرف والتبذير، وبيت المال قد يقل عن الحقوق، ويقصر عن الواجبات، فإذا أعطى غير مستحق فقد منع مستحقًا، وحال الملوك لا يقتضى ذلك.

النوع الثانى من السخاء ما كان عن طلب وسؤال، وعلامة السخى عند ذلك أن يلقى السائل بالترحيب وطلاقة الوجه، وأن يكتفى بالتلويح، ولا يحوج السائل إلى التصريح، كما قال الشاعر:

تلقى الكريم فتستدل ببشره وترى العبوس على اللئيم دليلا
واعلم بأنك عن قريب صائر خبرًا فكن خيرًا تنال جزيلا

وينبغى له عند السؤال أن يعمل بالوعد قولاً، ثم يعمل بإنجازه فعلاً؛ ليكون السائل مسرورًا بعاجل الوعد، ثم يؤجل الإنجاز، كما حكى أن الفضل بن السهل سأله رجل، فقال: إنى أعدك اليوم، وأحبوك غدًا؛ لتذوق حلاوة الأمل، ولكن لا يطيل الوعد على السائل، فإنه لا تبقى حلاوة بمرارة الانتظار، شعر:

إن العطية لا تكون هنيئة حتى تكون قصيرة الأعمار

وقد مضت سنة الخلفاء الراشدين وملوك المسلمين بصلة المسترزقين على وجه الشرع من غير إسراف ولا إقتار، وذلك مشهور، فأعرضنا عن شروحه.

الوصف الخامس الرفق: اعلم أن الرفق أفضل أوصاف الملك، وأحمد أخلاقه فى التدبير؛ لأنه يبلغ به من أموال الرعية ما لا يبلغ بالخرق، فإن الرعية قد تعامل بالرفق، فتزول أحقادها، ويسهل مقادها، وقد تعامل بالخرق، فتكاشف على ما أضمرت، وتقدم على ما نهيت، ثم إن غلبت كان غلبها عارًا، وإن غلبت لم تحصل بغلبها افتخارًا، وقد قال رسول الله ﷺ: «لو أن الرفق رجل لكان حسنًا، ولو كان الخرق رجلاً لكان قبيحًا»(١).

وقد يبلغ الملك برفقه ولينه فى التدبير ما لا يبلغه بخرقه، ألا ترى أن الريح العاصف بقوتها وهول صوتها، كيف يتداخل الشجر ولا يقتلع المستخلف منه، والماء بلينه وسلاسته يبلغ فى أصل الشجر المستخلف منه من أصوله، وباللين والتدبير ينقلب العدو صديقًا، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ**...﴾ [المؤمنون: ٩٦] الآية، وبالخرق ينقلب الصديق عدوًا، كالطعام الذى هو غذاء الإنسان وقوام جسده، إذا أساء المقدر له فى تقديره، وأفرط فى تناوله، صار داء وانقلب أذى.

حكى أن كسرى أنو شروان سأل حكيمًا من حكمائهم، فقال: ما عز الملك؟ فقال: الطاعة، قال: فما سبب الطاعة؟ قال: التودد إلى الخاصة، والعدل فى العامة، قال: فما صلاح الملك؟ قال: الرفق بالرعية، وأخذ الحق منهم من غير مشقة، وأداؤه إليهم عند أوانه.

وحكى شجاع الأحمر، قال: دخلت على المتوكل وبين يديه نصر بن على الجهمصى، وهو يحث المتوكل على الرفق بالرعية، ويرغبه فيه، والمتوكل ساكت، فلما فرغ من كلامه التفت إليه المتوكل، وقال: حدثنى مؤدبى الفضل، قال: حدثنى مؤدبى، عن أبى، عن جدى، ورفعه إلى عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أفضل عباد الله عند الله يوم القيامة إمام عادل»، ثم أتى بيحيى ابن أكثم، فقال: وأنت حدثتنى حديثًا ورفعته إلى رسول الله ﷺ أنه قال: «من يحرم الرفق يحرم الخير»، ثم سكت ساعة متفكرًا، وقد أنشد بعضهم فى المعنى شعرًا:

ارفق فإن الرفق من لينه قد أخرج العذراء من خدرها
من يستعن بالرفق فى أمره يستخرج الحية من وكرها

---

(١) عزاه الحافظ العجلونى للعسكرى، عن عائشة، بلفظ: «إن الرفق لو كان خَلْقًا، لما رأى الناس خلقًا أحسن منه، وإن الخرق لو كان خلقًا، ما رأى الناس أقبح منه». انظر: كشف الخفاء للعجلونى (٢/٢٠٩، ٢١٠) ح (٢١١٢).

وقال بعضهم: دخلت على المتوكل فسمعته يمدح الرفق، واستكتب هذه الأبيات منى:

فلا تقطع أخاك عند ذنب ... فإن الذنب يغفره الكريم

ولا تعجل على أحد بظلم ... فإن الظلم مرتعه وخيم

ولا تحزن عليه وكن رفيقا ... فقد بالرفق يستشفى الكليم

فإن الرفق فيما قيل يمن ... وإن الخرق فيما قيل شوم

وإنه ينبغى للملك أن يستعمل الرفق واللين فى جميع المواطن، ويجعل الرعية ثلاث طبقات، ويسوسهم بثلاث سياسات، طبقة هم الخواص من الأبرار، فيسوسهم بالعنف والشدة، وطبقة هم العامة، فيسوسهم باللين تارة والشدة تارة أخرى، وطبقة هم بين الطبقتين، وخليط عادات الاثنتين، فيسوسهم بالترغيب مرة وبالترهيب مرة.

وقال مسلم بن قتيبة: ملاك السلطان الشدة على السيئ، واللين على المحسن. وسأل ملك من ملوك الفرس بزرجمهر، فقال: ما أحسن سير الملوك؟ فقال: أن يعاملوا أحرار الناس بمحض المودة، ويعاملوا العامة بالرغبة والرهبة، ويعاملوا السفهاء والسفلة بالمخافة، كما قيل:

إذا كنتم للناس فى الأرض قادة ... فسوسوا كرام الناس بالحلم والعدل

وسوسوا لئام الناس بالذل وحده ... صريحًا فإن الذل أصلح للعدل

الوصف السادس الوفاء: لما كان الوفاء من الأوصاف العلية، والشيم السنية، أمر الله تعالى الخلق به، ومدحهم على فعله، فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ**﴾ [المائدة: ١]، وقال تعالى: ﴿**يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا**﴾ [الإنسان: ٧].

والوفاء خليق بالملك؛ لما فيه من إيصال الراحة، واستعطاف القلوب بإنجاز الوعد، ودوام العهد. قال بعض الحكماء لملك فى زمانه: أوصك بأربع خصال، ترضى بهن ربك، وتصلح بهن رعيتك: لا تعدن وعدًا ليس لديك وفاؤه، ولا تتوعدن من لا ينفذ فيه الفعل، فإن بالأولى تذهب عظمتك، وبالثانية يعترض عليك، ولا يغرنك ارتقاء السهل إذا كان المنحدر وعرًا، ولا تستغش ناصحًا فتتغطى عنك أمور الرعية.

وقد كان يقال: من أحسن الوفاء استوجب الصفاء. وكان يقال: الوفاء من أخلاق الكرام، والخلف من أخلاق اللئام. وقال أبو الحسن المدائنى: كان عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه، لا يكاد يوعد بحاجة تخوفًا من الخلف، فإذا وعد أو قال: نعم، لم يقر له

قرار حتى يفى بما وعد، وأنشد رجل من بنى تميم فى المعنى شعرًا:

إذا قلت فى شىء نعم فأتمه   فإن نعم دين على الحر واجب
وإلا فقل لا واسترح وأرح بها   لئلا يقول الناس أنك كاذب

وأنشد بعضهم:

لزمت نعم حتى كأنك لم تكن   عرفت من الأشياء شيئًا سوى نعم
وأنكرت لا حتى كأنك لم تكن   سمعت بها فى سالف الدهر والأمم

وكان يقول: وعد الكريم نقد وتعجيل، ووعد اللئيم مطل وتسويف. وكان يقال: العاقل لا يعد بما لا يستطيع نجازه، ولا يسأل ما يخاف منعه، وأنشد بعض أهل العلم فى المعنى:

لا تقولن إذا ما لم ترد   أن تتم الوعد فى شىء نعم
وإذا قلت نعم فاصبر لها   بنجاح الوعد إن الخلف ذم
حسن قول نعم من بعد لا   وقبيح قول لا بعد نعم

الوصف السابع الصدق: اعلم أن الصدق من اسمى السمات، ومن أشرف الصفات، وأسلم المناهج، يدعو إليه الشرع، فقد ورد باتباع الصدق ولو كانت الهلكة فيه، وحظر الكذب ولو جر نفعًا، أو دفع ضررًا، علمًا من الشارع بما ينقلب إليه عاقبتهما، والعقل يدعو إلى فعل ما كان مستحسنًا، ويمتنع من إتيان ما كان مستقبحًا، والكذب مستقبح عقلاً، لاسيما إذا كان لم يجلب نفعًا، ولا يدفع ضررًا، وقد قال رسول الله ﷺ: «تخيروا الصدق، وإن رأيتم الهلكة فيه، فإن النجاة فيه، وتجنبوا الكذب، وإن رأيتم النجاة فيه، فإن الهلكة فيه»[1].

قال بعض الحكماء: دع الكذب حتى ترى أنه ينفعك، فإنه يضرك، وأت الصدق حتى ترى أنه يضرك، فإنه ينفعك، وكانت العرب تقول: لسان صدق مع العسرة، خير من سوء الذكر مع الميسرة، وأنشد بعضهم:

عود لسانك صدق القول تحظ به   إن اللسان لما عودت معتاد

---

(١) معضل: أخرجه هناد فى الزهد (٢/٦٣٥) ح (١٣٧٥) مرسلاً عن مجمع بن يحيى الأنصارى، وعزاه الحافظ المنذرى لابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت معضلاً عن منصور بن المعتمر مرفوعًا: «تحروا الصدق، وإن رأيتم أن الهلكة فيه، فإن فيه النجاة»، وأخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق (١/٥١) ح (١٣٧) عن مجمع بن يحيى الأنصارى، عن منصور بن المعتمر مرفوعًا به، وابن أبى الدنيا فى الصمت (١/٢٢٧) ح (٤٤٦).

مـــوكل بتقاضى ما سننت لـــه فاختر لنفسك وانظر كيف تزداد

وقال المهلب: ما يكون السيف الصارم بيد الملك الشجاع بأعز له من الصدق، وكان يقال: للملـك أن يكـون صدوقًا ليثـق الأعـوان بوعـده، وأن كـان شـكورًا فيستوجب الزيادة.

قال الأحنف بن قيس: كـل النـاس حقيـق بـالصدق، وأحقهـم بـه الملـك؛ لأن الـذى يدعوه للكذب مهانة النفس، والملك لا يكون مهانًا. وقال بعض أهل الأدب: كن صادقًا فى شيء تقوله، ولا تك كذابًا فتدعى منافقًا. وقال بعـض الحكمـاء: أول سعادة الملـك صدقه، وأول هلاكه جوره.

الوصف الثامن الرأفة: اعلم أن الرأفة جبلة كريمة تقتضيها حال الملوك؛ لأنها تبعثهـم على حراسة الأمة، وكمال الشفقة، والتحنن على الرعية وضعفائها، واصطناع المعـروف إليهم، وكف الأذية عنهم، وقد قال رسول الله ﷺ: «اطلبوا المعـروف عنـد الرحمـاء مـن أمتى، وعيشوا فـى أكنـافهم»(1)، وقـال ﷺ: «إن اللـه لا يرحـم مـن عبـاده إلا الرحمـاء، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء»(2).

---

(١) عن الخليفة على، عليه السلام، عن النبىّ صلى الله عليه و آله وسلم، قـال: «يـا علىّ، اطلبـوا المعروف من رحماء أمتى تعيشوا فى أكنافهم، ولا تطلبوه من القاسـية قلوبهـم، فـإن اللعنـة تـنزل عليهم»، أخرجه الحاكم فـى المستدرك (٤/٣٥٧) ح (٧٩٠٨)، وقـال: صحيـح الإسناد، ولـم يخرجاه. ومن حديث أبى سعيد الخـدرى أخرجـه القضـاعى فـى مسند الشـهاب (١/٤٠٦) ح (٧٠٠)، والخرائطى فى مكارم الأخلاق، قاله الحافظ العجلونى، وعزاه الحـافظ العجلونـى لابـن عساكر، عن عبد الله بن بسر. انظر: كشف الخفاء (١/١٥٦) ح (٤٠٥).

(٢) عن أسامة بن زيد، رضى الله عنهما، مرفوعًا. أخرجـه البخـارى (٥٣٣١)، ومسـلم (٢/٦٣٥) ح (٩٢٣) وأبو نعيم فى المسند المسـتخرج (٣/١٠٩) ح (٢٠٦٤)، وابـن حبـان فـى صحيحـه (٧/٤٣٠) ح (٣١٥٨)، وأبو داود (٣/١٩٣) ح (٣١٢٥)، والنسائى فى المجتبـى (٤/٢١) ح (١٨٦٨)، وابـن ماجـه (١/٥٠٦) ح (١٥٨٨)، والإمـام أحمـد فـى مسـنده (٥/٢٠٤) ح (٢١٨٢٤)، وابـن أبـى شـيبة فـى مصنفـه (٣/٦٢) ح (١٢١٢٣)، وعبـد الـرزاق فـى مصنفـه (٣/٥٥١، ٥٥٢) ح (٦٦٧٠).

وأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ارحموا من فى الأرض، يرحمكم من فى السماء»، فأخرجه أبـو داود (٤/٢٨٥) ح (٤٩٤١)، والـترمذى (٤/٣٢٣) ح (١٩٢٤)، وقـال: حديـث حسـن صحيح، والإمام أحمد فـى مسنده (٢/١٦٠) ح (٦٤٩٤)، والبيهقـى فـى الكبرى (٩/٤١) ح (١٧٦٨٣)، وابن أبى شيبة فى مصنفه (٢٥٣٥٥).

وروى مالك أن عمر بن لخطاب، رضى الله عنه، دعا رجلاً يستعمله على بعض مدائن الشام، فجيء بولد صغير لعمر، رضى الله عنه، فأخذه عمر إلى صدره، ثم قبله، فقال ذلك الرجل: يا أمير المؤمنين، أتقبله؟ قال: نعم، قال: والله إن لى أولادًا ما قبلت واحدًا منهم قط، فقال له عمر: أنت لا ترحم ولدك، ولا تتحنن عليه، فأنت للناس أقل رحمة وتحنينًا، ثم صرفه ولم يستعمله، ثم قال: لا يصلح وال من لا رحمة عنده لرعيته.

وروى مالك أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، مر بطريق مكة، فأبصر راعيًا يرعى غنمه فى مكان جدب، فناداه وقال: انظر مكانًا خصبًا فالحق به، ثم قال على أثر ذلك: كل راع مسؤول عن رعيته[1].

وروى أسلم مولى عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: طاف عمر ليلة فى المدينة وأنا معه، فإذا هو بامرأة من جوف دارها، وحولها صبية يبكون، وهى توقد تحت قدر لها، فأتاها من الباب، وقال: يا أمة الله، مما بكى هذان الصبيان؟ فقالت: من الجوع، قال: فما هذه القدر؟ قالت: إنى جعلت فيها ماء أوهمهم أن فيها طعامًا، وأعللهم حتى يناموا، قال: فجلس عمر، رضى الله عنه، وبكى بكاء شديدًا، ثم قال: تمهلى، وقام وجاء إلى بيت الصدقة، فأخذ غرارة[2]، وجعل فيها دقيقًا، وشحمًا، وسمنًا، وتمرًا، وثيابًا، ودراهم، حتى ملأ الغرارة.

ثم قال: يا أسلم، احمل هذا على ظهرى، قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، أنا أحمله عنك، فقال: لا أم لك يا أسلم، احمل علىَّ، فأنا المطالب عنهم يوم القيامة، قال: فحمل الغرارة على صلبه، حتى أتى بها منزل المرأة، فأخذ القدر، وجعل فيها شيئًا من دقيق، وشحم، وتمر، وجعل يحركه وينفخ تحت القدر، قال أسلم: وكان له لحية عظيمة، فلقد رأيت الدخان يخرج من خلالها، حتى طبخ لهم، ثم جعل يفرق لهم بيده، ويطعمهم حتى شبعوا، قال: ثم خرج وتربص بحذائهم على الباب، كأنه سبع، فخفت أن أكلمه،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/١٠٨) ح (٥٨٦٩)، والطبرانى فى الكبير (١٢/٣٣٨) ح (١٣٢٨٤).

(٢) الغرارة: الجوالق، واحده الغرائر. قال الشاعر:

كأنه غرارة ملأى حَثَىَ

قال الأيادى: الغرائر جمع غرارة، وهى ما يوضع فيها الشىء من التبن وغيره. انظر: عون المعبود للأيادى (٨/١٤٧).

فلم يزل كذلك حتى لعب الصبيان وضحكوا، ثم قال: يا أسلم، هل تدرى لما تربصت بحذائهم؟ قلت: لا يا أمير المؤمنين، فقال: كنت رأيتهم يبكون، فكرهت أن أذهب حتى أراهم يضحكون، فلما ضحكوا طابت نفسى.

وحكى أن عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه، لما ولى الخلافة، أحضر عنده محمد بن كعب القرظى، وقال: دلنى على النجاة من عذاب الله تعالى، فقال: فليكن كبير المسلمين لك أبًا، وأوسطهم عندك أخًا، وأصغرهم ولدًا، فوقر أباك، وارحم أخاك، وتحنن على ولدك.

وقل نصر بن يسار الكنانى: كان عظماء الترك يقولون: ينبغى للملك العظيم أن يكون فيه عشر خصال، أربع من خصال الطير، وست من خصال الوحش، وهى: سماحة الديك، وتحنن الدجاجة، وحراسة الكركى، وحذر الغراب، وحملة الخنزير، وقلب الأسد، وغارة الذئب، وروغان الثعلب، وصبر الكلب، وشقاء الضب، وقد نظم هذا بعض الشعراء:

أبى يطير لا يتركن آثار خيلنا	لا كل لحوم من أعاد سواغب
وما زال من حب لنا غير عادة	لهن علينا فى بقاء الكتائب
أرى الملك المقدام من تم أمره	بعشر خصال هن خير المناقب
سماحة ديك ثم رأف دجاجة	وحرسة كركى وحذرة زاغب
وحملة خنزير وقلب غدنفر[١]	وغارة ذئب ثم روغ الثعالب
وكالكلب صبرًا حين يقرع بالعصا	وشقوة ضب فى بلاد سباسب
فمن كان هذا وصفه فهو كامل	عظيم وإلا فهو أخيب خائب

وقال بعض العلماء: خير الملوك من ملأ قلوب رعيته محبة، كما أشعرها هيبة، ولن ينال ذلك منها حتى يكون عاملاً بخمس خصال: إكرامه شريفًا، ورحمته ضعيفًا، وإغاثته لهيفًا، وكف عدوان عاديها، وتأمين السبيل لرائحها وغاديها، ومتى أعدم الرعية شيئًا من ذلك، فقد أحقدها بقدرها وقدر ما أفقدها.

الوصف التاسع الصبر: اعلم أن الصبر يتنوع أنواعًا كثيرة، أليقها بكمالها فى كتابى هذا صبر الملوك، وهو عبارة عن ثلاثة قوى، القوة الأولى: قوة الحلم وثمرتها الصبر،

(١) الأصل بالدال، ولعله بالضاد كالمشهور.

القوة الثانية: قوة الحفظ وثمرتها عمارة المملكة، الثالثة: الشجاعة وثمرتها فى الملوك الثبات؛ لأن إقدامهم فى المعارك تهور وطيش، والصبر سيد الأوصاف الجليلة وأميرها، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «الصبر خليل المؤمن، والحلم وزيره، والعقل دليله، والعمل قائده، والرفق والده، والبر أخوه، والصبر أمير جنوده».

وليس المراد تفضيل الصبر على العلم والعقل، وإنما المراد أن الثبات على هذه الخصائص إنما يكون بالصبر؛ لأن الصبر الثبات، والحبس، والإثبات، والإمساك، فمن اتصف بشيء من هذه الخصال ولم يصبر، كان عند مزايلته كمن لم يتصف به، فالصبر ضابط للأوصاف الشريفة، كما يضبط الأمير جنوده. وقيل: كان مكتوبًا فى الصحيفة الصغرى المعلقة فى أعظم هياكل الفرس: كما أن الحديد يعشق المغناطيس، فكذلك الظفر يعشق الصبر، فاصبر تظفر، ولهذا أنشد بعضهم:

إنى وجدت وخير القول أحمده ... للصبر عاقبة محمودة الأثر
وليس من كان فى أمر يطالبه ... واستعمل الصبر إلا فاز بالظفر

وقال بعض حكماء العرب: ما ميز الرجل بين صبر ولا جزع إلا وجدهما متفاوتين، أما الصبر فحسن الأولى، محمود بالعاقبة، والجذع غير معوض شيئًا، ولو كانا فى صورة لكان الصبر أولاهما بحسن الخلقة وكرم الطبيعة.

وقال بعض الحكماء: الحوادث النازلة نوعان، أحدهما لا حيلة فيه، فدفعه بالصبر الدائم، والإعراض عنه، الثانى يمكن فيه الحيلة، فدفعه بالصبر عنه إلى حين نفوذ الحيلة فيه، وأنشد بعضهم شعرًا:

اصبر إذا دهمتك نائبة ... ما خاب من يصبو إلى الصبر
فالصبر أولى ما اعتصمت به ... ونعم حوشا جوانب الصدر

وقال حسن البصرى: جربنا وجرب المجربون، فلم نر شيئًا أنفع من الصبر، به تداوى الأمور، وهو لا يداوى بغيره[1].

عن سليمان بن داود، عليهما السلام، أنه قال: إنا وجدنا خير معيشتنا الصبر. وكان عيسى ابن مريم، عليه السلام، يقول: يا معشر الحواريين، إنكم لا تدركون ما تؤملون إلا

---

(١) وقال الخليفة على، عليه السلام: الصبر مطية لا تكبو، والقناعة سيف لا ينبو. انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص١٦٢).

بالصبر على ما تكرهون، ولهذا شعر:

ويـوم كـان للمصطلـين بحـره   وإن لم تكن نارًا قيامًا على الجمر
صبرنـا لـه حتـى تفـرح إنمـا   تفـرج أيـام الكريهـة بالصبـر

وقل آخر شعرًا:

الصـبر أولى بوقـار الفتـى   مـن قلـق يهتـك سـتر الوقـار
مـن لـزم الصبـر على حالـة   كـان علـى أيامـه بالخيـار

الوصف العاشر العفو: اعلم أن وصف العفو خليق بالملك؛ لما فيه من المزية وكمال الرعية؛ لأن الملك متى عاقب على الزلة، وقابل على الهفوة، وأخذ بالجرم الصغير، ولم يتجاوز عن الكبير، قبحت سيرته، وقال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: أفضل القصد عند الحدة، وأفضل العفو عند القدرة، وما أقبح مجازاة القادر على سوء صنيع المقدور عليه.

وكان معاوية، رضى الله عنه، يقول: إن أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وإن انقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه. وقيل: إن عظيمًا من عظماء قريش فى سالف الدهر، كان يطلب رجلاً، فلما ظفر به، قال له: لولا أن القدرة تذهب الحفيظة لانتقمت منك، ثم أطلقه، فحسنت سيرته.

وغضب سليمان بن عبد الملك على خالد بن عبد الله القشرى، فلما دخل عليه قال: يا أمير المؤمنين، إن القدرة تذهب الحفيظة، وأنا مستحق إلى العقوبة، فإن تعف فأهل ذلك أنت، وإن تعاقب فأهل ذلك أنا، فعفى عنه، والله أعلم.

وحكى أن المأمون لما ظفر بعمه إبراهيم بن المهدى، أحضر عنده جماعة من خواصه، ثم قال: علىَّ به، فأدخل عليه وهو يحجل فى قيوده، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال: لا سلام الله عليك، ولا مرحبًا بك، فقال إبراهيم: على رسلك يا أمير المؤمنين، ثم أنشد يقول:

أنـا المذنـب الخطـاء والعفـو واسـع   ولـو لـم يكـن ذنـب لمـا عـرف العفـو
سكرت فأبدت منـى الكـأس بعـض مـا   كرهت وما أن يستوى السكر والصحو
فـإن تعـف عنـى كـان حظـى وافـرا   وإلا تداركنـى فقـد قصـر الخطـو

ثم قال: يا أمير المؤمنين، إنك ولىّ ثأرى، وإن القدرة تذهب الحفيظة، وإنى قد أصبحت فوق كل ذى ذنب، كما أصبح كل ذى عفو دونك، فإن تعاقب فبحقك، وإن تعف فبفضلك، قال: فأطرق المأمون، ثم رفع رأسه، وقال: إن هذين أشارا علىَّ بقتلك، يعنى العباس والمعتصم، فقال: إنهما أشارا على ما يشير به مثلهما على مثلك، إذ كان منى الذى كان، فقال: يا عماه، إن من الكلام كلامًا كالدر فى لبات الغوانى، وإن هذا الكلام منه، يا غلام، حل القيود عن عمى، وكان المأمون يقول: ليس على العفو بونة مزية، وإنى وددت أن أهل الجرائم يعلمون حلمى وعفوى، فيذهب عنهم الخوف.

وكان يقال: أقبح المجازاة المكافأة بالإساءة. وقيل: إن عبد الملك بن مروان اشتد غضبه على رجل، فلما صار فى يده، قال له: يا فاجر، لأمثلن بك أشر الأمثال، فقال له رجاء بن حيوة: إن الله تعالى قد صنع ما أحببت يا أمير المؤمنين، فاصنع ما يحبه الله من العفو عنه، قال: فعفى عنه وأطلقه، وكان المأمون يقول: لو علم الناس رغبتى فى العفو، ما تقربوا إلىَّ إلا بالذنوب، وأنشد فى المعنى:

اقبل معاذير من يأتيك معتذرا   واغفر له ذنبه إن برّ أو فجرا
فقد أطاعك من أرضاك ظاهره   وقد أجلك من يعصاك مستترا

ويحكى أنه جرى بين شهرام المروزى، وبين أبى مسلم الخراسانى كلام شديد ومنازعة، فما زال أبو مسلم يقاوله، إلى أن قال له شهرام: يا لقيط، فلما قال ذلك سكت، ثم إن شهرام ندم، فأقبل على أبى مسلم معتذرًا وخاضعًا، فلما رأى أبو مسلم ذلك، قال: لسان سبق، ووهم أخطأ، وإنما الغضب من الشيطان، والعذر يسعك، والعفو أجمل، وقد عفونا عنك، فقال شهرام: أيها الأمير، إن عفو مثلك لا يكون إلا غرورًا، فإن عظم ذنبى لا يدع قلبى يسكن، فقال أبو مسلم: يا عجبًا، كنت تسئ وأنا أحسن، فإذا أحسنت أسئ، وأنشد بعضهم فى المعنى شعرًا:

تعفو الملوك عن العظيم   من الذنوب لفضلها
ولقد تعاقب فى اليسير   وليس ذاك لجهلها
إلا ليعرف فضلها   وتخاف شدة نكلها

ويحكى أن المنصور بعث إلى جعفر بن محمد، فلما أتاه قال: إنى أريد أن أستشيرك

فى أمر، وقد رأيت إطباق أهل المدينة على حربى، وقد نهيتهم مرة بعد أخرى فلم ينتهوا، وقد رأيت أن أبعث إليهم من يقطع نخلها، ويغور عيونها، فما ترى أنت؟ فسكت جعفر، فقال له: ما لك لا تتكلم؟ قال: أتكلم أنا؟ قال: نعم، قال: يا أمير المؤمنين، إن سليمان، عليه السلام، أعطى فشكر، وإن أيوب ابتلى فصبر، وإن يوسف، عليه السلام، قدر فغفر، وإن محمدًا ﷺ أوذى فاحتمل، وقد جعلك من نسل الذين يغفرون ويعفون ويصفحون، قال: فانطفأ غضبه، وأمسك عنهم، وأنشد بعضهم فى المعنى شعرًا:

أشكو إليك همومًا ليس يكشفها ... إلا رضاك فقوّم بالرضى أودى
إن تعف عنى فأهل العفو أنت وإن ... عاقبتنى فكما تجنى علىّ يدى

وقال آخر:

لقد ناديت عفوك من قريب ... كما سالمت شخصك من بعيد
فإن عاقبتنى فبسوء فعلى ... وما ظلمت عقوبة مستفيد
وإن تمنن فإحسان جديد ... مننت به على شكر جديد

الوصف الحادى عشر الشكر: اعلم أن الشكر ينقسم على ثلاثة أقسام: عقد بالجنان، وثناء باللسان، ومكافأة بالإحسان، فأما العقد بالجنان، هو أن يضمر إعظام المنعم، وإعظامه، وإجلاله، والخشية له، والإقبال عليه، والعجز عن القيام بحقيقة شكره، واستكثار النعمة منه وإن قَلت، واستقلالها فى غيره وإن جلت. وأما الثناء باللسان، فهو إظهار الحمد للمنعم، والثناء عليه بما خوله من تواتر النعم، وبلوغ المقاصد، وحصول الأغراض، وغير ذلك مما خصه المنعم لخلقه، وفضله به على كثير الناس.

وأما المكافأة بالأفعال، فهى الإقبال على طاعته، والوقوف عند حدوده ومنهياته، وأن يواسى الضعفاء من نعمته، ويعمهم بعدله، ويخصهم بفضله، سيما لمن ناصح فى دولته، وأخلص فى خدمته، وصدق فى ولايته من أعوانه وخاصته، ولمن سارع فى مرضاته، وغير ذلك مما يجلب إليه المسرة، أو يدفع عنه به المضرة، فإنه إذا فعل ذلك بنية وقول وعمل، سمى شاكرًا على الحقيقة، وكان لمزيد النعمة مستحقًا، ولتابع الإحسان مستوجبًا، لقوله عز وجل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقد قال بعض الحكماء: لا يكون الملك شاكرًا للنعمة حتى يجتمع فيه أربعة أشياء:

المواساة فيها، والاستعانة بها على طاعة موليها، والإرشاد بها، وتيقن العجز عن القيام بحقيقة شكرها. وكان يقال: لا زوال للنعمة مع الشكر، ولا بقاء لها مع الكفر. وقيل: الشكر قيد للنعمة. وقيل: الشكر مثمر النعم، وعصمة من النقم.

وقال بعض الحكماء: من لم يشكر على الإنعام، فأعدده من الأنعام. وقال بعض ملوك الهند: خير الملوك الشكور على حسن الأعمال، والصبور على ما يحمل من الأثقال. وكان يقال: من كفر النعمة استوجب حرمان المزيد. وقال على بن أبى طالب، رضى الله عنه:

من حاول النعمة بالشكر لا   يخش على النعمة ما اغتالها
لو شكروا النعمة زادتهم   مقالة الله الذى قالها
لأن شكرتم لأزيدنكم   لكنما كفركم غالها
والكفر بالنعمة يدعو إلى   زوالها والشكر أبقى لها

وقال بعض البلغاء: الشكر وإن قلّ يزيد كل نوال وإن جل، وقيل:

فلو أنه استغنى عن الشكر ماجد   لرفعة حال أو علو مكان
لما أمر الرحمن بالشكر خلقه   فقال اشكرونى أيها الثقلان

الوصف الثانى عشر الأناة: اعلم أن الأناة من أوصاف الملك، وأعظم أخلاقه وأكملها، وعلامة توفيقه؛ لأنه يتعلق بها صواب الرأى والتدبير، واتضاح الأمور فى السياسة، ولا يقترن بها زلل، ولا يعقبها ندامة ولا فشل، فقد قال رسول الله ﷺ: «التردد من الرحمن، والعجلة من الشيطان»[(١)].

---

(١) لم أجده بهذا الفظ، وبلفظ: «التأنِّى من الله، والعجلة من الشيطان»، أخرجه ابن أبى شيبة، وأبو يعلى، وابن منيع، والحارث بن أبى سلمة، فى مسانيدهم، عن سيدنا أنس مرفوعًا، وأخرجه الحافظ البيهقى عنه أيضًا، وله شواهد عند الترمذى، وقال: حسن غريب بلفظ: «الأناة من الله، والعجلة من الشيطان»، والعسكرى عن سهل بن سعد رفعه بلفظ: «الأناة...إلخ»، ولكن ضعفه بعضهم بأن فيه عبد المهيمن: ضعيف. ويفيد ذلك ببعض الأعمال، فروى أبو داود، عن سعد بن أبى وقاص: التؤدة فى كل شيء، إلا فى عمل الآخرة. قال الأعمش: لا أعلم أنه رفعه. وفى لفظ للحاكم، وأبى داود، والبيهقى، عن سعد: التؤدة فى كل شيء خير، إلا فى عمل الآخرة. وللمزّى فى تهذيبه فى ترجمة موسى، عن شيخة من قومه مرسلاً، أن النبىَّ صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «الأناة فى كل شيء، إلا فى ثلاث: إذا صيح: يا خيل الله اركبى، وإذا نودى=

وقال بعض الحكماء: على الملك أن يعمل بثلاث خصال: تأخير عقوبة من أساء العمل، وتعجيل مكافأة المحسن، والعمل بالأناة فيما حدث من الأمور، فإن له فى تاخير العقوبة إمكان العفو، وفى تعجيل المكافأة بالإحسان المسارعة إلى الطاعة من الرعية، وفى الأناة اتضاح الرأى وانفساح الجواب.

وسأل ملك من الملوك حكيمًا، فقال: أى أخلاق الملك أحمد؟ فقال: الأناة، فقال: أيها أجلب لمودة الرعية؟ قال: الكرم، قال: فأى الملوك أخرق؟ قال: أسرعهم عقوبة للرعية، قال: فأى الخلال أجمع للمحامد والمناقب؟ قال: العدل. ويحكى أن علىَّ بن أبى طالب، رضى الله عنه، سأل كبيرًا من كبراء فارس، فقال: أى ملوككم كان عندكم أحمد سيرة؟ قال: أزدشير، له فضيلة السبق فى المملكة، غير أن أحمدهم سيرة أنوشروان، قال: فأى حالة كانت أغلب عليه؟ قال: الحلم والأناة.

الوصف الثالث عشر الحلم: اعلم أن الحلم ضبط النفس عند هيجان الغضب[(١)]، وهو خليق بالملك؛ لما فيه من الراحة، واستلزام الحمد، وحسن العاقبة، ورضى الخالق، قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب الحليم، ويبغض الفاحش»[(٢)].

وقال على بن أبى طالب، رضى الله عنه: من حلم زاد، ومن فهم ازداد. وقال بعض العلماء: كل ملك لا يجتمع فيه ثلاث قوات فملكه مسلوب، القوة الأولى قوة الحلم وثمرتها العفو، الثانية قوة حفظ الرعية وثمرتها عمارة المملكة، القوة الثالثة قوة الشجاعة وثمرتها فى الملوك الثبات، وفى الجند الإقدام. وكان يقال: آكد أسباب الحلم رحمة الجهال.

وقال معاوية: إنى لأرى أكبر ذنب أن يكون ذنب أوسع من حلمى. وكان يقال:

=بالصلاة، وإذا كانت الجنازة»، وللترمذى، عن الخليفة على، عليه السلام، عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاثة لا تؤخروها: الصلاة إذا أتت، والجنازة إذا حضرت، والأيم إذا وجدت كفؤًا».

وللغزالى عن حاتم الأصم، قال: العجلة من الشيطان، إلا فى خمسة، فإنها من سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إطعام الطعام، وتجهيز الميت، وتزويج البكر، وقضاء الدين، والتوبة من الذنب، قاله الحافظ العجلونى فى كشف الخفاء (١/ ٣٥٠) برقم (٩٤٣).

(١) هكذا عرفه الشيخ الماوردى. انظر: أدب الدنيا والدين (ص١٣٨).

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٥/ ٣٦٠) ح (١٠٢٤).

ليس الحليم من إذا ظلم حلم حتى إذا قدر انتقم، ولكن الحليم من إذا ظلم حلم حتى إذا قدر عفى. وقد حفظ من وصية أنوشروان لولده: يا بنى، من أخلاق الملوك الحلم، وعزة النفس، وإنك ستبلى بمداراة قوة، وإن سفه السفيه ربما بلغك، فإنك إن كافأته بالسفه، فكأنك رضيت بما عنى، فاجتنب أن تحتذى عليك مثاله، وإن كان سفه السفيه عندك فحقق ذمك إياه بترك معارضته.

ويحكى أنه قيل للإسكندر: إن فلانًا وفلانًا يسبانك، فلو عاقبتهما لانزجرا، فقال: هما بعد العقوبة أعذر فى سبى. وقال الأحنف بن قيس: ما جهل علىَّ أحد إلا أخذت فى أمره بأحد ثلاث خصال: إن كان أعلى منى عرفت له قدره، وإن كان دونى رفعت قدرى عنه، وإن كان نظيرى تفضلت عليه، فأخذ محمود الوراق هذه المعنى ونظمها شعرًا:

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب ... وإن عظمت منه علىَّ الجرائم
وما الناس إلا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومثلى مقاوم
فأما الذى فوقى فأعرف قدره ... وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذى دونى فإن قال صنت عن ... إجابته عرضى وإن لام لائم
وأما الذى مثلى فإن زل أو هفا ... تفضلت إن الحلم بالفضل حاكم

وأنشدنى بعض أهل العلم:

وجهل رددناه بفضل حلومنا ... ولو أننا شئنا رددناه بالجهل
رجحنا وقد خفت حلوم كثيرة ... وعدنا على أهل السفاهة بالفضل

وقال عبيدة بن عاصرة:

وإنا وإن كنا سنة قومنا ... وكان لنا فيهم مقام مقدم
لنصفح عن أشياء منهم تسوءنا ... ونضرب عن ذى الجهل منهم ونحلم
ونكلؤهم بالغيب منا حفيظة ... وأكبادنا وجدا عليهم تضرم
ولا نسأم النعماء منا إليهم ... وإن كثرت حتى يملوا ويسأموا
وليس بمحمود من الناس من جزى ... بسيئة يأتى المسيىء الملوم
سأحمل عن قومى جميع استياءهم ... وأدفع عنهم كل ضيم وأغرم

واعلم أن كمال العقل وشرف النفس وعلو الهمة على الحلم عند هيجان الغضب

لأسباب أربعة، أحدها الترفع عن السفيه ممن له خدمة سالفة، وحرمة لازمة، فيراعى منه ذلك، فيحلم عنه لأجله، الثانى الرحمة له والرأفة به لضعفه عند القدرة عليه، الثالث أن يتألفه بالحلم ويتفضل عليه به، الرابع الاستحياء من الله تعالى ومن الحاضرين أن يجيب السفيه بسفه مثله، وينبغى للملك أن يعرض على نفسه هذه الأسباب عند هيجان الغضب ليجلب إليه الحلم واحد منها.

واعلم أن الحلم ليس بمحمود فى كل المواطن؛ لأنه قد يطرأ على الملك من الأمور ما يكون الحلم معها مفسدة، والتراخى عنها مضرة؛ لأن الرعية على قسمين: قسم لا يخشى فسادهم، ولا يضر ما صدر عنهم، فإطراح الملك لهم والترفع عن مجازاتهم أليق، والاستهانة بهم أصوب، وقسم لا يمكن إهمال أمرهم، فردعهم بالأفعال الزاجرة أولى بالملك من الحلم عنهم حتى لا يزدادوا شرًا وتمردًا.

وقد سأل يزيد بن معاوية أباه، فقال: يا أمير المؤمنين، هل ذممت عاقبة حلم قط، أو حمدت عاقبة إقدام قط؟ فقال: ما حملت على لئيم قط وإن كان وليًا إلا أعقبنى ذمًا، ولا أقدمت على عقوبة كريم قط وإن كان عدوًا إلا أعقبنى أسفًا.

وقال بعض الحكماء: إن الحلم يفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم. وقال بعض أهل العلم: ليس الحلم بمحمود فى كل المواطن، كما أن الجهل ليس بمذموم فى جميع الأحوال، ولهذا شعر:

لئن كان حلم المرء عون عدوّه ... عليه فإن الجهل عن ذاك أروح
وفى الحلم ضعف والعقوبة قوة ... إذا كنت تخشى كيد من عنه تصفح

وقال إبراهيم بن المهدى:

إذا كنت بين الحلم والجهل مائلاً ... وخيرت أيما شئت فالحلم أفضل
ولكن إذا أنصفت من ليس منصفًا ... ولم يرض منك الحلم فالجهل أفضل

وينبغى للملك أن يتلطف فى تدبير من هذه صفته على وجه يحصل به الردع والزجر من غير مبالغة فى النكاية على ما تقتضيه المصلحة فى تدبير السياسة.

الوصف الرابع عشر العفاف: اعلم أن العفاف هو ضبط المملكة والنفس عن الرذائل، وكف الجوارح عن الأذى، وذلك غاية السؤدد، وكمال المروءة، وختام مكارم

الأخلاق. قالت عائشة، رضى الله عنها: كانت الجاهلية لا يسودون إلا رجلاً يجتمع فيه ست خصال، ثم زادت فى الإسلام خصلة فصارت سبعًا: السماحة، والنجدة، والصبر، والحلم، والبيان، والتواضع، وتمامهن فى الإسلام العفاف.

وكان يقال: من عف فى ماله، وعدل فى سلطانه، حشر مع الأبرار. وقد قدمنا فى صدر الكتاب أن من لم يقدر على ضبط نفسه من الرذائل، لم يقدر على ضبط حواسه وهى خمسة، ومن لم يقدر على ضبط حواسه، لم يقدر على ضبط خاصته، ومن لم يقدر على ضبط خاصته وهم نصب عينيه، لم يقدر على ضبط رعيته وهم فى أقاصى بلاده، فإذا عف نفسه وجوارحه، فقد انتظم أمر مملكته فى دنياه، وينقلب إلى الملك الدائم فى عقباه، فأما إعفاف الجوارح، فهو أن يعف بصره عن النظر إلى المحارم، وأن يترك ما حجب عنه ونهى؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «النظر سهم مسموم من سهام إبليس، فمن تركه من خوف الله، أتاه الله إيمانًا يجد حلاوته فى قلبه»[(١)].

وقال أبو الدرداء، رضى الله عنه: من غض بصره عن نظر الحرام، زوجه الله من الحور العين حيث أحب، ومن اطلع فوق بيت من بيوت الناس حشر يوم القيامة أعمى، ثم يعف سمعه من كلام الناس القبيح، والغيبة، والنميمة، وسماع المحرم من الملاهى، وينزه مجلسه عن جميع ذلك، فقد قال عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما: نهينا عن الغيبة والاستماع إليها، والنميمة والاستماع لها. وقال ﷺ: «من استمع إلى فتنة، صب فى أذنه الأنك يوم القيامة»[(٢)].

ثم يعف لسانه عن قول الكذب، والغيبة، والنميمة، والسخف من الكلام، فقد قال رسول الله ﷺ: «من ضمن لى ما بين لحيتيه وما بين رجليه، ضمنت له على الله الجنة»[(٣)]، وقال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل، رضى الله عنه: «وهل يكب الناس على

---

(١) أخرجه القضاعى فى مسند الشهاب (١٩٥/١) ح (٢٩٢)، والطبرانى فى الكبير (١٧٣/١٠) ح (١٠٣٦٢)، وقال الحافظ الهيثمى: فيه عبد الله بن إسحاق الواسطى، وهو ضعيف. انظر: مجمع الزوائد (٦٣/٨).

(٢) عن ابن عباس، رضى الله عنهما، مرفوعًا: «من استمع إلى حديث قوم يفرون منه، صُبّ فى أذنه الأنك»، أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (١٩١/٤) ح (٤٧٧٢). وعن ابن عباس، رضى الله عنهما، مرفوعًا: «من استمع إلى حديث قومٍ وهم له كارهون، صب فى أذنه الأنك يوم القيامة»، قال سفيان: الأنك الرصاص. أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٢١٣/٤) ح (٤٨٢٩).

(٣) إسناده ضعيف: أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٤١٢/٣) ح (٤٩٨١)، وفى الصغير=

مناخيرهم فى النار إلا حصائد ألسنتهم»[(١)].

ثم يعف يده، ولا يتناول بها إلا ما يحل له من أموال الرعية، ولا يبسطها إلى محذور فى عقوبة، ولا نكاية محرمة فى حد ولا تعذير، فقد قال رسول الله ﷺ: «حرمة مال المسلم كحرمة دمه»[(٢)]، وقال رسول الله ﷺ: «بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد»[(٣)].

ثم يعف رجليه، فلا يسعى إلى مكروه، فقد قال مسروق: ما خطا العبد خطوة إلا كتب له بها حسنة أو سيئة. ثم يعف فرجه عن مقاربة الزنا، وذلك أصل العفاف، وتمام المروءة، وحصانة الدين، وقال رسول الله ﷺ، الحديث المتقدم، فإذا فعل جميع ذلك كان عفيفًا، وكان للسيادة مستحقًا.

الوصف الخامس عشر الوقار: اعلم أن وقار الملك وسياسته وسكينته من أعظم سياسة المملكة؛ لما يتعلق به من إظهار الهيبة، وتعظيم الحرمة، وقيام الأبهة، وإرهاب العدو وأهل الزعارة، وسنوضح ذلك إن شاء الله فى الباب السابع، وهذه أصول مكارم الأخلاق ومحاسنها التى تقوم بها السياسة، وتدوم بها الرئاسة، وسنزيدها إيضاحًا بذكر قبائح أضدادها فى الباب السادس إن شاء الله تعالى.

* * *

الباب السادس

فى معرفة الأوصاف الذميمة والنهى عنها

لما ذكرنا من مكارم الأخلاق أوصافًا جميلة، وأخلاقًا حميدة، يزداد المتصف بها إجلالاً وتعظيمًا، أحببنا أن نوضح ما ذكرنا من محاسنها بشرح قبائح أضدادها المذمومة

=(١/٢٦٧)، وفيه المغيرة بن سقلاب، ضعيف. انظر: مجمع الزوائد (١٠/٣٠٣).

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٢/٤٤٧) ح (٣٥٤٨) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، وابن أبى شيبة فى مصنفه (٥/٣٢٠) ح (٢٦٤٩٨)، والطبرانى فى الأوسط (٥/٣٣٢) ح (٧٥٠٣)، والبزار فى مسنده (٦/٢٧٣) ح (٢٣٠٢)، وقال البزار: إسناده حسن، ومتنه غريب. انظر: مجمع الزوائد (١٠/٣٠٣).

(٢) أخرجه القضاعى فى مسند الشهاب (١/١٣٧) ح (١٧٧).

(٣) لم أجده فى مظانه والتقصير مِنّا

الخارجة بالنفس من حد الاعتدال إلى ما يعقبها من الأضداد فى أشنأ حال، ونختم هذا بذكر أعراض رديئة ربما عرضت للملك، فأخرجته عن قانون الاعتدال، وهى خمسة عشر وصفًا، وثلاثة أعراض، أما الأوصاف، فهى: الجور، والجهل، والبخل، والسرف، والخلف، والكذب، والغيبة، والغضب، والعجب، والكبر، والحسد، والعجلة، والمزاح، والضحك، والغدر، وأما الثلاثة الأعراض، فهى: الهم، والغم، والسكر.

الوصف الأول الجور: اعلم أن الجور هو العدل عن الحق، واستمراره يخل نظام الطاعة من الرعية، ويبعثهم على ترك المناصحة، وعدم النصرة، ويحملهم على نصب الغوائل، وتربص الدوائر، وليس شىء أصدع منه فى خراب الأرض، ولا أفسد منه لضمائر الخلق؛ لأنه ليس يقف على نهاية، ولا ينتهى إلى غاية، وقد قال رسول الله ﷺ: «إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة من أشركه الله فى سلطانه فجار فى حكمه»[١]، وقال: «لن تهلك الرعية وإن كانت ظالمة أو مسيئة إذا كانت الولاة هادية منها، وتهلك الرعية وإن كانت هادية مهدية إذا كانت الولاة ظالمة مسيئة»، وقال، عليه السلام: «قال الله: لأنتقمن من الظالم فى عاجله وآجله، ولأنتقمن ممن يرى مظلومًا فقدر على أن ينصره فلم يفعل»[٢]، قال عليه الصلاة والسلام: «بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد»[٣].

وقال بعض الحكماء: الملك يبقى على الكفر، ولا يبقى على الجور. وقال حكيم آخر: الجور مسلبة النعم، والبغى مجلبة النقم. وقال أفلاطون: بالعدل ثبات الأشياء، وبالجور زوالها. وقال أيضًا: إياكم والجور، فإنه أداة العطب، وعلة خراب البلاد.

ويحكى أن الرشيد حبس أبو العتاهية، وأقسم أن لا يخرجه من حبسه، فبقى فى السجن مدة طويلة، فلما ضاق به الأمر كتب على حائط الحبس هذه الأبيات:

أمـا والله إن الظلم شؤم ... ومـا زال المسيء هو الظلوم
تنام ولم تنم عنك المنايا ... تنبه للمنية يا نؤوم
إلى ديان يوم الدين نمضى ... وعند الله تجتمع الخصوم

---

(١) لم أجده.

(٢) إسناده ضعيف جدًا، أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٢٠/١) ح (٣٦)، وفى الكبير (٢٧٨/١٠) ح (١٠٦٥٢)، وفيه شيخ الطبرانى أحمد بن محمد بن يحيى. قال الذهبى: له مناكير. وقال الحافظ الهيثمى: فيه من لم أعرفهم. انظر: مجمع الزوائد (٢٦٧/٧).

(٣) تقدم أنى لم أجده.

قال: فأخبر الرشيد بذلك، فبكا وأحضر أبا العتاهية، ووهبه ألف دينار، وكفر عن يمينه، وأنشدنى بعضهم شعرًا:

علَيك بالعدل إن وليت مرتبة   واحذر من الجور فيها غاية الحذر
فالملك يبقى على الكفر البهيم ولا   يبقى على الجور فى بدو ولا حضر

وقال بعض الحكماء: ليس للجائر جار، ولا يعمر له دار. وقال حكيم آخر: أقرب الأشياء صرعة الظلم، وأنفذ السهام دعوة المظلوم(١)، وقال بعضهم شعرًا:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرًا   فالظلم مرتعه يدعو إلى الوخم
تنام عيناك والمظلوم منتبه   يدعو عليك وعين الله لم تنم

ويحكى أن يزدجر الأثير لما كثر عسفه لرعيته، واشتد جوره عليهم باغتصاب الأموال وإهانتهم بالعذاب، وطال ذلك عليهم، اجتمع جماعة من المظلومين فى بعض الهياكل، ثم دعوا إلى الله سبحانه وتعالى أن يريحهم منه، فمكث بعد ذلك خمسة أيام، أو سبعة أيام، فجاءه صاحبه وأخبره أن فرسًا مستوحشًا جمع محاسن صفات الخيل، قد جاء يشتد عدوًا حتى وقف على باب الملك، وقد تهيبه الناس، فلم يجترئ أحد عليه، وقد نفرت منه الخيول، فلم تقرب منه، فلما سمع بذلك يزدجر خرج من قصره، فرأى من الفرس منظرًا عجبًا، فدنا يزدجر منه، فخضع له الفرس، فخامره الإعجاب بنفسه، فأمسك بناصيته، ومسح وجهه، ثم أمر بإسراجه، فجمح به وسبق الأبصار عدوًا، حتى أتى البحر فاقتحمه به، فكان ذلك آخر ما علم من خبره.

وقد يعلم قبح الجور عقلاً وشرعًا، فيجب اجتنابه والوزع عنه؛ لما فيه من اختلال الرعية، واضطراب الدولة، وخراب البلاد، وعذاب الآخرة.

---

(١) وقال الشيخ سفيان الثورى، رحمه الله: لأن تلقى الله بسبعين ذنبًا بينك وبينه، أهون عليك من أن تلقاه بذنب واحد فيما بينك وبين الناس. وفى الخبر: أن الله تعالى قال لموسى، عليه السلام: قل للظلمة لا يذكرونى، فإن ذكرى عليهم وبال، قال موسى: يا رب، ومن الظلمة؟ قال: الذين يظلمون الناس فى أموالهم، يا موسى، بنفسى حلفت أن أبواب السماوات مغلقة دون من أكل الحرام، وإنى لآمر ملائكتى يبادرون فى حوائجهم إذا غضبت عليهم، قال موسى: يا رب، كيف تعطيه وهو مجرم؟ قال تعالى: أبغض دعوته، فأسرع فى حوائجهم كى لا يدعونى.
انظر: الزاهر فى بيان ما يجتنب من الكبائر والصغائر لابن فرحون (ص١٧٣) (بتحقيقنا/ دار الكتب العلمية).

الوصف الثانى الجهل: اعلم أن الجهل من الأوصاف الذميمة، والأخلاق الرديئة، لاسيما بالملوك، فإن صاحبه لا يعرى عن القبيحة، ورأيه أبدًا فى ضلال، وتدبيره فى وبال، يقترن به الزلل، ويحيط به الفشل. وقال بعض الحكماء: الجهل مطية من ركبها ذل، ومن صحبها ضل. وقال آخر: خير المواهب العقل، وشر المصائب الجهل. وقيل: الجاهل يعتمد على أمله، والعاقل يعتمد على عمله. وقيل: نظر الجاهل بعينه وناظره، ونظر العاقل بقلبه وخاطره.

واعلم أن للجهل أوصافًا تظهر عليه خصالاً ترشد إليه، فمن ذلك: ما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «للجاهل خصال يعرف بها: يظلم من خالطه، ويعتدى على من دونه، ويتطاول على من فوقه، ويتكلم من غير تدبر، إن عرضت عليه فتنة أرضته، وإذا رأى فضيلة أعرض»[1]. وقال بعض العلماء: ستة يعرف بها الجاهل: الغضب فى كل شىء، والكلام من غير نفع، والعطية فى غير موضعها، وإفشاء السر، والثقة بكل واحد، وأن لا يعرف صديقه من عدوه.

وحكى صالح بن حسان، قال: كان عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، رضى الله عنه، صديقًا للوليد بن يزيد بن عبد الملك، وكان عبد الله يأتى إليه، فتخاليا يومًا يلعبان بالشطرنج، فأتاه الحاجب، فقال: إن بالباب رجلاً سيدًا من أخوالك من ثقيف، قدم غازيًا، وقد أحب التسليم عليك، قال: دعه ساعة حتى نفرغ من دستنا، قال عبد الله: وما عليك ذلك إن حضر؟ ائذن له، قال: لما علمت أنك مغلوب أردت أن تخبط الطابق؟ قال عبد الله: فاطلب منديلاً وضعه عليها حتى يدخل الرجل فيسلم عليك، ثم نعود إلى الدست، ففعل ذلك، ثم قال: ائذن له، فدخل رجل مشتمر عليه هيئة حسنة، وعليه عمامة فاخرة، وبين عينيه أثر السجود، وقد خضب لحيته بالحناء، فقال: أصلح الله الأمير، قد قدمت غازيًا، فكرهت أن أجاوزك حتى أقضى حقك، قال: حياك الله وبارك فيك، ثم سكت عنه ساعة.

فلما أنس به أقبل عليه الوليد، وقال: يا خال، هل جمعت القرآن؟ قال: قد كانت شغلتنا عنه شواغل، قال: فهل حفظت منه شيئًا؟ قال: قد كانت أموالنا شغلتنا عن ذلك، قال: فأحاديث العرب وآدابها وأشعارها؟ قال: لا؛ لأنى كنت فى شغل عن ذلك، قال: فأحاديث العجم وآدابها؟ قال: إن ذلك لشىء ما طلبته، قال: فهل عرفت

---

(١) لم أجده فى مظانه، والتقصير مِنا.

من أقوال الشعراء والحكماء وسير الملوك ما تسوس به قومك؟ قال: لا، إن ذلك لشىء لم أكن أبحث عنه، قال: فاستدار الوليد ورفع المنديل، فقال عبد الله: سبحان الله، قال الوليد: لا تستح منه، فإنه لم يكن معنا فى البيت إنسان، فلما خرج ذلك الرجل، قال الوليد: أما علمت أن الجهال كالأنعام لا يستحى منهم.

الوصف الثالث البخل: اعلم أن البخل من أذم الخلق، وأنكر الطرق، نهى عنه الشرع، وقضى بقبحه العقل، وحقيقته منع الحقوق الواجبة، وتقتير النفقات المستحقة، وفى العرف والعادة هو خزن المال، ومنع المستوفدين من فضوله، واعلم أن البخيل لا يزال مسلوب الهيبة، مفقود الوهبة، ثقيلاً على النفوس، بغيضًا إلى القلوب، ترمقه الأبصار بالاحتقار وبقلة الوقار، وذلك أن البخل يدعو إلى الكدح وحزن المال، ويمنعه من إيصال الحقوق إلى أهلها، وهو يغطى الفضائل، ويظهر الرذائل، وفى المعنى شعر:

ويظهر عيب المرء فى النفس بخله ... ويستره عنهم جميعًا سخاؤه
تغطى بأثواب السخاء فإننى ... أرى كل عيب والسخاء غطاؤه

وقد ينتج من البخل أربعة أخلاق مذمومة، كل خلق منها فى نهاية القبح، وهى: الحرص، والشره، وسوء الظن بالله، ومنع الحقوق، أما الحرص، فهو شدة الكدح فى الطلب، والمبالغة فى جمع المال، وهذا ربما أفضى بصاحبه إلى اقتحام الحرام، وأخذ الشبهات، فكان مذمومًا، وأما الشره، فهو استقلال الكفاية، واستكثار المال بغير حاجة، وذلك مذموم، وأما كونه يسىء الظن بالله تعالى، فإن البخيل يعتقد أن المال يذهبه الإنفاق، وليس خلف من الله تعالى، ولا عوض يرجع إليه، فيؤدى إلى عدم الثقة بالله تعالى، وذلك غاية المذمة والقبح.

وأما منع الحقوق، فإن البخيل لا تسمح نفسه بفراق المال إذ هو محبوبها، ونهاية مطلوبها، فلا تنقاد إلى إيصال الحق، ولا تذعن باتصال الخلف، وإذا كان البخيل بهذه الأوصاف، فليس عنده خير موجود، ولا صلاح مأمول، وقد قال رسول الله ﷺ: «السخى قريب من الله، قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار»[1].

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الترمذى فى البر والصلة (٣٤٢/٤) ح (١٩٦١)، وقال: حديث غريب لا نعرفه من حديث يحيى بن سعيد، عن الأعرج، عن أبى هريرة، إلا من حديث سعيد بن=

وأما أقوال الأنبياء، فمن جملتها قول بعضهم، عليهم السلام: طعام الجواد دواء، وطعام البخيل داء، وقالوا: بشر مال البخيل بحادث أو وارث، ولأهل العلم شعر:

يفنى البخيل بجمع المال مدته ... وللحوادث والوراث ما يدع
كدودة القز ما تبنيه يهلكها ... وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

ويقال: البخل جلبات المسكنة. وقال حكيم آخر: لا يدخل البخل مسكنًا إلا أعقبته الحسرة، ولا يدخل الطمع مدخلاً إلا أعقبته المذلة، ولا يدخل الشره مدخلاً إلا أعقبته الحيرة. وقيل: البخيل ليس له خليل. وقيل: المال كالماء، فمن استكثر منه ولم يجعل له مسربًا يتسرب فيه ما زاد عن القدر الكافى أغرقه، ولأهل العلم شعر:

أراك تؤمل حسن الثنا ... ء ولم يرزق الله ذاك البخيلا
وكيف يسود أخو فطنة ... يمن كثيرًا ويعطى قليلا

الوصف الرابع السرف: اعلم أن السرف فى إنفاق المال وصف خارج عن حد السخاء المحمود، مجانس البخيل فى الذم والقبح؛ لأن الله سبحانه وتعالى ساوى بين حالتها فى النهى، فقال تعالى: ﴿**وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا**﴾ [الإسراء: ٢٩]، فنهى عن بسطها سرفًا، كما نهى عن قبضها بخلاً، فيدل ذلك على استوائهما واتفاقهما لومًا، ولأن المسرف فى إعطائه المبذر فى سخائه، لا يفرق بين محمود ومذموم، ولا يميز بين مستحق ومحروم، وهذه الحالة تدل على الطبع المذموم، وطيش الرأى، وقصور التدبير، وذلك لا يليق بالملوك؛ لأن بيت المال يقل عن الحقوق، ويقصر عن الواجبات، إذا أسرف فى بذله، فقد وضع الشىء بزيادته على قدر المستحق.

وقال بعض الحكماء: الخطأ فى إعطاء ما لا ينبغى، ومنع ما ينبغى. وقال سفيان الثورى، رحمه الله: الحلال لا يتحمل الإسراف. وقال بعض العلماء: ثلاثة تمنع عنهم الرحمة، وتنزل بهم الشماتة فى ثلاثة أحوال، أحدهم المبذر فى ماله عند نزول الفاقة به،

=محمد، وقد خولف سعيد بن محمد فى رواية هذا الحديث عن يحيى بن سعيد، إنما يروى عن يحيى بن سعيد، عن عائشة، شىء مرسل. وأخرجه الطبرانى فى الأوسط (٢/٢٢) ح (٢٣٦٣)، والعقيلى فى الضعفاء الكبير (٢/١١٧)، وابن عدى فى الكامل (٢/١٢٣٨)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٧/٤٢٨، ٤٢٩) ح (١٠٨٤٩)، وفيه سعيد بن محمد الوراق الثقفى أبو الحسن الكوفى، ضعيف. انظر: التقريب (ت٢٣٧٩).

الثانى الشره إليه حين تصيبه المصيبة، الثالث الظالم المعتدى حين تنزل به العقوبة، ولهذا المعنى شعر:

وكان المال يأتينا وكنا ... نبذره وليس لنا عقول
فلما أن تولى المال عنا ... عقلنا حيث كان لنا فضول

الوصف الخامس خلف الميعاد: اعلم أن خلف الميعاد يتصف به اللئام، وتأباه الكرام لقبح صورته، وشناعة سمعته، وهو من أركان النفاق، ومساوىء الأخلاق، قال رسول الله ﷺ: «علامة المنافق ثلاثة: إذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان، وإذا وعد أخلف». وقال أبو الحسن المدائنى: كان عمر بن عبد العزيز لا يكاد يعد بحاجة توقيًا للخلف، فإنه يزيل الهيبة. وقال داوود بن عبد الله فى وصيته: انجز إذا وعدت، واتق الخلف، فإنه يزيل الهيبة، ويذهب بهاء الوجه. وقال بعض الحكماء: من أخلف وعده فقد صعر خده، وجفاه القريب، وتوقاه الغريب، ولهذا شعر:

لا تكسبن عداوة ... ومودة بعد الصفا
فخلف وعد مرة ... أصل العداوة والجفا

إن الخلف من فروع الكذب، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

الوصف السادس الكذب: اعلم أن الكذب وصف ذميم، وخلق لئيم، لا ينفك صاحبه عن الفضيحة لمناقضة كلامه بالسهو، ولا يكون لمقامه رتبة، ولا تعلو له منزلة، لاحتقار الناس له، واستصغارهم إياه، ونفورهم عنه، وقلة ركونهم إليه؛ لأنه إن عاقد لم يوثق بعهده، وإن وعد لم يركن إلى وعده، وإن ذكر شيئًا تسارعت إليه التهمة، وإن نزل به مكروه تراجعت عنه الرحمة، كل ذلك لما قد علمته النفوس من مهانته وقلة أمانته، وإن كان صادقًا، وفى المعنى بيت مفرد:

ومن آفة الكذاب نسيان كذبه ... وتلقاه ذا حفظ إذا كان صادقا

وقد سلب الله تعالى الكذب عن المؤمنين، فقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾ [النحل: ١٠٥]، وقال رسول الله ﷺ: «الكذب مجانب الإيمان»[1]. وكان

---

(١) الصحيح أنه موقوف: من قول الخليفة أبى بكر، رضى الله عنه. أخرجه: أبو عبد الله المقدسى فى الأحاديث المختارة (١/١٤٤ - ١٤٦) ح (٥٨)، والبيهقى فى الكبرى (١٠/١٩٦) ح (٢٠٦١٥)، وابن أبى شيبة فى مصنفه (٥/٢٣٦) ح (٢٥٦٠٢)، والإمام أحمد فى مسنده=

يقال: الكذب لا يقوم دينًا ولا دنيا. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله: إياك أن تستعين بكاذب فى أمر يحتاج فيه إلى الجميلة، فإنك إن تطع الكذوب تهلك. وقال عبد الله بن مروان: الكذب فساد كل شىء.

وحكى أن قيصر كتب إلى كسرى: أن عرفنى بما ضبطت به ملكك؟ فكتب إليه: بثمان خصال، لم أكذب فى جد ولا هزل قط، ولم أخلف فى وعد ولا وعيد قط، وركنت للعقل لا للهوى، وعاقبت للأدب لا للغضب، وأشربت قلوب الرعية المحبة من غير جرأة، وأودعت قلوبها هيبة من غير ضغينة، وعمرت بالكفاف ومنعت الفضول.

وقيل: تعدى ابن أبى حاتم على رجل من أهل الفضل، وسأله: أى الأشياء أثقل عليك؟ قال: عداوة الصديق، ورد السائل، قال: فأى الأشياء أوضع للرجال؟ قال: كثرة الكلام، والثقة بكل أحد، واللسان الكذب. وقيل: الصدق عز، والكذب ذل وإهانة للنفس. وكان يقال: الكذب من ذهاب المروءة، وإهانة النفس، وقلة الحياء، ولهذا شعر لأهل الفضل:

لا يكذب المرء إلا من إهانته ... أو عادة سوءها من قلة الأدب

فجيفة الكلب عندى خير رائحة ... من كذبة المرء فى جد وفى لعب

وقال غيره:

وما شىء إذا فكرت فيه ... بأذهب للمروءة والجمال

من الكذب الذى لا خير فيه ... وأبعد بالبهاء من الرجال

واعلم أن دواعى الكذب ثلاثة أشياء: أحدهما: أن يجتلب به نفعًا، أو يدفع به ضررًا، فيرى أن الكذب أسلم له وأغنم، فيرخص لنفسه فيه لأجل ذلك، الثانى: أنه يؤثر أن يكون حديثه من الصدق مستغربًا، وكلامه مستطرفًا، ولا يجد فيما يزين به حديثه من الصدق، فيستعير الكذب، الثالث: هو أن يقصد بالكذب وصمة بغيض، فيسمه بالقبائح، وينسب إليه الفضايح، وهذه الدعاوى تأباها النفوس الأبية، والهمم العلية،

=(١/٥) ح ب١٦)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٢٠٧/٤) ح (٤٨٠٧). والعدنى فى الإيمان (١٢٣/١) ح (٥٥)، وعبد الله بن أحمد فى السنة (٣٦٤/١) ح (٧٨٦)، وابن المبارك فى الزهد (٢٥٥/١) ح (٧٣٦)، والقرشى فى مكارم الأخلاق (٤٧/١) ح (١٢١)، وابن عبد البر فى التمهيد (٤٠/١). وانظر: علل الدارقطنى (٢٥٨/١) ح (٥٠).

سيما نفوس الملوك؛ لشرفها عن الرذائل، وترفعها عن النقائص، إلا أنه ربما مست الحاجة إلى استعمال قليل الكذب فى كيد الأعداء، وتألف البعداء، فإن مثله مثل سم يقتل بانفراده، ويدخل فى بعض الأدوية المركبة، فتصير دواء شافيًا[(١)].

الوصف السابع الغيبة: اعلم أن الغيبة مع تحريمها شرعًا[(٢)] وعقلاً، هى عين العجز واللؤم، ودليل النقص، تأباها العقول الكاملة، والنفوس الفاضلة؛ لما فيها من انحطاط الرتبة، وانخفاض المنزلة. قال علىّ بن أبى الحسين: الغيبة أدام كلاب الناس. وقال عدى بن حاتم: الغيبة مرعى اللئام. قال: وسمع قتيبة بن مسلم رجلاً يغتاب رجلاً، فقال: أما والله لقد تلمظت بمضغة طال ما لفظتها الكرام. وقال بعض الحكماء: من أكثر من عيوب الناس، سهل عليه الإكثار، وإنه إنما يطلبها بقدر ما فيه منها، وأحسن القائل:

إذا أنت عبت الناس عابوا وأكثروا ... عليك وأبدوا منك ما كنت تستر
إذا ما ذكرت الناس فاترك عيوبهم ... فلا عيب إلا دون عيبك يذكر
فإن عبت قومًا بالذى ليس فيهم ... فذلك عند الناس والله أكبر
وإن عبت قومًا بالذى فيك مثله ... فكيف يعيب العور من هو أعور

وقال الوليد بن عقبة بن أبى معبد: كنت أسير مع أبى فى موكبه، فلصق إلىّ رجل، وجعل يغتاب رجلاً غائبًا، فسمعه أبى، فالتفت إلىّ، وقال: ويحك، أما علمت أن الملوك ينزهون أسماعهم عن الخنا، كما ينزهون ألسنتهم عن الكلام به، فإن المستمع شريك القائل، ولقد نظر إلى حيث ما فى وعائه، فأفرغه فى وعائك. وحكى أن يهرام ملك العجم ولى قائدًا من قواده نحو أرض مما يلى أرض الترك، فبلغه عنه أنه يكثر من غيبة خاقانه، فقال: هذا دليل عجزه وضعفه عن مقاومته، ثم عزله وولى غيره. وقال أبو

---

(١) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص١٤٤ - ١٤٩)، الزاهر لابن فرحون (ص٢٠٧ - ٢١٤).

(٢) فقد عظم الله تعالى أمر الغيبة، قال تعالى: ﴿وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، قال: معناه الطاعن فى الناس، الذى يأكل لحوم الناس.
وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مررت ليلة أسرى بى على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم، فقيل: هؤلاء الذين يغتابون الناس»، أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/٢٢٤)، وأبو داود (٤٨٧٨)، وإسناده حسن.

الأسود فى المعنى شعرًا:

وذى حسد يغتابنى حيث لا يرى ... مكانى ويثنى صالحًا حيث يسمع
تورعت أن أغتابه من ورائه ... بما ليس فيه وهو لا يتورع[(١)]

الوصف الثامن الغضب: اعلم أن الغضب وصف طبيعى ركبه الله فى الحيوان ليكون له به الانتقام من المؤذى له، وسببه هجوم ما تكرهه النفس ممن هو دونها، والحادث عن الغضب السطوة والانتقام، فإذا أفرط وجاوز حده، سلب العقل، وحجب عن صواب الرأى، فيصير الرأى وصاحبه مقطوع الحجة، قليل الحيلة، وربما عاد ضرر الغضب ونكايته على الغضبان دون المغضوب عليه، وقد يظهر ذلك فى نفسه وجسده، والعاقل فى حال شدة غضبه ليس بينه وبين المجنون فرق، وبهذه الأوصاف صار قبيحًا مذمومًا. قال ﷺ: «الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل»[(٢)]. وقال عليه الصلاة والسلام: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد من ملك نفسه عند الغضب»[(٣)]. وقال عليه السلام: «من كظم غيظًا وهو قادر على إنفاذه، ملأ الله قلبه أمنًا وإيمانًا»[(٤)].

وقال بعض الحكماء: الغضب أوله جنون وآخره ندم[(٥)]. وقال آخر: الغضب على من لا يملك عجز، وعلى من يملك لوم. وكان يقال: ما كثر من كثره الغى، ولا قوى من قوّاه الظلم، ولا ملك من ملكه الغضب. وكان يقال: ليس للملك أن يغضب؛ لأن القدرة من حاجته، وليس له أن يكذب؛ لأنه لا يقدر أحد على استكراهه على غير ما يريد، وليس له أن يكون حقودًا؛ لأن خطره عظيم عن المجازات.

واعلم أن الذين كان منهم الفعل القبيح لشدة الانتقام فى وقت غيظهم، إنما كان ذلك الوقت، فينبغى لمن ثار به الغضب عند هجوم ما يغضب أن يكف ثورته بحزمه،

---

(١) انظر: الزاهر لابن فرحون (ص٢١٥ - ٢٢٠) (بتحقيقنا/ دار الكتب العلمية).

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه الطبرانى فى الكبير (١٩/ح١٠٠٧)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٨٢٩٤)، وفيه: مخيس بن تميم، مجهول.

(٣) صحيح: أخرجه البخارى (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

(٤) إسناده ضعيف جدًّا: أخرجه الخرائطى فى مساوئ الأخلاق (٣٣٨) من حديث عبد الجليل الفلسطينى، عن عمه مرفوعًا، وفيه داود بن قيس، متهم، وعبد الجليل، قال البخارى: لا يتابع عليه. انظر: الميزان (٢/٥٣٥).

(٥) وقال أحد الحكماء: من لم يملك عقله لم يملك غضبه. انظر: الزاهر لابن فرحون (ص١٦٨).

ويطفئ ناره بحلمه ليسلم من الندم فى العواقب، والذى يسكن الغضب عند هيجانه خمسة أسباب:

أحدها: أن يذكر الله تعالى عند غضبه، فإن ذلك يدعوه إلى الخوف منه، والخوف يبعثه على الطاعة أو بالعفو، فيزول عنه الغضب، فقد ذكر أنه مكتوب فى التوراة: يا ابن آدم، اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب. وقيل: إن ملكًا من ملوك الفرس كتب كتابًا وناوله لوزيره، وقال له: إذا رأيتنى غضبت فاتركه بين يدى، وكان فيه مكتوب: ما لك وللغضب، إنما أنت بشر، ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء، قال: فكان إذا غضب ذلك الملك، ناوله الوزير ذلك الكتاب، فيسكن غضبه.

السبب الثانى: أن يتذكر عند الغضب ثواب العفو، وحسن جزاء الصفح، فيقهر نفسه على ردع الغضب رغبة فى الثواب، وما وعد الله به العافين عن الناس، فقد قال رسول الله ﷺ: «ينادى مناد يوم القيامة: من له أجر على الله تعالى فليقم، فيقوم العافون عن الناس»، ثم تلا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠][(١)].

الثالث: أن يتذكر انعطاف القلوب عليه، وميل النفوس إليه عند العفو وكظم الغيظ، فيمنعه الثناء بالجميل من مطاوعة الغضب.

الرابع: ينتقل من الحالة التى عليها إلى حالة أخرى، فإنه إذا فعل ذلك زال عنه، وكان هذا شعار المأمون إذا غضب.

الخامس: أن يتذكر ما يؤول إليه الغضب من الندم ومذمة الانتقام، لاسيما إنفاذه فيمن لا يستطيع الدفع عن نفسه، فهذه الأسباب الخمسة إذا تدبرها الملك وتذكرها فى أوقات الرضى، كان أحرى أن يتصورها فى أوقات الغضب، فيصده عن إنفاذ الفعل والإفراط فى النكال والانتقام[(٢)].

الوصف التاسع العُجب: إن العجب وصف ردىء يسلب الفضائل، ويجلب الرذائل، ويظهر الحمق، ويجلب المقت، ويخفى المحاسن، ويشهر المساوىء، ويفضى إلى

---

(١) عزاه الحافظ السيوطى لابن مردويه، عن ابن عباس، مرفوعًا بلفظين. انظر: الدر المنثور (٥/٧٠٩).

(٢) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص١٤١ - ١٤٤)، الزاهر لابن فرحون (ص١٦٤ - ١٦٨).

المهالك[1]، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]. وقال على بن أبى طالب، رضى الله عنه: الإعجاب ضد الصواب، وآفة الألباب.

وقال بعض الحكماء: إعجاب المرء بنفسه أحد حساد عقله. وقال آخر: العجب فضل حمق وتيه ينتجها الكبر. وكان يقال: ما أعجب بنفسه عاقل؛ لأن العجب فضل حمق لم يدر صاحبها أين يذهب به، فصرفه إلى الكبر. وحكى أن رجلاً نظر إلى المهلب ابن أبى صفرة وعليه حلة فاخرة يسحبها ويمشى بالخيلاء، فقال له: يا أبا عبد الله، ما هذه المشية التى يبغضها الله ورسوله؟ فقال له المهلب: أو ما تعرفنى؟ قال: بلى أعرفك، أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة، وحياتك فى ما بين ذلك بول وعذرة، قال: فخجل المهلب وأطرق منه حياء، وقد نظم هذا الكلام محمود الوراق، فقال:

عجبت من معجب بصورته وكان بالأمس نطفة مذره
وفى غد بعد هيبته يصير فى الحد جيفة قذره
وهو على تيهه ونخوته ما بين جنبيه يحمل العذره

وقال بعض الحكماء: عجب الملك بتدبيره مفض إلى تدميره. وأنشدنى بعضهم:

إذا المرء لم يرض ما أمكنه ولم يأت من أمره مأمنه
وأعجب بالعجب فاقتاده وتاه به التيه فاستحسنه
فدعه فقد ساء تدبيره سيضحك يومًا ويبكى سنه

واعلم أن من يحجب عنه أسباب العجب المغضبة وقع فيه، فيهلك فى غالب الأحوال، ومن أقوى أسبابه مدح المتملقين الذين يجعلون التملق دأبهم، والنفاق دينهم، فيمنع نفسه من تصديق المدح، ومتى كثر المدح وجاوز الحد صار كذبًا وملقًا، وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «إياكم وكثرة المدح، فإنه الذبح».

---

(١) حقيقة العجب هى استعظام النفس خصالها، وأنها أهل لكل فضيلة، ومستحقة لكل نعمة، مع الأمن من زوالها، وقلة الشكر لمن وهبها إياه، ويبعث ذلك على استحقار الناس، بأن يرى نفسه خيرًا من أحدٍ من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولعله يصيب من العمل مثلما يصيبه، ولعله يكون أورع منه عن ما حرم الله تعالى، وأزكى منه عملاً. انظر: الزاهر لابن فرحون (ص١٥٠).

وقال بعض الحكماء: من رضى أن يمدح بما ليس فيه، أعان الساخر منه. وقال بعض العلماء: قبيح باللبيب أن يعجب بنفسه عند مدح المادح، أو يغضب عند سماع القادح قبل أن يتفقد أعماله، ويعلم ما عليه وما له، وألا يصير النساء أعقل منه، فإن إحداهن إذا وصفت وجهها بما تحب أو تكره، امتحنت ذلك بالاطلاع فى المرآة. وكذلك ينبغى للعاقل أن يمتحن أحواله بأن يكل نفسه إلى غيره من أهل الثقة والأمانة والأدب والديانة فى اختيار محاسنه ومساوئه وعيوب نفسه التى فيه، ويستنصحهم فى ذلك، فإن الإنسان قد يخفى عليه عيب نفسه، لاسيما لاستيلاء الهوى على عقله، فإذا أراح نفسه من ذلك، فقد نال غاية الشرف بانعطاف القلوب عليه وميلها إليه(١).

الوصف العاشر الكبر: اعلم أن الكبر خارج بالنفس عن حدّ الاعتدال، وحقيقته استعظام أو احتقار غيره، وسببه علو اليد والتميز بالمنصب، أو النسب، أو الفضل، ومتى جاوز حدّه وتعدى طوره، آل إلى البغى والعتو، فسلب الدين، وأفسد الإيمان، وخفض المنزلة، وحط الرتبة؛ لأنه يطمس من المحاسن ما انتشر، ويسلب من الفضائل ما اشتهر، ويكره الصدور، ويوجب النفور(٢). وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من فى قلبه ذرة من كبر»(٣). وقال رسول الله ﷺ لعمه العباس، رضى الله عنه: «أنهاك عن الشرك بالله، وعن الكبر، فإن الله تعالى يحتجب عنهما»(٤).

وحكى أن سليمان بن داود، عليهما السلام، جلس يومًا على بساطه بجنوده من الإنس، والجن، والطير، والوحش، ثم أمر الريح فرفعت البساط نحو السماء، حتى سمعوا

---

(١) انظر: الزاهر لابن فرحون (ص١٤٦ - ١٥٢).

(٢) حقيقة الكبر هى أن يرى نفسه فوق غيره من صفات الكمال، فيحصل من ذلك نفحة الكبر، ونتيجة الكبر منازعة الله تعالى فى خصوص صفاته، فإن الكبرياء والعظمة لا تليق إلا به، فمن أين تليق العظمة بعبد ذليل لا يملك لنفسه نفعًا، ولا ضرًا، ولا موتًا، ولا حياةً، ولا نشورًا. انظر: الزاهر لابن فرحون (ص١٤٤).

(٣) أخرجه مسلم (١٤٧، ١٤٨)، وأبو داود (٤٠٩١)، والترمذى (١٩٩٨، ١٩٩٩)، وابن ماجه (٥٩، ٤١٧٣)، والإمام أحمد فى مسنده (٤١٢/١).

(٤) لم أجده، وأورده الشيخ الماوردى فى أدب الدنيا والدين (ص١٢٨). وعن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: «إن ناسًا من أمتى يخرجون من قبورهم على صورة الذر، فيطفؤهم الخلائق بأقدامهم»، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «المتكبرون». أخرجه الترمذى (٢٤٩٢)، والبخارى فى الأدب المفرد (٢٤٢)، والإمام أحمد فى مسنده (١٧٩/٢)، وابن المبارك فى الزهد (ص٥٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وإسناده حسن.

زجل الملائكة بالتسبيح، وسمعوا قائلاً يقول: لو كان فى قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر، لخسفنا به أكثر ما رفعناه. وقال بعض العلماء: إن للدولة أمراضًا يخاف عليها أن تموت بها، أخطرها أربعة أشياء: أحدها: ما يعرض للملك من الغضب، فإن دولته فى هذه الحالة تضطرب لخروجه عن حدود السياسة، والثانى: البغى، والثالث: ما يعرض له من الحرص، فإنه إذا أحرص ظلم وعسف الرعية، الرابع: هيجان الرعية، فإذا عرض له شيء من ذلك، فليبادر بالحسم.

وحكى المدائنى، قال: رأيت رجلاً بعرفات وهو على بغلة فى مركب من الذهب، والغلمان والخدام بين يديه والناس حوله، وهو لا يعبأ بأحد منهم، فنظرت إليه متعجبًا، وقلت له: يا هذا، ليس هذا موضع التكبر، إنما هو موضع التواضع والخشوع، فانزل عن بغلتك، واصرف الخدام من بيد يديك فى هذا الوقت، وأقبل على الله تعالى بخضوع وخشوع، فإنه يقبل عليك برحمته ورضوانه، قال: فلم يلتفت إلىّ، وتركته وانصرفت، فلما كان العام المستقبل عبرت بالجسر ببغداد، فوجدت ذلك الرجل أعمى يتصدق من الناس، فقلت له: أنت كنت فى العام الماضى على بغلة بعرفات؟ قال: نعم أنا ذلك الرجل، قلت: فما بالك؟ قال: لما تكبرت فى موضع يتواضع الناس فيه، وضعنى فى موضع تكبر عن مثله الناس. وقاله بعض أهل الأدب:

يا مظهر الكبر إعجابًا بصورته ... مهلاً فإنك بعد الكبر مسلوب
لو فكر الناس فيما فى بطونهم ... ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
يا ابن التراب ومأكول التراب غدًا ... اقصر فإنك مأكول ومشروب

واعلم أن من قطع أسباب الكبر عنه، وازداد لله تواضعًا وخشوعًا وتعظيمًا لله سبحانه وتعالى، فقد سلك مسالك الشرف، ودرج فى مدارج النعم، وأزاح عنه المقت، واستعطف إليه القلوب[1].

الوصف الحادى عشر الحسد: اعلم أن الحسد داء عظيم من أدواء النفس، لا يشفى سقيمه، ولا يرقى سليمه، مع ما فيه من إفساد الدين، وإضرار البدن؛ لأن الحاسد يدوم همه، ويكثر غمه، ويذوب جسمه، ويذهل عقله عن الصواب وحسن الرأى، ويشتغل قلبه عن صحيح الفكر، وهو أقبح من البخل؛ لأن الحاسد يحب أن لا ينيل أحدًا شيئًا ما

---

(١) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص١٢٧ - ١٣١)، الزاهر لابن فرحون (ص١٣٧ - ١٤٦).

لا يملكه، فكان أعظم قبحًا وأشد ذمًا، وليس شيء أعظم ضررًا من الحاسد، قال رسول الله ﷺ: «إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[(١)].

قال بعض الحكماء: يكفيك من الحسود أنه يغتم وقت سرورك، وإذا رزق الله المحسود نعمة، كانت على الحاسد نقمة. وكان يقال: الحسد نار فى الجسد. وكتب بعض الحكماء إلى صديق له: قد حسدك من لا ينام دون الانتقام، وطلبك من لا يقصر دون الظفر بك، حذرك بعد الثقة بالله تعالى على حسب ذلك. وقيل: كان مكتوبًا على فص خاتم بعض الملوك: الحسود لا يسود أبدًا، والذى خبث لا يخرج إلا نكدا. وقال علىّ بن أبى طالب، كرم الله وجهه: لن يصل الحسد إلى المحسود حتى يصيب الحاسد نفسه بغم دائم، وعقل هائم، وهمّ لازم، وما رأيت ظالمًا يشتبه بالمظلوم إلا الحاسد. ولبعض أهل الأدب شعر:

كم من حسود أطال الله حسرته ... فاغتاظ همًا على الأيام من حسده
وحاسد الناس طوال الدهر فى تعب ... يزيده الحسد المذموم فى كمده

ولبعضهم فى المعنى شعر:

إن الحسود الظلوم فى كمد ... يخاله من يراه مظلوما
ذا تعس دائم على تعس ... يظهر منه ما كان مكتوما

وقال آخر:

اصبر على كيد الحسود ... فإن صبرك قاتله
النار تأكل بعضها ... إذا لم تجد ما تأكله

اعلم أن أسباب الحسد ثلاثة أشياء، أحدها: بغض المحسود قبل ظهور النعمة عليه، فإذا ظهرت عليه النعمة، أو اشتهرت عنه فضيلة، أثارت البغضة القديمة حسدًا على ذلك. الثانى: أن يظهر على المحسود نعمة شاملة، أو فضيلة كاملة، يعجز عن تحصيلها

---

(١) إسناده ضعيف جدًّا: أخرجه أبو يعلى فى مسنده (٦/٣٣٠) ح (٣٦٥٦)، والقضاعى فى مسند الشهاب (٢/١٣٦) ح (١٠٤٩)، وفيه عيسى الحناط، متروك. انظر: التقريب (ت٥٣١٧). وأخرجه القضاعى فى مسند الشهاب (٢/١٣٦) ح (١٠٤٨) من طريق آخر، فيه عمر بن محمد ابن حفصة الخطيب. قال الحافظ الذهبى بعد أن ذكره فى مسند الشهاب: فهذا بهذا الإسناد باطل. انظر: ميزان الاعتدال (٥/٢٦٨) (ت٦٢١٧).

الحاسد، وتقصر همته عن إدراكها، ويكره تقدمه عليه بذلك، واختصاصه به دونه فيصير حسدًا. الثالث: أن يكون بالحاسد شح بالفضائل المكتسبة، وبخل بالنعم الموهبة، وليس يقدر على منعها منه ودفعها عنه، إذ هى فى يديه ولا مفوضة إليه، فيحسده على منحة الله تعالى من عطائه العميم، وفضله الجسيم، وهذا السبب داء ليس له دواء، فإن كان ذا قوة واقتدار، جره حسده على الانتقام من المحسود، وإن كان ذا عجز وضعف، حدث عنه هم دائم، وسقم زائد، فينبغى أن يحجب عنه أسباب الحسد، ويأنف من تعاطيه، ويستنكف من هجنة مساويه؛ ليدفع ضرره، ويتوقى شره، ولا يغالب قضاء الله تعالى فيرجع مغلوبًا، ولا يعارضه فى أمره فيصير مسلوبًا.

وسنذكر من تأثير الحسد وضرر عواقبه حكاية نختم بها هذا الفصل: ذكر أهل التاريخ أن بهرام بن يزدجر ملك الفرس كان صديقًا لخاقان ملك الترك، وكان بينهما مهاداة وتلطف، وأن بهرام اشتهر أمره بالقوة، والشجاعة، والكرم، وحسن السيرة، والعدل فى الرعية، فحسده خاقان على ذلك حسدًا شديدًا، وكان له وزيران، فذكر ذلك لأفضلهما، وسأله التدبير فى هلاك بهرام، فقال له الوزير: إن كتم الملك ذلك، سعيت له فيه، فقال: سأكتمه، فلما لبث مدة، سأل الوزير عما صنع فيه فاستصبره، فلما تكرر ذلك منه، قال الوزير: أيها الملك، لا حيلة لى فيما كلفتنيه، وإنما أستصبرك رجاء أن يزول ذلك من قلبك، فإنى رأيت الحاصل لك عليه، إنما هو فرط الحسد، وتدبير الحاسد عليه بالمضرة، وأخاف أن ينصب الملك مكيدة فيقع فيها.

قال: فغضب خاقان عليه، ثم أطلع وزيره الآخر على ذلك، وكان فيه شر وخبث وحسد وحيلة، فتكفل لخاقان بنيل مراده، ثم ندب له فاتكًا من فتاك الترك، لم يكن فى الترك أشد حيلة منه، ولا أجرأ منه فى ذلك، وضمن له إن قتل بهرام ونجا، أعطاه رئاسة الجند، وجعل ذلك خالدًا فى ولده، وإن هلك دون مرامه، شرف ولده تشريفًا يخلد ذكره فيه أبدًا، فاستصحب الفاتك أخاه معه، وتوجها إلى دار ملك بهرام، فلما وردا قصر بهرام، قال الفاتك لأخيه: بعنى لبعض خدمة قصر بهرام، فلم يزل يتلطف حتى باعه من حافظ القصر الموكل بحراسته، فجعل ذلك الفاتك يتحبب إلى مولاه بحسن الطاعة، ونصح الخدمة، حتى وصل عنده، واختص به دون غيره، وأن سيده تخلف يومًا عن حراسة القصر لمرض ناله، فاستناب الفاتك، فعمد ذلك الفاتك إلى خزائن سلاح بهرام، وكانت بجوار قصره، فألقى فيها نارًا، وشاغل أصحابه على المبادرة إلى إطفائها

حتى اشتد عملها، فارتفعت الضجة، فخرج بهرام من قصره على فرس ولا سلاح معه، فانتهز الفاتك فيه الفرصة، ودنا من بهرام وفى يده خنجر وقد أخفاه فى كمه، فنظر إليه بهرام فى ضوء النار، فرأى دلائل الريبة ظاهرة عليه، فتفرس فيه الشر، فجمع رجليه ووثب من ظهر فرسه، فإذا هو على الفاتك، وقبض على يديه، فوجد الخنجر، فأخذه منه بيمينه، ولفه فى شماله، وانطلق به يقوده حتى أدخله القصر، فخلا منه وسأله عن أمره، فصدقه الحديث.

فقال له بهرام: أما أنت، فلك ذمتنا على حفظ نفسك والإحسان إليك إذا كنت إنما أتيت الذى أتيت طاعة لخاقان، ومناصحة له، وبذلت نفسك فى مرضاته، ومثلك من يصطنع، ونحن نحفظ عليك نفسك التى ضيعها صاحبك، غير أننا نريد أن نحبسك مدة ثم نطلقك ونحسن إليك لغرض نريد أن نفعله، فدلنا على أخيك؟ فدله عليه، فأرسل إليه من قبض عليه وحبسهما فى قصره مكرمين، وأخذ عليهما أن يكتما أمرهما، وكان قد رفع إلى بهرام أن رجلاً من رعيته زارعًا فى بعض الرساتيق له ابنة لم يسمع بامرأة خلقت على وجه الأرض مثل صورتها، طولها ستة أذرع، وشعرها ينسحب على مواطئ قدميها، وجلدها فى لونه وصفائه كأنه قشور الدرّ، وهى متناسبة الخلق، بديعة التركيب، دقيقة التخطيط، لا يستطيع من رأى إلى عضو من أعضائها أن ينقل بصره عنه إلا بعد مجاهدة النفس، وإذا قابلت عين ذى لب اضطرب قلبه، فلا يسكن حتى يضمها إلى صدره، ويرشف ريقها، وكان لها مع ذلك الحسن الباهر أدب، وعقل، وحزم، فشرهت نفس بهرام إليها، ثم تنزه أن تكون تحته ابنة زارع، فقمع نفسه عن هواها أنفة ونخوة، ثم نهى أن يذكرها له أحد، وأمر العامل على البلد التى هى فيها أن يتفقد أمرها، ومنع أباها من إنكاحها.

حتى إذا حدث عليه خاقان ما ذكرناه، أحضر رجلاً من أصحابه ذا دهاء ومكر وحيلة، فندبه لمكيدة خاقان، وأمره بما سنذكره فى أثناء الحكاية، وأعطاه من الذهب والفضة ونفائس الجواهر ودخائر الملوك ما يظن أنه يحتاج إليه فى عمل المكيدة، وأمره أن يسير متنكرًا فى زى تاجر إلى والد تلك الجارية التى ذكرناها، فيشتريها منه بما يريد؛ ليستعين بها على ما ندبه إليه، وأرسل إلى العامل على بلد أبيها يأمره أن يضيق على أبيها ويطالبه بما يعجز عنه من المال، ففعل ذلك، فجاء التاجر واشترى ابنته بوزنها ذهبًا، وهذا شىء كان يفعله أهل الخراج من الفرس إذا ضيق السلطان عليهم، باعوا أولادهم.

قال: ثم إن التاجر قصد بها بلاد الترك، حتى حل بمدينة خاقان، فقصد الوزير الساعى لبهرام فى المكيدة، وأهدى له هدايا نفيسة، وتقرب عنده بالتحف، إلى أن آنس به الوزير، وخف على قلبه، ولبث عنده عامًا، ثم قال له: عندى أيها الوزير تحفة، ولك عندى حب شديد، ولى عام أنازع نفسى بإتحافك بهذه التحفة التى لم يظفر أحد بمثلها، وكانت نفسى لم تسمح بها، فقد سمحت بإيثارك، فقال: وما هذه التحفة؟ قال: جارية طولها ستة أذرع، وشعرها ينسحب على مواطئ قدميها، كأنما كسى جلدها قشور الدرر.

قال: فلما سمع الوزير الصفة، استفزه الهوى إليها، وجعل يتقصى إحضارها، فلما أحضرها ووقع بصره عليها، لم يملك نفسه أن وثب عليها، فعانقها وضمها وقبلها ورشفها، ثم التفت إلى سيدها، وقال له: سل ما شئت واحكم، فقال: حكمى القرب منك، والحضور عندك، قال: هذا لك، وخذ من المال ما شئت، قال: لا حاجة لى فيه، ثم خرج مبادرًا إلى باب قصر الملك خاقان، فقال لبعض ثقاته: إن عندنا نصيحة نخاف فوتها، فأدخلوه على خاقان فى الحال، فسأله عن حاجته ونصيحته، فقال: إنى قصدت الملك بتحفة لا تصلح إلا له، فسألت الوزير فلانًا أن يوصلها إلى الملك، فاستأثر بها واعتدى، وبذل مالاً كثيرًا على كتمان ذلك، فلم أفعل ذلك، فقال: وما هى التحفة؟ قال: جارية طولها ستة أذرع، وصفتها كذا وكذا.

فأرسل خاقان من نفسه رجالاً من ذوى النسك فى دينهم، وأمرهم بالهجوم عليه، وحفظ الحال التى يرونها عليها، والإتيان به وبالجارية محجوبة عن الأبصار، ففعلوا ذلك، وقالوا: إنهم أبصروها بين يديه جالسة مجردة، فسألها خاقان عما نال منها، فقالت: عانقنى وقبلنى وجردنى ونظر إلى سائر بدنى، وهم أن يقتضى منى، فهجم هؤلاء القوم عليه، فأمر خاقان أن تقطع يداه، وتقلع عيناه، ويقطع لسانه وشفتاه، ففعلوا ذلك بالوزير.

ثم أن خاقان خلا بالجارية وسألها أبكر هى أم ثيب؟ فقالت: بل بكر، فلم يملك نفسه أن افترعها، فلما نزع منها أزالت عن رأسها قناعها، فمسحت به ذكر الملك، فأحس به من ساعته ينمل، ثم بعد ذلك ظهر فيه نفخ، ثم ابتدأ فيه الوجع الشديد، فعلم أنه سم، فتناول موسى وقطع به ذكره، وأمر بالجارية فصرفت عنه وحفظت، وطلبوا مولاها فلم يظفروا به، وأن خاقان عالج نفسه حتى برئ، ثم أحضر الجارية فسألها عن

نفسها وأهلها وبلدها، فأخبرته أنها لم تكن تعلم من أمر مولاها أكثر من أنه تاجر اشتراها من أبيها بوزنها ذهبًا، وسألها عن قناعها، فقالت: كسانيه سيدى، وعرفنى أنه يهدينى للملك، وشأن الملوك إذا وقع أحد منهم جارية ونزع منها أنها تمسح ذكره بما على رأسها كائنًا ما كان، فإن لم تفعل ذلك سقطت من عين الملك، وتعرضت لسخطه، فعلم خاقان أنها مخدوعة معذورة، فلم يتعرض لها بسوء.

فلما عاود صاحب بهرام إليه وأخبره بما تم له من المكيدة، أمر بهرام بإحضار الفاتك التركى وأخيه، وأحسن إليهما، وكتب معهما كتابًا إلى خاقان يقول: إن الحسد والبغى أوردك واوردًا وزيرك السوء موارد الندم، وقد كنا أنزلنا بمنزلة الأخ قبل أن نعرف خبث نيتك فينا، وحسدك لنا، فلما علمنا ذلك أردنا بك ما أردته بنا، فقضى الله لنا عليك بنجاح السعى، لعلمه بصلاح نيتنا، وخبث نيتك، والآن فاتق الله على نفسك، فلسنا نعرض لك بسوء إذا لزمت حسن النظر لنفسك بمسالمتنا.

قال: فلما انتهى الكتاب إلى خاقان، عرف ممن أصابه ما أصابه، ثم أنه داخلته الحمية والغيرة، فتجهز لقتال بهرام فى أمم من الترك لا تحصى، وسار إلى أرض فارس، فانتخب له بهرام أجنادًا من شجعان الفرس، ولقيه فهزمه بهرام، وقتل رجاله، ونهب أمواله، واستولى على بلاده، وكان إثارة هذه الفتنة الحسد والبغى(١).

الوصف الثانى عشر العجلة: اعلم أن العجلة رديئة العاقبة، مذمومة الأمر، ينتجها طيش وتهور، أولها ملامة، وآخرها ندامة، لا يفارقها الزلل، ولا يتعداها الفشل. وقد قال رسول الله ﷺ: «العجلة من الشيطان»(٢). وكان يقال: لا يواجه العجول محمودًا، ولا الغضوب سرورًا، ولا الشره غنى.

وقيل: إنه اجتمع أربعة ملوك من الروم عند حكيم من حكمائهم، فقالوا: أوصنا أيها الحكيم وصية ننتفع بها بما صار إلينا من أمر الملك، فقال: من استطاع منكم أن يمنع نفسه من أربعة أشياء، فهو حقيق أن لا ينزل به مكروه، وهى: العجلة، واللجاجة، والغضب، والتوانى، فثمرة العجلة الندامة، وثمرة اللجاجة الحيرة، وثمرة الغضب البغضة، وثمرة التوانى الذلة.

---

(١) انظر: الزاهر لابن فرحون (ص١٣٣ - ١٣٧).

(٢) عزاه الحافظ العجلونى للترمذى، عن سهل بن سعد مرفوعًا، وقال: حديث حسن. انظر: كشف الخفاء (٢/٧٢).

وكان يقال: التثبت فى النوائب معقل أهل التجارب، والعجلة فى الأمور داعية إلى كل محذور. وأوصى ملك من ملوك اليمن من يخلفه من بعده، فقال: أوصيك بتقوى الله تعالى، فإنك إن تتقه يزيدك ويرضى عنك، ومتى رضىَ الرب عن عبده أرضاه، وآمرك أن لا تعجل فيما لا تخاف فيه الفوت، فإن العجلة ندامة، وإذا شككت فى أمر فشاور، وإذا اتهمت فاستبدل، وإذا قلت فاصدق، وإذا وعدت فانجز، وإذا أوعدت فى حق فانفذ، واعلم أنك إذا ضبطت حاشيتك ضبطت قاصيتك، والسلام.

واعلم أن العجلة مذمومة، إلا فى أفعال البر، وصنائع المعروف، فإنها حسنة محمودة. وقال بعض الحكماء: على الملك أن يعمل بخصال ثلاث: تأخير العقوبة فى سلطان الغضب، وتعجيل مكافأة المحسن، والأناة فيما يحدث، فإن له فى تأخير العقوبة إمكان العفو، وفى تعجيل المكافأة بالإحسان المسارعة فى الطاعة من الرعية، وفى الأناة إيضاح الرأى، وانفساح الصواب.

وذكر بعض الملوك فى وصية له لولى عهده: إذا هممت بخير فعجله، وإذا هممت بخلافه فتأن فيه، وارحم ترحم. وكان يقال: العجلة مذمومة قبيحة، إلا فى ثلاثة أشياء: فى اصطناع المعروف إذا أمكن، وفى تزويج البكر إذا خطبت، وفى دفن الميت.

الوصف الثالث عشر المزاح: اعلم أن المزاح شاغل عن الأمور المهمة، مذهل عن النوائب الملمة، يذهب الهيبة والوقار، وليس لمن وسم به مقدار، يزيح عن الحقوق، ويفضى إلى العقوق، ويشغل خواطر الأصحاب، ويجانب محاسن الآداب، ويذهب عنها ويجرئ السفهاء، أوله حلاوة، وآخره عداوة.

قال عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه: اتقوا المزاح، فإنه حمقة تورث الضغينة[1]. وقال أكثم بن صيفى: المزاح يذهب بالبهاء والمهابة فاحذروه. وأوصى مسلم بن قتيبة أولاده، فقال: لا تمازحوا فيستخف بكم نظراؤكم، ويجترئ عليكم أكفاؤكم، وهو مسلبة للهيبة، مقطعة للصحبة، أوله فرح، وآخره ترح. وقيل: إذا مازح السلطان هان عند رعيته، وإذا سفه ذهبت حرمته. وقيل فى منثور الحكم: من قل عقله كثر هزله. وقيل: المزاح معدن الداء، عسير الدواء. وقيل: خير المزاح لا ينال، وشره لا يقال.

وقال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: من كثر من شىء عرف به، ومن مزح

---

(١) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص١٨٣).

استخف به، ومن كثر ضحكه ذهبت هيبته، ومن عرض نفسه إلى التهمة فلا يلومن من أساء به الظن. وقال بعضهم لابنه: يا بنى، لا تمازح الشريف فيحقد عليك، ولا الدنىء فيجترىء عليك. وكان يقال: لكل شيء بذر، وبذر العداوة المزاح، ولهذا شعر:

اترك مزاح الرجال إن مزحوا ... لم أر قومًا تمازحوا سلموا

يفنى مزاح الفتى مروءته ... ورب قول يسيل منه دم

وقال آخر شعر:

ولقد حبوتك يا بنى نصيحتى ... فاسمع مقال أب عليك شفيق

أما المزاح مع المراء فدعهما ... خلقان لا أرضاهما لصديق

إنى بلوت فلم أكن أحمدهما ... لمجاور منى ولا لرفيق

واعلم أن النفوس متى سلك بها الجد وألزمت به، سئمت، وضجرت، واستقلت حمل الحمق، وربما إلى ضيق الصدر، وسوء الخلق، فينبغى أن يريحها بقليل المزاح، ويسير الدعابة، وليكن كما قال أبو الفتح:

أفد طبعك المكدور بالجد راحة ... ترحه وعلله بشيء من المزح

ولكن إذا أعطيته المزح فليكن ... بمقدار ما تعطى الطعام من الملح

وقال ﷺ: «إنى لأمزح ولا أقول إلا حقًا»[(١)]. وقال سعيد بن العاص لابنه: يا بنى، اقتصد فى مزاحك، فإن الإفراط فيه يذهب البهاء، ويجرىء عليك السفهاء، والاقتصار عنه بالكلية يبغضك إلى أصحابك ومؤانسيك[(٢)]، فامزح معهم، وليكن بمقدار ما يحصل لهم به الأنس منك من غير إفراط، وليحذر مع هذا الشرط أن يمازح الآدمى عدوه، فيصير ذلك طريقًا إلى إعلان المساوئ، فقد قال بعض الحكماء: إذا مازحت عدوك ظهرت عيوبك[(٣)].

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٢٨٣/١) ح (٩٩٥)، وفى الصغير (٧١٢) وفيه مبارك بن فضالة، صدوق، يدلس ويسوى. انظر: التقريب (ت٦٤٦٤)، وحسنه الحافظ الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨٢/٨)، والحديث إسناده ضعيف لما تقدم.

(٢) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى حيث ذكره فيه (ص١٨٤).

(٣) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص١٨٢ - ١٨٧)، الزاهر لابن فرحون (ص٣٢٨، ٣٢٩).

الوصف الرابع عشر الضحك: اعلم أن الضحك يضاهى المزح فى المذمة والقبح، ولا تقتضيه حال الملوك وأرباب المناصب؛ لما فيه من زوال الهيبة، وذهاب الوقار، وقلة الأدب، وقد قال رسول الله ﷺ لأبى ذر الغفارى، رضى الله عنه: «إياك وكثرة الضحك، فإنه يميت القلب، ويذهب بهاء الوجه»(١). وقال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: من كثر ضحكه قلت هيبته(٢)، ومن أكثر من شىء عرف به(٣)، ولكن لابد أن يرى الإنسان أو يسمع ما يغلب عليه الضحك منه، أو تمس الحاجة إليه لإيناس الجليس، فينبغى إذا طرأ شىء من ذلك أن تجعله تبسمًا من غير قهقهة واسترسال، وليراع فيه الشرط الذى قدمناه فى المزح(٤).

الوصف الخامس عشر الغدر: اعلم أن الغدر بعد عقد العهد حرام، وعاقبته هلاك ودمار، إذ لا نقض حتى ينقضى أمده وتنقضى مدده، قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ**﴾ [المائدة: ١]، وقال تعالى: ﴿**فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ**﴾ [التوبة: ٧].

وروى سليمان بن عامر، قال: كان بين معاوية وبين الروم عهد، فسار معاوية فى أرضهم، كأنه يريد أن يُغير عليهم، فقال له عمر بن عبسة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان بينه وبين قوم عهد، فلا يحل عقده، ولا يشدها، حتى يمضى أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء»، قال: فانصرف معاوية ذلك العام.

وقال بعض الحكماء: الغدر يسرع إلى الهلك، ويفضى إلى زوال الملك. وكان يقال لكل عاثر راحم، إلا الغادر، فإن القلوب مجمعة على الشماتة بصرعه. وقال حكيم لبعض ملوك زمانه: أوصيك بخمس خصال ترضى بهن ربك، وتصلح بهن رعيتك: لا يغرنك ارتقاء السهل إذا كان المنحدر وعرًا، ولا تعدن وعدًا ليس فى يديك وفاؤه، واعلم أن الأمور بغتة، فكن على حذر، واعلم أن الأمور جزاء ومكافأة، فاتق العواقب،

---

(١) أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٢/٧٦ - ٧٩) ح (٣٦١)، والطبرانى فى الكبير (٢/١٥٧) ح (١٦٥١)، وقال الحافظ الهيثمى: فيه إبراهيم بن هشام بن يحيى الغسانى، وثقه ابن حبان، وضعفه أبو حاتم، وأبو زرعة. انظر: مجمع الزوائد (١٠/٢٩٦).

(٢) ذكره الماوردى فى أدب الدنيا والدين (ص١٨٧).

(٣) وقال الخليفة على، عليه السلام: إذا ضحك العالم ضحكة مَجّ من العلم مَجّةً.

(٤) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص١٨٢ - ١٨٧)، الزاهر لابن فرحون (ص٣٢٥ - ٣٢٨).

وإياك والغدر، فإنه أقرب الأشياء صرعة.

وأوصى أبو مسلم الخراسانى قومًا بعثهم إلى منازل قوم عدو لهم: أشعروا قلوبكم الجرأة، فإنها سبب الظفر، وأكثروا من ذكر الضغائن، فإنها تبعث على الإقدام، والزموا الطاعة، فإنها حصن المحارب، واحذروا من الغدر، فإن الغادر مصروع. ويحكى أن موبذان قال لفيروز ملك العجم لما عزم على نقض العهد الذى كان بينه وبين الخنشوار ملك الهياطلة، وخرج إلى بلده: أيها الملك، إن الرب تعالى يمهل الملوك على الجور ما لم يشرعوا فى هدم أركان الدين، فإذا شرعوا فى ذلك لم يمهلهم، فإن عقدوا ميثاقًا من أركان الدين فلا تنقضه، قال: فلم يلتفت إليه فيروز، وخرج طالب الخنشوار، فهزم جيشه، وقتله واستولى على بلاده.

وقد أوضحنا فى هذا الباب من الأوصاف الذميمة، والأخلاق اللئيمة ما احتمله كتابنا هذا، وسنختمه بذكر عوارض رديئة ربما عرضت للملوك أو بعضها، فأضرت بهم وأخرجتهم عن حدود الاعتدال، وهى ثلاثة أعراض، الأول والثانى الهم والغم، فإن هذين العرضين إذا طرآ واشتد إفراطهما، فإنهما يحدثان من الألم والأذى على النفس والجسم ما لا يمكن تلافيه، ويؤديان إلى التقصير فى المطالب، والقصور فى التدبير، مع ما يظهر فى الجسم من النحول، وفى العقل من الذهول، وهذان العرضان لا مندوحة لأحد عنهما، ولابد من طروءهما فى مقابلة الحوادث الملمة، والنوائب المهمة، فالهم هو خوف ما يتوقع حدوثه وطروءه فى الزمن المستقبل من الأمور المهمة، والغم هو كمد النفس وحزنها على ما ذهب إليه الزمان الماضى، فينبغى للملك أن يريح نفسه وجسده عند طروء أحدهما، وينال شيئًا من اللذة والسرور بالأشياء المباحة فى الشرع، بقدر ما يبلغ به مصلحته، ويحفظ به صحته.

وينبغى أن يكون مقدار إصابته من ذلك ما يحصل به الاعتدال من غير إفراط فيه، فإن الإكثار من اللهو يحصل به من الضرر فوق ما يحصل به من الغم، فإنه يلهيه عن مصالح المملكة، والاعتدال فى ذلك أسلم، وقد كان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى، رحمه الله، إذا طرأ عليه أحد هذين العرضين، نزل إلى الميدان، وجعل يلعب حتى بالكرة والصولجان نهاره، فإذا جن عليه الليل بسط رقعة الشطرنج، وجعل يلعب حتى يغلب عليه النوم.

العرض الثالث السكر من الشراب، اعلم أن السكر حرام فى جميع الأديان، وإنما

اختلفوا فى عين المسكر، وقد أجمع أهل العقل على قبح السكر، مع تحريم الشرائع له، وهو من الأعراض الرديئة المفضية بصاحبها إلى البلايا والأسقام، وقد ذكر أهل الطب أن الإفراط من السكر ربما حدث منه فى وقت السكت والاختناق، وربما حدث منه انفجار الشريانات التى فى الدماغ، ويحدث منه فى غير وقته الحميات الحارة، والأورام الدموية والصفراوية، وتحدث منه الرعشة والفالج، هذا كله مع ما يجلب على صاحبه من فقد العقل، وهتك الستر، وإفشاء السر، والاشتغال عن درك المطالب، ولا يكاد صاحبه يسمو له حال، ولا يستقيم له أمر فى تدبير، ولا يزال منحط الرتبة عند نظرائه، مسلوب الوقار فى أعين الناس، وأكثر ما ينصب الغوائل والمكائد للملوك فى حال سكرهم، هذا كله مع ما يؤول السكر بصاحبه فى الآخرة إلى العذاب المهين، والنكال الدائم.

* * *

الباب السابع

فى كيفية رتبة الملك وأوليائه فى حال جلوسه وركوبه

اعلم أن ملوك الأمم على اختلاف أجناسهم، كانت لهم سنن وآداب يميزون بها، وأقاموا أبهتهم بالمواظبة عليها، يضيق كتابنا هذا عنها وعن شرحها، ولا فائدة فى ذكرها؛ لأن الشرع ورد بالنهى عن التشبه بها، بل نقتصر فى ذلك على مثال ما رتبه فى ذلك الخلفاء من بنى العباس، إذ هم قدوة ملوك الناس، وسنذكر من ذلك قدر الحاجة على سبيل الاختصار، فنقول: ينبغى للملك أن يجعل جلوس طبقات أصحابه وأعوانه وأوليائه على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: يجلس فيها الجند والغلمان الذين ليس لهم مزية على غيرهم.

المرتبة الثانية: يجلس فيها القواد المتوسطون الذين قد ولوا الأعمال من قبل الأمراء، ومن يجرى مجراهم من الطواشية وغيرهم.

المرتبة الثالثة: يجلس فيها الأمراء والأكابر الذين يتولون الأعمال، ويخطب لهم على المنابر، وكبار الحجاب، والعلماء، والقضاة، وهذه المرتبة تسمى دهليز الخاصة، وهو القريب من الستر.

فإذا جلس الناس لا يختلط قوم بغيرهم، ولا يعلو أحد منهم فى الجلسة على من هو

فوقه، ويطرقهم الحجاب طول جلوسهم، فإذا جلس أحد فى غير مرتبته أقامه إليها، ويجلس صاحب الحجاب ملاصقًا للوزير، والباب الذى يوصل منه إلى الملك؛ لأنه أول من يصل إليه، ويكون الستر مسبلاً على الباب، ويمسكه البوابون الفحول، ولا يطلقونه لأحد لأجل الاطلاع منه إلى صحن الدار التى يجلس فيها الملك، فإذا خرج الملك مع خدمه، وجلس على سريره المفروش، وقف على رأسه الخادم الخاص، ويكون ممن له فطانة، وصورة حسنة مقبولة، ثم يخرج الخادم الحربى صاحب الرسالة، فيستدعى صاحب الحجاب، فيدخل وحده، ولا يشال الستر لكن بعضه حتى يقف فى صحن الدار بين يدى الملك، ثم يستدعى الوزير، فيتقدم الحاجب، ثم يمشى إلى أن يقرب من السرير، فيتقدم وحده ويرجع عنه الحاجب إفرادًا له عما يعامل به سائر الناس من التقدم معه، فيخدم الملك، ثم يقف عن يمين السرير على نحو خمسة أذرع منه، ثم يدخل أمير الجيش بعده، فيمشى معه الحاجب كما فعل بالوزير، فيخدم الملك، ثم يقف على يسرة السرير.

ثم يدعى بالحجاب فيدخلون، وبالخدم الرؤساء فيدخلون، ثم يدعى بالأمراء القواد، فيوصلهم الحجاب ويقفون على مراتبهم يمنة ويسرة على حسب محالهم ومواقعهم من المراتب، ولا يتقدم أحد على غيره، ثم يدعى بالعلماء والفقهاء والقضاة، فيجلسون دون الوزير على يمنة السرير، ثم يستدعى رؤساء الأطباء، فيقفون بارزين، فإذا احتاج لشىء من علمهم، كانوا حاضرين يعلمون به الملك بعد خروج الناس، ثم يستدعى بالغلمان والجند، فيقيمون بارزين صفًا مفردًا خلف الناس، ثم يخرج الناس عن طبقاتهم بعد وقوفهم ساعة، وبعد أن يلحظهم الملك، ويشاهد حضورهم، ويعرف من يتخلف من وجوههم، وليحذر كل من يقف بين يدى الملك أن يتشاور أو يتحدث مع أحد.

ثم يتخلف الوزير ساعة طويلة، وقد ينحى صاحب المرتبة الكبيرة من موضعه إلى أن يشاور الوزير الملك فيما يحتاج الأمر إلى مشاورته، ومن أدب الوزير أن يأخذ المذبة الصغيرة ويروح على الملك بها، ويكون صاحب الحجاب واقفًا بالبعد، بحيث إذا دعى أجاب، ثم يخرج الوزير بعد ذلك ومعه الحاجب، فيجلسان فى الدهليز، وينظران إلى أعمال الملك المهمة وحوائج العامة، ويرجع الناس إلى مراتبهم وأعمالهم، وإذا أراد الملك أن يركب فى موكبه، فتمشى الخدم قدامه وهم متحفظون على أسلحتهم، إلى أن يوصلوه موضع الركوب فيركبوه، وقد تقدمهم قطعة من الحجاب قدام الموكب، يطرّقون ويمنعون أحدًا من سلوك الطرقات، وتكون الخيل المسومة بأحسن العدد من جنب وقدام الملك، ويكون الوزير وراء الملك، بحيث إذا دعى أجاب، ولا يخرج الملك

إلى الالتفاف له بعنقه، فإذا استتم كلام الملك رجع إلى وراء الملك.

ويكون خلف الوزير رؤساء الخدم وسائر طبقات العسكر، ثم يتبع ذلك بغال الشراب وبغال الماء، وتكون بارزة بحيث ترى، ولا يزاحمها الموكب، ويكون معه بغال الكسوة، وفيها بغال معدة، ويكون معها بغل عليه صندوقان يعد فيهما ما خف من الأطعمة، ويكون خلف الخدم خادم الجوائز والصدقات، ومعه حقيبة فيها صرار من خمسة دراهم إلى مائة إلى ألف، فإذا أمر الملك بمبلغ عرفه وأعطاه إلى صاحبه، ويكون فى الموكب الفقهاء، والعلماء، والفضلاء، والمؤذنون؛ ليحصل بهم الرحمة، وإذا وصل الملك إلى قصره تراجع الناس أجمع.

ولا يكثر الملك من الركوب، فإن هيبته كالأسد فى قلوب أهل البلد من الذين حوله، ولا يتحجب، فإن ذلك مضر بالملك، بل يكون التحجب والظهور بقدر الحاجة بهم، فإن السباع الكاسرة إذا لم تشاهد الراعى بلغت مرادها من الغنم.

* * *

الباب الثامن

المشورة والحث عليها

اعلم أن المشورة عين الهداية، وسبيل الرشاد إلى الأمر، وإيضاح المبهم من الرأى، ومفتاح المغلق من الصواب، وقد حث الشرع عليها، وندب الخلق إليها، وقد قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، قال الحسن البصرى، رضى الله عنه: أمره بالمشاورة ليستقر له الرأى الصحيح فيعمل به[(١)]، وقال الضحاك: أمره بالمشاورة لما علم ما فيها من الفضل، وما يعود منها من النفع[(٢)]، ولأن إرسال الخواطر الثاقبة، وأصالة الأفكار الصافية لا يكاد يعزب عنها ممكن، ولا يخفى عليها جائز، والمستبد برأيه بعيد من الصواب، قريب من الزلل، وقد قال رسول الله ﷺ: «رأس العقل بعد الإيمان بالله تعالى التودد إلى الناس[(٣)]، وما استغنى مستبد

---

(١) عزاه الحافظ السيوطى لسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، والبيهقى فى سننه. انظر: الدر المنثور للسيوطى (١٥٩/٢).

(٢) عزاه الحافظ السيوطى لابن أبى شيبة، وابن جرير، وابن أبى حاتم. انظر: الدر المنثور للسيوطى (١٥٩/٢).

(٣) إلى هنا أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٣٦٢/٣) ح (٤٨٤٧)، وعزاه الحافظ الهيثمى للطبرانى فى الصغير، وقال: فيه جماعة لم أعرفهم. انظر: مجمع الزوائد (٢٧/٨).

برأيه، ومـا هلـك أحـد عـن مشـورة، وإذا أراد اللـه بعبـد هلكـة، كـان أول مـا يهلكـه رأيه»[١]، وقال رسـول اللـه ﷺ: «نقحـوا عقولكـم بـالمذاكرة، واستعينوا علـى أموركـم بالمشاورة»[٢].

وقال على بن أبى طالب، رضى الله عنه: الاستشارة عـين الهدايـة، وقـد خـاطر مـن استغنى برأيه[٣]، وقال بعض البلغاء: الخطأ مع الاستشهاد أحمد من الصواب بالاستبداد. وقال بعض الحكماء: نصف رأيك مع أخيك، فشاوره ليكمل لك الرأى. وكـان يقـال: إذا أشكلت عليك الأمور، فارجع إلى رأى العقلاء، ولا تـأنف مـن الاسترشـاد يشـكرك العباد، فإن تسأل وتسلم خير لك من أن تصيب وتندم. وقال بعض الحكمـاء: مسترشـد ضعيف الحيل خير من عاقل مستكمل رأيه.

ويقال: التردد خير من العجلة، وإذا اقتصر الملك برأيه، عميـت عليـه المراشـد. وقـال حكيم من الفرس: النظر فى الأمور من العـزم، والعـزم مـن الـرأى، والـرأى سـلامة مـن التفريـط، وسـلامة التفريـط داعيـة إلى الظفـر، والتدبير والفكـر يبحثـان عـن الفطنـة، ويكشفان عن الحزم، ومشاورة الحكماء ثبات فى اليقين، وقوة فى البصـيرة، ففكـر قبـل أن تعزم، واعزم قبل أن تصرم، وتدبر قبل أن تهجم، وشاور قبل أن تقدم. وكـان يقـال: ما استنبط الصواب بمثل المشاورة، ولا حصنت النعم بمثل المداراة، ولا اكتسـبت البغضـة بمثل الكبر.

وقال عبد الملك بن مروان: لأن أخطئ وقد استشرت أحب إلىَّ مـن أن أصيـب وقـد اكتفيت برأى، وأمضيته بغير مشورة؛ لأن المقتصر برأيـه يـزرى بـه أمـران: تصديقـه رأيـا الواجب عليه تكذيبه، وتركه المشورة التى يزداد به بصيرة[٤]، ولهذا شعر:

إذا الأمـــر أشـــكل إنفـــاذه ... ولـم تـر منـه سـبيلا فسيحـــا
فشـــاور عليـــه ولا تخفـــه ... أخـاك اللبيـب الأديـب الفصيحـا
فربمـــا أفـــرج الناصحـــون ... وأبـدوا مـن الـرأى رأيًا صحيحـا

وقال محمود الوراق:

---

(١) أورده الشيخ الماوردى هكذا فى أدب الدنيا والدين (ص١٧٥).
(٢) لم أجده، والتقصير منّا.
(٣) ذكره الماوردى فى أدب الدنيا والدين (ص١٧٥).
(٤) انظر: أدب الدنيا والدين للماوردى (ص١٧٣ - ١٧٩).

إن اللبيب إذا تفرق أمره فتق الأمور مناظرا ومشاورا
وأخو الجهالة يستبد برأيه فتراه يعتسف الأمور مخاطرا

وقال آخر:

شاور صديقك فى الخفى المشكل واقبل نصيحة صاحب متفضل
فالله قد أوصى بذاك نبيه فى قول شاورهم به وتوكل

* * *

الباب التاسع

فى بيان أوصاف أهل المشورة وحكايات لائقة

اعلم أنه اختلف الناس فى أهل الشورى، هل الأولى أن يجمعهم الملك على الرأى، أو ينفرد بكل واحد منهم فى المشورة، فذهبت العرب والفرس وملوك الهند إلى أن الأولى اجتماعهم فى تدبير الرأى، وأصالة الفكر؛ ليذكر كل واحد ما قدحه فكره، ويبين نتيجة فكرته، حتى إذا كان هناك ضرر فى الأمر ذكروه، وإن توجه عليه نقض نقضوه، وأنه لا يبقى فى الرأى مع اجتماع القرائح خلل إلا ظهر واشتهر.

وذهب الروم وملوك القبط إلى أن الأولى انفراد كل واحد بالمشورة؛ ليجيل فكره، ويستجدى خاطره للوصول إلى صواب الرأى، فإن القرائح إذا انفردت استكررها الفكر، واستفرغها الجهد، وإذا اجتمعت كان أول ما بدا به الرائى متبوعًا، وينبغى أن يجتمع فى أهل الشورى سبع شروط عليها مدار المشورة، وبها يشتمل صواب الرأى:

أحدها: الفطنة والذكاء؛ لئلا تشتبه عليهم الأمور فتلتبس، فلا يصح مع اشتباهها عزم، ولا يتم فى التباسها حزم.

والثانى: الأمانة؛ لئلا يخونوا فيما ائتمنوا عليه، أو يغشوا فيما استنصحوا فيه.

الثالث: الصدق، صدق اللهجة بخبرهم؛ ليثق الملك فيما ينهون إليه، ويعمل برأيهم فيما أشاروا به عليه.

الرابع: أن يسلموا فيما بينهم من التحاسد والتنافس، فإن ذلك يمنعهم من الكشف عن صواب الرأى.

الخامس: أن يسلموا فيما بينهم وبين الناس من العداوة والشحناء، فإن العداوة

تستدعى التناصف، وتحجب عن صواب الرأى.

السادس: أن لا يكونوا من أهل الأهواء، فيخرجهم الهوى عن الحق إلى الباطل، فإن الهوى خادع الألباب، وصارف الرأى عن الصواب.

السابع: أن يكونوا من كبراء الدولة، ومشائخ الأعوان؛ لأن المشائخ قد حنكتهم التجارب، وعركتهم النوائب، وقد شاهدوا من اختلاف الدول ما أوضح لعقولهم صواب الرأى.

وقد كانت العرب تقول: المشائخ أشجار الوقار، ومنابع الأخبار، لا يطيش لهم سهم، ولا يسقط لهم وهم. وقد كان يقال: عليك بآراء المشائخ، فإنهم إن فقدوا ذكاء الطبع، فقد مرّت على عيونهم وجوه العبر، وتصدت لأسماعهم آثار الغبر. وحكى أن المأمون قال لأولاده: يا بنىّ، ارجعوا فيما اشتبه عليكم إلى رأى أهل الحزم من أعوانكم المجربين المشائخ المشفقين، فإنهم يرون لكم ما لا ترون، ويكشفون لكم أغطية ما لا تعلمون، فقد صحبوا لكم الدهور، ومارسوا لكم الأمور، وعرفوا حوادث الأزمنة وأعراضها، وإقبالها وإدبارها، فروضوا أنفسكم لهم، وتجرعوا مرارتهم، فقد قيل: من جرعك مرًا لتبرأ، شفق عليك ممن جرعك حلوًا لتسقم.

وينبغى أن لا يدخل الملك فى مشورة بخيلاً، ولا جبانًا، ولا حريصًا، ولا معجبًا، ولا كذابًا؛ لأن البخيل يقصر بعقلك، والجبان يخوفك ما لا تخاف، والحريص يعدك ما لا يرجى، فقد كان يقال: البخل والجبن والحرص طبيعة واحدة، يجمعها سوء الظن. وقال عبد الملك بن مروان لبعض عماله: لا تستعن فى أمر دهمك كذابًا، ولا معجبًا، فإن الكذاب يقرب لك البعيد، ويبعد عنك القريب، وأما المعجب، فليس له رأى صحيح، ولا رواية تسلم.

وينبغى للملك إذا أتى كل أحد بما عنده من الرأى، أن يتصفح أقوالهم، ويكشف عن أصولها وأسبابها، ويبحث عن نتائجها وعواقبها، مع مشاركتهم جميعًا فى الارتياء والاجتهاد، وليتوقف فى ذلك، وليحذر مبادرة العمل بالرأى قبل إمعان النظر فيه، فقد قيل: أضعف الرأى ما منح للبديهية ابتداء، وأفضله ما تكررت الفكرة بعده، وأحكمت الروية عقده. وكان يقال: كل رأى لم تتمخض به الفكرة ليلة كاملة، فهو مولود لغير تمام.

قال عبد الله بن وهب: الرأى ابن ثلاث، فإن عيوبه تكشف لكم عن محضه. وقال ابن هبيرة وهو يؤدب ولده: لا تكن أول مشير، وإياك والرأى الفطير، ولهذا شعر لبعض أهل الفضل:

وإذا الخطوب عليك يومًا أشكلت ... فاعمد لرأى أخ حكيم مرشد
فإذا استشرت فكن لنفسك رائدا ... متوخيا حد الرشاد فتهتدى

قال: فإذا تكرر له الرأى الصحيح بعد الفكرة والروية شرع فى إمضائه والعمل به، وينتهز فيه الفرصة، وليحذر مخالفة النصحاء والاستهانة بنصائحهم، فقد قيل: من عصى ناصحًا فقد استدعى عدوًا. وكان يقال: يستدل على إدبار أمر الملك بخمسة أشياء، أحدها: أن يستكفى الأحداث الذين لا خبرة لهم بموارد الأمور ومصادرها. الثانى: أن يقصد أهل مودته بالأذى. الثالث: أن ينقص خراجه عن مؤنة ملكه. الرابع: أن يكون بتقريبه وإبعاده إنما هو للهوى لا للرأى. الخامس: استهانته بنصائح العقلاء، وآراء ذوى الحفلة. قال كسرى أنوشروان: حزم الرأى مشورة أهل العلم. وقال أهل الفضل:

إذا ما الأمور عليك التوت ... فشاور لبيبًا ولا تعصه
وإن كنت فى حاجة مرسلاً ... فارسل حكيمًا ولا توصه

وقال أبو الفتح البستى:

فللتدابير فرسان إذا ركضوا ... فيها أبروا كما للحرب فرسان
فلا تكن عجلا فى الأمر تطلبه ... فليس يحمد قبل النضح بحران

وسنختم هذا الباب بثلاث حكايات موضحة لما شرحناه:

الحكاية الاولى: قيل: إن كسرى أنوشروان وصفت له أرض من التخوم الهندية تقارب أقصى بلاده بحسن المنظر، وطيب الهواء، وكثرة العمائر، وحصانة المعاقل، ووصف له أهل تلك الأرض بعظم الجسوم، وبلادة الفهوم، وشجاعة النفوس، وقوة الأبدان، والصبر على ملازمة الطاعة لملكهم، ولين القياد، فشرهت نفس كسرى إلى تملك تلك الأرض، فسأل عن ملكها، فأخبروه أنه عظيم المنظر، وأنه شاب منقاد إلى شهوته، مقبل على لذاته، غير أن رعيته قد أشربت قلوبها وده، وانصرفت آمالها إلى ما عنده.

قال: فجمع كسرى وزراءه، وأعلمهم أن نفسه شائقة إلى تملك تلك الأرض، وعرفهم صفات مالكها، وهو أن لا ركن له غير إقبال رعيته إلى طاعته ومحبته، فاجتمع رأيهم على أن ينتدب لاستفساد رعية ذلك الملك رجالاً يحسنون نصب الدعوات، وقلب السبل.

قال: فأحضر رجالاً من دهاة العرب وفتاكهم، وأمدهم بالأموال، ونصب لهم مثالاً يعملون عليه، فنفذوا لما أمرهم، وتفرقوا فى تلك المملكة، وأعمل كل منهم قوته فيما انتدب له، وأحكموا أمرهم فى عامين، وبثوا الدعوة فى تلك المدينة وغيرها من قراها ورساتيقها ومعاقلها وثغورها، واستمالوا قلوب الرعية إلى كسرى، فأحضروا المرزبان الذى به تلك الأرض وأمره بالتجهيز إليها، فلما أخذ المرزبان فى إعداد الجند، وكان عسكره خمسين ألف رأس سوى أتباعها، فكتب إلى الملك عيونه يخبرونه بخروج المرزبان إليه، ثم ظهر النفاق ببلاده، وهمس الناس فيه، فانتبه من غفلته، وبحث على الأمر، فوقف على حقيقته، وكان أمر مملكته يدور على خمس رجال، أربعة منهم هم وزراؤه وجلساؤه، والخامس رئيس الزمارمة الذين يأخذون عنه الدين، وكان حكيمًا عالمًا.

قال: فجمعهم الملك، وأطلعهم على ما انتهى إليه من فساد الرعية، وتجهز جيوش أنوشروان إلى جهتهم، وأمرهم فى نظر ذلك، وإمعان الفكر فيه، فجلسوا إلى إدارة الرأى، فقال أحدهم من الوزراء الأربعة: الرأى أن يستصلح الملك برعيته، ويملأ قلوبها رغبات، ويحسن آمالها، فإن العدو إذا علم، كان ذلك حائلاً له عن الإقدام، وإن أقدم لقيناه كلنا بكلمة مجتمعة، وقلوب سليمة، فقال له رئيس الزمارمة: هذا لو كان فساد الرعية أوجبه جور وعسف، فيزال حكم الفساد بإزاحة علته، وأما فساد هؤلاء، فإنما أورده عليهم الجهل بمواقع الصواب، والنظر لترادف النعم، وقد قيل: أربعة إذا أفسدهم البطر، لم تزدهم التكرمة إلا فسادًا: الولد، والزوجة، والخادم، والرعية، فإن هذه الأربعة إذا هاجت لم تزدها المداراة والرفق إلا طغيانًا وهيجانًا، قال الملك: صدق الحكيم.

قال الوزير الثانى: الرأى أن تضرب بمن صلح من الرعية من فسد فيها، حتى ترجع راغمة منقادة، ثم نلقى عدونا بمن لا نخاف دغله، فقال رئيس الزمامرة: هذا أنفع لعدوك من جيشه، وأدعى إلى طاعته من دعارته؛ لأنا نعلم أن الرعية لا تخلو من عاقل محروم، لم يمنعه من سل سيفه إلا الخوف، وإذا فعل الملك ما أشرت به، فقد أباحه سل سيفه، وإذا سل سيفه لم يسله لنا، بل إنما يسله علينا، ويتبعه الجمهور لما قد طبعوا عليه من حسد

الملوك، والتعصب للضعفاء، وقد قيل: أربعة من استقبلها بالعنف والردع فى أربعة أحوال هلك بها، وهى: الملك فى حال غضبه، والسبك فى حال هجومه، والفيل فى حال غلمته، والرعية فى حال هيجانها،ومعنى السبك الجدرى فى حال انبعاثه إلى سطح الجسد بالأطلية الرادعة، فقال الملك: صدق الحكيم.

قال الوزير الثالث: الرأى أن يطلب الملك تعيين من فسدت طاعته بالأمناء من الجواسيس، فإذا تعينوا عوملوا بما تقتضيه أحوالهم من قلة أو كثرة، فقال رئيس الزمارمة: إن البحث الآن عن هذا خطر؛ لأنه لابد أن يفطن له، وإذا فطن له خاف المريب فحذر، ثم لا يخلو أمره بعد ذلك من حالين، إما يتحرك إلى جهة عدونا، فيعتمد بالنصائح والدلالة على العورات، ويتكثر علينا بأشكاله من الرعية، فينصرونه علينا، وإن لم يكونوا على مثل رأيه؛ لان من الرعية من أحقده الحرمان، ومن أحقده التأديب، وجمهور الرعية يتعصبون على الأجناد؛ لأنهم لم يسلموا منهم أذى واستطالة، فإن شمخوا أفسدوا المملكة، وإن قصدوا المسيء بالعقوبة المشاكلة له ولو كانوا أعداء له، كما أن الكلبان إذا تهارشا فرأيا ذئبًا، فإنهما يتركان تهارشهما ويجتمعان على الذئب، وإن كان مثلهما فى الخلقة لكونهما يعاديانه، فيصطلحان على التعاون عليه، وكذلك العامى لا ينظر إلى الملك من حيث تحققه فى الخلق الإنسانى، بل ينظر إليه من حيث نفوذه، وأنفته، وعلو همته، وجرأته، وشجاعته، وكثرة ماله، فينافره ويألف إلى العامى الذى هو يشاكله فى جهله وطبعه، وغير ذلك من أخلاقه.

ولا تخلو الرعية من ناسك أحمق، يظن أنه يغضب للدين، فيحمله حمقه وجهله على الخروج من واجب الطاعة، فيكون أمره فى الرعية أنفذ من أمر الملك فى الجند، وقيل: ثلاثة إن كاشفتهم بامتحان ما عندهم فى ثلاثة أحوال خسرتهم، أحدهم: المؤدب إذا امتحنت ما عنده من العلم فى حال تأدبك. الثانى: صديقك إذا امتحنت ما عنده من البذل فى حال فاقتك. الثالث: زوجتك إذا امتحنت ما عندها من المحبة فى حال كهولتك، وامتحان الرعية فى هذه الحالة أشد شيئًا مما ذكرناه، وقد قال الحكماء: للدولة أمراض يخاف عليها أن تموت بها، أخطرها أربعة أشياء: ما يعرض للملك من الكبر، وما يعرض له من الغضب، فإن دولته فى هاتين الحالتين تضطرب لخروجه عن حد الاعتدال فى السياسة، والثالث ما يعرض له من الحرص، فإنه إذا حرص عسف وظلم. الرابع هيج الرعية، فقال الملك: صدق الحكيم.

فقال الوزير الرابع، وكان أوسعهم علمًا، وأفضلهم رأيًا: إنى وأصحابى كأصابع الراحة فى حاجة بعضها إلى بعض، وقوام بعضها إلى الحاجة ببعض، وكل منا يستمد من نور الملك ونور عقله بنظره إلينا، كاستمداد النجوم الدرارى من نور الشمس، وأنى غير ما يراه أصحابى لا مبرقعًا عليهم، ولا عائبًا إلى رأيهم؛ لأن القبول والرأى والرد إلى الملك لا إلى غيره، فإن أذن الملك ذكرته، فقال الملك: قل يا أيها الوزير الناصح، فلك ولأصحابك عندنا الثقة بكم والكرامة لكم؛ لأنكم فى المناصحة لنا وغيرها كالحواس الخمس للقلب، فسجدوا له، ثم رفعوا رءوسهم، فقال: إن الرعية قليلة النظر فى العواقب، غير متحفظة من المعاطب، وقد دب فيها سم الفساد، ومكاشفها الآن خطر، والظفر بها وهن فى الملك، والعدو قوى الطمع لا مندوحة لنا عن محاربته، فإن رأى الملك أن يصرف همته أولاً إلى الاستظهار باتخاذ معقل حريز يأمن فيه أهله وخواصه وذخائره ومن خلصت نيته من رعيته، فإنى أعرف فى مملكته معقلاً شاهقًا يطل على أهل الأرض إطلال زحل على الكواكب، وهو مع ذلك لذيذ الهواء، كثير الماء، وقد كان بعض أسلاف الملك اثر فيه آثارًا محكمة، فإن رأى الملك أن يتم به سعى سلفه، ثم يودعه ذخائره ويجعله للإقامة استظهارًا، ثم يلقى عدوه إن قدم على بلاده، فإن ظهرت خيانة أنصاره انحاز بأوليائه إلى ذلك المعقل، وألزم نفسه الصبر وانتظار الفرج.

قال: فسر الملك برأى الوزير، ووقع إجماعهم والحكيم أيضًا على ترجيحه، فركب الملك فى خاصته وجماعته، حتى أتى ذلك المعقل، فحشد إليه الأعوان، وألزمهم الإسراع فى إكمال بنائه، وبادر من فوره، فنقل إليه خاص بيوت أمواله، ونفائس ذخائره، وخزائن سلاحه، وشحنه بالأقوات والأطعمة، وهو مع ذلك يسد الثغور. وإن المرزبان اقتحم أطراف بلاده بالجيوش المتوفرة، ونازل الثغور، وظهرت دعاة كسرى فى من استعمده فى تلك الناحية، ومن استماله من أهلها، فظهر المرزبان على من نازله، ثم جعل يطوى بلاد الملك لا يمتنع عليه مرام، حتى وافته جنوده، فدافعته بعض المدافعة، فانهزم من فسدت نيته، وانهزم المناصحون إلى ذلك المعقل، واستوى المرزبان على تلك الأرض، وانحاز الملك وأتباعه المناصحون إلى ذلك المعقل، فسار خلفه المرزبان حتى أشرف على معقله، فرآه مداعمًا ومعقلاً مانعًا، فلم يمكنه النزول بساحته، فرجع من فوره إلى البلاد، فولى فيها الولاة والعمال، واستقامت المملكة إلى المرزبان.

ثم أن الفرس جعلوا يعاملون أهل الهند بالقوة والفظاظة، ويعبثون بهم ويسخرون

منهم، فبدت الشحناء فى النفوس، ورأى أهل الهند خراج بلادهم يحمل ويصرف إلى غيرهم، وقد دخلوا تحت حكم الأعاجم، وداخلتهم الغيرة والحمية، فعرفوا فضل ما كانوا فيه، ومشقة ما صاروا إليه، فتوقف المرزبان عن ردعهم لئلا يوحشهم، فكان أمرهم إلى زيادة، وأما ملكهم، فإن وزراءه أشاروا عليه بالصبر، وكف الأذى، وبسط العدل والإحسان، وبذل المال، والصفح عن الجرم، وتألف المستوحشين، فكانت سمعته تزداد حسنًا، والنفوس إليه ميلاً، والألسنة إليه شكرًا، والمرزبان بعكس ذلك.

واتفق أن غلامًا من عمال المرزبان على بعض الثغور ساء السيرة، فقام إلى ناسك من نساك الهند يعظه، فغضب عليه، وأمر بقتله، فثار أهل البلد على العامل فقتلوه، فبلغ المرزبان الخبر، فجاء بجنوده، فانحاز أهل تلك الناحية إلى حصن ملكهم، ثم ثارت الهنود فى البلاد على ولاتهم من العجم فقتلوهم، وخرج الملك من حصنه، فجمع إليه أهل البلاد، وسار المرزبان راجعًا إلى بلاده لما قامت عليه الرعية، وخرج من تلك المملكة، وعاد الملك إلى دار مملكته، فجرى على سنن العدل، قامعًا للشهوات، باذلاً مجهوده، مستعملاً ما أفادته التجارب من الأدب حتى بلغ أجله.

الحكاية الثانية: قيل: لما عزم الأمين على انتزاع العهد بالخلافة من أخيه المأمون، وكان المأمون أميرًا بخراسان، وكتب إليه الأمين يستدعيه ويذكر حاجته إليه، وأنه يريده لأمر مهم تضيق عنه الكتب، وأن جواسيس المأمون وعيونه ببغداد كتبوا إليه يعرفونه أن أخاه الأمين يريد تحويل الخلافة عنه إلى ولده موسى الناطق، فأطلع المأمون خاصته على الخبر، واستشارهم فى أمره، فأشار عليه أن يثبت مكانه وينتظر الفرج، ويكتب إلى أخيه مكتوبًا يعتذر له ويتعلل بأعلال، ففعل ذلك، فعلم الأمين أنه قد فطن لما يراد به، وآيس من نتاج مكيدته، فحينئذ دعا الناس إلى خلع المأمون من الخلافة.

ثم التفت إلى على بن موسى بن هامان، وشاوره فى أمر خراسان بعد ذلك، وأن يصطنع إلى أهلها بجلائل الصنائع، ويغمرهم بالإحسان والعدل، فضمن له ما يريد منها، فجهزه الأمين بأحسن جهاز، وولاه خراسان، وبعد ذلك جهز معه جمهور جنوده، فخرج على بن موسى بالجنود طالبًا خراسان، فبلغ ذلك إلى المأمون، فاضطرب منه، وعلم أنه يعجز عن مقاومة على بن موسى؛ لميل أهل خراسان إليه ومحبتهم له، فركب إلى منتزه له يشاور وزراءه فى تدبير أمره، فعارضه فى الطريق شيخ مجوسى قد انجذب من هرمه وكبره، فناداه بالفارسية مستغيثًا به من مظلمة نالته، فلما نظر المأمون إلى هرمه

وكبر سنه، رق له، وأمر أن يحمل على دابة إلى الموضع الذى قصده، ويدخل عليه بغير استئذان.

ولما استقر المأمون ووزراؤه فى هذا الموضع، أدخل عليه ذلك المجوسى، فأمره بالجلوس فى حاشية المجلس، ثم أقبل على خاصته وأخبرهم بما انتهى إليه من أمر على ابن موسى، وأمرهم بإدارة الفكر فى الرأى فى ذلك، وهو يظن أن ذلك الشيخ لا يحسن العربية، فقال أحد الوزراء: الرأى اصطناع أجناد من العوام الذين لا يعرفون على بن موسى، فتلقاه بهم قبل دخوله خراسان، فقال الوزير الثانى: الرأى أن تبادر بالإرسال إلى أخيك معتذرًا ومنقادًا لما أراده منك اليوم، ومنتظرًا نصر الله تعالى فى غد، فإنك مكره على الخروج من عهدة الخلافة كرهًا لم يخف على أحد من الناس، فهو حق لك متى أمكنك طلبته، وكنت فيه على حجة ظاهرة.

وقال الوزير الثالث: الرأى أن تجتمع بمن تثق من موالاته من ذى النجدة والشجاعة، فتزيح عللهم، وتقصد بهم بعض هذه البلاد الكافرة من الممالك المجاورة لنا، ثم نصدقهم القتال، فلعل الله تعالى أن يظفرنا بهم، فنصير بعد إلى مملكة منيعة، ويفزع إلينا من كان على امتثال أمرنا، فنمتنع ونجاهد حتى يقضى الله أمره، وقال الوزير الرابع: الرأى أن تستغيث بملك الترك مستجيرًا به ومستعينًا على أخيك الغادر، فهذا أمر لم تزل الملوك تفعله إذا دهمها ما لا قبل لها به.

فلما سمع المأمون كلامهم جميعًا، قال لهم: قوموا عنى حتى أنظر فيما ذكره كل واحد منكم، ثم التفت إلى الشيخ فناداه، ورفق به، وسأله عن حاجته، فقال له: كنت جئت لحاجة، فعرض لى ما هو أوكد منها، فقال له المأمون: تكلم ما فى نفسك، فقال: أيها الملك، لا تصدنك حقارة قدرى، فإن الدرة النفيسة لا يزرى بها حقارة الغواص، فقال له المأمون: تكلم أيها الشيخ بما عندك، قال: إنى سمعت ما أشار به القوم عليك، وكل منهم مجتهد فى الإصابة، وإنى لست أرضى شيئًا مما قالوه، وإنى وجدت فى الحكم الذى أخذها آبائى عن آبائهم: إنه ينبغى العقل إذا دهمه ما لا قبل له به، أن يلزم نفسه التسليم لأحكام الحكيم، واهب العقل، وقاسم الحظوظ، ولا يترك مع ذلك الاندفاع بحسب طاقته، فإنه إن لم يحصل على الظفر أمن الغدر.

فقال له المأمون: إن هذا الرجل الذى قصدنا ليملك منا البلاد لا يمكننا مقاومته، قال الشيخ: ينبغى أن تمحو هذا من نفسك، ولا تصطفى من ينطق به، فإنه ما كثر من كثره

البغى، ولا قوى من قواه الظلم، وإن أخاك ظالم لك، باغ عليك، فهو هالك لا محالة، وأنت منصور عليه ظافر به، وسأحدثك حديثًا إن حذوت مثاله نلت مناله، فقال المأمون: هات يا شيخ، قال: إن الخنشوار ملك الهياطلة لما أسر فيروز بن يزدجرد ملك الفرس، وأراد إطلاقه، أخذ عليه العهد لا يغزو بلاده، ولا يقصده بمكروه، ولا يتعرض إليه بسوء، ووضع فى أقصى أرض الهياطلة صخرة، وتحالفا على أن لا يتجاوز أحد منهما تلك الصخرة بجيش ولا بمكروه لصاحبه، ثم أطلقه بعدما استوثق منه الخنشوار بالعهود.

فلما وصل فيروز إلى دار ملكه، دخلته الحمية والأنفة، وعزم على غزو الخنشوار، وعلى أخذ بلاده، واستيفاء ثأره، فجمع وزراءه وشاورهم فى ذلك، فحذروه النكث، وخوفوه عاقبة البغى والغدر، فما ردعه ذلك عما عزم عليه، فذكروه أيمانه التى حلفها للخنشوار، والصخرة التى بين المملكتين، فقال: إنى عاهدته أن لا أتجاوزه بجيوشى، وإذا أنا بلغتها حملتها بين يدى جيوشى، ولا يتجاوزها أحد منهم، وإذا فعلت ذلك، فلا أكون ناكثًا ولا غادرًا، فلما سمعوا ذلك منه، علموا أن الهوى قد وقف به على حد الرضى بهذا القول والتأويل، فأمسكوا عنه.

ثم أن فيروز جمع مرازبته، وهم أربعة، من كل مرزبان منهم خمسون ألف فارس، وأمرهم بالتجهيز لحرب الهياطلة، فلما فعلوا ذلك سار بهم فيروز، وظن أن جيوش جنده لا غالب لها لكثرتها ولشدة شوكتها. قال: فعارضه موبذان فى طريقه، فقال: أيها الملك لا تفعل، فإن رب العزة وخالق العالم يمهل الملوك على الجور، ولا يمهلهم إذا أخذوا فى هدم أركان الدين، وإن العهود من أركان الدين، فلا تتعرض له بسوء فتهلك، فلم يلتفت إلى كلامه، وسار راكبًا هواه فى معصيته، مخالفًا نصحاءه، حتى انتهى إلى الصخرة التى جعلها حاجزًا بين أرضه وأرض الخنشوار، فحملها على فيل وسيرها بين يدى عسكره، وإن الخنشوار لما بلغه مسير فيروز إليه، حمل نفسه على التثبت، وفوض أمره إلى الله عز وجل، وسأله سبحانه وتعالى أن ينتقم ممن خان عهوده ومواثيقه التى لم يرع حقها فيروز إليه، ولا خاف عاقبة نكثها، وأخذ مع ذلك فى الجزم فى سد الثغور، وجمع جنده.

ثم خرج فيروز بعدما توسط أرضه، وجمع جنده وأتباعه، فحمل هو وجماعته، وصدقوا فى حملتهم، فانكشف فيروز منهزمًا، وترك ما كان بيده، فقتل الخنشوار رجاله،

ونهب أمواله، وأمعن فى طلب فيروز، فظفر به وقتله، وأسر أهل بيته وحماة أصحابه، واستولى على بلاده، كل ذلك بسبب الغدر ونقض الميثاق، وكذلك يكون أخوك بسبب نقضه لميثاق أبيك وغدرك، فإنك الظافر به لا محالة.

فلما سمع المأمون كلام الشيخ تهلل وجهه، وطابت نفسه، وقال: قد سمعت مقالتك، فصادفت منا قبولاً لها، وشكرًا عليها، وسرورًا بها، ثم حياه وأكرمه وعمل برأيه، فأنجح الله عمله، وبلغه من الخلافة أمله.

الحكاية الثالثة: قيل: إن عبد الملك بن مروان لما فزع لقتال عبد الله بن الزبير، وخرج بالجيش متوجهًا إلى مكة، شرفها الله تعالى وعظمها، وكان قد استصحب معه عمرو بن سعيد بن العاص، وكان عمرو قد انطوى على دغل نية، وفساد طوية، وطمع فى نيل الخلافة، فلما كان ببعض الطريق تمارض عمرو بن سعيد، وسأل عبد الملك بن مروان فى العود إلى دمشق فأذن له فى العود، فلما دخل دمشق صعد المنبر، فخطب الناس خطبة نال فيها من عبد الملك، ودعا الناس إلى نزعه من الخلافة، فأجابوه إلى ذلك وبايعوه، واستولى على دمشق، وحرس صورها، وحمى ثغورها، وبذل الرغائب.

ثم اتصل الخبر إلى النعمان بن بشير أمير حمص، فنزع بيده من الطاعة أيضًا، وكذلك صنع ظفر بن الحارث أمير قنسرين، وكذلك نايل بن قيس ملك فلسطين، ثم تسوف أهل الثغور للخلاف، فبلغ ذلك عبد الملك بن مروان، فخرج على وزرائه وأهل خاصته، وأطلعهم على ما بلغه، وقال: هذه دمشق دار ملكنا قد استولى عليها عمرو بن سعيد، وهذا عبد الله بن الزبير قد استولى على الحجاز والعراق واليمن، وهذا النعمان بن بشير أمير حمص، وظفر أمير قنسرين، ونايل بن قيس أمير فلسطين، قد نزعوا أيديهم من الطاعة، وبايع الناس لابن سعيد، وقد تسوف أهل الثغور للخلاف، فما عندكم من الرأى؟.

قال: فلما سمعوا مقالته، ذهلت عقولهم، ونكسوا رءوسهم، فقال لهم: ما لكم لا تنطقون؟ فهذا وقت الحاجة إليكم، هل ترون الرجوع إلى دمشق أصوب، أم التوجه إلى ما خرجنا إليه أحزم، أم اللحاق بفلسطين، أم النزول على حمص واستنزال النعمان منها، أم التوجه إلى مصر فى هذا الوقت أغنم؟ كيف ترون الرأى؟ قال أفضلهم: لا رأى عندنا فى هذا، والله لقد وددت أن أكون طيرًا على عود من أشجار تهامة حتى تنقضى هذه الفتنة، قال: فلما سمع عبد الملك كلامه، علم أنه لا غنى له عندهم، فقام وأمرهم بلزوم

مواضعهم، وركب من فوره منفردًا، وهو يقول:

تكاثـرت الظبـآء علـى خـداش ... فمـا يـدرى خـداش لمن يصيـد

وأمر جماعة من أصحابه أن يركبوا متباعدين منه، بحيث يرون إشارته إذا أشار إليهم، وسار ثم تبعه القوم، فلم يزل سائرًا منفـردًا، حتـى أتـى إلى شـيخ كـبير السـن، ضعيـف الجسم، يجتنى العفص من الأشجار، فسلم عليه عبد الملك، وقال له: ألك علم بمنزل هـذا العسكر؟ قال: بلغنى أنهم نزلوا بأرض كذا وكذا، قال: فهل بلغك شيء بما يقول النـاس فى أمر الخليفة؟ قال: فما سؤالك عن ذلك؟ قال: إنى أريد اللحاق بـه والدخـول عليـه، وقد سمعت أن عمرو بن سعيد خالفه إلى دمشق واستولى عليها، فقال الشيخ: إنى أراك أديبًا، وأحس بك حسيبًا، فهل تحب أن أنصح لك؟ قال: نعم أيهـا الشـيخ، قـال: ينبغـى لك أن تصرف نفسك عن هذا الأمر الذى ترغب إليه، فإن الأمير الذى أنت قاصده قـد انحلت عرى ملكه، وقد نـابذه أتباعـه، واضطـرب فـى أمـوره، وإن السـلطان فـى حـال اضطراب أموره كالبحر فى حال هياجه، لا ينبغى أن يقرب أحد منه.

فقال له عبد الملك: إن الحيلة لم تبلغ بى فى مغالبة نفسى بك مـا ترغـب إليـه، وإنـى أجدها ترغب إلى صحبة هذا الأمـير رغبـة شـديدة، ولابـد لى مـن ذلـك، فهـل لـك أن تخبرنى بما تراه من الرأى فى تدبيره بهذه الخطوب التى دهمته حتى أعـرض ذلـك الـرأى عليه، وأتقدم به عنده، فلعله يكون سببًا لقربى منه؟ فقال الشـيخ: إن حكمـة اللـه تعـالى وعزته لتقضيان بحجب العقول والآراء عن النفوذ فى بعض النوازل، وإنى لأظن أن هـذه النازلة التى نزلـت بالخليفـة مـن النـوازل التـى لا ينفـذ فيهـا الـرأى، وإنـى أكـره أن أرد مسألتك بالخيبة، فها أنا أقول لك فيمـا سـألتنى عنـه قـولاً أقضـى بـه حقـك، وإن كـان الخطب عظيمًا.

قال عبد الملك: إنى لأرجو الله أن يرشدك ويرشدنى بك، قال الشيخ: إن عبد الملـك خرج لمحاربة عبد الله بن الزبير، فظهر من مشيئة الله تعالى مـا صـده عـن ذلـك، وإنـى مشير عليك أن تتفقد حال عبد الملك، فإن رأيته قصـد عبـد اللـه بـن الزبـير، فـاعلم أنـه مخذول لا محالة؛ لأنه لج فى طلب ما منع منه، وإن رأيته رجع من حيث جاء، فـارج لـه السلامة والنصر؛ لأنه مستقبل، فقال له عبد الملك: أيهـا الشـيخ، أوضـح لى مـا ذكـرت لينطبع فى فهمى صورته، فقال الشيخ: إن عبد الملك إذا قصد عبد الله بـن الزبـير، كـان فى صورة ظالم؛ لأن ابن الزبير لم يعصه قط، ولا وثب على مملكته، فأما إذا قصد عمرو

ابن سعيد بدمشق، فإنه يكون فى صورة مظلوم؛ لأن عمرو أرجل من رعيته طلب الخلافة لنفسه، واغتصب دار ملك لم تكن له ولا لأبيه، بل كانت لعبد الملك وأبيه، ثم إن عمرو بن سعيد ظالم له من وجه آخر، وذلك أنه ابن عم عبد الملك، وعز عبد الملك عز له، وقد كان محسنًا إليه، فلما خرج عبد الملك لتشييد عز عمرو منه أوفر حظ فيه، غدر به، ونكث عهده فخذله، ثم سعى فى ضره، وأشمت به عدوه، فرجوع عبد الملك إلى دمشق فهو أشبه بالتفويض والتسليم لأمر الله تعالى، ولا شك أن يظفر بالتفويض والتسليم بمن خانه وبغى عليه ونقض عهده، فإن الباغى مصروع، وإذا ظفر به استقال النعمان وظفر ومن حواليهما من الثغور، ورجعوا إلى الطاعة عند معاينة الظفر بعمرو بن سعيد.

قال: فسر عبد الملك بمقابلة الشيخ، وعزم على اتباع رأيه، وقال: جزاك الله خيرًا يا شيخ، قد حسنت فيما أشرت، فأخبرنى باسمك وأين منزلك؟ فقال الشيخ: وما تريد من ذلك؟ قال: لأقضى حقك، فارفع إلىَّ حوائجك، فإنى عبد الملك، فقال الشيخ: وأنا أيضًا عبد الملك، فهلم بنا نرفع حوائجنا جميعًا إلى من أنا وأنت له عبدان، ثم تركه الشيخ وانصرف. قال: فذهب عبد الملك وعمل برأى الشيخ فنجح، وبالله سبحانه وتعالى التوفيق.

* * *

الباب العاشر

فى معرفة أصول السياسة والتدبير

اعلم أن الملك العظيم يحسن به أن يكون فى تصاريف تدبيره وسياسة أموره متشبهًا بطبايع ثمانية، وهى: الغيث، والشمس، والقمر، والريح، والنار، والماء، والأرض، والموت، أما الغيث، فإنه ينزل متواترًا فى أربعة أشهر من السنة، فيساوى به بين كل محلة مشرفة، وموضع منخفض، ويغمر كلا من مائه بقدر موضعه فى ارتفاعه وهبوطه، فتأخذ تلك البقاع منه ما تغذى نباتها فى الثمانية أشهر الباقية من السنة، وكذلك ينبغى للملك أن يعطى جنده وأعوانه فى أربعة أشهر للثمانية أشهر الباقية، فيجعل رفيعهم ووضيعهم فى الحق الذى يستوجبه فى القيامة بينهم على حسب ما يراه من المصلحة على قدر مراتبهم، كما يسوى الغيث بين بقاع الأرض.

وأما الشمس، فإنها تستقصى بحرها وحدة وقعها فى الثمانية الأشهر الباقية من السنة، فكذلك الملك باستيفاء جميع حقوقه من رعيته وماشيتهم، وغير ذلك من الحقوق الواجبة له عليهم، كما تستقصى الشمس نداوة الغيث من الأرض، وأما القمر، فإنه إذا طلع لتمامه انتشر نوره على الخلق، وآنس الناس لضوئه وإشراقه، واستوى فى ذلك القريب والبعيد، وكذلك ينبغى للملك أن يكون فى بهجته ورتبته وإشراقه فى مجلسه، وإيناس الرعية، وعدله مثل القمر فى طلوعه وإشراقه، فلا يختص شريفًا دون وضيع بعدله وإيناسه، ولا يحجب عنهم فتظلم أحوالهم، ويزول أنسهم، ويقل انتعاشهم كما إذا احتجب القمر فى الليالى السود.

وأما الريح، فإنها بلطفها محيطة بالعالم السفلى، وكذلك ينبغى للملك أن يكون بلطفه وحذق جواسيسه وعيونه، محيطًا بمعرفة أحوال رعيته، وقواده، وولاة ثغوره، وأعماله، وحاشيته، وجنده، عارفًا بخبر أعدائه ونظرائه، عالمًا بما يعملون وما يأتمرون بواسطة العيون الثقاة، وأما النار، فيكون مثلها فى الحدة على أهل الزعارة والفساد وأصحاب الشر، لا يبقى أحدًا منهم، ولا يذر ولا يترك لهم عينًا ولا أثرًا، وأما الماء، فإنه مع لينه وسلاسته يقتلع الأشجار العظيمة، ويقهر من قاومه بالسباحة، وكذلك ينبغى للملك أن يكون لينًا لمن لاينه، شديدًا على من خالفه، ينصب لأعدائه الغوائل، مع لينه ورقته حتى يقلعهم كما يفعل الماء.

وأما الأرض، فإنها توصف بكتمان السر، واحتمال الأذى، والصبر على المكاره، وكذلك ينبغى للملك أن يكون مثلها فى جميع ذلك، وأما الموت، فإنه يأتى بغتة، ويقاض أهل اللذات على ما هم عليه، ولا يقبل ممن نزل به رشوة، وكذلك ينبغى للملك أن يهاجم عدوه من حيث لا يشعر به، ويفاجىء أهل العداوة والزعارات فى حال غفلاتهم كما يفعل الموت.

واعلم أن المملكة مثلها مثل البستان، فينبغى أن يسوسها الملك فى غالب الأحوال كما يسوس صاحب البستان بستانه، فمن ذلك أن ينتخب أهل السكينة من جنده وذوى الشوكة من أعوانه، فيجعلهم فى أقاصى بلاده، وأطراف مملكته؛ ليحفظ بذلك الرعية كما يفعل صاحب البستان، فإنه يخرج الشجر ذوات الشوك وما فضل من العيدان، فيحطه على الأشجار المثمرة والزراريع الطيبة ليقيها من أهل الفساد والزعارة، ويخرجهم من بينهم، أو يصلحهم بإقامة الحدود بالحقوق وإظهار السياسة، فإنه إذا فعل

ذلك صلحت أحوال الرعية وانتعشت وكثر خيرها، كما يفعل صاحب البستان، فإنه ينقى بستانه من الحشيش الذى لا فائدة فيه، ويخرج ما فيها من الشوك والنبات الخبيث، فينتعش زرعها، وتنمو أشجارها، ويطيب ثمرها، ومتى حل خراج الملك أو تعين له حق على رعيته من أموال الثمار والغلال، ولم يقبضه فى وقته، فيكون معرضًا للضياع بآفات الزمان، كما يفعل صاحب البستان، فإنه لا يؤخر اجتناء ما صلح من ثمره، وما طلع من ورده؛ لأنه إن لم يبادر لالتقاطه سقط على الأرض، وأحاطت به الآفات.

وينبغى أن يتعهد أبناء جنده وأعوانه الذين ماتوا فى خدمته وطاعته، ويخرج لهم من بيت ماله رزقًا يقوم بكفايتهم، فإنهم أرجى للملك عند بلوغهم، وأشد نصحًا من غيرهم فى خدمته، كما يتعهد صاحب البستان خوالف شجره الهالك بالسقى والتربية؛ لما يرجوه من جناءها لاستطابة ثمرها، ومتى تباغض قائدان من قواده وكانا متجاورين فى موضع، فينبغى أن يفرق بينهما؛ لأن خيرهما لا يرجى مادامما متجاورين فى موضع، وربما نتج منهما أو من أحدهما ما لا يمكن الملك معه ائتلافهما، كما يفرق صاحب البستان بين الشجرتين إذا تداخلت أغصانهما؛ لعلمه أن خيرهما لا يرجى مادامما كذلك.

واعلم أن الرعية إن كانت ثمارًا مخبئًا، ودخائر مقتناة، وسيوفًا منضاة، فإن لها نفارًا كنفار الوحوش، وطغيانًا كطغيان السيول، ومتى قدرت أن تقول قدرت أن تصول، وهم ثلاثة أصناف، فينبغى للملك أن يسوسهم بثلاث سياسات، صنف من أهل العقل والديانة والفضل، يعلمون فضل الملك وطول عنائه، ويرثون لشقة إعيائه، فسياسة هؤلاء تحصل بالبشر عند لقائهم، واستماع أحاديثهم، وحسن الإصغاء إليهم، وصنف فيهم خير وشر، فسياسة هؤلاء تحصل بالترغيب والترهيب، وصنف هم السفلة الرعاع أتباع كل داع، فسياسة هؤلاء بإخافة غير مقنطة، وعقوبة غير مفرطة، لا يتحقق ذلك منهم إلا من يكون أغلب أوصافه عليه الرحمة للرعية؛ لأن الملك إنما يتميز عن السوقة بفضلين، فضيلة ذاته، وفضيلة آلائه، أما فضيلة ذاته، فخمس خصال: رحمة تشدد رعيته، ويقظة تحوطهم، وصولة تذب عنهم، وفطنة يكيد بها الأعداء، وحرمة ينتهز بها الفرص إذا أمكنه، وأما فضيلة آلائه، فستة: وفور أمواله، وكثرة أجناده، وحصانة معاقله، واتخاذه المبانى الوثيقة، وإعداده الملابس السنية، وتحصيله الدخاير النفيسة.

ولا ينبغى للملك أن يعتمد على فطنته، وقوة حيلته، وكثرة ماله وجنده، وحصانته،

ومعاقله، فيترك الاستعداد للنوازل ولكل ما يجوز وقوعه من الحوادث، فيكون مثله كمثل خطيب اعتمد على فصاحة لسانه، وقوة بديهته، وأهمل مراعاة وقع القول وترتيبه، ثم صعد المنبر، فيوشك أن يستولى عليه العى عند الحاجة، بل ينبغى أن يتقدم فى الحيلة قبل نزول الحادث، فإن الأمور إذا نزلت ضاقت عنها الحيل، وإذا عرف الملك وجه الكيد الذى يكيد به عدوه، فينبغى أن يحترس من مثله؛ لأنه إذا لم يتحرس من مثله، كان بمنزلة الرامى الخاسر الذى لا تدبير معه، فهو إن أصاب برميته، فإنه مستهدف لرمية غيره، وكذلك الملك إذا احتال على عدوه بضروب الحيل، ثم إنه لم يتحفظ من كل ما يظن أن يبلغ منه عدوه، كان عمله معونة عليه، غير نافع له فى العاقبة. وقد كان يقال: احترس من تدبيرك على عدوك، كاحتراسك من تدبيره عليك، فرب هالك بما دبر، وساقط فى البئر الذى حفر، وجريح بالسلاح الذى شهر.

وينبغى للملك أن يأخذ فى سائر أموره بالحزم، وصدق العزم، ولا يترك الاحتراس والحذر، فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الحزم سوء الظن»[1]، ولا يكون ظنه حقيقة، بل الحذر والاحتياط. وقيل لبعض الحكماء: ما الحزم؟ قال: أن تحذر من كل ما يمكن وقوعه، قيل: فما العجز؟ قال: أن تأمن مما يمكن وقوعه، وهنا شعر:

لا تترك الحزم فى شىء تحاذره   فإن سلمت فما فى الجزم من باس
ترك الفتى الحزم فيما خاف منقصة   وأحزم الحزم سوء الظن بالناس

وإذا حاول الملك أمرًا عرض له، فليشمر فى طلبه عند إمكان الفرصة، ولا يتركه عنه لصغره، فإن وثبة الأسد على الأرنب هى التى تقدمه على الفيل، ومتى استهان الملك الذى حقره عاد كبيرًا، فإن القروح التى تظهر فى الجسد إذا استهان بها الإنسان، صارت إلى أعظم العلاج وأكبر المداواة، ولهذا شعر:

ولا تحقرن عدوًا رما   ك وإن كان فى ساعديه قصر
فإن السيوف تحز الرقا   ب وتعجز عما تنال الإبر

وإذا وقع الملك فى أمر من عدوه يخاف فيه على نفسه وسلطانه، فينبغى أن يعطى بلسانه كل ما يرضى عدوه مظهرًا للرقة والانقباض، وهو مع ذلك مستيقظًا محترسًا

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن أبى حاتم فى مراسيله (١/١٢٤) ح (٤٤٥)، وعزاه العجلونى لتمام فى فوائده، عن ابن عباس رفعه.

مستعدًا للوثبة عليه إن أمكنته الفرصة، حتى ينال فيها حاجته، ولهذا شعر:

وإذا عجزت عن العدو فداره وامزج له إن المزاج وفاق
فالنار بالماء الذى هو ضدها تعطى النضاج وطبعها الإحراق

فإن دهمه ما لا طاقة له به فى أمر من أمور مملكته، وأشرف منه على أن يذهب كله، ورأى أن يتلطف بالحيلة فى أن يرجع إليه بعضه فليفعل ذلك، ويكون راجيًا لا يستخف به الأسف والأنف والتمادى حتى يذهب كله فيكون مغلوبًا، فإن العاقل إذا أشرف له ابنان على الهلكة، وطمع فى نجاة أحدهما بموت الآخر، فإن نفسه تسمح بموته لنجاة أخيه، ولا يداخله الإشفاق عليهما والجزع فيهلكا جميعًا.

وإذا عادى الملك رجلاً، فلا يعادى لأجله كل ما شاكله، فإنه ربما انتفع ببعضهم انتفاعه بأهل مودته، فإن السيف الذى يقتل بحده، هو من جنس الدرع الذى يتحصن به عن مضارة حد السيف، ولا ينبغى للملك أن يشتد جزعه على ما فاته وذهب عنه، فإن فعل ذلك تعجلت له المساءة بما لا يقدر على ارتجاعه، وبدرت له الحسرة على ما لا يقدر على استدراكه، ثم يشغله ذلك عن تدبير مستأنف أمره، وصلاح باقى شأنه، وربما أفضى به الحال إلى الهلاك، فإن شدة والجزع تهلكه.

فقد حكى أن ملكًا من ملوك الفرس جلس على سريره فى يوم نيروز، وجعل الناس يهدون له أصناف الهدايا، فدخل عليه الموبذان ومعه طبق مغطى فأهداه إليه، فلما كشف عنه رأى فيه فحمتين، فقال الملك: ما هذا؟ فقال: أيها الملك، أحدهما باز والأخرى دراجة، وإنى رأيت الباز أرسل على الدراجة فتبعها وهى تطير بين يديه إلى أن أتيا أجمة فيها نار، فحمل الجزع الدراجة على اقتحامها، وحمل الباز الحرص على افتراسها فاحترقا جميعًا، فرأيت أن خير الهدايا هذه الموعظة، فأهديتها لك، فاجتنب أيها الملك الإفراط فى الجزع والحرص، فإنهما سائقان إلى الهلكة، فقال الملك: ما أهديت إلىَّ هدية أنفع من هذه الهدية.

ومتى صنع الملك بخطأ الرأى شيئًا فأصاب فيه، فلا يعاوده ثانيًا طمعًا فيما ناله أولاً، فإن من وطىء حية مرة فنجا منها، فليحذر أن يتعرض لها بالوطء مرة أخرى. واعلم أن كبار أعوان الملك ومشايخ دولته الذين صحبوا أسلافه من الملوك، هم أقوى دعائم مملكته، وأثبت أركان دولته؛ لأنهم وإن براهم الزمان بحده، فقد بقى كرم وجوههم،

ومحض مودتهم، فهم يزدادون فى النصح اجتهادًا، وفى البؤس صبرًا وجلادًا، ومثلهم كمثل دعائم الساج للبيت، فإنها كلما مر عليها الزمان، ازدادت قوة وصلابة، حتى إن الأرضة لو حاولت نقب عودها، لم ينفذ عملها فيها، فيكون البيت بها أقوم وأصلب.

وينبغى للملك أن لا يصحب من أعوانه كذابًا، ولا مطبوعًا على شر؛ لأن الكذاب إذا حدث كذب، وإذا حدثه الملك لم يصدقه؛ لما يظن فى نفسه، والمطبوع على الشر غير تارك لطباعه؛ لأنها أملك به، فيكون الملك معه على خطر، ولا يطمع الملك فى استصلاحهما ونقلهما عن طباعهما، فإنهما بمنزلة القرد الذى يطعم الدبس والحلاوة ليسمن ويحسن وجهه، فلم يزدد وجهه إلا قبحًا، ومتى كان الملك يكل ضبط أموره وإقماع عدوه لقوم ليسوا منه على ثقة، ولا بحفاظ لأمره، فهو منهم على أعظم خطر، حتى يحملهم ما استطاع على الرأى والأدب الذى بمثله تكون الثقة والاستعانة بهم، ولا يغرنه منهم قوته بهم على غيرهم، فإنما هو فى ذلك كراكب الأسد يهابه من ينظر إليه، وهو لمركبه أهيب.

ومتى أسرف الملك فى توسعة الأرزاق على جنده أبطرهم، ومتى ضيق عليهم أحقدهم، فيكون فى هاتين الحالتين متعرضًا للهلاك، فإن الأسباب التى تجر الهلكة ثلاثة، أحدها من جهة الملك، وهو أن تغلب شهواته على عقله، فلا تطرأ له لذة إلا قضاها، ولا راحة إلا افترصها، الثانى من جهة الوزراء، وهو تحاسدهم المقتضى لتعارض الآراء، فلا يسبق أحدهم إلى حق إلا فندوه وعارضوه، الثالث من جهة الجند وخواص الأعوان، وهو النكول وترك المناصحة فى الجهاد، وهم صنفان، الصنف الأول وسع عليهم الملك الأرزاق، فأبطرهم السرف والتنعم وافتراض اللذات، فبخلوا بنفوسهم، وخافوا عليها عند لقاء الأعداء، فمنعهم ذلك من الإقدام، الصنف الثانى قدر الملك عليهم أرزاقهم، فانطووا منه على حقد ونفاق، فنصبوا له الغوائل، وأسلموه عند النوازل.

وينبغى للملك أن يتعرف أسباب الفتن ونتائجها المفضية إلى اختلاف الكلمة، والخروج عن الطاعة؛ ليحسم مواردها، ويقطع أسبابها، فقد قيل: إن ملكًا من ملوك العجم كتب إلى حكيم من حكمائهم يقول: إن الحكماء قد أكثروا من أسباب وصف الفتن، فاكتب إلىَّ بما ينشبها وبما يميتها، فكتب إليه يقول: ينشبها ضغائن، ويقويها أطماع لم تقمعها هيبة وجرأة عامة يولدها استخفاف بالخاصة، ويؤكدها انبساط الألسنة بضمائر القلوب، وغفلة أمير ملتذ، ويقظة قوى محروم، ويميتها عز السالب، وذل

المسلوب، ودرك البغية، وموت الأمل، وتمكن الرعب، فكتب إليه: إن الذى وصفت كما وصف سواك، فأى الأمور أدفع لما ذكرت، فكتب إليه الحكيم: أخذ العدة لكل ما يخاف وقوعه، وإيثار الجد على الهزل، والعمل بالعدل فى الرضى والغضب.

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف: أن صف لى الفتنة حتى كأنى أنظر إليها، فكتب إليه الحجاج: إن الفتنة تلقح بالنجوى، وتقيح بالشكوى، ويقوم بها الخطباء، وفسادها بالسيف، إن عثمان بن عفان، رضى الله عنه، قال يومًا لبعض جلسائه وهو محصور: وددت لو أن رجلاً صدوقًا أخبرنى عن نفسى وعن هؤلاء القوم، يعنى الذين يحاصرونه، فقام رجل من الأنصار، فقال: أنا أخبرك يا أمير المؤمنين، إنك تطأطأت لهم حتى ركبوك، وتغافلت عنهم فسلبوك، وما جرأهم على ظلمك إلا إفراط حكمك، قال: صدقت اجلس، ثم قال: هل تعلم ما سبب ثوران الفتنة؟ قال: نعم، سألت عن ذلك شيخًا باقعة فى العلم، فقال: إن الفتنة يثيرها أمران، أحدهما أثيرة تضغن الخاصة، والثانى حلم يجرئ العامة، قال: فهل سألته عما يخمدها؟ قال: نعم، إن الذى يخمدها فى ابتدائها استقالة العثرة، وتعميم الخاصة بالأثرة دون غيرهم، فأما إذا استحكمت الفتنة، فلا يخمدها إلا الصبر، قال عثمان، رضى الله عنه: هو ذاك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

* * *

الباب الحادى عشر

فى الجلوس لكشف المظالم

اعلم أن جلوس الملك والفصل بين المتنازعين من أعظم قوانين العدل الذى لا يعم السلام إلا بمراعاته، ولا يتم التناصف إلا به، وقد كانت ملوك الفرس يرون ذلك من قواعد الملك، وأول من أفرد للمظلمات يومًا معلومًا يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر: عبد الملك بن مروان، وكان إذا وقف منها على مشكل، رده إلى قاضيه إدريس الأودى، فينفذ فيه الحكم، وكان إدريس المباشر، وعبد الملك الآمر، ثم زاد ظلم الولاة، وجور النواب بعد ذلك، فافتقرت الحالة إلى المباشرة، فجلس عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه، فكشف المظالم، وهو أول من باشر ذلك بنفسه، وجعل يراعى السنن العادلة، ورد مظالم بنى أمية على أهلها، حتى قيل له وهو يشدد

عليهم: إنا نخاف عليك العواقب من ردها، فقال: ما من يوم أخافه وأتقيه غير يوم القيامة إلا وقيته.

ثم جلس لكشف المظالم من خلف بنى العباس المهدى، حتى عادت الأملاك إلى مستحقيها، ثم جلس لها من بعده الهادى، ثم الرشيد، ثم المأمون، وآخر من جلس لها المهتدى، ثم احتجبت الخلفاء؛ لتظاهر الترك وغيرهم عليهم، ودفعوا أمر المظالم إلى وزرائهم، ولما أفضى ملك الشام إلى الملك العادل نور الدين بن الزنكى، رحمه الله، بنى له دارًا فى قلعة دمشق، سماها دار العدل، فكان يجلس فيها فيتصفح قصص المظلومين، ويفصل بين أمر المتنازعين، ولديه الفقهاء وأئمة الدين، فيرجع إليهم ما أشكل عليه من أمور الشرع، وثبت القضايا، ويفصل كلما انتهى إليه فى ذلك اليوم، حتى جعل هذا سنة فى جميع مدائن الشام.

وحدثنى الفقيه أبو طاهر إبراهيم بن الحصين الحموى، قال: كنت عند الملك العادل محمود بن الزنكى، فى دار العدل بدمشق، وقد عرض عليه قصص خراج أملاك أهل الشام، فجعل ينظر فيها، فلما انتهى إلى ذكر خراج معزة النعمان، قال: إنى قد عزمت على انتزاع أملاك أهل المعزة من أيديهم، فقد رفع إلىَّ أهل الخبر من الثقاة أن جميع أهل المعزة يتعرضون للشهادة، فيشهد أحدهم لصاحبه فى دعوى ملك، حتى يشهد ذلك معه فى دعوى أخرى، وإن الملك الذى بأيديهم إنما حصل لهم بهذه الطريقة، قال: فقلت: أيها الملك، إن الله تعالى أوجب عليك العدل فى رعيتك، والنظر للكشف، والتوقف فى الأمور إذا رفعت إليك، فإن أهل المعزة خلق كثير تواطؤهم على شهادة الزور، وانتزاع الأملاك من أربابها بمجرد هذا القول لا يجوز.

قال: فأطرق ساعة، ثم رفع رأسه وقال: أمسكها عليهم، ثم اكشف عنها بعد ذلك، والتفت إلى كاتبه، وقال: اكتب كتابًا إلى الوالى فى المعزة ليمسك جميع الملك الذى فى أيدى أهلها، حتى ليستدعى البينة، فكتب ووضع بين يديه ليضع علامته فيه، وإذا صبى على شاطئ النهر يغنى شعرًا:

اعدلوا ما دام أمركمو ... نافذا فى النفع والضرر
واحفظوا أيام دولتكم ... إنكم منها على خطر
إنما الدنيا وزينتها ... طيب ما يبقى من الأثر

فلما سمع الملك ذلك، تغير لونه، وهملت عيناه بالدموع، ثم نظر إلىّ، وقال: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ثم استدار إلى القبلة، وقال: اللهم أستغفرك وأتوب إليك مما عزمت عليه الآن، ثم تناول الكتاب فمزقه، وجعل يستغفر الله تعالى جميع ذلك اليوم.

وينبغى للملك إذا جلس لكشف المظالم، أن يستكمل مجلسه بحضور خمسة أصناف من الناس لا غنى عن حضورهم، ولا ينتظم نظر أموره إلا بهم، الصنف الأول الفقهاء والعلماء أصحاب الفتوى؛ ليرجع فيما أشكل، ويسألهم عما اشتبه فيه، الصنف الثانى القضاة والحكام لاستعلام ما يثبت من الحقوق، وما جرى فى مجالسهم بين الخصوم، وتنفيذ القضايا والأحكام، الصنف الثالث العدول ومشائخ البلد؛ ليثبت ما يجرى بين الخصوم، وما يوجبه الشرع المطهر لهم من الحقوق، الصنف الخامس الكبار من حماة دولته وأعوانه وخاصته؛ لتظهر بهم الرهبة، وتحصل بهم الهيبة، فيخاف المعتدى، ويتظاهر المظلوم فينتصر، فإذا تشكل مجلس نظره بما ذكرناه، شرع حينئذ فى تصفح القصص وتنفيذ الأمور، والنظر فى أمور الرعية والولاة والعمال على ما قدمناه.

* * *

الباب الثانى عشر

فى أدب صحبة الملوك

إذا أخصك الأمير لخاصته، وجعلك من أهل مجالسته، فالزم الصمت، واستعمل الوقار، ولا تحدثه بادئًا، ولا تعد حديثك عليه ثانيًا، ولا تفصل حديثًا بحديث، ولا تعارض أحدًا فى حديثه، واخفض من صوتك، واختصر من لفظك، ولا تغتب أحدًا عنده وإن كثرت عيوبه وعظمت ذنوبه، وإذا جالست الملك فغض بصرك، وضم شفتيك، ولا تقولن فى غيبته ما لا تقوله فى حضوره، ولا تأمن أن تكون عليك عيون ترفع إليه أخبارك، وتورد عليه أسرارك، وأنشدنى بعضهم فى المعنى يقول شعرًا:

إذا صحبت الملوك فالبس ... من التوقى أعز ملبس
وادخل إذا ما دخلت أعمى ... واخرج إذا ما خرجت أخرس

وإذا كان لك إلى الملك حاجة، فلا ترفعها إليه ما لم يكن وجهه بسيطًا، وقلبه نشيطًا، وليكن على مقدار حقك، لا على مقدار عزمك، وإذا طلبتها منه فقصر المقال،

وتوق الملال، ولا يحملك فرط ميله إليك على التبسط عليه فى السؤال، فتنحط رتبتك، وتذهب حرمتك، وإذا أقبل الملك عليك فأقبل عليه بوجهك، واصغ إليه بسمعك، واشغل بحديثه خاطرك، وبمنظره ناظرك، واستمعه استماع مستظرف لحديثه مستبشر به، واحذر أن تعاتب الملك على تقصير، أو تلومه فى تدبير، فإن ذلك يفضى إلى مقتك وبعدك منه بعد قربك، ولا تكاشفه بالنصيحة فى الخلوة، ولا تنبسط عليه فى الجلوة، فإن النصح فى الملأ تقريع، والتبسط عليه تضييع، ولهذا يقال شعر:

تعمدنى بنصح فى انفراد　　وجنبنى النصيحة فى الجماعه

فإن خالفتنى لتريد نقصى　　فلا تغضب إذا لم تعط طاعه

فإن النصح بين الناس ضرب　　من التوبيخ لا أرضى استماعه

وإذا قربك بأنسه وأدناك من مجلسه، فالزم الاحترام، وقابله بالإعظام، ولا يخرجك ما تراه من أنسه إلى السماح ومكروه المزاح، وإياك وإزالة الحشمة، وإضاعة الحرمة والهزل والشره فى أكل الطعام، فإن هذه الحالة تدعو الملك إلى الملال، ولا تنادر فى مجلسه إنسانًا، ولا تحدق إلى الغلمان، وإذا دخلت على الملك فحيه بأحسن تحية، وتواضع إليه بالكلية، ولا تكثر من الدعاء له بحضرته، ولا تسأله عن حالته، ولا عن مبيته فى ليلته، ولا تكثر مدحه، ولا تظهر نصحه فى حضرته، فجميع ذلك من مساوىء الأخلاق والتملق والنفاق.

وإذا جلست على موائد الملوك، فلا تمكن فى الطعام شرهًا، ولا فى الأكل نهمًا، وكل مما يليك، وأكثر من المضغ فى فيك، واجعل نظرك إلى الطعام الذى بين يديك، ولا تنظر إلى ما حواليك، ولا تأكل بكل الأصابع، وقم عن المائدة وأنت جائع، ولا تحدق ببصرك إلى الطعام، ولا إلى ما حضر من طرائف الألوان، بل يكون نظرك إلى الملك عند كلامه، والإطراق عند مضغه لطعامه، ولا تنقل من الصحفة إلى الرغيف شيأ من اللحم، ولا تتعرض إلى حرمشة العظم، ولا تحول لقمتك من جانب فيك إلى الجانب الآخر، ولا يسمع لمضغك وبلعك صوت ظاهر؛ لأن المقصود من طعام الملك الشرف بمواكلته، والتجمل بلطف كرامته.

ومن قام من الطعام لغسل يده، فسبيله أن يبعد عن حضرته إلى الموضع الذى خص بمرتبته، ولا يبصق فى الطشت بصاقًا يعلو صوته، ولا يستعمل بيده التفرقع، ولا يدلك بالمنديل يديه، بل يمسح به فمه وشفتيه، ولا يظهر فى يديه شيئًا من الخلال على حال من

الأحوال، وأن لا يساوى الملك فى محبته، ولا يدنى رأس دابته من دابته، ولا يأخذ عليه مهب الريح فى مسايرته، ولا يركب فرسًا شحتًا شعثًا ولا حرونًا[1] فيقف عنه، ولا كثير الصهيل، ولا ما فيه عيب يضحك منه.

وينبغى أن يكون عارفًا بالمنازل والمناهل، داريًا بكل ما يقع عليه عين الملك ويسأل عنه من المياه والأنهار والنبات والأشجار، ومضى ساعات الليل والنهار، عارفًا بالكواكب وانتقالتها، ومنازل القمر وهيئاتها، وأن لا يظهر التعب والكلال، وأن يخفى السعال والعطاس، وليكن متفقد النكتة، ظريفًا فى محادثته، صبورًا على السهر، غير متشاغل بالفكر، حافظًا للأسرار، وما يطلع عليه من الأخبار، معتمدًا على الصيانة، مؤديًا للأمانة، فإذا لاعب الملك بالشطرنج، فلا يظهر فى لعبه التحاذق عليه، فأما فى حال الفروسية ولعب الصولجان، فقد لا يكره الملوك التحاذق عليهم فى الميدان، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

* * *

الباب الثالث عشر

فى معرفة ما يكاد به الملوك فى غالب الأحوال

اعلم أن مكائد الأعداء، وغوائل الحساد، وطرق المضار، وأسباب الدواهى كثيرة لا يحيط بطرقها علم البشر، ولا يحصرها معقول ذوى الفكر، فيجب على الملك الاحتراز والتحفظ من كل ما يتصور عمله فى المكايد، ويتصدر فعله من نصب الغوائل، ويعتبر بمن سلفه من أرباب الممالك، وما نصب لهم من المكايد والمهالك، وقد ذكرنا فى الباب السادس فى وصف الحسد من حكاية بهرام وخاقان، وما نصب كل منهما لصاحبه من المكيدة ما فيه اعتبار لذوى البصائر والأفكار، وأكثر ما رأينا يحدث فى غالب الأحوال من أمور نحن ذاكروها إن شاء الله تعالى.

فمن ذلك السموم القاتلة التى يتلطف بها الأعداء فى الحيلة بوصولها إلى الملوك على يد النسوان والغلمان، وهو يصنع غالبًا فى عشرة أشياء: فى السرج، والسرير، والكرسى، والحلى، والآنية، والطعام، والفاكهة، والثياب، والفراش الذى ينام عليه،

---

(١) الحرون هو: الذى لا ينقاد، إذا اشتد به الجرى وقف. انظر: لسان العرب (١٣/١١٠) (مادة/حرن).

وينبغي للملك أن يكون متيقظًا لذلك، محترسًا منه، وسنذكر من العلامات الواضحة في هذه الأشياء ما فيه كفاية للفطن، بحيث إذا رآها علم أنه مسموم.

وينبغي للملك أن يتفقد ثيابه كل يوم، وفراشه أيضًا، وغاشيته الذى على سرج الحصان، وكرسيه الذى يجلس عليه، فإن علامة ذلك إن كان مسمومًا أن يظهر فى صفاء ألوانها لمع كالرسخ يضرب إلى سواد من غير وسخ، وهدبها وحواشيها فى نظر العين كأنها بالية، وأما ظاهر السرج والسرير والكرسى إذا كان ملطوخًا بالسم، يكمد لونه، ويعلوه كالغبرة، وأما الحلى والآنية وما يستخرج من معادن الأرض كالذهب، والفضة، والنحاس، والرصاص، والحديد، فإن ذلك كله إذا كان مسمومًا يعلوه كالرسخ، وأما أوانى الخزف والفخار، فإنها إن كانت مسمومة، تحدث دسومة وزهومة، وربما أفرط صفاء لونها حتى رؤى فيها بريق ليس من ذاتها، وربما ذهب بريقها الذى هو فى ذاتها.

وأما الطعام المسموم، يستدل عليه من وجهين:

أحدهما: بالنار، فإن الطعام المسموم إذا وضعت منه شيئًا فى النار، لم يصعد دخانه مستطيلاً إلى الهوى، بل يدور على ذلك الطعام، ويسمع له صوت، وأيضًا يكون طرف ما ينبعث من النار كأنه عنق الطاووس، وأيضًا مما يظهر منه إذا احترق رائحة منتنة.

الوجه الثاني: أن يعرض الطعام على الطير والدواب التى هى معدة فى دار الملك لمعرفة الطعام المسموم، فأما الطير، فمنها الغراب، فإنه إذا أكل من الطعام المسموم، انكسر صوته، وأما الصرد والقفاء، فإنهما إذا شما الطعام المسموم، صوتا بأعلى صوتهما، ومنها طائر من جنس الأوز الصينى، يقال له: الهيش، فإنه إذا رأى الطعام المسموم وشم رائحته هرب منه، وجعل يتعثر فى مشيته، ومنها الكركى، فإنه إذا شم رائحة الطعام المسموم أو أكله، فإنه يدور حتى يظن أنه مغشى عليه، ومنها الفواخت والعقق، فإنهما يموتان بأكل الطعام المسموم، وكذلك إذا شما رائحته أيضًا، ومنها الطاووس، فإنه إذا رأى الطعام المسموم تشوف إليه وطفق يأكله ويهواه، ومنها طائر من طيور الماء، أحمر العينين، يقال له: حيوحين، فإنه إذا نظر الطعام المسموم خر إلى الأرض مغشيًا عليه، والذباب إذا سقط على الطعام المسموم مات من ساعته.

وأما الدواب المعدة لذلك، فمنها السنور، فإنه إذا أكل من الطعام المسموم أو شم

رائحته، نفر من موضعه ولم يستقر فيه، ومنها القرد، فإنه إذا قدم إليه الطعام المسموم أيضًا لم يتمالك حتى يهرب منه، ويصعد فى الأشجار والحيطان، فهذا كله يستدل به على الطعام المسموم، فينبغى للخادم المقدم للطعام أن يمتحنه بالنار، ويعرضه على الطير والدواب التى ذكرناها قبل إحضاره بين يدى الملك، وإذا كان الطباخ بصيرًا حاذقًا عرف السم إذا طرح فى القدر بالأمارة الدالة عليه، فإن قدر الأرز إذا وضع فيها السم أبطأ نضجها، وإذا نزلت عن النار انعقد فيها سريعًا، وصلب حبها، ويفور من القدر بخار كلون عنق الطاووس، وقدر المرق إذا وضع فيها السم، فلا يلبث إلا قليلاً حتى تنشف المرقة منها، ويبقى اللحم يابسًا لا مرقة عليه، ومهما بقى منه تغير لونه وكدر.

وأما دليل معرفة السم فى الشراب المسموم، فإن كل شراب حلو إذا طرح فيه السم يظهر فيه خط مستطيل كلون النحاس، ويظهر فى المحيط خطوط من الخضرة والصفرة والسمرة، ويظهر فى ماء العسل خط كلون شعاع الشمس، ويظهر فى الماء والنبيذ خط أسود. وأما معرفة الفواكه المسمومة، فإن ما لم يدرك منها يظهر للعين كأنه مدرك، والتى قد أدركت منها تظهر كأنها لم تدرك لتغييرها وانقباضها، وكل رطب منها تراه كالمهرى، وكل يابس تراه منقبضًا متشجًا، وجميع الفواكه يذهب صفاء لونها، ويعلوه غبرة وكدرة، ويصير اللين منها صلبًا، والصلب منها لينًا.

واعلم أن واضع السم فى بعض هذه الأشياء، أو صانع مكيدة من مكائد الأعداء من النسوان أو الغلمان أو الخدم وغيرهم، لابد أن يظهر عليه من الريبة أمارة لا يخفى فيها على الفطن اللبيب، فينبغى للملك أن يتصفح وجوه خدمه وغلمانه وجواريه ونسائه فى كل وقت، فإن المريب لا يملك نفسه أن يصفر لونه، أو يخضر، أو يبتلع ريقه، ويخفق فؤاده، أو يعض على شفته السفلى، أو يكثر تلفته، وترعد فرائصه، أو يتعثر فى مشيه، أو يكثر تثاؤبه، أو يعرق جبينه، أو يفتل أهداب ثيابه ويعبث بها، أو ينكث الأرض بإبهامه الكبير من رجله، أو ينقطع عما يريد أن يتكلم به، أو يكثر القيام فى العمل الذى يعمله ولم يتمه لغير عذر، فجميع هذه أمارات تدل على الريبة، فليراعها الملك من متولى طعامه وشرابه، ومتولى خزانة ثيابه وفراشه وسروج دوابه، وغيرهم من خدم داره.

وأما الأحوال التى يترصدها أهل المكائد فى الغالب، فمنها: المواضع الضيقة، والجهات المجهولة من الطرقات، فلا ينبغى أن يسلكها حتى يكون أمامه دليل خبير

بذلك الموضع، ويتقدمه فى ذلك جماعة من أعوانه. ومنها: ازدحام الموكب عليه فى المواضع الضيقة، أو فى الأعياد والمحافل، فلا يأمن أن يلج بين خواصه من يريد به شرًا. ومنها: الإمعان فى طلب الصيد والانفراد فيه عن الخاصة وثقاة الأعوان، فلا يأمن أن يدس عليه أهل العداوة ممن يوقع به الفعل، أو يكمن له الأعداء على الخيول السريعة فى المواضع الوعرة، أو يعرض له أحد السباع الضارية عند انفراده. ومنها: الورود على الأنهار، فإن اغتيال المرء صاحبه فى الماء الجارى أسهل منه على ظهور الخيل؛ لأن الماء معين له على هربه، لاسيما إذا كان رجال الملك وراء ظهره، فينبغى أن لا يردها حتى يتقدمه من أعوانه من يخبر شطوطها ومشارعها.

ومنها حالة شدة المطر، وحال شدة الحر، وحال ظلام الليل، فإنه فى هذه الأحوال تقل الحفظة، ويشتغل كل واحد منهم بمصلحة نفسه. ومنها: حال سروره، ولهوه، وطربه فى مجلسه، وسكره، وشرابه، فإن الحفظة أيضًا يسكرون، أو ينامون، فيتمكن منهم المحتال. ومنها: الثقة إلى النسوان والركون إليهن، فإن مكر النسوان وحيلهن أكثر من بساطتهن مع ضعفهن وقلة عقولهن، فلا يأمن مكرهن وغيرتهن وغاراتهن، فقد يقدمن على الأهوال، وما يعجز عنه الرجال، فليراع الملك جميع ما ذكرناه، وما يخطر بباله من أشباه ذلك وأمثاله، مع تسليمه الأمر لله تعالى وقضائه وقدره سبحانه وتعالى.

* * *

الباب الرابع عشر

فيما ينبغى للملك من سياسة الجيش وتدبيره

إذا أراد الملك التوجه بجنوده إلى أعدائه، فينبغى له أن ينيلهم فى تدبيرهم وسياسة أمورهم سبعة عشر حقًا؛ ليتم بذلك مصلحتهم، وينتظم به حالهم:

أحدها: استعرافه قبل المسير بهم، فيتفقد خيلهم التى يجاهدون عليها، فلا يدخل عليها كبيرًا ولا صغيرًا؛ لأن ذلك كله وهن فى المجاهدين، فإنما يستعد للأعداء بالقوة، وما تظهر به الهيبة والرهبة. قال الله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال رسول الله ﷺ: «ارتبطوا الخيل، فإن ظهورها لكم عز، وبطونها لكم كنز»، ويتفقد جميع أسلحتهم، وسائر آلاتهم وأمتعتهم، ويأمرهم باتخاذ قويها، واستبدال ضعيفها.

الثانى: أن ترفق فى السير ليقدر عليه ضعيفهم، وتحفظ به قوة قويهم، ولا يجد السير

فيهلك الضعيف، ويستفرغ قوة القوى. قال رسول الله ﷺ: «إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق، فإن المنبت لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقى»(١).

الثالث: يراعى من معه من المقاتلة، وهم صنفان: مسترزقة، ومتطوعة، فأما المسترزقة، فهم أصحاب الديوان، فيفرض لهم من العطاء من بيت المال من الفىء بحسب الغنى والكفاية، وأما المتطوعة، فهم الخارجون عن الديوان، الذين خرجوا فى النفير، فيعطون من بيت المال من الصدقات دون الفىء من سهم رسول الله ﷺ المذكور فى آية الصدقات.

الرابع: أن يعرف عليهم العرفاء، وينقب عليهم النقباء، فيكون عارفًا بجميع أحوالهم من عرفائهم ونقبائهم، وقد فعل ذلك رسول الله ﷺ.

الخامس: أن يجعل لكل قائد منهم شعارًا يتميز به أصحابه؛ ليصير به عن غيره متميزًا.

السادس: أن يتصفح الجيش عند مسيره، فيخرج منهم من كان به تخذيل للمجاهدين، وإرجاف بالمسلمين، ولو كان غنيًا، فقد فعل ذلك رسول الله ﷺ، ورد عبد الله بن أبى سلول المنافق فى بعض غزواته لتخذيله للمسلمين.

السابع: أن لا يتعرض عند اللقاء لمن خالفه فى العقيدة والمذهب، أو لمن ظهرت عليه أمارات البغضاء، أو لمن أساء أدبه على الملك، أو من حضر فى خدمته؛ لأن التعرض لهؤلاء فى مثل هذا الوقت يفضى إلى الفراق، وافتراق الكلمة، وحصول الفشل. قال الله تعالى: ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾ [الأنفال: ٤٦]، أى دولتكم، وقيل: معناها قولكم(٢).

---

(١) الصحيح أنه مرسل: أخرجه أبو عبد المقدسى فى الأحاديث المختارة (٦/١٢٠) ح (٢١١٥)، والبيهقى فى الكبرى (٣/١٨) ح (٤٥٢٠)، والإمام أحمد فى مسنده (٣/١٩٨) ح (١٣٠٧٤)، والقضاعى فى مسند الشهاب (٢/١٨٤) ح (١١٤٧)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٣/٤٠٢) ح (٢٨٨٢)، وابن المبارك فى الزهد (١/٤١٥) ح (١١٧٨)، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (٢/٨٢١) ح (١٣٧٥)، وانظر: كشف الخفاء للعجلونى (٢/٢٨٤) ح (٢٣٣٩).

(٢) وروى عن مجاهد إنه النصر، وعزاه الحافظ السيوطى للفريابى، وابن أبى شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبو الشيخ. انظر: الدر المنثور (٣/٣٤٣)، وهو مروى عن قتادة، عزاه الحافظ السيوطى لابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ. انظر: الدر المنثور (٣/٣٤٣) وهو=

الثامن: حراسة الجيش من غدرة يظفر بها العدو، فينبغى أن ينتقى المكامن ويحفظها عليهم، ويحوط أطرافهم بحرس يأمنون به على أنفسهم وأموالهم؛ لينتبهوا وقت الدعوة، ويأمنوا وراءهم فى وقت المحاربة.

التاسع: أن يتخير لهم موضع نزولهم لمحاربة عدوهم، فيقصدو أوطأ الأرض مكانًا، وأكثرها مرعى وماء، وأكثرها سعة، وأحرسها أكنافًا وأطرافًا، ويكون الموضع سالمًا من جبل أو شجر، فإن فى ذلك كله عونًا لهم على المنازلة، وأقوى لهم على المرابطة.

العاشر: إعداد ما يحتاج إليه الجيش من زاد، وعلوفة؛ ليفوق ذلك عليهم فى أوقات الحاجة، حتى تسكن نفوسهم إلى مدة تعينهم على الطلب، ليكونوا على الحرص أوفر، وعلى منازلة العدو أقدر.

الحادى عشر: أن يتعرف أخبار عدوه بالجواسيس الثقاة التى تكون له عندهم مكانة، ليكون خبيرًا بأحوالهم، ويسلم من مكرهم، ويلتمس العزم فى الهجوم عليهم.

الثانى عشر: ترتيب الجيش فى مصافة الجيش، والتعويل فى كل جهة على ما يراه كفؤًا لها، ويتفقد الصفوف بنفسه من حصول خلل يقع فيها، ويراعى كل جهة يميل العدو إليها بمدد يكون عونًا لها.

الثالث عشر: أن يحرض المؤمنين على القتال، ويقوى نفوسهم وعزمهم على الظفر، ويذكر لهم أسباب النصرة، ويصغر العدو فى أعينهم، ويعدهم الإقطاع والزيادة فى الرزق إذا ظهرت منهم النكاية فى العدو.

الرابع عشر: أن يذكرهم ثواب الله تعالى، وما أعد الله لهم فى الآخرة من النعيم المقيم، ويذكرهم الشهادة وفضلها، ويعدهم بإبقاء رزقهم على أولادهم من بعدهم.

الخامس عشر: أن يشاور ذوى الرأى منهم وأهل الخبرة بالقتال، والمشايخ من أعوانه وأهل دولته، ويرجع إليهم فيما أشاروا، ويسلم الأمر إليهم فيما أشكل عليه من الخطأ ليسلم من الزلل.

السادس عشر: أن يلزم بما أوجبه الله تعالى من حقوقه، وبما أمره الله تعالى من

=مروى عن ابن زيد، عزاه الحافظ السيوطى لابن أبى حاتم، وأبى الشيخ. انظر: الدر المنثور (٣/٣٤٣).

مراعاة حدوده؛ لأنه من جاهد عن الدين كان أحق الناس بالتزام أحكامه والفصل بين حلاله وحرامه. وقد قال رسول الله ﷺ: «انهوا جيوشكم عن الفساد، فإنه ما أفسد جيش قط إلا قذف الله تعالى فى قلبه الرعب، وانهوا جيوشكم عن الزنا، فإنه ما زنا جيش إلا سلط الله عليه الموتان».

السابع عشر: أن لا يترك أحدًا من جيشه يشتغل بتجارة، أو زراعة؛ لأن ذلك يذهب الاهتمام من مصابرة العدو، ويضعف الصدق فى الجهاد. وقد روى أن نبيًا من بنى إسرائيل غزا غزوة لهم، فقال: لا يغزون معى رجل بنى بناء لم يكمله، ولا رجل تزوج بامرأة لم يدخل عليها، ولا رجل زرع زرعًا لم يحصده.

وإذا سار الملك بالجيش ودخل أرض العدو، فينبغى أن يكون طلائع جيشه ومقدمته كالنهر الجارى، فإن النهر فى أول جريه يتخلل ما يمر به من الأرض المستوية، فإذا بلغ نشوا من الأرض وقف عنه حتى يقوى بالمدد من ورائه، ثم يعلو ذلك النشو، فكذلك ينبغى أن تكون طلائع الجيش التى تتقدم عليه، لا تقتحم ما ترى بالقوة على العدو الذى أمامها إلا بأن تستمد من ورائها، فإذا أتاها المدد قويت على من تمر عليه، كعلو النهر إذا استمد من ورائه.

ولا ينبغى أن يقدم على مقاتلة الناحية المجهولة حتى يتقدم إليها من يخبرها من طلائعه، فقد كان يقال: لا تطأ أرض عدوك إلا على أقوى احتراس وتوق افتراسه، فإنك لا تأمن أن يكون قد نصب لك فيها الأشراك، ودفن الغوائل والشباك.

* * *

الباب الخامس عشر

فيما ينبغى لأهل الجيش ويلزمهم من حقوق الجهاد

إذا توجه الملك بالجيش إلى قتال المشركين، لزم أهل الجيش من الحقوق أمران: أحدهما: ما يلزمهم من حق الله تعالى. الثانى: ما يلزمهم من حق الملك، فأما ما يلزمهم من حق الله تعالى، فأربعة أشياء:

أحدها: مصابرة العدو عند التقاء الصفين، ولا يهزمون من مثليهم فما دون، فإن الله تعالى فى الأصل فرض على كل مسلم أن يقاتل عشرة من المشركين، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا﴾ [الأنفال: ٦٥].

وأن الله بعد ذلك خفف عليهم لما شق عليهم الأمر، فأوجب على كل مسلم أن يقاتل رجلين من المشركين، فقال عز وجل: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ﴾ [الأنفال: ٦٦]، ثم أن الله حرم على كل مسلم أن ينهزم من مثليه إلا لأحد أمرين، إما متحرف لقتال، فيأوى للاستراحة أو لمكيدة ويعود إلى قتالهم، وإما أن يتحيز إلى فئة أخرى ليجتمع بها على قتالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ﴾ [الأنفال: ١٦].

الثانى: أن يقصد بقتاله نصرة دين الله، وإبطال كلمة من خالفه من الأديان، فيكون عند الاعتقاد حائزًا لثواب الله تعالى، وطيعًا له فى أمره، ولا يقصد بقتاله فائدة تحصل من الغنيمة، فيصير من المكتسبين لا من المجاهدين.

الثالث: أن يؤدى الأمانة فيما حازه من الغنائم، لم يغل منها شيئًا، بل يحمله جميعه إلى المغنم ليقسم بين الغانمين الذين شهدوا الواقعة؛ لأن لكل واحد منهم فيها حقًا.

الرابع: أن لا يراعى فى نصرة دين الله تعالى ذا قرابة، أو مودة، فإن حب الله تعالى أوجب، ونصرة دينه ألزم، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

وأما ما يلزم الجيش من حق الملك، فأربعة أشياء:

أحدها: التزام طاعته، والدخول فى ولايته، والقبول لأمره ونهيه ما لم يأمرهم بالمعصية، فإن طاعة الملك واجبة فى غير المعصية؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ...﴾ [النساء: ٥٩] الآية. قال ابن عباس، رضى الله عنه: وأولوا الأمر الأمراء(١). قال رسول الله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا، ولو استعمل عليكم عبد

(١) وهو قول أُبَىّ، أخرجه ابن جرير، عن ابن زيد، عن أبىّ، عزاه له الحافظ السيوطى. انظر: الدر المنثور (٣١٥/٢).

حبشى»[١]، فأما إذا أمر بمعصية، فلا يجوز طاعته؛ لقوله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق»[٢].

الثانى: أن يفوضوا أمرهم إلى رأيه، ويكلوه إلى تدبيره، حتى لا يختلف رأيهم فتختلف كلمتهم، ويتفرق جمعهم، فإن ظهر لهم صواب فى شىء خفى على الملك، فينبغى أن يبينوه له سرًا ليرجع به إلى الصواب.

الثالث: المسارعة إلى امتثال أمره ونهيه فى غير المعصية.

الرابع: أن لا يتنازعوه فى شىء من قسمة الغنائم إذا قسمها فيهم، بل يرضوا به فى القسمة، فإنه يساوى بينهم، ولا يأبى أن يعدل بين القوى والضعيف، ويماثل بين الدنىء والشريف، وسنذكر القسمة فى بابها.

* * *

الباب السادس عشر
فى مصابرة المشركين

إذا تقاتل فريق المؤمنين وفريق المشركين، وجب على الملك مصابرتهم ما صبروا، وإن طالت بهم المدة، ولا يولى عنهم وبه قوة، فقد قال الله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فقال

---

(١) صحيح: أخرجه البخارى (ح٦٦١)، وابن حبان فى صحيحه (٣٠٢/١٣) ح (٥٩٦٤)، والحاكم فى المستدرك (١٧٤/١) ح (٣٢٩)، وأبو عبد الله المقدسى فى الأحاديث المختارة (٧٣/٢) ح (٤٥٠)، وأبو عوانة فى مسنده (٢٥٧/٥) ح (٧١٠٣)، والترمذى (٢٠٩/٤) ح (١٧٠٦)، والبيهقى فى الكبرى (١٨٥/٨) ح (١٦٣٧٧)، والنسائى (١٥٤/٧) ح (٤١٩٢)، وابن ماجه (٩٥٥/٢) ح (٢٨٦٠)، وابن أبى شيبة فى مصنفه (٤١٨/٦) ح (٣٢٥٣٧)، وإسحاق بن راهوية فى مسنده (٢٤٢/١)، والطبرانى فى الأوسط (٣٥٣/٢، ٣٥٤) ح (٣٥٢١) بإسناد حسن.

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة، عن الحسن، عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم، هكذا مرسلاً (٥٤٦/٦) ح (٣٣٧١٧). وبلفظ: «لا طاعة فى معصية، إنما الطاعة فى المعروف»، أخرجه البخارى (٦٨٣٠)، وأبو عوانة (٧١١٢)، وبلفظ: «لا طاعة لمن عصى الله»، أخرجه الحاكم فى المستدرك (٤٠١/٣) ح (٥٥٢٨)، وقال: صحيح الإسناد، لم يخرجاه.

الحسن: معناه اصبروا على طاعة الله، وصابروا أعداء الله، ورابطوا فى سبيل الله[1].

وينبغى للملك أن يرتب جيشه، ويجعل لكل طبقة من أعدائه أشباههم من جيشه، فإنهم كالماء فى الأذن إذا دخلها، فلا حيلة أرفق فى إخراجه من الماء الذى هو من جنسه، وإذا حمل على أعدائه، فليكن كالنهر إذا جرى لا انثناء له ولا رجعة حتى يبلغ غايته ومنتهاه من مفيضه.

وكذلك ينبغى أن يشد الملك فى حملته حتى ينال من عدوه، ويبلغ غايته، وإذا عاد أحد من المشركين إلى البراز، جاز للمسلم أن يخرج إليه؛ لأن ابن أبى خلف دعا رسول الله ﷺ فى يوم أُحُد للبراز، فبرز إليه فقتله، وفى يوم بدر ثلاثة مشركون، وهم: عتبة بن ربيعة، وابنه الوليد، وأخوه شيبة بن ربيعة، ودعوا إلى البراز، فبرز إليهم من الأنصار عود، ومعاذ بن عفراء، وعبد الله بن رواحة، فقالوا: إنا لا نعرفكم، فليبرز إلينا أكفاؤنا من قريش، فبرز إليهم ثلاثة من بنى هاشم، وهم: على بن أبى طالب، وحمزة بن عبد المطلب، وعبيدة، فأما على بن أبى طالب، رضى الله عنه، فبرز إلى الوليد فقتله، وبرز حمزة إلى عتبة فقتله، وبرز عبيدة إلى شيبة، فاختلفا ضربتين أثبت كل واحد منهما صاحبه، فمات شيبة لوقته، وحمل عبيدة حيًا، فمات بعد ذلك.

وروى أن عمرو بن عبد ود العامرى دعا إلى البراز فى اليوم التالى، فلم يجبه أحد، ثم دعا فى اليوم الثالث، فلم يجبه أحد، فقال: يا محمد، ألستم تزعمون أن قتلاكم فى الجنة عند ربهم يرزقون، وقتلانا فى النار يعذبون؟ فلماذا يبالى أحدكم أن يقدم على كرامة ربه، ويقدم عدوه إلى النار؟ ثم أنشد شعرًا:

ولقد بححت من النداء لجمعهم هل من مبارز
ووقفت إذ جبن المشجع موقف القرن المناجز
إنى لذلك لم أزل متسرعًا نحو الهزاهز
إن الشجاعة فى الفتى والجود من خير الغرائز

قال: فقام إليه على بن أبى طالب، رضى الله عنه، فاستأذن رسول الله ﷺ فى مبارزته، فأذن له بعد معاودة، وقال: «اخرج إليه فى حفظ الله وعنايته»، فخرج على،

---

(١) وعن الحسن: اصبروا عند المصيبة، وصابروا على الصلوات، ورابطوا: جاهدوا فى سبيل الله. عزاه الحافظ السيوطى لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم. انظر: الدر المنثور (٢/٢٠٢).

رضى الله عنه، وهو ينشد هذه الأبيات:

أبشـــر أتـــاك مجيـــب صوتـــك فـــى الهزاهـــز غـــير عـــاجز
ذو نيـــــة وبصيـــــــرة يرجـــو الغـــداة نجـــاة فـــائز
إنـــــى لأرجـــــو أن أقيـــــ ـــم عليـــك نائحـــة الجنـــائز
مـــن طعنـــــة نجـــــلاء يبـــ ـــقى ذكرهـــا عنـــد الهزاهـــز

قال: فتجاولا ساعة، ثم حمل كل منهما على صاحبه، وثارت بينهما عجاجة أخفتهما عن الأبصار، ثم انجلت عنهما وإذا علىّ، رضى الله عنه، وهو يمسح سيفه بثوب عمرو وهو قتيل.

وإذا أراد المسلم أن يدعو إلى البراز مبتدئًا، جاز له ذلك؛ لأن جماعة من الصحابة، رضى الله عنهم، فعلوا ذلك. وقد روى أبو هريرة، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ سُئل عن المبارزة بين الصفين، فقال: «لا بأس»، وينبغى أن لا يبارز إلا من اشتهرت قوته، وعلمت شجاعته؛ لأن الضعيف إذا بارز لا يأمن أن يقتل، فتضعف قلوب المسلمين.

ويجوز لأحد الجيش أن يحمل منفردًا على جيش المشركين، وقد كان يفعل ذلك جماعة من الصحابة، رضى الله عنهم. وروى أن الخنساء بنت عمر بن الشريد السلمية حضرت حرب القادسية ومعها بنوها الأربعة، فقالت لهم من أول الليل: يا بنى، أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، فوالله الذى لا إله إلا هو، إنكم لبنو رجل واحد، كما أنتم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله تعالى من الثواب للمسلمين فى حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، يقول الله تعالى: ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ [آل عمران: ١٦٩]، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، واضطرمت لظاها عن بساقها، فيمموا فى طلبها، وجالدوا رئيسها تظفروا بالغنم، أو الكرامة فى دار الخلد والمقامة، قال: فخرج بنوها من عندها قابلين لنصحها، فلما كان الصبح باكروا مراكبهم، فحين تقابل الصفان حمل أحدهما على جيش المشركين وهو ينشد:

يـا إخوتـى إن العجـوز الناصحـه قـد نصحتنـا إذ دعتنـا البارحـه

حالـة ذات بيـان واضحـه فبادروا الحرب العروس الكالحه
فأنتـم بـين حياة صالحـه أو ميتـة تـورث غنما رابحـه

فلم يزل يضرب فيهم بسيفه، ويطعنهم برمحه، حتى استشهد، رحمه الله تعالى، ثم حمل الثانى، وهو ينشد:

قـد أمرتنا بالسداد والرشـد نصيحـة منها وبـرا بالولد
فباكروا الحرب حماة فى العدد إما لفوز بارد على الكبـد
أو ميتـة تورثكـم غنم الأبد فى جنة الفردوس والعيش الرغد

فلم يزل يضرب بهم بسيفه، ويطعنهم برمحه، حتى استشهد، رحمة الله تعالى عليه، ثم حمل الثالث، وهو ينشد:

لست فتى الخنسا ولا ابن الأكرم وأعنى عمرو إذا السماح الأقـدم
إن لم أذد فى الحرب جيش الأعجم إما لفـوز عاجل أو مغنـم
أو لحياة الدين أفـدى بدمـى أو لوفاة فـى سبيل الأقـوم

فلم يزل يطعن فيهم برمحه، ثم استشهد، رحمه الله، فلما بلغ خنساء الخبر، قالت: الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم، وأرجو من ربى أن يجمعنى أنا وإياهم فى مستقر رحمته، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: اعطوا الخنساء أرزاق أولادها، وأجروا عليها ذلك حتى تقبض، فلم تزل تأخذ عن كل واحد منهم مائتى درهم حتى قبضت، رضى الله عنها، وينبغى أن يكون سواد العسكر وجمهور الموكب ممتدًا كامتداد النهر إذا طمى وزخر لا يمر بشىء إلا علاه وغرقه.

* * *

الباب السابع عشر

فى معرفة قتال أهل الردة، وأهل البغى، وقطاع الطريق

نقتصر فى هذا الباب على ذكر ما يجوز للملك فعله، ونوضح قواعد المذهب فى ذلك، من غير ذكر خلاف ولا تطويل؛ ليقع الفعل فى ممارستهم موافقًا للشرع، وهو ثلاثة فصول:

الفصل الأول فى معرفة قتال أهل الردة

إذا حكم بإسلام قوم، ثم ارتدوا عن دين الإسلام إلى أى دين خالفه، لم يجز إقرارهم عليه؛ لأن الإقرار بالحكم يوجب التزام أحكامه، ثم لا يخلو حال أهل الردة من أمرين، أحدهما: أن يكونوا فى دار الإسلام أفرادًا لم يتحيزوا بدار يمتنعون بها عنه، ويتميزون عن المسلمين فيها. الثانى: أن ينحازوا إلى دار ينفردون بها عن المسلمين، حتى يصيروا فيها ممتنعين، فإن كانوا فى دار الإسلام منفردين، فلا حاجة لقتالهم، لدخولهم تحت القدرة، بل يجب أن يأخذهم بالتوبة مما دخلوا فيه من الباطل، فإن تابوا قبلت توبتهم، وأجرى عليهم أحكام الإسلام، ومن أقام منهم على ردته وجب قتله، رجلاً كان أو امرأة؛ لقوله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»(١).

واختلف العلماء فى كيفية قتل المرتد، والوقت الذى يقتل فيه، فمنهم من قال: يقتل فى الحال؛ لأن حق الله تعالى إذا وجب لا يجوز تأخيره. ومنهم من قال: يؤجل ثلاثة أيام؛ لأن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، نظر المستورد العجلى بالردة ثلاثة أيام، ثم قتله بعد ذلك(٢)، ويقتل ضربًا بالخشب، وإذا قتل لم يغسل، ولم يكفن، ولم يصل عليه، ولا يدفن فى مقابر المسلمين، ويكون ماله فيئًا إلى بيت مال المسلمين.

وأما إذا انحاز أهل الردة إلى دار ينفردون بها عن المسلمين حتى صاروا فيها ممتنعين، وجب قتالهم على ردتهم، ويجرى على قتالهم حكم قتال أهل الحرب فى جواز قتلهم غرة وبياتًا، ومقبلين ومدبرين، ومن أسر منهم جاز قتله، ولا يجوز استرقاقه، وإذا أغنمت أموالهم لم تقسم بين الغانمين، بل يكون مال من قتل منهم فيئًا لبيت المال، ومال من لا يقتل موقوفًا على إسلامه إن عاد إلى الإسلام رد عليه ماله.

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٦/٢٣٤) ح (٨٦٢٣)، وفيه ابن لهيعة، وحسن الحافظ الهيثمى إسناده. انظر: مجمع الزوائد (٦/٢٦٤).

(٢) اعلم أنهم اختلفوا فى وجوب الاستتابة، فذهب إلى استحبابها الإمام مالك، وأحمد، وأبو حنيفة، وهو قول الشافعى. والثانى وجوب الاستتابة. وقال عطاء: إن كان مسلمًا فى الأصل، لم يستتب، وإن كان قد أسلم ثم ارتد استتيب. وقال الحسن البصرى: يقتل من غير استتابة. وفى مدة الاستتابة قولان عندنا نحن الشافعية، أصحهما: أنه يستتاب فى الحال. والثانى: يستتاب ثلاثة أيام. وروى عن الخليفة على، عليه السلام، أنه قال: يستتاب شهرًا. انظر: حلية العلماء للشاشى (٣/١١٠١).

الفصل الثانى فى معرفة قتال أهل البغى

وإذا خرجت طائفة من المسلمين، وخالفوا رأى الجماعة، وانفردوا عنهم، وخرجوا عن قبضة الإمام الأعظم، وتحيزوا وامتنعوا بمنعة، وجب قتالهم بعد أن ينذرهم ويسألهم ما ينقمون؛ لأن على، رضى الله عنه، بعث عبد الله بن العباس إلى الخوارج، فسألهم ما ينقمون منه، ثم يؤخرهم وينظرهم، فإن رجعوا إلى الطاعة كف عنهم، وإن أبوا قاتلهم؛ لقوله تعالى: ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ**﴾ [الحجرات: ٩]، وقاتل أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، مانع الزكاة، وقاتل على، رضى الله عنه، الخوارج بالهذوان، وقاتل معاوية بصفين[١].

واعلم أن قتالهم يخالف قتال المشركين من تسعة أوجه:

أحدها: لا يهجم عليهم غرة ولا بياتًا[٢]، ويجوز ذلك فى قتال المشركين.

الثانى: أن يقصد بقتلهم ردهم وردعهم ورجوعهم إلى الحق، ولا يعتمد إلى قتلهم.

الثالث: يقاتلهم مقبلين، ويكف عنهم مدبرين[٣].

الرابع: أن لا يجهز على جريحهم.

الخامس: أن لا يقتل أسراهم[٤].

السادس: أن لا نغنم أموالهم، ولا نسبى ذراريهم[٥].

---

(١) وفيه اعتبار معاوية من البغاة، لقول النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم، لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»، فظهر أن هذا قول ابن بسام.

(٢) هذا مذهبنا نحن الشافعية والكاسانى من الأحناف، والمرغينانى، خلافًا للقدورى ومن وافقه، كالطرسوسى من الأحناف. انظر: تحفة الترك للطوسوسى (ص٦٨).

(٣) هذا مذهبنا نحن الشافعية، خلافًا للإمام الأعظم، حيث قال: يتبعون ويقتلون، واختاره أبو إسحاق، حيث كانت لهم فئة ينحازون إليها، وإلا فكمذهبنا. انظر: حلية العلماء للشاشى (١٠٩٩/٣)، تحفة الترك للطرسوسى (ص٦٨، ٦٩)، بدائع الصنائع للكاسانى (١٤٠/٧، ١٤١).

(٤) وعند الأحناف يقتل الأسرى إن كانت لهم فئة يتحيزون إليها، وإن لم تكن، فالإمام مخير، إن شاء قتله استئصالاً لشأفتهم، وإن شاء حبسه لاندفاع شره بالسر والحبس. انظر: الهداية للمرغينانى (٤٦٥/٢)، تحفة الترك للطرسوسى (ص٦٩).

(٥) ولا تتملك أموالهم لبقاء العصمة فيها بكونها محررة بدار الإسلام. انظر: تحفة الترك للطرسوسى (ص٧١).

السابع: أن لا يستعين على قتالهم بمشرك معاهد ولا ذمى.

الثامن: أن لا يهادنهم إلى مدة، ولا يوادعهم على مال، فإن هادنهم إلى مدة لم يلزم، فإن ضعف عن قتالهم انتظر بهم القوة عليهم، وإن وادعهم على مال بطلت الموادعة، ثم ينظر فى المال، فإن كان من صدقاتهم وخراجهم، لم يرده عليهم، وإن كان من خالص الأموال رد اليهم، ولا يجوز أن يتملكه عليهم.

التاسع: أن لا ينصب عليهم العربات والمنجنيقات، ولا يحرق عليهم المساكن، ولا يقطع أشجارهم؛ لأن دار الإسلام تمنع من كل ذلك، بخلاف قتال المشركين، فإن أحاطوا بأهل العدوان، وخافوا منهم الاصطلام، جاز أن يدفعوا عنهم ما استطاعوا من قتل، ونصب المنجنيقات عليهم، وحرقهم بالنار وغير ذلك؛ لأن المسلم إذا أصابه ضرر، بحيث لا يندفع إلا بقتل من قصده، جاز له الدفع بالقتل، ولا يجوز أن ينتفع بدوابهم، ولا أسلحتهم، ولا يستعان بها فى قتالهم(١)، وقال أبو حنيفة، رحمه الله: يجوز ذلك(٢).

الفصل الثالث فى معرفة قطاع الطريق

فإن اجتمعت طائفة من أهل الفساد على شهر السلاح، وقطع الطريق، وأخذ الأموال، وقتل النفوس، ومنع السبيل، فهم المحاربون الذين قال الله تعالى فى حقهم: ﴿**إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ**﴾ [المائدة: ٣٣]، قال الشافعى، رضى الله عنه: من قتل منهم وأخذ المال، قتل وصلب بعد قتله، ومن قتل ولم يأخذ المال، قتل ولم يصلب، ومن أخذ المال ولم يقتل، قطعت يده ورجله من خلاف(٣)، ومن لم يقتل ولم يأخذ المال، ولكنه أرهب وأخاف السبيل، عذر

(١) لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه»، إلا لضرورة كما إذا خيف انهزام العدل، ولم يجدوا غير خيولهم، فيجوز لهم ركوبها، وكذا إن لم يجدوا ما يدفعون به عنهم غير سلاحهم. انظر: مغنى المحتاج (١٢٧/٤)، المهذب للشيرازى (٢٢٠/٢).

(٢) وقيده الشيخ المرغينانى بالحاجة إليه. انظر: الهداية (٤٦٥/٢). قال الشيخ الطرسوسى: لنا أن الخليفة على، عليه السلام، قسم السلاح فيما بين أصحابه بالبصرة، وكانت قسمته للحاجة لا للتمليك. انظر: تحفة الترك (ص٧١).

قلت: فالظاهر موافقة مذهب الأحناف لمذهب الشافعية، لتقييد كل الجواز بالحاجة.

(٣) انظر: حلية العلماء للشاشى (١١٥١/٣).

بالحبس[١]، وهو النفى من الأرض[٢]. وقال مالك، رضى الله عنه: من كان ذا رأى وتدبير قتل، ومن كان ذا بطش وقوة عزّرَ وحبس.

واعلم أن قتال قطاع الطريق كقتال أهل البغى فى عامة أحوالهم، ويخالفه فى خمسة أوجه:

أحدها: يجوز قتالهم مدبرين ومقبلين، بخلاف قتال أهل البغى.

الثانى: يجوز أن يعمد إلى قتل من قتل منهم فى حال الحرب، بخلاف قتال أهل البغى.

الثالث: أنهم يؤخذون بما استهلكوه من دم أو مال فى الحرب وغيرها، بخلاف أهل البغى.

الرابع: أن يجوز حبس من أسر منهم؛ ليعلم براءة حالهم من غير خلاف، بخلاف أهل البغى.

الخامس: أن ما جَبَوْهُ من الخراج والصدقات، يكون كالمأخوذ من وجه الغصب والنهب، لا يسقط عن أهل الخراج والصدقات، ويكون غرمه مستحقًا عليهم لمن أخذوه منهم، بخلاف أهل البغى.

* * *

الباب الثامن عشر

فى معرفة قسمة الغنيمة والأثقال

إذا أخذ المسلمون من الكفار مالاً بزحف الخيل والركاب، فهو غنيمة يجب على المِلكِ أن يقسمها ما بين الغانمين، فتجعل خمسة أخماس، خمس منها لأهل الخمس الذين قال الله عز وجل فى حقهم: ﴿**وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾ [الأنفال: ٤١]، وأربعة أخماس للغانمين.

---

(١) هذا أحد وجهين فى الحادى، والثانى: يعزره بما يراه. انظر: حلية العلماء للشاشى (١١٥١/٣).

(٢) أى أنه يحبس فى غير بلده، وهو قول أبى العباس بن سريج، والثانى: يحبس فى بلده، وهو قول أبى حنيفة. انظر: حلية العلماء للشاشى (١١٥١/٣).

وينبغى أن يقسم ذلك كله فى دار الحرب؛ لأن رسول الله ﷺ قسم غنائم بنى المصطلق على مياههم، وقسم غنائم حنين بأوطاس، هو واد من حنين، ولا يدخل سلب المقتول فى القسم، بل يكون للقاتل دون غيره؛ لأن رسول الله ﷺ جعل السلب للقاتل(١)، فإن كان الجيش كلهم فرسانًا، سوى بينهم فى القسمة، وكذلك إذا كانوا رجالة، وإن كان بعضهم رجالة، وبعضهم فرسانًا، جعل للرجل سهمًا واحدًا، وللفارس ثلاثة أسهم، سهم للرجل، وسهمان للفرس(٢)، ويجعل من قاتل ومن لم يقتل سواء فى القسمة، وكذلك من حضر بفرسين أو أكثر، لم يزد سهمه على من حضر بفرس واحد.

وإذا بعث الملك سرية من الجيش إلى جهة الكفار فغنمت السرية، شاركها فى ذلك أهل الجيش، وكذلك إن عمل أهل الجيش، شاركهم أهل السرية؛ لأن رسول الله ﷺ لما هزم هوازن بحنين، أسرى سرية قبل أوطاس فغنمت، فقسم غنائمها بين الجميع، ومن فعل من أهل الجيش فعلاً يفضى إلى الظفر بالعدو، كالتجسس، والدلالة على طريق أو قلعة، أو التقدم بالدخول إلى دار الحرب، جاز للملك أن ينفله من الغنيمة زيادة على سهمه؛ لأن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك.

* * *

الباب التاسع عشر
فيما ينبغى للملك أن يفعله عند قفوله بالجيش

ينبغى للملك إذا قفل بالجيش من غزوة أو سفر، أن يفعل كما كان يفعل رسول الله ﷺ فى قفوله من غزواته وأسفاره، فقد كان يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات، ويقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيى ويميت وهو حى دائم لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شىء قدير، آيبون، تائبون، عابدون، ساجدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده(٣)، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾» [القصص: ٨٨].

---

(١) صحيح: أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٦/٢٦)، وأبو داود (٢٧٢١)، وانظر: إرواء الغليل (١٢٢٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/٦٢)، وأبو داود (٢٧٣٣).

(٣) أخرجه البخارى (١٧٠٣)، وابن حبان فى صحيحه (٦/٤٢٤) ح (٢٧٠٧)، والبيهقى فى الكبرى (٥/٢٥٩) ح (١٠١٤٤)، والربيع فى مسنده (١/١٦٢) ح (٤٠٠)، والإمام مالك فى الموطأ (١/٤٢١) ح (٩٤٢)، والإمام أحمد فى مسنده (٢/٦٣) ح (٥٢٩٥).

وينبغى إذا أشرف على مدينة أن يحرك دابته ويقول: اللهم اجعل لنا بها قرارًا ورزقًا حسنًا، ثم يرسل إلى نوابه وأهل مدينته، فيخبرهم بقدومه ليخرجوا إلى لقائه؛ لأن الرعية ينتعشون بطلعة الملك عليهم ورجوعه إليهم، كانتعاش النبات بوابل المطر، وإذا دخل البلد فليقصد المسجد ويصلى فيه ركعتين، كذلك كان يفعل رسول الله ﷺ، وإذا دخل منزله واستقر على سريره، رفع حجابه، وفتح بابه، وأذن لوجهاء بلدته وبياض رعيته بالدخول لتهنئته بما أفاء الله عليه، وحققه لديه من شمول النعمة، وحسن المنقلب، ثم يكثر من الصدقات والصلاة، ويوسع فى العطايا والهبات، ويرد المغصوب والمظلومات، ويكشف عن أحوال من حبسه من أهل الخطيئات، ويستكثر من صنائع المعروف وأفعال البر، فإنه إذا فعل ذلك كان شاكرًا لله، وكان لمزيد النعمة مستحقًا، ولتتابع الإحسان من الله مستوجبًا.

* * *

الباب العشرون

فى الحث على استماع المواعظ وقبولها من النساك

اعلم أن استيلاء الدنيا على الملوك وإقبالها عليهم، ربما شغلتهم عن أمر الآخرة، وأغفلتهم عن مهمات الدين، فيجنحون إلى اللذات، ويهملون أمر الديانات؛ لأن النفوس مطبوعة على الميل إلى الترف، وإيثار التنعم، وكراهة التكليف، فلا ينبغى أن تخلو مجالسهم من علماء الدين، وصلحاء المسلمين؛ لينبئوهم عند طروّ الغفلة، ويذكروهم عند حرارة الشهوة، ويوضحوا لهم نهج الآخرة، ومعالم الشريعة.

وقد كان شعار الملوك العارفين والخلفاء الراشدين أن يدعوا إلى مجالسهم الحكماء، ويتخلوا لاستماع مواعظ العلماء، وكانوا فى ذلك ثلاث طبقات، فمنهم طبقة لما سمعوا الوعظ نبذوا ملك الدنيا الذى يفنى؛ ليعتاضوا عنه ملك الآخرة الذى يبقى، وأخرجوا ذلك من قلوبهم وأيديهم، واهتموا بأمر الآخرة والعمل بها؛ لينالوا الفوز الأكبر، والنعيم الدائم.

ومنهم طبقة عند سماع المواعظ أخرجوا ملك الدنيا من قلوبهم، ولم يخرجوه من

أيديهم، واهتموا بأمر الآخرة مع بقائهم في الملك، وهذه الطبقة مجاهدتهم عظيمة، ومثلهم فى ذلك مثل من ألزم نفسه الظمأ وأمامه نهر بارد ينظر إليه ويقدر على تناوله، وهذا كان مقام الخلفاء الراشدين، وأمرائهم، وعمالهم، ومناسك سبيلهم.

ومنهم طبقة أصمهم حب الدنيا ونيل لذاتها عن استماع المواعظ، وأعمى أبصارهم عن كل مذكر وواعظ، فآثروا اللذات عن المهمات، وقطعتهم الشهوات عن أمور الديانات، وسأذكر من أخبار أهل هذه الطبقات الثلاث ما يكون فيه رياض لذوى الأفكار، ورياضات لذوى الأبصار، والله أعلم بالصواب.

وهذه حكايات عظيمة
الطبقة الأولى خمس روضات

الروضة الأولى: ماحكاه أصحاب الحديث، أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، استعمل عمير بن سعيد الأنصارى، رضى الله عنه، على حمص وأعمالها، فلبث فيها سنة كاملة، فجلس يومًا وعنده رجل من أصحاب عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، كان قد أتاه يستدعى منه ما اجتمع عنده من المال، فحضر عنده رجل معاهد، فجعل يتكلم ويرفع صوته، فقال له عمير: اسكت أخزاك الله، فقال له الرجل الذى عنده: أخزاك الله من أصحاب عمر يا عمير، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنا ولى خصم المعاهد واليتيم، ومن خاصمه خاصمته»، يا عمير اتق من فوقك يتقك من تحتك، وكما تحب أن يفعل الله بك فاصنع برعيتك.

قال: فبكى عمير بكاء شديدًا، ثم انثنى إلى منزله، فعمد إلى جراب زاده ومزادته وقصعته، فعلقهن على عصاه، وعلقهن على عاتقه، وخرج من حمص ماشيًا حتى قدم على عمر، رضى الله عنه، فسلم عليه، فرد عليه السلام متثاقلاً، ثم قال له: يا عمير، ما الذى أدى بك من سوء الحال؟ أمرضت بعدى أم بلادك بلاد سوء أم هذه خديعة منك؟ فقال عمير: يا أمير المؤمنين، ألم ينهك الله عز وجل عن التجسس؟ ثم ما الذى ترى من سوء الحال؟ ألست ترانى صحيح البدن، قد جئتك أحمل الدنيا؟ فقال له عمر: وما الذى جئت به من الدنيا، فقال: جرابى فيه زادى، ومزادتى فيها ماء لشرابى ووضوئى، وقصعتى لعجينى، وعكازى أذب به عن نفسى، قال: صدقت رحمك الله، فما فعل المسلمون بعدى؟ قال: تركتهم يوحدون الله ويصلون، ولا تسألنى عما وراء ذلك.

قال: فما فعل أهل الذمة؟ قال: أخذنا منهم الجزية وهم صاغرون عن يد، قال: فما زاد من المال؟ وما أنت وذاك؟ قال: إنى لما قدمت حمص اجتهدت برأيى، وجمعت من بها من المسلمين، فاخترت منهم رجالاً فاستعملتهم، ثم نظرت فيما اجتمع من المال فقسمته فى أهله، ولو كان عندنا أكثر لآتاك، فقال: يا عمير، وأين راحلتك؟ قال: لم يكن لى راحلة، قال: أما كان فى رعيتك من يتبرع لك بدابة تركبها؟ بئس المسلمون وبئس المعاهدون.

ثم قال لابنه عبد الله: جئنى بصحيفة لأجدد لعمير عهدًا؛ ليرجع إلى عمله، فقال عمير: لا والله لا أعمل على شيء أبدًا، فقال عمر: ولم ذلك؟ قال: إنى ما نجوت، فإنى قلت يومًا لمعاهد: أخزاك الله، وقد قال رسول الله ﷺ: «أنا ولى خصم المعاهد واليتيم، ومن خاصمه خاصمته»، فنهض عمر وأخذ بيد عمير، ثم أتى قبر رسول الله ﷺ، فقال: السلام عليك يا أبا بكر، ثم بكى عمر، وقال: ماذا لقيت بعدكما، اللهم ألحقنى بصاحبى لم أغير ولم أبدل، وبكى معه عمير طويلاً، ثم قال: يا عمير، الحق بأهلك، وكان أهله على ثلاثة فراسخ من المدينة.

قال: ثم قدم بعد ذلك مال على عمر من عند بعض عماله، فدعا رجلاً من أصحابه اسمه حبيب، فدفع إليه صرة فيها مائة دينار، وقال: انطلق إلى منزل عمير، فأقم عنده ثلاثًا وتفقد حاله، ثم اعطه هذه الصرة، فأتاه حبيب، فوجده فى فيء بفناء داره يتقلى فى الشمس، فسلم عليه، فقال له عمير: من أين أقبلت؟ قال: من المدينة، قال: كيف تركت عمر؟ قال: جائرًا فى الحكم، قال: لا، فلعله وضع السوط فى أهل القبلة، قال: لا، ولكنه ضرب ابنًا له الحد فمات، فقال: اللهم اغفر لعمر، فإنه يحبك ويحب رسولك ويحب إقامة الحد.

ثم أقام عنده حبيب ثلاثة أيام يقريه كل يوم قرصًا مأدومًا بزيت، فلما انقضت الثلاثة أيام، قال له عمير: ارتحل عنا رحمك الله، فقد أجعتنا، وإنك لم تصادف عندنا فضلاً، لكنا آثرناك، فقال له حبيب: خذ هذه الصرة، فإن عمر بعثها اليك، فلما صارت فى يده، قال: صحبت رسول الله ﷺ، فلم أبتل بشيء من الدنيا، وصحبت أبا بكر كذلك، ثم صحبت عمر، فشر أيامى يوم صحبت عمر، وبكى، فقالت له امرأته: لا تبك رحمك الله، ضعها حيث شئت، قال: صدقت، فاطرحى لى بعض خلقانك، قال: ففعلت،

فجعل يصر الدينار والدينارين والثلاثة دنانير والأربعة، وفرق ذلك حتى قسمها فى فقراء جيرانه.

وعاد حبيب إلى عمر، فأخبره بخبره، فارتاع لذلك، ولبث أيامًا، واستدعى عميرًا، وقال له: ما صنعت بالدنانير؟ فقال: أقرضتها ربى إلى يوم فقرى، قال: هل عليك دين؟ قال: لا، فأمر عمر، رضى الله عنه، له بوقر بعير تمرًا وبثوبين، فقال: أما الثوبان فأقبلهما، وأما التمر فلا حاجة لى به، فإنى قد تركت عند أهلى صاعًا من الشعير، وهو مبلغهم إلىَّ، ثم انصرف عمير إلى أهله، فقيل: ما لبث قليلاً وتوفى رحمة الله تعالى عليه، فجزع له عمر، وقال لأصحابه: تمنوا، فتمنوا، فقال: لكنى أتمنى رجالاً أستعين بهم على أمور المسلمين.

الروضة الثانية: ما حكاه الأصمعى، قال: ركب النعمان بن امرء القيس ابن عمر الأكبر، حتى أشرف على الخرنوق، وهو الذى بناه، فلما نظر إلى ما حواليه، وكان فى فصل الربيع ورونقه، وقد أخذت الأرض زينتها، فسرح طرفه مليًا فيما حوله، وكان معجبًا بالشقائق التى يقال لها: شقائق النعمان، ومن أجل إعجابه بها وتتبعه لها فى الرياض نسبت إليه.

قال: وكان هناك روضة شقائق، فلما تأملها، ونظر حسن نضد الشقيق فى منابته، وقنو حمرته، وخضرة سوقه، وتمايسه مع هبوب النسيم عليه، ارتاح قلبه إليه، فأمر أن يبسط له بساط منسوج من الحرير المخمل على هيئة الروضة، فكان كأنه روضة مختلفة بأنواع النوار، وضرب عليه قبة من الديباج الأحمر منضودة من الحشايا بما يضاهيها ويجانسها فى لونها، ولبس من الثياب الحرير أفضل وأفخر ما عنده، ثم جلس فى تلك القبة مواجهًا لتلك الروضة، وعنده أكابر قواده، وخواص مملكته، ووجهاء رعيته، وفيهم عدى بن زيد.

قال: فأعجب الملك بما هو فيه، فقال لجلسائه: هل رأيتم مثل ما أنا فيه، أو علمتم أن أحدًا أوتى مثل ما أوتيت؟ قالوا: لا أيها الملك، ما رأينا مثلك، وعدى لم ينطق، فنظر إليه الملك مستدعيًا لكلامه، فقال: أيها الملك، أرأيت ما جمعت أشىء هو لك لم يزل، أو شىء كان لمن قبلك وزال عنهم وصار لك؟ قال: بلى كان لمن كان قبلى ثم صار إلىَّ، قال: فيزول عنك إلى غيرك أم يبقى؟ قال: يزول عنى ويبقى إلى غيرى، قال: فأراك

أيها الملك مررت بشىء يذهب عنك إلى غيرك وتبقى تبعته، تكتال منه قليلاً، وتوهن فيه طويلاً.

قال: فبكى النعمان، وقال له: يا عدى، فأين المهرب؟ قال: أحد أمرين، الأول: أن تقيم فى ملكك تعمل بطاعة ربك على ما أمرك وأرشدك، والثانى: أن تضع تاجك، وتخلع أطمارك، وتلبس مسوحًا، ثم تلحق ببعض الجبال وحدك تعبد فيه ربك حتى يأتيك اليقين، قال: فإذا فعلت ذلك، فما لى عنده؟ أحياة لا موت بها، وشباب لا هرام بعده، وصحة لا سقم بها، وملك جديد لا يبلى؟ قال: نعم، قال: وكلما أراه إلى فناء وزوال؟ قال: نعم، قال: فأى خير فيما ينفى ويزول؟.

ثم أنه ركب هو ومن معه من موضعه، وسار طالبًا قصره، وإلى جانبه عدى بن زيد، فأتوا إلى مقبرة، فقال عدى: أتدرى ما تقول هذه المقبرة أيها الملك؟ قال: لا، قال: إنها تقول: أيها الركب اللاهون على الأرض المجدون، كما كنتم كنا، وكما نحن تصيرون، قال: ثم ساروا، فمروا بحمامات متناوحات عند عين جارية، فقال عدى: أيها الملك، أتدرى ما تقول هذه الحمائم؟ قال: لا، قال: تقول:

من رآنا فليحدث نفسه	أنه سوف على قرب زوال
وصروف الدهر لا تبقى له	ولما يأتى به صم الجبال
رب ركب قد أناخوا حولنا	يشربون الخمر بالماء الزلال
عمروا دهرا بعيش حسن	غرهم دهر بهم غير عجال
بعد هذا عبث الدهر بهم	ولذاك الدهر حال بعد حال

فلما انتهى الملك إلى قصره، التفت إلى عدى، وقال: قد علمت أن المقبرة والحمائم لا تتكلم، وإنما قصدت بذلك عظتى، وقد حصلت الموعظة، فإذا كان السحر فاحضر عندى، فإن عندى خبرًا سأطلعك عليه، فلما حضر عنده وجده قد لبس مسوح الشعر، وأخذ أهبة السياحة، فودع عديًا، ثم ارتقى إلى الجبل، فلم يزل هنالك يعبد الله حتى لحق به، رحمه الله.

الروضة الثالثة: روى نافع، عن عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما، قال: كان فيما سلف ملك دان له الناس، فأعجب بملكه، وقال لوزرائه وقهارمته: ابنوا لى دارًا لا يكون فيها عيب، ففعلوا ذلك، قال: اتخذوا لى طعامًا لا يكون فيه عيب، ففعلوا ذلك، فأمر أن يدعى الناس إلى طعامه فى تلك الدار، ثم أمر بإقامة رجلين بالباب، وأمرهما أن يسألا كل واحد يخرج من الدار: هل رأى فيها عيبًا أو فى الطعام؟.

قال: فمر بهما رجلان عليهما ثياب الشعر فسألاهما، فقالا: نعم رأينا فى الدار عيبين قبيحين، قالوا: وما هما؟ قالا: رأينا الدار تخرب، وصاحبها يموت، فمضيا وأخبرا الملك بما قالا، فأحضرهما وسألهما، فذكرا له ذلك، فأطرق الملك ساعة، ثم قال لهما: أتعرفان دارًا لا تخرب ولا يموت صاحبها؟ قالا: نعم، قال: وأين هى؟ فقالا: هى دار الله تعالى ربنا وربك، وهى الجنة التى يدوم نعيمها، ولا يزول ملكها، قال: فصفاها لى، فوصفاها له، قال: وبأى شىء تنال هذه الدار؟ قالا: بعبادة الله والانقطاع إليه، قال: وكيف تكون العبادة؟ فشرعا له الدين، فوقع فى قلبه أن ذلك هو الحق، فقال لهما: أقيما عندى فى هذه الليلة حتى أنظر فيما ذكرتماه لى، فإن أقمت فى ملكى جعلتكما وزيرين لا أعصيكما، وإذا خرجت منه تبعتكما على أمركما.

ثم قام فدخل على ابنة له، وكانت عاقلة فهيمة، فقص حكايته عليها، وهو ما ذكراه له، وأخبرهما أنه تارك ملكه وخارج معهما، فقالت: يا أبت، انج بنفسك وخذنى معك، قال: يا بنيتى، أنت عورة، فكيف أصنع بك؟ فقالت: إنى أخفى شخصى، فلا يعلم أحد أذكر أنا أم أنثى، قال: فاخلعى ثيابك واخرجى، ففعلت ذلك وخرجت مع أبيها إلى الرجلين، فقال لهما: سيرا بنا ما دام ظلام الليل ساجيًا، وهذا ولدى معى، فساروا حتى قطعوا المدينة وخرجوا منها، ثم ساروا حتى جاوزوا مملكة ذلك الملك، ثم ساروا حتى بلغوا ديرًا، فقالا له: هذا موضعنا الذى نعبد ربنا فيه، فدخلوا إليه جميعًا، فأقام عندهما مدة طويلة يتعلم منهما الدين وأحكام الشريعة، ثم تجهز للخروج عنهما، فقالوا له: ما شأنك؟ هل أذاك أحد منا؟ قال: لا، ولكنى أراكما تكرماننى لما كنت فيه من الملك، فأريد أن آتى موضعًا لا أعرف فيه، فأكون فى غمار الناس.

فتركاه ومضى حتى أتى ديرًا كبيرًا كثير الأهل، فيه مساكن كثيرة، فقال: هل من منزل؟ فقيل له: ادخل، فدخل واختار منزلاً، فكان هو وابنته يعبدان الله تعالى فيه، وكان لأهل ذلك الدير مزرعة، وكل لكل رجل من سكان الدير حراستها سنة كاملة، فبلغت النوبة إلى الشيخ، وكان مريضًا، فقيل له ذلك، فقال: إن عذرى واضح، فقالت

له ابنته: أنا أخرج عنك، فخرجت إلى المزرعة، فما كان يراها الناس إلا قائمة تصلى، وفى أمر هى به مغتبطة.

قال: وكان يقربهم دير صغير ينسب إلى رجل له ابنة جميلة، فجاءت تلك الابنة، فاتصلت بها وهى تظن أنها غلام، فجعلت تعرض عليها نفسها، وهى تعتصم من شرها، فلما رأت الجارية أنها لا تفعل، قالت: والله لأهلكنك وأهلكن أباك، ثم أنها ذهبت إلى راع فمكنته من نفسها فحملت، فلما عظم بطنها قال لها أبوها: ما هذا؟ قالت: إنى كنت عند ولد الشيخ مطمئنة إليه لما رأيت من كثرة عبادته واجتهاده، وكان هذا منه، فجاء أبوها وأهل ديره، فأخبروا أهل ذلك الدير الكبير بذلك، وقالوا: لا ينبغى أن يكون هذا الشيخ وولده عندكم، وهموا على إخراجه، إلا أنه لشدة مرضه لم يقدروا على ذلك.

ثم توفى الشيخ مكانه، فلم يأخذوا فى جهازه، فقال علماؤهم: إنه لا ذنب له، فاغسلوه وكفنوه واطردوا ابنه، فلا يدخل ديركم، ففعلوا ذلك، فقالت الفتاة: دعونى أبنى لى بيتًا فى الصحراء أحرس نفسى فيه من السباع، فبنت لها بيتًا، فكانت تعبد الله تعالى، وتزور قبر أبيها، حتى إذا كانت ليلة من الليالى، مر بها رجل من أهل الدير، فإذا باب بيتها مفتوح، فناداه: يا فتى، فأجابته بصوت خافت، فقال: أحسبك مريضًا؟ قال: نعم، قال: فهل لك حاجة؟ قال: نعم، إذا أنا مت، فلا تكشفونى، ولا تنزعونى من ثيابى وغسلونى فيها، وادفنونى فى قبر أبى، فقد حفرت إلى جانبه قبرًا، ثم أصبحوا فسمعوا قائلاً يقول: مات ابن الشيخ، فقال الرجل الذى كان أوصاه: إنه أوصانى بكذا وكذا، فقال علماؤهم: لا تغيروا سنتنا، ابعثوا إليه رجلاً يغسله مجردًا من ثيابه، ثم كفنوه وادفنوه إلى جانب قبر أبيه كما أوصى.

فلما جاء الرجل وكشف عنه ليغسله، فوجدها امرأة، فغطوها وتنادوا فى الديوان: الذى طردتموه إنما هو امرأة، فبعثوا إليها النساء وغسلوها، فلما جهزوها حضر إلى الصلاة عليها جميع من فى تلك الأرض، ثم دفنوها إلى جانب أبيها، قال: قال عبد الله ابن عمر: فلقد كان أهل تلك الناحية إذا أقحطوا جاءوا إلى قبر أبيها وقبرها، فاستسقوا الله تعالى فيسقون، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الروضة الرابعة: حكى أن ملكًا من اليونان قام من منامه فى بعض الغدوات، فأتته القيمة على ثيابه بملبوس، ثم ناولته المرآة، فنظر إلى وجهه، فوجد فى لحيته شعرة بيضاء،

فقال لها: هاتى المقراض؟ فأتته به فقصها، فتناولتها الجارية، وكانت حكيمة لبيبة عاقلة، فوضعتها فى كفها، وأصغت إليها بأذنها، والملك ينظر إليها، فقال: ما هذا الذى تصغين إليه؟ قالت: أستمع ما تقول هذه الشعرة التى عظم مصابها بمفارقة الكرامة لما سخط عليها الملك فاقتصها، فقال الملك: وما الذى سمعت من قولها؟ قالت: زعم قلبى أنه سمعها تقول كلامًا لا يجترئ عليه لسانى خوفًا من سطوة الملك، فقال لها الملك: قولى ما شئت آمنة إن لزمت قانون الحكمة، قالت: إنها تقول: أيها العائش إلى أمد قصير، إنى قد علمت منك البطش بى والاعتداء علىّ إذ ظهرت ظاهر بشرتك، فلم أظهر فى وقتى هذا حتى عهدت إلى أخواتى من بعدى فى الأخذ بثأرى منك، إما باستئصالك، وإما بتنغيص لذتك، وتنقيص قوتك، حتى تعد الموت راحة لك.

فقال لها الملك: اكتبى كلامك، فكتبته فى لوح، فجعل يتدبره ساعة، ثم نهض مبادرًا، فأتى هيكلاً من هياكلهم، فنزع عنه تاجه وثياب الملوك، وتزيا بزى النساك، وبلغ ذلك أهله وأهل مملكته، فطلبوه وسألوه بأن يعود إلى ملكه وتدبيره، فامتنع منهم وسألهم إقالته وتمليك غيره، فامتنعوا عليه وهموا بأخذه قهرًا، فاصطلح أهل الهيكل معهم على أن يتركوه يعبد ربه ويستنيب غيره فيما استناب فى مثله من الأمور، ويلى هو غير ذلك من الأمور العظام بنفسه، مع إقامته فى الهيكل، فلبث على هذا الأمر حتى قبضه الله إليه، رحمة الله عليه.

الروضة الخامسة: حكى أبو عبد الله محمد بن أبى محمد ظفر الحجازى، رحمه الله تعالى، أن ملكًا من ملوك الزمان كان كافرًا، عتيًا، متكبرًا، حديث السن، مستحكم العزة، وكان له وزير مؤمن بالله تعالى، قد أدرك بعض حوارى المسيح وهو يكتم إيمانه، ويتحرى وقتًا يمكن فيه دعوة الملك إلى الله تعالى، فركب الملك يومًا، فسمع شيخًا رافعًا صوته لبعض شأنه، فقال للأعوان: خذوه، فلما أخذوا ذلك الشيخ، قال: إن ربى الله، فقال الوزير: تخلوا عنه، فخلى عنه الأعوان، فاشتد غضب الملك على الوزير، ولم يمكنه الإنكار عليه فى ذلك المقام، فسكت ليوهم الناس إنما فعل ذلك الوزير بأمره.

فلما عاد الملك إلى قصره، أحضر الوزير وقال له: ما دعاك إلى مناقضة أمرى بمشهد من عبيدى؟ فقال له الوزير: إن لم يعجل علىَّ الملك أريه وجه نصحى له وشفقتى عليه فيما أتيته، فقال الملك: أرنى ذلك، فإنى لا أعجل عليك، فقال الوزير: أسأل الملك أن يختبىء فى مجلسه هذا خلف حجاب، فيكون بحيث يسمع ويرى ما يكون منى، فقعد الملك كذلك، ثم أن الوزير أحضر قوسًا جيدة، صنعها للملك بعض خدمه، وكتب

الصانع اسمه عليها، فأعطى القوس غلامًا، وقال له: أحضر صانع هذا القوس، فإذا حضر وحادثته فاقرأ انت اسم صاحب القوس جهرًا حتى تعلم أنه قد سمعك، ثم اكسرها وهو ينظر إليك.

فحضر القواس، وفعل الغلام ما أمره به الوزير، فلما كسر القوس، لم يتمالك صانعها أن ضرب الغلام فشجه، فقال الوزير: أتضرب غلامى بحضرتى؟ قال: نعم؛ لأنه كسر القوس التى هى صنعتى وعملى، وهى فى نهاية الجودة والحسن، فلأى شىء كسرها وهو يعلم أنها صنعتى؟ قال الوزير: فلعله ما علم أنها صنعتك؟ قال: بلى إن القوس أخبره أنه صنعتى، قال الوزير: أرأيت قوسًا يخبر؟ قال: نعم، إن اسمى مكتوب عليه وقرأه وأنا أسمع.

ثم أن الوزير صرف الصانع والغلام، ثم قال للملك: قد أوضحت لك نصحى وإشفاقى عليك، وذلك أنك لما أردت البطش بالشيخ، أخبرك أن الله ربه، فخفت عليك من ربه أن يغضب كما غضب هذا القواس لقوسه، فقال له الملك: وهل للشيخ رب غيرى؟ قال له الوزير: ألم ير الملك أن الرجل شيخًا كبيرًا والملك شاب؟ فهل كان قبل أن يولد الملك لا رب له؟ فقال له: إن أبى كان ربه، فقال له الوزير: فما بال الرب هلك والمربوب باق؟ فسكت الملك ساعة، وقال: الآن علمت أن للملك والمملوك ربًا لا يزول، فهل تعرفه؟ فقال الوزير: نعم أعرفه، قال: فصفه ودلنى عليه؟ فشرع الوزير يشرح له صفات الخالق، وأوضح له الدلالة على ذلك، فانشرح صدر الملك للإيمان، فآمن بالله تعالى.

فلما رسخ فى قلبه التوحيد، قال: أما لربنا خدمة فنتقرب بها إليه؟ قال: إنه غنى عن كل شىء، قال: فما أمرنا بشىء إذا فعلناه حظينا به عنده؟ قال: بلى، إن له وظائف أمرنا بها، ورضى لنا فعلها، ووعدنا عليها رضوانه والقرب منه، فسأله عنها، فذكرها له، وهى: الصلاة، والصيام، وغيرها من شرائع المسيح، عليه السلام، فعرفها الملك وراض نفسه بها، حتى صارت له طبعًا، ثم قال يومًا للوزير: ما لك لا تدعو الناس إلى الله تعالى كما دعوتنى؟ فقال: أمة ذات قلوب قاسية، وفهوم قاصية، ونفوس عاصية، ولست آمنهم على نفسى، فقال الملك: أنا أفعله إن لم تفعله أنت، فقال الوزير: ليعلم الملك أنهم إن لم تذدهم هيبته عنى لا آمنهم على نفسى، وسأدعوهم إلى الإله، فإن اجترأوا بالقتل علىَّ، فلا يعفهم الملك.

ثم أن الوزير أحضر وجوه أهل تلك المملكة، وولاة أحكام رعاياه وأفاضلها، فلما اجتمعوا فى منزله، قام فيهم خطيبًا بالدعوة إلى التوحيد، فتواثبوا عليه فقتلوه، ثم أتوا إلى الملك، فأخبروه بما كان من وزيره، فأظهر لهم الرضى بقتله، فانقلبوا عنه راضين، ثم أن الملك ضاق صدره على وزيره، فلما كان الليل لبس مسوح الشعر، والتحق بالركبان، ونبذ ما كان فيه من الملك، ولم يزل يعبد الله تعالى حتى قضى نحبه، رحمة الله عليه وعلى المسلمين أجمعين آمين.

* * *

حكاية الطبقة الثانية

وهى خمس روضات

الروضة الأولى: حكى مالك بن أنس، رضى الله عنه، أن عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه، لما ولى الخلافة، دخل عليه محمد بن كعب، وعنده هشام بن مصاد، وقد وعظه فأبكاه، فقال له محمد: ما أبكاك يا أمير المؤمنين؟ قال: أبكانى هشام حين ذكرنى وقوفى بين يدى ربى، فقال له محمد: يا أمير المؤمنين، إنما الدنيا سوق من الأسواق، منها خرج الناس بما نفعهم، ومنها خرجوا بما ضرهم، فلا تكن من قوم قد غرهم منها مثل الذى أصبحنا فيه، حتى أتاهم الموت فاستوعبهم منها، فخرجوا منها ملومين لم يأخذوا لما أحبوا من الآخرة عدة، ولا لما كرهوا جنة، فاقتسم فيما جمعوا من لا يحمدهم، وصاروا إلى من لا يعذرهم، فانظر يا أمير المؤمنين إلى تلك الأعمال التى تتخوف منها فكف عنها، وانظر إلى الذى تحب أن يكون معك إذا قدمت على ربك فاصنع منه، وابذل حيث يوجد البذل، ولا تذهبن إلى سلعة قد بارت على من كان قبلك ترجو أن تروج معك، فاتق الله تعالى يا أمير المؤمنين، وافتح الباب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، واردع الظالم.

يا أمير المؤمنين، ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان: من إذا رضى لم يدخله رضاه فى الباطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له. قال: فاشتد بكاء عمر بن عبد العزيز وعلا نحيبه، وقال: اللهم أعنى على ما أبليتنى به من أمر عبادك وبلادك، وارزقنى فيهم العمل بطاعتك، واختم لى بخير منك وعافية والمسلمين أجمعين.

الروضة الثانية: حكى أن سليمان بن عبد الملك لما قدم المدينة، أقام بها ثلاثًا، فقال:

ما هاهنا رجل أدرك الصحابة يحدثنا؟ فقيل له: إن هاهنا رجلاً عابدًا من التابعين اسمه أبو حازم، أدرك جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، ونقل عنهم الأحاديث، فبعث إليه، فلما جاءه واستقر به المجلس، قال له سليمان: يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم أخربتم آخرتكم، وعمرتم دنياكم، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب، قال: صدقت يا أبا حازم، فكيف القدوم على الله تعالى؟ فقال: أما المحسن، فكغائب يقدم على أهله، وأما المسئ، فكالعبد الأبق يقدم على مولاه.

قال: فبكى سليمان، وقال: ليت شعرى، ما لنا عند الله يا أبا حازم؟ فقال: اعرض نفسك على كتاب الله تعالى، فإنك تعلم ما لك وما عليك، قال: وأين أصيب ذلك من كتاب الله تعالى؟ قال عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، قال: يا أبا حازم، أين رحمة الله تعالى؟ قال: قريب من المحسنين، قال: فبكى سليمان، ثم أطرق ساعة، ثم رفع رأسه إليه، وقال: يا أبا حازم، من أعقل الناس؟ قال: من تعلم الحكمة وعلمها الناس، قال: من أحمق الناس؟ قال: من دخل فى هوى رجل ظالم، فباع آخرته بدنيا غيره.

قال: فما تقول فيما نحن فيه؟ قال: اعفنى من ذلك، فقال: إنما هى نصيحة بلغتها، فقال: إن ناسًا أخذوا هذا الأمر من غير مشورة من المسلمين، ولا إجماع من رأيهم، فسفكوا الدماء على طلب الدنيا، ثم ارتحلوا عنها، فليت شعرى، ما قالوا وما قيل لهم؟ فقال رجل من جلسائه: بئس ما قلت يا شيخ، قال أبو حازم: كذبت والله يا جليس السوء، إن الله تعالى أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه.

فقال سليمان: يا أبا حازم، كيف لنا على الصلاح؟ قال: تدعو التكلف، ولتمسك بالحقيقة، قال: فكيف طريق الأخذ لذلك؟ قال: تأخذ المال من حله، وتضعه فى أهله، قال: ومن يقدر على ذلك؟ قال: من قلده الله تعالى من الأرض ما قلدك، قال: أفترى يا أبا حازم أن تصيب منا ونصيب منك؟ قال: أعوذ بالله من ذلك، قال: ولم؟ قال: أخاف أن أركن إليكم شيئًا قليلاً، فيذيقنى ضعف الحياة، وضعف الممات، قال: يا أبا حازم، فدلنى على ما أصنع؟ قال: اتق الله تعالى أن يراك حيث نهاك، ويفقدك حيث أمرك، قال: ادع لنا يا أبا حازم؟ قال: اللهم إن كان سليمان وليك، فيسره لخير الدنيا والآخرة، وإن كان عدوك، فخذ بناصيته إلى فعل الخير، وأصلحه فى الدنيا والآخرة.

فقال سليمان: يا غلام، اعط أبا حازم مائة دينار ليقضى بها دينه، فقال: لا حاجة لى

بها، إنى أخاف أن تكون عوضًا من كلامى، فيكون أكل الميتة أحب إلىَّ من أخذها، ثم نهض فخرج من عنده، فلما كان من الغد بعث إليه فأحضره، فلما أن دخل عليه، قال: يا أبا حازم، أعظنا عظة ننتفع بها؟ فقال: إن هذا الأمر لم يحصل إليك إلا بموت من كان قبلك، وهو خارج عن يدك مثل ما صار إليك.

فبكى سليمان وكاد يسقط عن جنبه، فلما أفاق قال سليمان: ارفع إلىَّ حوائجك يا أبا حازم، قال: هيهات، إنى قد رفعتها إلى من لا تحجب دونه الحوائج، فما أعطانى منها قنعت، وما منعنى منها رضيت، وذلك إنى نظرت إلى هذا الحال وهذا الأمر، فإذا هو على قسمين، أحدهما لى، والآخر لغيرى، أما ما كان لى، فلو احتلت فيه بكل حيلة ما وصلت إليه قبل أوانه الذى قدر لى فيه، وأما الذى لغيرى، فذاك لا طمع لى فيه، وكما منع غيرى من رزقى، كذلك منعت أنا من رزق غيرى، وانصرف فما برح سليمان بعد ذلك مستضعفًا حتى مات.

الروضة الثالثة: حكى أبو القاسم عبد العزيز بن حسن بإسناده، أن أمير المؤمنين المنصور بعث إلى الأوزاعى وهو بالساحل، فأحضر عنده، فلما استقر به المجلس، قال له المنصور: ما الذى أبطأ بك عنا يا أوزاعى؟ قال: وما الذى تريد منى يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد الأخذ عنك والاقتباس منك، قال: يا أمير المؤمنين، إنك لا تجهل شيئًا مما أقول لك، قال: وكيف لا أجهله وأنا أسأل عنه؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنك تسمعه ولا تعمل به.

قال: فصاح به الربيع، وأهوى بيده إلى السيف، فانتهره المنصور، وقال: هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة، قال: فصاح الأوزاعى، رحمه الله تعالى: يا أمير المؤمنين، حدثنا مكحول بن عطية، قال: قال رسول الله ﷺ: «أى عبد جاءته موعظة من الله فى دينه، فإنها نعمة من الله تعالى سيقت إليه، فإن قبلها شكره، وإلا كانت حجة من الله عليه ليزداد بها إثمًا، ويزاد بها عليه سخطًا»[(١)]، وقد بلغنى أن رسول الله ﷺ قال: «أيُّما وال بات غاشًا لرعيته، حرم الله عليه الجنة»[(٢)].

---

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٢٩/٦) ح (٧٤١٠)، وعزاه إبراهيم الحسينى لابن عساكر فى التاريخ، عن عطية بن قيس أخى عبد الله المازنى سامى. انظر: البيان والتعريف (٣١٩/١) برقم (٨٦٠).

(٢) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٣٠/٦) ح (٧٤١١). وبلفظ: «أيما إمام بات غاشًّا»، أخرجه الرويانى فى مسنده (٩٣/٢) ح (٨٨٣).

يا أمير المؤمنين، من كره الحق فقد كره الله تعالى؛ لأن الله هو الحق المبين، يا أمير المؤمنين، إن الذى لين لك قلوب الأمة حتى ولاك أمورهم لقرابتك من نبيه ﷺ، فحقيق أن تقوم له فيهم بالحق، وأن تقوم فيهم بالقسط قائمًا، ولعوراتهم ساترًا، فلا تغلق عليهم وعليك الباب، ولا تقم عليك دونهم الحجاب، وابتهج بالنعمة عندهم، وتأذى لما أصابهم من مكروه، يا أمير المؤمنين، لقد كنت فى شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبح أحمرهم وأسودهم ومسلمهم وكافرهم وكل له عليك نصيب من العدل، فكيف إذا بعثك الله يوم القيامة وليس منهم أحد إلا وهو يشكوك إلى ربه من بلية أدخلتها عليه، أو ظلومة سقتها إليه؟.

يا أمير المؤمنين، حدثنى مكحول، قال: كانت بيد رسول الله ﷺ جريدة يستاك بها، ويروع بها المنافقين، فأتاه جبريل، عليه السلام، فقال: يا محمد، ما هذه الجريدة التى كسرت بها قلوب أمتك، وملأت نفوسهم بها رعبًا؟ فكيف بمن شق أستارهم، وسفك دماءهم، وخرب ديارهم، وأخذ أموالهم، وأخلاهم عن بلادهم، وأذاقهم الخوف؟ يا أمير المؤمنين، حدثنى مكحول، عن ابن زياد بن حارثة، عن حبيب بن سلمة، أن رسول الله ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه فى خدش خدشه أعرابيًا لم يتعمده، إذ أتاه جبريل، عليه السلام، فقال يا محمد، إن الله تعالى لم يبعثك جبارًا ولا متكبرًا، فدعا رسول الله ﷺ الأعرابى، فقال: «اقتص منى»، فقال الأعرابى: قد أحللتك يا رسول الله بأبى أنت وأمى، وما كنت لأفعل ذلك أبدًا، فدعا له رسول الله ﷺ بالخير[1].

يا أمير المؤمنين، رض نفسك بنفسك، وخذ لها الآمال من ربك، وارغب فى جنة عرضها السموات والأرض، التى يقول فيها رسول الله ﷺ: «لقيد قوس أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها»، يا أمير المؤمنين، إن الملك لو بقى لمن كان قبلك لم يصل إليك، وكذا لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك، يا أمير المؤمنين، إن الملك لو بقى لأحد ما بقى لأحد.

يا أمير المؤمنين، أتدرى ما جاء عن جدك عبد الله بن العباس، رضى الله عنهما، فى تاويل آية: ﴿**يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ [ص: ٢٦]؟ قال: يا داود، إذا قعد الخصمان بين

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣٩٧/٤) ح (٧٩٤٣)، وقال: تفرد به أحمد بن عبيد، عن محمد ابن مصعب، ومحمد بن مصعب ثقة. والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٠/٦) ح (٧٤١٣).

يديك، وكان فى أحدهما هوى، فلا تميز نفسك أن يكون الحق له، فيفلح على صاحبه، فأمحك من نبوتى، يا داود، إنما جعلت رسلى إلى عبادى رعاة كرعاة الإبل الذى يجبرون الكسير، ويدلون الهزيل على الكلأ والماء.

يا أمير المؤمنين، إنك قد بليت بأمر لو عرض على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنه وأشفقن منه، وقد حدثنى يزيد بن جبار، عن عبد الرحمن بن عمرة الأنصارى، أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، استعمل رجلاً من الأنصار على الصدقة، فرآه فى بعض أيام مقيمًا، فقال: ما منعك من الخروج إلى عملك؟ أما علمت أن لك فيه مثل أجر المجاهدين فى سبيل الله؟ قال: لا، قال: كيف ذلك؟ قال: لأنه بلغنى أن رسول الله ﷺ قال: «ما من والٍ يلى شيئًا من أمور المسلمين، إلا أتى يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه، فيوقف على جسر من نار، فينتفض به الجسر انتفاضًا يزيل به كل عضو منه من موضعه، ثم يعاد فيحاسب، فإذا كان محسنًا نجا بإحسانه، وإن كان مسيئًا تخرق به ذلك الجسر فهوى فى النار سبعين خريفًا»[1]، فقال له عمر: ممن سمعت هذا؟ قال: من أبى ذر وسليمان، فأرسل إليهما عمر، رضى الله عنه، وسألهما عن ذلك؟ فقالا: نعم، سمعناه من رسول الله ﷺ، فبكا عمر، رضى الله عنه، وقال: واعمراه، من يتولاها بما فيها؟ فقال أبو ذر: من جدع الله أنفه، وألصق خده بالأرض.

قال: فبكى المنصور، وأخذ المنديل فوضعه على وجهه، وجعل ينتحب فى بكائه حتى أبكى الحاضرين، فأمسك الأوزاعى ساعة، ثم قال: يا أمير المؤمنين، إن جدك العباس سأل رسول الله ﷺ إمارة على مكة والطائف واليمن، فقال رسول الله ﷺ: «يا عم النبى، نفس تحييها خير لك من إمارة لا تحصيها»، وهذه النصيحة منه نعمه وشفقة عليه، يا أمير المؤمنين، بلغنى أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: بلغنى أن الأمراء أربعة: أمير ظلم نفسه وعماله، فذاك كالمجاهد فى سبيل الله تعالى، يد الله باسطة عليه بالرحمة، وأمير فيه ضعف، ظلم نفسه، وأرتع عماله لضعفه، فهو على شفا هلاك إلى أن يرحمه الله تعالى، وأمير كلف عماله، وأرتع نفسه، فأهلك نفسه،

---

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٣٢/٦) ح (٧٤١٦)، وهذا النص عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم، ورد ضمن خطبة خطبها، صلى الله عليه وآله وسلم، قبل وفاته. أخرجه الحارث فى مسنده (٣٠٩/١ - ٣١٦) ح (٢٠٥). زوائد الحافظ الهيثمى.

فلذلك هو الحطمة الذى قال رسول الله ﷺ: «شر الرعاة الحطمة»[١] الهالك وحده، وأمير أرتع نفسه وعماله، فهلكوا جميعًا[٢].

يا أمير المؤمنين، بلغنى أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: اللهم إنك تعلم إنى أبالى إذا قعد الخصمان بين يدى بمن مال الحق معه من قريب أو بعيد، فلا تمهلنى طرفة عين. يا أمير المؤمنين، إن أشد الشدة القيام لله بحقه، وإن أكرم الكرم عند الله التقوى، وإن من طلب العزة بطاعة الله رفعه الله وأعزه، ومن طلبها بمعصية الله وضعه الله تعالى وأذله، وهذه نصيحتى إليك، والسلام عليك ورحمة الله.

قال: فلما سكن عن منصور البكاء رفع رأسه، وقال: يا أوزاعى، قد قلت وأنت غير متهم فى نصحك، وقد سمعناه منك وصادف قبولاً إن شاء الله تعالى، والله الموفق للخير والمعين عليه، يا ربيع، ادفع إلى الأوزاعى ما يستعين به على زمانه، قال: يا أمير المؤمنين، إنى غنى عن ذلك، وما كنت لأبيع نصيحتى بشىء من عرض الدنيا، ثم إنه ودع المنصور وانصرف إلى حال سبيله.

الروضة الرابعة: حكى ابن عبد ربه، قال: قدم أمير المؤمنين المنصور مكة حاجًا، فنزل فى دار الندوة، وكان يخرج فى آخر الليل إلى الطواف، فيطوف ويصلى، ولا يعلم به أحد من الناس، فإذا طلع الفجر رجع إلى دار الندوة، وجاء المؤذنون فسلموا عليه، ثم تقام الصلاة فيصلى بالناس، قال: فخرج ذات ليلة حين أسحر، فبينما هو يطوف، إذ سمع رجلاً عند الكعبة وهو يقول: اللهم إنى أشكو إليك ظهور البغى والفساد، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع.

قال: فأسرع المنصور فى مشيه، حتى ملأ مسامعه من قوله، فرجع فجلس ناحية من المسجد، وأرسل إليه فدعاه، فلما حضر قال له المنصور: ما هذا الذى سمعتك تقول من

(١) قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «شر الرعاة الحطمة»، أخرجه ابن أبى عاصم فى الآحاد والمثانى (٣٢٥/٢، ٣٢٦) ح (١٠٩٢)، وبلفظ: «شر الرعاء الحطمة»، أخرجه مسلم (١٤٦١/٣) ح (١٨٣٠)، وبلفظ: «شر الأئمة الحطمة»، أخرجه القضاعى فى مسند الشهاب (٢٢/٢) ح (٨٠٦)، وبلفظ: «شر الولاة الحطمة»، عزاه الحافظ الهيثمى للبراز، وقال: فيه عبد الكريم بن أبى أمية، وهو ضعيف. انظر: مجمع الزوائد (٢٣٦/٥).

(٢) والقول هكذا بنصه، وفيه زيادة من قول الخليفة على، عليه السلام، ذكره البيهقى فى شعب الإيمان (٣٣/٦) ح (٧٤١٨).

ظهور البغى والفساد فى الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الظلامة والطمع، فقال الرجل: إن أمنتنى على نفسى أنبأتك بالأمور؟ قال له المنصور: أنت آمن على نفسك، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى استرعاك أموال خلقه، فجعلت بينك وبينهم حجابًا من الجص والآجر، وأبوابًا من الحديد، وحجبة مع السلاح، ثم سجنت نفسك فيها، وبعثت عمالك فى جمع أموالهم، واتخذت وزراء ظلمة، وأعوانًا غشمة، إن نسيت لم يذكروك، وإن أحسنت لم يعينوك، ثم قويتهم على ظلم الناس بالأموال والكراع والسلاح، وأمرت أن لا يدخل إلا فلان وفلان، نفر سميتهم، ولم تأمر بإدخال المظلوم، ولا الملهوف، ولا الجائع، ولا العارى، ولا الضعيف.

فلما رآك هؤلاء النفر قد استخدمتهم لنفسك، وآثرتهم على رعيتك، قالوا: هذا خان الله تعالى، فما لنا لا نخونه وقد خان الله تعالى، فأضمروا على أن لا يوصلوا إليك من أخبار رعيتك إلا ما أرادوا، ومتى أخرجت عاملاً فخالفهم فى أمر أقصوه وأبعدوه، وبلغوك عنه المكروه حتى يسقط من عينك، فلما اشتهر ذلك عنهم، أعظمهم الناس وهابوهم، وكان أول من صانعهم بالهدايا والأموال عمالك القائمين على البلاد ليتفقوا على ظلم الرعية، ثم فعل ذلك أهل القدرة والثروة من رعيتك؛ لينالوا ظلم من هم دونهم من الرعية، فامتلأت بلاد الله بالطبع بغيًا وفسادًا من هؤلاء القوم شركائك فى سلطانك وأنت غافل، فإن جاء متكلم حيل بينه وبين الدخول عليك، وإن أراد رفع قصة إليك عند ظهورك لم يأخذها أحد، وإن أخذها لم يوصلها إليك، وإذا استغاث بك مظلوم بأعلى صوته ضربوه ضربًا شديدًا، فما بقى من الإسلام بعد ذلك؟.

وقد كانت بنو أمية لا ينتهى إليهم المظلوم إلا رفعت ظلامته، وكان الرجل يأتى من أقصى البلاد حتى يبلغ سلطانهم، فينادى بأعلى صوته: يا أهل الإسلام، فيبتدرون إليه، ويقولون: ما لك؟ فيرفعون ظلامته إلى سلطانهم، فينصف بينه وبين ظالمه، ولقد رأيتم ما تركوا بعدهم من الأموال ولم تنفعهم، ولقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى بلاد الصين وبها ملك قد ذهب سمعه، فجعل يبكى، فقال له وزراؤه: لا بكت عيناك أيها الملك، ممّ بكاؤك؟ فقال: لست أبكى لنزول البلية بى، وإنما أبكى لأن المظلوم يقف بالباب يصرخ فلا أسمعه، ثم قال: لئن ذهب سمعى فما ذهب بصرى، نادوا فى الناس: لا يلبس ثوبًا أحمر إلا المظلوم، وكان يركب كل يوم فيله ويخرج، لعله يرى مظلومًا فينصفه.

هذا يا أمير المؤمنين وهو مشرك بالله تعالى، وغلبت عليه الرأفة على المشركين، وأنت مؤمن بالله تعالى، وابن عم نبيه، لا تغلبنك رأفتك على المسلمين، فما تقول إذا نزع الله منك ملك الدنيا، ودعاك إلى الحساب غدًا؟ هل ينفعك الندم إذا زلت بك القدم؟ قال: فبكى المنصور وأعلن النحيب، ثم قال: يا ليتنى لم أخلق، وقال: كيف احتيالى ولم أر من الناس إلا جانبًا، ثم قال الرجل: يا أمير المؤمنين، عليك بالأئمة المرشدين، قال: ومن هم؟ قال: العلماء، قال: فقد فروا عنى وهربوا منى، قال: إنما فروا عنك وهربوا منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر منك من قبل عمالك، ولكن افتح الباب، وسهل الجواب، وانصر المظلوم، وخذ المال من حله، وقسمه فى أهله، وأنا ضامن لك أن من هرب منك يعود إليك، ويعاونك على صلاح أمرك، فقال المنصور: اللهم وفقنى أن أعمل بما قال هذا الرجل.

ثم جاء المؤذنون، فسلموا عليه، وأقيمت الصلاة، فجعل يصلى بالناس، وقال للحرسى: عليك بحفظ هذا الرجل حتى أفرغ من الصلاة، قال: فلما فرغت الصلاة التفت إلى الحرسى يطلب الرجل فى موضعه، فلم يره، فأمر المنصور به، فلم يره، فاشتد غضبه على الحرسى، وقال: لئن لم تأتينى به لأضربن عنقك، فخرج الحرسى يطوف عليه، وإذا به فى بعض الشعاب قائم يصلى الضحى، فقال: أجب أمير المؤمنين، فقال: ليس لي إلى ذلك سبيل، فقال: إنه عزم ليضربن عنقى إن لم آته بك؟ قال: إنه لن يقدر على ذلك، ثم أخرج من جيبه رقعة مكتوبة، وقال: اجعل هذه فى جيبك، فإن فيها دعاء الفرج، فإنه إذا رآك ذهب غيظه، وخشع قلبه، وأوصل إليك ما يسرك.

فقال له الحرسى: يرحمك الله، فما دعاء الفرج؟ قال: من دعا به صباحًا ومساء ذهبت ذنوبه، ودام سروره، وبسط الله له فى رزقه، وأعانه على عدوه، وكان آمنًا من ظلم الجبارين، ولا يموت إلا شهيدًا، قال الحرسى: وكأنه كان بعض ملح وذاب، فلم أر له أثرًا، فرجع الحرسى إلى المنصور، فلما دخل عليه نظر إليه وتبسم، وقال: ويحك أتحسن السحر؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين، ولكنى وجدته، وكان من حديثه كذا وكذا، فقال: ادفع إلىَّ الرقعة، فدفعها إليه، فنظر فيها وجعل يبكى، ثم أمر بنسخها، وأمر للحرسى بعشرة آلاف درهم.

وقال: أتعرفون من كان الرجل؟ قال الحاضرون: لا يا أمير المؤمنين، قال: ذلك هو الخضر، عليه السلام، ثم دفع الرقعة إلى من قرأها على الحاضرين، فكان فيها مكتوب:

اللهم كما لطفت بقدرتك دون اللطفاء، وعلوت بعظمتك على العظماء، وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك، وكانت الوساوس كالعلانية عندك، وعلانية القول كالسر فى علمك، وانقاد كل شىء لعظمتك، وخضع كل ذى سلطان لسلطانك، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك، اجعل لى من كل أمر أمسيت فيه فرجًا ومخرجًا، اللهم إن عفوك عن ذنوبى، وتجاوزك عن خطيئتى، وسترك عن قبيح عملى، أطمعنى أن أسألك ما لا أستوجبه مما قصرت فيه، أدعوك آمنًا، وأسألك مستأنسًا وأنت المحسن إلىّ، وأنا المسئ إلى نفسى فيما بينى وبينك، تتودد إلىّ بالنعم، وأتبغض إليك بالمعاصى، ولكن الثقة بك حملتنى على الجرأة عليك، فعد بفضلك وإحسانك علىّ يا أرحم الراحمين. قال: فلما رجع المنصور إلى بغداد، استبدل عماله وحجابه، ثم إنه فتح الباب، وسهل الجواب، ولم يزل عاملاً بقوله حتى مات.

الروضة الخامسة: ما حكاه الفضل بن الربيع، قال: لما حج الرشيد حججت معه، فبينما أنا نائم ذات ليلة، إذ سمعت قرع الباب، فخرجت فوجدته الرشيد، فقلت: يا أمير المؤمنين، لو أرسلت إلىّ أتيتك، فقال: ويحك إنه قد حاك فى صدرى شىء، فانظر لى رجلاً أسأله؟ فقلت: إن هاهنا سفيان بن عيينة، فقال: امض بنا إليه، فأتيناه فقرعنا عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: لو أرسلت إلىّ أتيتك، فقلت: خذ لما جئناك به يرحمك الله، فحادثه ساعة، ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: يا أبا العباس، اقض دينه، ثم انصرفنا من عنده.

فقال: ما أغنانى صاحبك شيئًا، فانظر لى رجلاً أسأله؟ فقلت له: الفضيل بن عياض، فقال: امض بنا إليه، فأتيناه فسمعناه يقرأ آية فى كتاب الله تعالى وهو يرددها، فقرعت عليه الباب، فأوجز فى صلاته، وقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: ما لى ولأمير المؤمنين؟ قلت: سبحان الله، أما عليك طاعته، فنزل وفتح الباب، ثم ارتقى إلى الغرفة، فأطفأ السراج، ثم التجأ إلى زاوية وأخفى نفسه، فجعلنا نجول عليه بأيدينا، فسبقت كف الرشيد إليه، فقال: كف ما ألينه إن نجا من عذاب الله تعالى.

فقال الرشيد: خذ بما جئناك له يرحمك الله؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن عمر بن عبد العزيز، رحمه الله، لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله بن عمر، ومحمد بن كعب القرظى، ورجاء بن حيان، وقال: إنى قد ابتليت بهذا البلاء، فأشيروا علىّ ما أصنع؟ فعد الخلافة بلاء، وأنت وأصحابك تعدونها نعمة، فقال له سالم بن عبد الله: إن أردت

النجاة غدًا من عذاب الله تعالى، فليكن كبير المسلمين لك أبًا، وأوسطهم عندك أخًا، وصغيرهم ولدًا، فوقر أباك، وتحنن على أخيك، وارفق على ولدك.

وقال له رجاء بن حيان: إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله تعالى، فأحب للمسلمين ما تحبه لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مت متى شئت، فهل عندك يا أمير المؤمنين من مثل هؤلاء القوم من يأمرك بمثل هذا الأمر؟ وإنى لأقول لك هذا، وأخاف عليك أشد الخوف يوم يزل القدم، قال: فبكى هارون الرشيد بكاء شديدًا، حتى غشى عليه، فقلت له: يرحمك الله، أرفق بأمير المؤمنين؟ فقال: قتلته أنت وأصحابك، وأرفق أنا به؟ فلما أفاق، قال: زدنى؟ قال: يا أمير المؤمنين، بلغنى أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه، شكى إليه، فكتب له عمر: يا أخى، اذكر سهر أهل النار فى النار، وخلود الأبدان، فإن ذلك يصرفك إلى ربك نائمًا ويقظانًا، وإياك أن تزل بك قدمك عن هذا السبيل، فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك، فلما قرأ كتابه، طوى البلاد حتى قدم عليه، فقال له: ما أقدمك علىَّ؟ قال: خلعت قلبى، فوالله ما وليت لك ولاية قط حتى ألقى الله تعالى.

فبكى هارون، ثم قال: زدنى رحمك الله، قال: يا أمير المؤمنين، إن العباس عم النبى ﷺ جاء إليه، وقال: يا رسول الله، أمرنى إمارة، فقال له رسول الله ﷺ: «يا عباس، يا عم النبى، إن نفسًا تحييها خير لك من إمارة لا تحصيها، إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميرًا فافعل»، قال: فبكى هارون، وقال: زدنى يرحمك الله؟ قال: يا حسن الوجه، أنت الذى يسألك الله تعالى عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقى وجهك من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسى وفى قلبك غش لرعيتك، فقد قال رسول الله ﷺ: «من أصبح غاشًا لرعيته، لم يرح رائحة الجنة»[1].

قال: فاشتد بكاء هارون، فأمسك عنه الفضيل، فلما أفاق قال: هل عليك دين؟ قال الفضيل: نعم علىّ دين لربى لم يحاسبنى عليه، فالويل لى إن حاسبنى، والويل لى إن لم يلهمنى حجتى، فقال الرشيد: إنما أردت دين العباد، قال: لا، فإن ربى لم يأمرنى

---

(١) أخرجه البخارى (٦٧٣٢)، ومسلم (١٢٥/١) ح (١٤٢)، والرويانى فى مسنده (٩٣/٢) ح (٨٨٣)، وابن الجعد فى مسنده (٤٥٨/١) ح (٣١٤٠)، والقضاعى فى مسند الشهاب (٢٢/٢) ح (٨٠٥)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٠/٦) ح (٧٤١١)، والطبرانى فى الكبير (٢٠٧/٢٠) ح (٤٧٤).

بذلك، بل أمرنى أن أصدق وعده، وأطيع أمره، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

فقال هارون: هذه ألف دينار خذها وأنفقها على عيالك، وتقو بها على عبادة ربك، فهى من وجه الحل، فقال: سبحان الله، أنا أدلك على النجاة وأنت تدعونى إلى النار، ثم سكت فلم يكلمنا، فخرجنا من عنده، فلما صرنا على الباب، سمعنا امرأة من نسائه تقول: يا هذا، قد ترى ما نحن فيه من الضائقة وسوء الحال، فلو قبلت منه هذا المال لتقوينا به على زماننا؟ فقال لها: إنما مثلى ومثلكم كقوم لهم بعير يأكلون من كسبه، فلما كبر وعجز عن الكسب، نحروه وأكلوا لحمه.

قال: فلما سمع الرشيد، قال: يا فضل، ادخل بنا إليه فلعله يقبل منا هذا المال، فلما دخلنا عليه وأحس بنا، خرج فجلس على السطح على التراب، فجلس الرشيد إلى جانبه وجعل يكلمه، فلم يجبه، فخرجت جارية وقالت: يا هذا، قد أذيت الشيخ منذ الليلة، فانصرف عنه يرحمك الله، قال: فلما خرجنا من عنده قال لى الرشيد: إذا دللتنى فدلنى على مثل هذا الرجل، هذا يوم وليلة من أشرق الأيام والليالى، رحمة الله عليهم أجمعين.

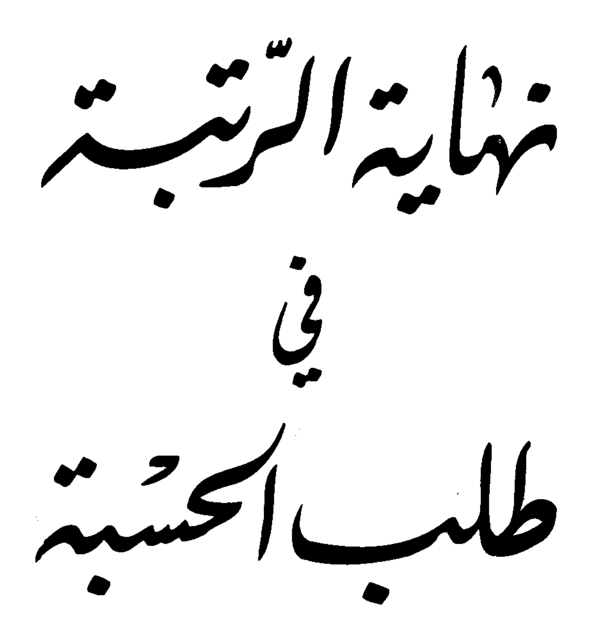
* * *

وأما الطبقة الثالثة

من الملوك، فهم الأكثرون، قلوبهم قسية، وأنفسهم عصية، يورثون ويؤثرون اللذات على الأمور الدينيات، وفى المشاهدة منهم بالأبصار كفاية عن الأخبار، وقد انتهينا فى كتابنا هذا إلى ما حاولناه، وأوردنا فيه ما أردناه، وأتينا بما ضمناه بعد ما أوضحنا، وذلك وسع الطاقة وجهد المقل، وعلى الله أتوكل، وبه أستعين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين، وكان الفراغ من نسخ هذا الكتاب الجليل يوم السبت المبارك ثانى شهر شعبان المعظم قدره من شهور سنة ١٠٧٤ من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

* * *

المحتويات



نهاية الرّتبة في طلب الحسبة

للشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر الشيزري
المتوفى سنة ٥٩٠ هـ

تحقيق
محمد حسن محمد حسن إسماعيل   أحمد فريد المزيدي





المقدمة

أما ترجمة المصنف، فتقدمت فى كتاب النهج المسلوك، ولقد اعتمدنا فى تحقيق هذا الكتاب «نهاية الرتبة»، بالإضافة للمطبوعة على:

١- نسخة دار الكتب المصرية تحت رقم (٦١٢/٢٨٣٦١/ اجتماع طلعت).

٢- نسخة دار الكتب المصرية برقم (٢٠/ صناعات).

* * *

صور النسخ الخطية

الورقة الأولى من نسخة دار الكتب المصرية [٢٨٣٦١/٦١٢/ اجتماع طلعت]



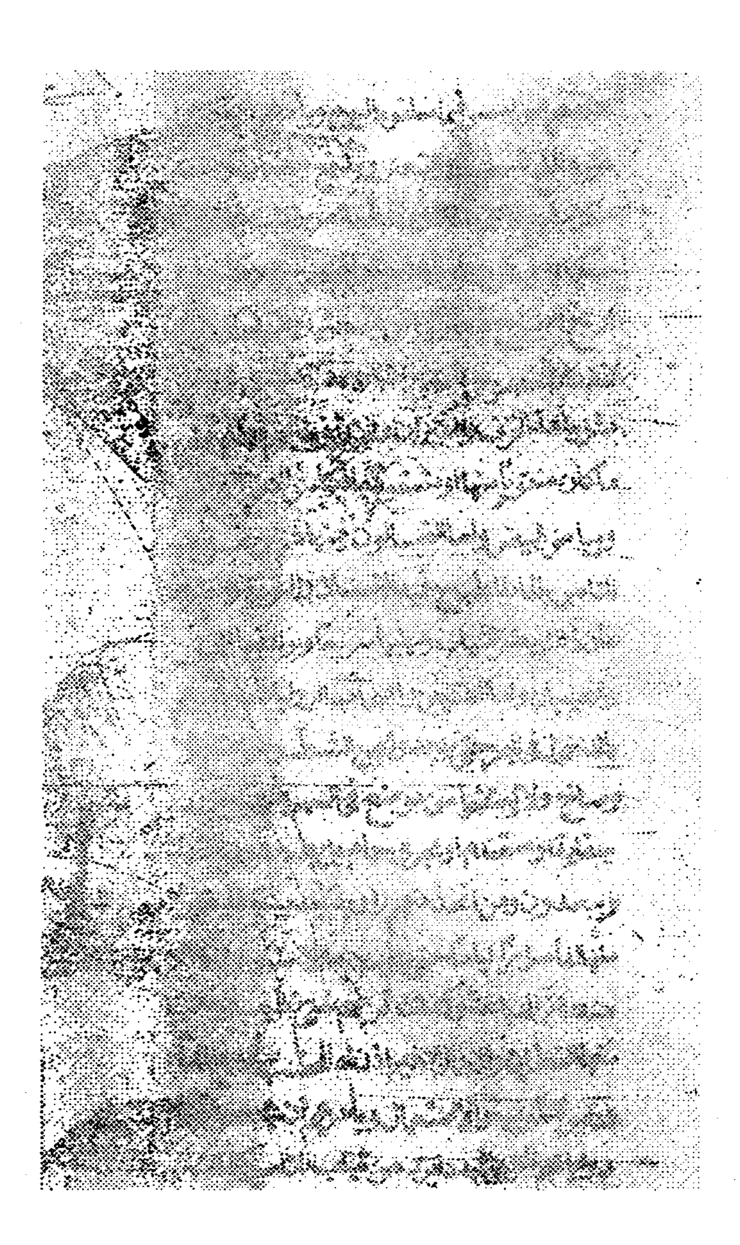
الباب الثاني في النظر في الأسواق والطرق

الباب الثامن في الحسبة على صناع الزلابية

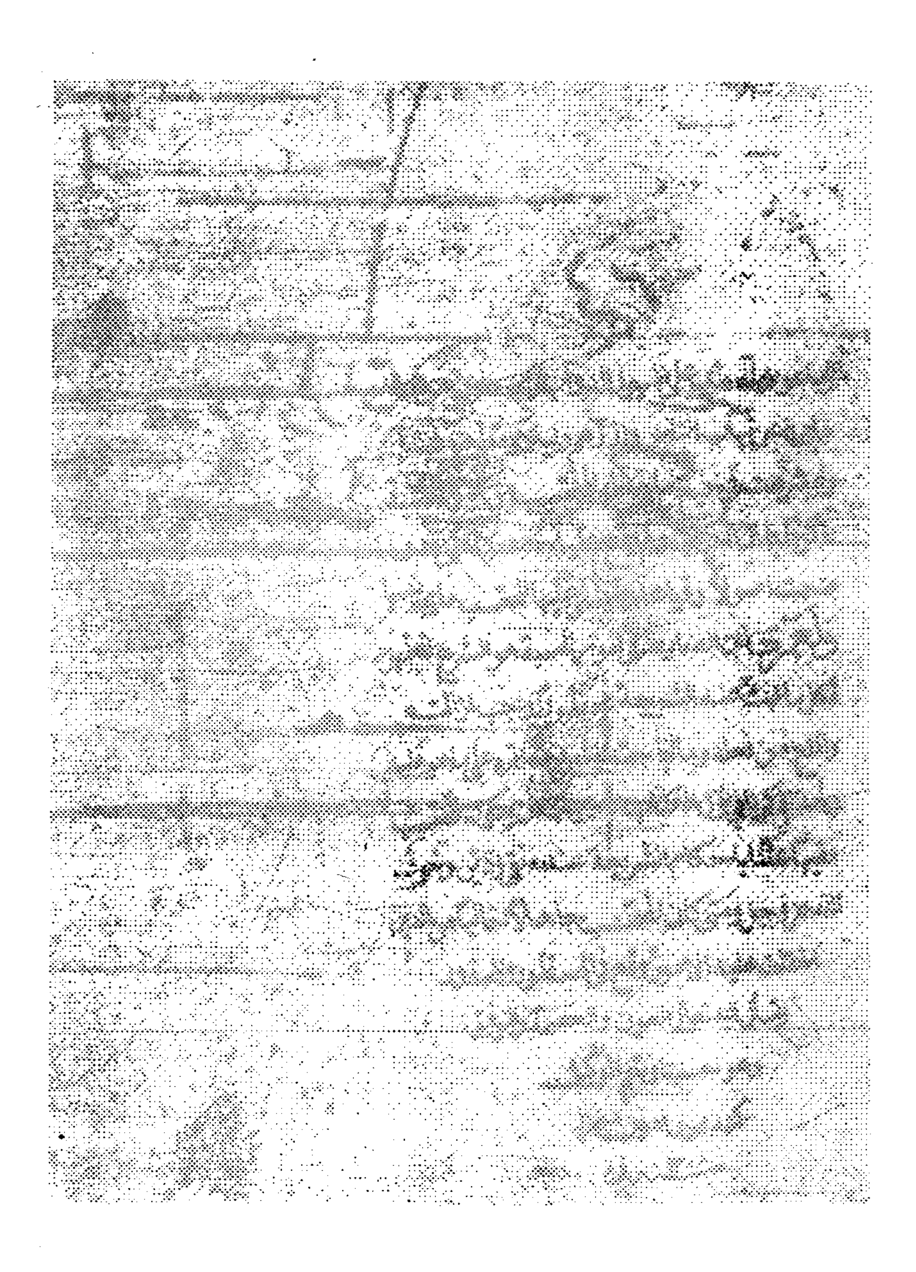
الباب العاشر في الحسبة على الشوايين

الباب الحادي عشر في الحسبة على الرواسين

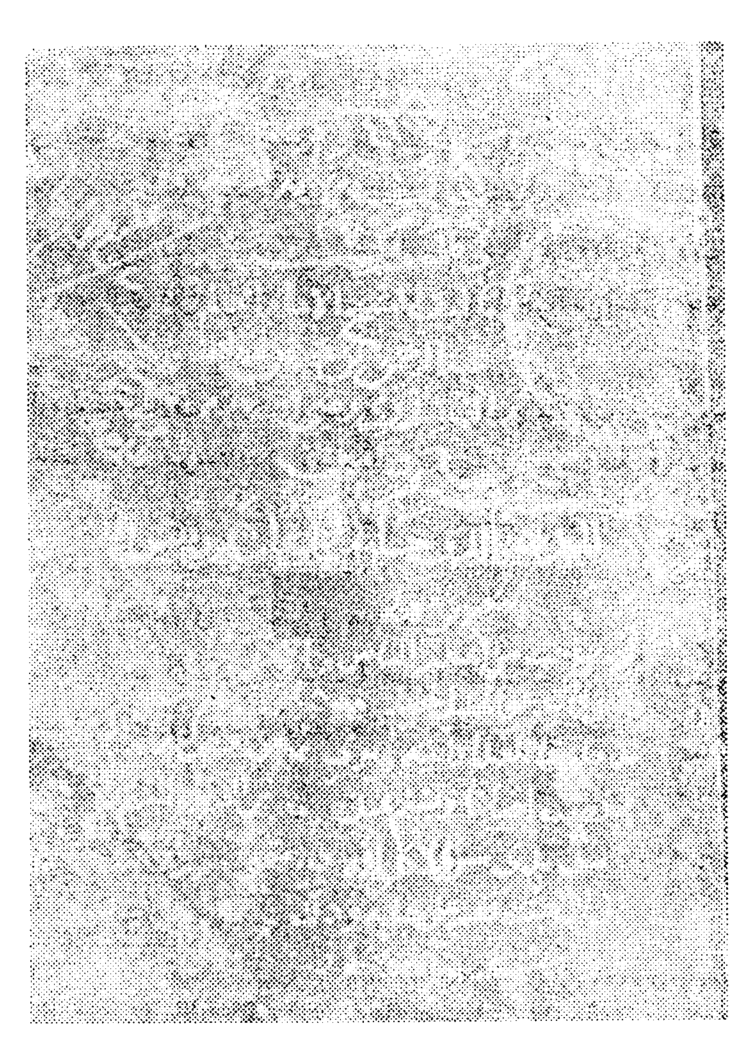
الورقة الثانية من نسخة دار الكتب المصرية [٢٨٣٦١/٦١٢/ اجتماع طلعت]



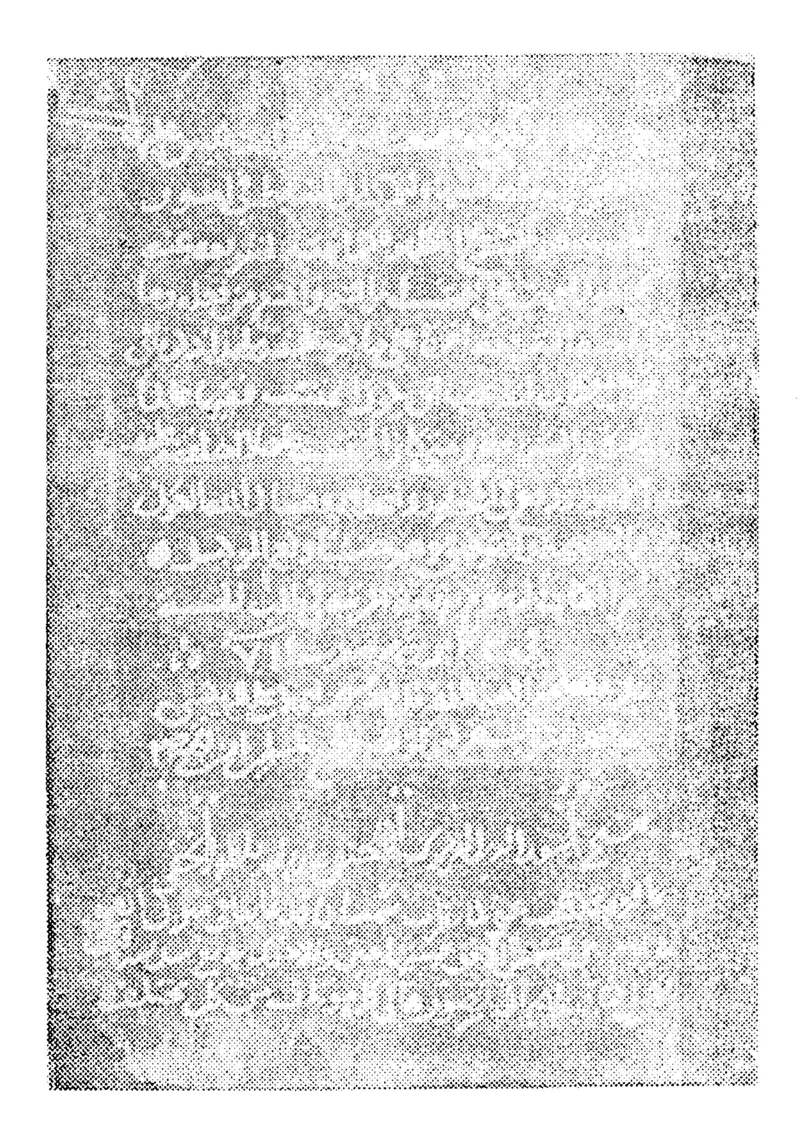
الورقة قبل الأخيرة من نسخة دار الكتب المصرية [٢٨٣٦١/٦١٢/
اجتماع طلعت]



الورقة الأخيرة من نسخة دار الكتب المصرية [٢٨٣٦١/٦١٢/ اجتماع طلعت]



طرة نسخة أخرى لدار الكتب المصرية برقم [٢٠/ صناعات]



آخر نسخة دار الكتب المصرية برقم [٢٠/ صناعات]



وبه ثقتي

قال الشيخ الإمام الأوحد العالم عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله: أحمد الله على ما أنعم، وأستعينه فيما ألزم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له العلى الأعظم، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، النبى الأكرم، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم، وبعد:

فقد سألنى من استند لمنصب الحسبة، وقُلّد النظر فى مصالح الرعية، وكشف أحوال السوقة، وأمور المتعيشين، أن أجمع له مختصرًا كافيًا، فى سلوك منهج الحسبة على الوجه المشروع؛ ليكون عمادًا لسياسته، وقوامًا لرياسته، فأجبته إلى ملتمسه، ذاهبًا إلى الوجازة، لا إلى الإطالة، وضمَّنته طرفًا من الأخبار، وطرَّزته بحكايات وآثار، ونبهت فيه على غشّ المتعيشين فى المبيعات، وتدليس أرباب الصناعات، وكشف سرّهم المدفون، وهتك سترهم المصون، راجيًا بذلك ثواب المنعم ليوم الحساب.

واقتصرت فيه على ذكر الحرف المشهورة دون غيرها؛ لمسيس الحاجة إليها، وجعلته أربعين بابًا، يحتذى المحتسب على مثالها، وينسج على منوالها، وسميته: «نهاية الرتبة فى طلب الحسبة»، وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب.

* * *

ترجمة الأبواب

الباب الحادى والعشرون: فى الحسبة على البزازين.

الباب الثانى والعشرون: فى الحسبة على المنادين والدلالين.

الباب الثالث والعشرون: فى الحسبة على الحاكة.

الباب الرابع والعشرون: فى الحسبة على الخياطين.

الباب الخامس والعشرون: فى الحسبة على القطانين.

الباب السادس والعشرون: فى الحسبة على الكتّانيين.

الباب السابع والعشرون: فى الحسبة على الحريريين.

الباب الثامن والعشرون: فى الحسبة على الصباغين.

الباب التاسع والعشرون: فى الحسبة على الأساكفة.

الباب الثلاثون: فى الحسبة على الصيارف.

الباب الواحد والثلاثون: فى الحسبة على الصاغة.

الباب الثانى والثلاثون: فى الحسبة على النحاسين والحدَّادين.

الباب الثالث والثلاثون: فى الحسبة على البياطرة.

الباب الرابع والثلاثون: فى الحسبة على نخاسى العبيد والدواب.

الباب الخامس والثلاثون: فى الحسبة على الحمامات وقوّامها وذكر منافعها ومضارّها.

الباب السادس والثلاثون: فى الحسبة على الفصَّادين والحجامين.

الباب السابع والثلاثون: فى الحسبة على الأطباء والكحالين والمجبرين والجرائحيين.

الباب الثامن والثلاثون: فى الحسبة على مؤدبى الصبيان.

الباب التاسع والثلاثون: فى الحسبة على أهل الذمّة.

الباب الأربعون: يشتمل على جمل وتفاصيل فى أمور الحسبة.

* * *

الباب الأول

فيما يجب على المحتسب من شروط الحسبة ولزوم مستحبّاتها

لما كانت الحسبة أمرًا بمعروف، ونهيًا عن منكر، وإصلاحًا بين الناس، وجب أن يكون المحتسب فقيهًا، عارفًا بأحكام الشريعة؛ ليعلم ما يأمر به وينهى عنه، فإن الحسن ما حسَّنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع، ولا مدخل للعقول فى معرفة المعروف والمنكر إلا بكتاب الله عزَّ وجلّ، وسُنة نبيه ﷺ، ورُبّ جاهل يستحسن بعقله ما قبّحه الشرع، فيرتكب المحظور وهو غير عالم به، ولهذا المعنى كان طلب العلم فريضة على كل مسلم، كما قال النبى ﷺ.

فصل

وأول ما يجب على المحتسب أن يعمل بما يعلم، ولا يكون قوله مخالفًا لفعله، فقد قال الله عزَّ وجلَّ فى ذمّ علماء بنى إسرائيل: ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ**﴾ [البقرة: ٤٤]، وروى أنس بن مالك، رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال: «رأيت ليلة أسرى بى رجالاً تقرض شفاهم بالمقاريض، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء أمتك الذين يأمرون الناس بالبرّ وينسون أنفسهم»[1]، وقال الله عزَّ وجلَّ مخبرًا عن شعيب، عليه السلام، لما نهى قومه عن بخس الموازين ونقص المكاييل: ﴿**وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ**﴾ [هود: ٨٨]، ولا يكون المحتسب كما قال ابن همام السلولى:

إذا نُصبوا للقول قالوا فأحسنوا ... ولكنّ حسن القول خالفه الفعل
وذمّوا لنا الدنيا وهم يرضعونها ... أفاويق حتى ما يدرّ لها ثعل[2]

وقال آخر:

لا تنه عن خلق وتأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

فصل

ويجب على المحتسب أن يقصد بقوله وفعله وجه الله تعالى، وطلب مرضاته، خالص النية، لا يشوبه فى طويته رياء ولا مراء، ويجتنب فى رياسته منافسة الخلق، ومفاخرة

---

(١) رواه البخارى فى بدء الخلق (٢٤)، ومسلم فى الإيمان (٢٦٧).

(٢) فى أغلب النسخ الخطيّة للكتاب: «أبو همام الشادلى»، وما أثبت هو الصواب كما فى لسان العرب (ثعل)، والأمالى للقالى (٢/٤٦).

أبناء الجنس، لينشر الله تعالى عليه رداء القبول، وعلم التوفيق، ويقذف له فى القلوب مهابة وجلالاً، ومبادرة إلى قبول قوله بالسمع والطاعة، فقد قال النبى ﷺ: «من أرضى الله بسخط الناس كفاه شرّهم، ومن أرضى الناس بسخط الله وكله إليهم، ومن أحسن فيما بينه وبين الله، أحسن الله فيما بينه وبين الناس، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته، ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه».

وذكروا أن أتابك طغتكين[١] سلطان دمشق، طلب له محتسبًا، فذُكر له رجل من أهل العلم، فأمر بإحضاره، فلما بَصُر به، قال: إنى وليتك أمر الحسبة على الناس، بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، قال: إن كان الأمر كذلك، فقم عن هذه الطرّاحة[٢]، وارفع هذا المسند، فإنهما حرير، واخلع هذا الخاتم، فإنه ذهب، فقد قال النبى ﷺ فى الذهب والحرير: «إن هذين حرام على ذكور أمتى، حِلٌّ لإناثها»[٣]، قال: فنهض السلطان عن طرّاحته، وأمر برفع مسنده، وخلع الخاتم من أصبعه، وقال: قد ضممت إليك النظر فى أمور الشرطة، فما رأى الناس محتسبًا أهيب منه.

فصل

وينبغى للمحتسب أن يكون مواظبًا على سنن رسول الله ﷺ، من قصّ الشارب، ونتف الإبط، وحلق العانة، وتقليم الأظفار، ونظافة الثياب وتقصيرها، والتعطّر بالمسك ونحوه، وجميع سنن الشرع ومستحباته، هذا مع القيام على الفرائض والواجبات، فإن ذلك أزيد فى توقيره، وأنفى للطعن فى دينه. وقد حكى أن رجلاً حضر عند السلطان محمود[٤] يطلب الحسبة بمدينة غزنة[٥]، فنظر السلطان، فرأى شاربه قد غَطّى فاه من طوله، وأذياله تسحب على الأرض، فقال له: يا شيخ، اذهب فاحتسب على نفسك، ثم عد واطلب الحسبة على الناس.

---

(١) فى بعض النسخ: «ضعدكين»، والصواب ما أثبت، وهو طغتكين بن عبد الله أمين الدولة ظاهر الدين أبو منصور، مملوك السلطان، طُطش السلجوقى بدمشق، توفى سنة ٥٢٢هـ، وصار الملك لابنه من بعد، وكذا سلالته حتى سنة ٥٤١هـ، ثم انتقلت إلى الدولة الأيوبية بعد ذلك.

(٢) الطراحة: مرتبة يفترشها السلطان عند جلوسه. انظر: السلوك للمقريزى (١/٤٤٩).

(٣) رواه الترمذى (١)، والنسائى (٤٠)، وابن ماجه (١٩).

(٤) هو محمد بن سبكتكين مؤسس الدولة الغزنويه بأفغانستان سنة ٣٨٩هـ.

(٥) غزنة: مدينة بأفغانستان، وقد اتخذها سبكتكين قاعدة لملكه.

فصل

وليكن من شيمته الرفق، ولين القول، وطلاقة الوجه، وسهولة الأخلاق عند أمره للناس ونهيه، فإن ذلك أبلغ فى استمالة القلوب، وحصول المقصود، قال الله عزَّ وجلَّ لنبيه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]؛ ولأن الإفراط فى الزجر ربما أغرى بالمعصية، والتعنيف بالموعظة تمجه الأسماع.

وقد حكى أن رجلاً دخل على المأمون، فأمره بمعروف ونهاه عن نمكر، وأغلظ له فى القول، فقال له المأمون: يا هذا، إن الله تعالى أمر من هو خير منك أن يلين القول لمن هو شر منى، فقال لموسى وهارون: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، ثم أعرض عنه، ولم يلتفت إليه، ولأن الرجل قد ينال بالرفق ما لا ينال بالتعنيف، كما قال النبى ﷺ: «إن الله رفيق يحبّ كل رفيق، يعطى على الرفق ما لا يعطى على التعنيف»(١).

وليكن متأنيًا، غير مبادر إلى العقوبة، ولا يؤاخذ أحدًا بأوّل ذنب يصدر منه، ولا يعاقب بأوّل زلة تبدو؛ لأن العصمة فى الخلق مفقودة، فيما سوى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وإذا عثر بمن نقص المكيال، أو بخس الميزان، أو غشَّ بضاعة أو صناعة، بما يأتى وصفه فى أبوابه من أنواع الغشوش، استتابه عن معصيته، ووعظه وخوّفه، وأنذره العقوبة والتعزير، فإن عاد إلى فعله عزّره على حسب ما يليق به من التعزير بقدر الجناية، ولا يبلغ به الحدّ.

ويتخذ المحتسب له سوطًا، ودرّة(٢)، وطرطورًا(٣)، وغلمانًا، وأعوانًا، فإن ذلك أرعب لقلوب العامة وأشدّ خوفًا، ويلازم الأسواق والدروب فى أوقات الغفلة عنه، ويتخذ له فيها عيونًا يوصلون إليه الأخبار وأحوال السوقة.

---

(١) رواه البخارى فى الاستتابة (٤)، ومسلم فى البر (٤٧)، وأبو داود فى الأدب (١٠)، والترمذى فى الاستئذان (١٢)، ومالك فى الموطأ (٣٨)، وأحمد فى المسند (١/١٤٠).

(٢) الدرة: أداة تتخذ للضرب، وهى من جلد البقر أو الإبل، وتحشى بنوى التمر.

(٣) الطرطور: غطاء للرأس، كان يُصنّع من اللبد، وينقش بالخِرق الملونة، ويكلل بالخرز، والودع، والأجراس، وأذناب الثعالب والسنانير، ويضعه المحتسب فوق رأس المذنب للتشهير به وتوبيخه.

فصل

ومن الشروط اللوازم للمحتسب أن يكون عفيفًا من أموال الناس، متورّعًا عن قبول الهدية من المتعيشين وأرباب الصناعات، فإن ذلك رشوة، وقد قال النبى ﷺ: «لعن الله الراشى والمرتشى»[١]، ولأن التعفف عن ذلك أصون لعرضه وأقوم لهيبته. ويُلزم المحتسب غلمانه وأعوانه بما التزمه من هذه الشروط، فإن أكثر ما تتطرّق التهمة إلى المحتسب من غلمانه وأعوانه، فإن علم أن أحدًا منهم أخذ رشوة، أو قبل هدية، صرفه عنه؛ لتنتفى عنه الظنون، وتنجلى عنه الشبهات.

* * *

الباب الثانى

فى النظر فى الأسواق والطرقات

ينبغى أن تكون الأسواق فى الارتفاع والاتساع على ما وضعته الروم قديمًا، ويكون من جانبى السوق إفريزان يمشى عليهما الناس فى زمن الشتاء، إذا لم يكن السوق مبلطًا.

ولا يجوز لأحد من السوقة إخراج مصطبة دكانه عن سَمْتِ أركان السقائف[٢] إلى الممرّ الأصلى؛ لأنه عدوان على المارّة، يجب على المحتسب إزالته والمنع من فعله، لما فى ذلك من لحوق الضرر بالناس، ويجعل لأهل كلّ صنعة منهم سوقًا يختص بهم، وتعرف صناعتهم فيه، فإن ذلك لقصادهم أرفق، ولصنائعهم أنفق، ومن كانت صناعته تحتاج إلى وقود نار، كالخباز، والطباخ، والحداد، فالمستحب أن يبعد حوانيتهم عن العطارين والبزازين، لعدم المجانسة بينهم وحصول الأضرار.

---

(١) رواه أبو داود فى الأقضية (٢/٢٧٠)، والترمذى فى الأحكام (٤/٥٦٦)، وابن ماجه (٢/٧٧٥)، وأحمد فى المسند (٢/١٦٤، ١٩٠، ٢١٢، ٣٨٧؛ ٥/٢٧٩)، والطبرانى كما فى المجمع (٤/٩٩)، وقال: رجاله ثقات.

(٢) السقائف: مفرد سقيفة، وهى الأسواق المظللة لحماية السابلة من المطر والشمس، وكانت شائعة فى أسواق القسطنطينية وغيرها من مدن الدولة البيزنطية، والراجح أن العرب أخذوها عن تلك المدن، فقد أمر زياد بن أبيه ألا تغلق أبواب للحوانيت فى البصرة، وطلب أن يمدّ السقيف عليها، وظلت السقائف سائدة فى أسواق مصر حتى عهد محمد علىّ باشا، وإلى يومنا هذا فى بعض الأحياء الوطنية.

فصل

ولما لم تدخل الإحاطة بأفعال السوقة تحت وسع المحتسب، جاز له أن يجعل لأهل كل صنعة عريفًا من صالح أهلها، خبيرًا بصناعتهم، بصيرًا بغشوشهم وتدليساتهم، مشهورًا بالثقة والأمانة، يكون مشرفًا على أحوالهم، ويطالعه بأخبارهم، وما يجلب إلى سوقهم من السلع والبضائع، وما تستقر عليه من الأسعار، وغير ذلك من الأسباب التى يلزم المحتسب معرفتها، فقد روى أن النبى ﷺ قال: «استعينوا على كل صنعة بصالح أهلها»(١).

فصل

ولا يجوز للمحتسب تسعير البضائع على أربابها، ولا أن يلزمهم بيعها بسعر معلوم؛ لأن السعر غلا على عهد رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، سعِّر لنا، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله هو المسعّر، وإنى لأرجو أن ألقى الله وليس أحد يطالبنى بمظلمة فى نفس ولا مال»(٢).

وإذا رأى المحتسب أحدًا قد احتكر الطعام من سائر الأقوات، وهو أن يشترى ذلك فى وقت الرخاء، ويتربص به الغلاء، فيزداد ثمنه، ألزمه بيعه إجبارًا؛ لأن الاحتكار حرام، والمنع من فعل الحرام واجب، وقد قال رسول الله ﷺ: «الجالب مرزوق، والمحتكر ملعون»(٣).

الاحتكار: يُقال فى اللغة: حِكرًا حَكرًا بالشىء، استبدّ به واستقل، وأصل المعنى الجمع والإمساك. ويقال: احتكر وتحكر الطعام: جمعه وحبسه عن البيع ليقل فَيغْلُوَ سعره.

والاحتكارُ حرام شرعًا؛ لورود النهى الجازم عنه فى الأحاديث الشريفة، فالنهى يُفيد طلب الترك، وذمِّ المحتكر بوصفه أنه آثم وخاطئ.

والمحتكر هو من يجمع السِّلَع انتظارًا لبيعها بسعرٍ غالٍ، بحيث يضيق على المواطن شراؤها، فبناءً على هذا يكون الاحتكار هو الاستبداد بحبس البضاعة كى تباع بالكثير

---

(١) هو مما أشتهر على ألسنة الناس. انظر: كشف الخفاء للعجلونى (١/١٣٤) ح (٣٤٠).

(٢) رواه أبو داود (٤٩) بيوع، والترمذى (٧٣)، وابن ماجه فى التجارات (١٣)، وأحمد فى مسنده (٢/٤٩٣).

(٣) أخرجه ابن ماجه فى التجارات (٦)، والدارمى فى البيوع (١٢).

من الأموال، وأما كونُ شرط انطباق الاحتكار كونه يبلغُ حدًّا يضيق على أهل البلد شراءُ السلْعة المحتكرة، فلو لم يضيق على الناس شراء السلعة، لا يحصل جمعُ البضاعة ولا الاستبداد بها كى تباعَ بالأسعار المرتفعة، وليس شرطُ الاحتكار أن تشترى السلعة فقط، بل شراؤها وجمعها انتظارًا للغلاء يعتبر احتكارًا، وسواء جمعها بالشراء أو جمعها من غلّةِ أراضيه الواسعة، لانفراده بهذا النوع من الغلة، أو لندرة زراعتها، أو جمعها من مصانعه، كما هى حال الاحتكارات الرأسمالية، فإنهم يحتكرون صناعة شىء بقصد قتل جميع المصانع إلا صناعتهم، ثم يتحكمون مستبدين بالسّوق.

وبناءً على هذا الفهم اللغوى والشرعى لمنطوق ومفهوم كلمة الاحتكار، يكون الاحتكار حرامًا فى جميع الأشياء من غير فرق بين قوت الآدمى أو قوت الحيوان، ومن غير فرق بين ما هو من ضروريات الناس أو من كمالياتهم، وذلك لأن معنى احتكر فى اللغة جمع الشىء مطلقًا، ولم يأت بمعنى جمع الطعام أو القوت أو ضروريات الناس، بل جمع الشىء، فلا يجوز أن تخصّص بغير معناها اللغوىِّ، ولأن الأحاديث جاءت مطلقة من غير قيد، وعامةً من غير تخصيص، فتبقى على إطلاقها وعمومها. الإسلام وأيديُولوجية الإنسان (ص٢١، ٢٢).

ولا يجوز تلقّى الركبان، وهو أن تقدُم قافلة إنسان خارج البلد، فيخبرهم بكساد ما معهم ليبتاع منهم رخيصًا، فإن النبى ﷺ نهى عن تلقّى الركبان[1]، ونهى عن بيع السلع حتى يهبط بها إلى السوق[2]، فإن عثر المحتسب بمن يقصد ذلك، ردعه عن فعله، بعد التعزير.

وينبغى أن يمنع أحمال الحطب، وأعدال التبن، وروايا الماء، وشرائج السرجين، والرماد وأشباه ذلك، من الدخول إلى الأسواق، لما فيه من الضرر بلباس الناس، ويأمر جلابى الحطب والتبن ونحوهم إذا وقفوا بها فى العراص، أن يضعوا الأحمال عن ظهور الدواب؛ لأنها إذا وقفت والأحمال عليها أضرَّتها، وكان فى ذلك تعذيب لها، وقد نهى رسول الله ﷺ عن تعذيب الحيوان لغير مأكله. ويأمر أهل الأسواق بكنسها، وتنظيفها من الأوساخ والطين المجتمع، وغير ذلك مما يضرّ بالناس؛ لأن النبى ﷺ قال: «لا ضرر ولا إضرار».

---

(١) أخرجه البخارى فى البيوع (٤/٤٣٣) ح (٢١٥٨)، ومسلم فى البيوع (٣/١١٥٦) ح (١٤/١٥١٧).

(٢) أخرجه مسلم فى البيوع (٣/١١٥٦) ح (١٤/١٥١٧).

فصل

وأما الطرقات ودروب المحلات، فلا يجوز لأحد إخراج جدار داره ولا دكانه فيها إلى الممرّ المعهود، وكذلك كل ما فيه أذية على السالكين، كالميازيب الظاهرة من الحيطان فى زمن الشتاء، ومجارى الأوساخ الخارجة من الدور فى زمن الصيف إلى وسط الطريق، بل يأمر المحتسب أصحاب الميازيب أن يجعلوا عوضها مسيلاً محفورًا فى الحائط مكلّسًا، يجرى فيه ماء السطح، وكلّ من كان داره مخرج للوسخ إلى الطريق، فإنه يكلّفه سدّه فى الصيف، ويحفر له فى الدار حفرة يجتمع إليها.

ولا يجوز التطلّع على الجيران من السطوحات والنوافذ، ولا أن يجلس الرجال فى طرقات النساء من غير حاجة، وكذلك النساء لا يجلسن على أبواب بيوتهن فى طرقات الرجال، فمن فعل شيئًا من ذلك عزّره المحتسب، سيما إذا رأى رجلاً أجنبيًا مع امرأة أجنبية يتحدّثان فى موضع خلوة، فإنه أشدّ للتهمة فى حقّها، والله أعلم.

* * *

الباب الثالث

فى معرفة القناطير والأرطال والمثاقيل والدراهم

لما كانت هذه أصول المعاملات، وبها اعتبار المبيعات، لزم المحتسب معرفتها، وتحقيق كميتها؛ لتقع المعاملة بها من غير غبن، على الوجه الشرعىّ، وقد اصطلح أهل كل إقليم وبلد فى المعاملة على أرطال تتفاضل فى الزيادة والنقصان، سيما أهل الشام خاصّة، وسأذكر من ذلك ما لا يسع المحتسب جهله، ليعلم تفاوت الأسعار.

أما القنطار الذى ذكره الله العظيم فى كتابه الكريم، فقد قال معاذ بن جبل: هو ألف ومائتا أوقية، وقال أبو سعيد الخدرى: هو ملء مسك ثور ذهبًا، وأما القنطار المتعارف فهو مائة رطل، والرطل ستمائة وأربعة وثمانون درهمًا، وهو اثنتا عشرة أوقية، والأوقية سبعة وخمسون درهمًا، هذا رطل شيزر[1]، الذى رسمه بها بنو منقذ.

---

(١) شيزر: بلدة بشمال الشام، وتقع على نهر الأورنت، وقد فتحها أبو عبيدة عامر بن الجرّاح سنة ١٧هـ صلحًا، واقترن اسمها بأسرة بنى منقذ من بنى كنانة منذ القرن الخامس الهجرى، وجاهد فيها المسلمون الصليبيين والبيزنطيين، حتى تولاها نور الدين زنكى، ثم انتقلت السلطنة بعد ذلك للأيوبيين سنة ٥٧٠، فى حياة المؤلف، وهى بلده وموطنه. وانظر: معجم ياقوت البلدانى (٣/٣٥٣).

وأما رطل حلب، فهو سبعمائة وأربعة وعشرون درهمًا، وأوقيتها ستون درهمًا وثلث درهم، ورطل دمشق ستمائة درهم، وأوقيتها خمسون درهمًا، ورطل حمص ثمانمائة وأربعة وستون درهمًا، وأوقيتها اثنان وسبعون درهمًا، ورطل حماة ستمائة وستون درهمًا، وأوقيتها خمسة وخمسون درهمًا، ورطل المعرّة مثل الحمصىّ، ورطل مصر، حرسها الله تعالى، مائة وأربعة وأربعون درهمًا، وأوقيتها اثنا عشر درهمًا، والمنّ مائتا درهم وستون درهمًا، والرطل البغدادىّ نصف المنّ.

فصل

وأما المثقال، فهو درهم ودانقان ونصف، وهو أربعة وعشرون قيراطًا، وهو خمس وثمانون حبة، والدرهم الشامى ستون حبة، وقد اختلفت صنج أهل الشام أيضًا، فالمثقال بشيزر يزيد على مثقال حلب نصف قيراط، ومثقال حماة مثل الشيزرى، ومثقال دمشق يزيد على الشيزرى، ومثقال المعرّة مثل الدمشقى.

فصل

وقفزان المكيلات ومكاكيكها مختلفة أيضًا، فالقفيز بشيزر ستة عشر سنبلاً، وهو مكيال متعارف فيها، يسع رطلاً ونصفًا بالشيزرى، والقفيز الحموى ينقص عن الشيزرى سنبلان[١]، والقفيز الحمصى مثل الحموى.

والمكوك الحلبى يزيد على القفيز الشيزرى ثلاث سنابل، والمعرّى مثله، وهو أربع مرزبان، كلّ مرزبان أربعة أكيال بالحلبى، والغرارة الدمشقية ثلاثة مكاكيك بالحلبى، وجميع ما ذكرته غير مستمرّ فى جميع الأزمان، وإنما اصطلح كلّ قوم على شيء فى زمن سلطان، ثم يتغير ذلك بتغير السلطان، والله أعلم.

* * *

الباب الرابع

فى معرفة الموازين والمكاييل وعيار الأرطال والمثاقيل

أصحُّ الموازين وضعًا ما استوى جانباه، واعتدلت كفّتاه، وكان ثقب علاّقته[٢] فى جانبى وسط القصبة فى ثلث سمكها، فيكون تحت مِرْوَد العلاقة الثلث، ومن فوقه

---

(١) على لغة الزاء المثنى الألف نصبًا وجرًا.

(٢) العلاقة: شئ يُعلّق به الإناء. اللسان (علق).

الثلثان، وهذا يعرف رجحانه بخروج اللسان من قبّ العلاّقة، وتهبط الكفّة سريعًا بأدنى شىء، وأما الشواهين[١] الدمشقية، فوضُع ثقب علائقها بخلاف ما ذكرناه، ويعرف رجحانها بدخول اللسان فى قبّ العلاّقة من غير هبوط الكفّة، وقد يكون مردود العلاقة مربعًا ومثلثًا ومدوّرًا، وأجودها المثلث؛ لأنه أسرع رجحانًا من غيره، ويأمر المحتسب أصحاب الموازين بمسحها وتنظيفها من الأدهان والأوساخ، فى كل ساعة، فإنه ربما يجمد فيها قطَرٌ من الدهن، فيظهر فى الوزن.

وينبغى له إذا شرع فى الوزن أن يسكّن الميزان، ويضع فيها البضاعة برفق، ولا يرفع يده فى حال الوضع لها، ولا يحّلق البضاعة من يده فى الكفة تحليقًا، ولا يهزّ حافة الكفة بإبهامه، فإنّ ذلك كله بخس.

ومن البخس الخفى فى ميزان الذهب أن يرفعه بيده تلقاء وجهه، ثم ينفخ على الكفة التى فيها المتاع نفخًا خفيفًا، فيرجح بما فيه، وذلك أن المشترى تكون عينه إلى الميزان، لا إلى فم صاحبه، ولهم فى مسك علاّقة الميزان صناعة يحصل بها البخس، ومنها أنهم يلصقون فى قعر الكفة الواحدة قطعة من الشمع، ثم يجعلون الصنج فيها، ويجعلون الفضة فى الكفة الأخرى، فيأخذون فى الدرهم الحبة والحبتين، فيلزم المحتسب مراعاة ذلك فى كلّ وقت.

والقبّان الرومىّ أصحّ من القبّان[٢] القبطىّ، وينبغى أن يختبره المحتسب بعد كل حين، فإنه ربما اعوج من شيل الأثقال فيفسد.

فصل

وينبغى للبائع أن يتخذ الأرطال والأواقى من الحديد، وتُعيّر على الصنج الطيّارة، ولا يتخذها من الحجارة؛ لأنها تنتحت إذا قرع بعضها بعضًا فتنقص، فإذا دعت الحاجة إلى اتخاذها من الحجارة لقصور يده عن اتخاذها من الحديد أمره المحتسب بتجليدها، ثم يختمها المحتسب بعد العيار، ويجدد المحتسب النظر فيها بعد كل حين؛ لئلا يتخذ البائع مثلها من الخشب[٣]، ولا يكون فى الحانوت الواحد دستان[٤] من أرطال وأوراق أو

---

(١) الشواهين: مفرده شاهين، وهو من عمود الميزان ولسانه (اللسان).

(٢) القبَّان: نوع من الموازين. (اللسان: قبن).

(٣) انظر: الخطط للمقريزى (١/٤٦٤).

(٤) الدستان: مثنى دست، وهى لفظة فارسية تعنى المجموعة الكاملة.

(Steingass: Pers. Eng. Dict.).

صنج من غير حاجة؛ لأنها تهمة فى حقّه. ولا يتخذ البائع ثلث رطل، ولا ثلث أوقية، ولا ثلث درهم، لمقاربته للنصف، وربما اشتبه ذلك عليه بالنصف فى حال الوزن عند كثرة الزبون.

وينبغى للمحتسب أن يتفقد عيار الصنج والحبات وغير ذلك على حين غفلة من أصحابها، فإن من يأخذ حبات الشعير والحنطة فينقعها فى بعض الأدهان المعروفة، ثمّ يغرس فيها رءوس الإبر، ثم يجففها فى الظلّ، فتعود إلى سيرتها الأولى، ولا يظهر فيها شىء من ذلك.

فصل

والمكيال الصحيح ما استوى أعلاه وأسفله فى الفتح والسعة، من غير أن يكون محصرًا ولا أزور، ولا بعضه داخلاً وبعضه خارجًا، وإن كان فى أسفله طوق من حديد كان أحفظ له. وينبغى أن يُشدّ بالمسامير؛ لئلا يصعد فيزيد، أو ينزل فينقص. وأجود ما عُيّرت به المكاييل الحبوب الصغار التى لا تختلف فى العادة، مثل الكسفرة، والخردل، والبزر قطونا[1]، وما أشبه ذلك. ويكون فى كل حانوت ثلاثة مكاييل، منها مكيال، ونصف مكيال وثمن مكيال؛ لأن الحاجة تدعو إلى اتخاذ ذلك.

وينبغى للمحتسب أن يجدّد النظر فى المكاييل، ويراعى ما يطففون به المكيال، فإنّ منهم من يصبّ فى أسفله الجبسين المدبر[2]، فيلصق به لصقًا لا يكاد يعرف، ومنهم من يلصق فى أسفله وجوانبه الكسب، ومنهم من يأخذ لبن التين ويعجنه بالزيت حتى يصير فى قوام المرهم، ثم يلصقه فى داخل المكيال فلا يعرف، ولهم فى مسك المكيال صناعة يحصل بها التطفيف، فلا يدع التجسس عليهم، والله أعلم.

* * *

---

(١) البزر قطونا: لفظ يصح فيه المد والقصر، يُقال: بذر قاطونا، ومنه شتوى وصيفى، وأجوده الرزين الممتلئ الذى يرسب فى الماء المقلو منه، والملتوت فى دهن زيت الورد، قابض، مسكن للصداع، ضمادًا بالخل، وهو غاية جدًا. انظر: تحفة ابن البيطار (ص١٨٢) بتحقيقنا – القاهرة.

(٢) هو حجر رخو بَرَّاق، منه أبيض وأحمر، وممتزج بينهما، وله خاصية التجفيف، ويدخل فى تركيب الأدوية. انظر: المفردات لابن البيطار (١/١٥٩).

الباب الخامس

فى الحسبة على الحبوبيين والدقاقين

يُحَرّم عليهم احتكار الغلة على ما بيّناه، ولا يخلطون ردىء الحنطة بجيدها، ولا عتيقها بجديدها، فإنه تدليس على الناس، وإذا دعت الحاجة إلى غسل الغلة، جُفّفت بعد غسلها تجفيفًا بليغًا، ثم بيعت منفردة.

فصل

ويلزم الدقاقين[1] غربلة الغلّة من التراب، وتنقيتها من الزوان، وتنظيفها من الغبار قبل طحنها، ولهم أن يرشّوا على الحنطة ماءًا يسيرًا عند طحنها، فإن ذلك يكسو الدقيق بياضًا وجودة. ويعتبر عليهم المحتسب الدقيق، فإنهم ربما خلطوا فيه دقيق الشعير المنخول، أو دقيق الباقلاّ[2] والحمّص ونحو ذلك، أو ما هو مطحون على رحى منقورة، أو ما خالطه زوان أو غبار الطاحون، فإن ارتاب بهم حلّفهم أن لا يعملوا شيئًا من ذلك.

والمصلحة أن يجعل المحتسب عليهم وظائف يرفعها إلى حوانيت الخبازين فى كلّ يوم.

* * *

الباب السادس

فى الحسبة على الخبازين

ينبغى أن تُرفع سقائف حوانيتهم، وتفتح أبوابها، ويجعل فى سقوف الأفران منافس واسعة يخرج منها الدخان؛ لئلا يتضررَّ بذلك الناس، وإذا فرغ الخبَّاز من إحمائه، مسح داخل التنور بخرقة نظيفة، ثم شرع فى الخبز.

ويكتب المحتسب فى دفتره أسماء الخبازين، ومواضع حوانيتهم، فإن الحاجة تدعوه إلى معرفتهم؛ ويأمرهم بنظافة أوعية الماء وتغطيتها، وغسل المعاجن ونظافتها، وما يغطى به الخبز، وما يحمل عليه.

---

(١) الدقاقون: أى الطحانون. انظر: معالم القربة (ص٨٩).

(٢) الباقلاء: أى الفول. وانظر: تحفة ابن البيطار (ص ١٨٤) بتحقيقنا – ط التوفيقية – القاهرة.

ولا يعجن العجَّان بقدميه، ولا بركبتيه، ولا بمرفقيه؛ لأنّ في ذلك مهانة للطعام، وربما قَطر فى العجين شيء من عرق إبطيه وبدنه، فلا يعجن إلا وعليه ملعبة[١] أو بشت[٢] مقطوع الأكمام؛ ويكون مُلَثَّمًا أيضًا؛ لأنه ربما عطس أو تكلم، فقطر شيء من بصاقه أو مخاطه فى العجين، ويشدّ على جبينه عصابة بيضاء؛ لئلا يعرق فيقطر منه شيء فى العجين، ويحلق شعر ذراعيه؛ لئلا يسقط منه شيء فى العجين، وإذا عجن فى النهار، فليكن عنده إنسان فى يده مذبة يطرد عنه الذباب، هذا كله بعد نخل الدقيق بالمناخل السفيقة[٣] مرارًا.

فصل

ويعتبر عليهم المحتسب ما يغشّون به الخبز، من الجِلبان[٤]، والبِيسار[٥]، فإنهما يورّدان وجه الخبز، ومنهم من يغشه بدقيق الحمص، ودقيق الأرز؛ لأنهما يثقلانه ويفجّجانه، ومنهم من يعجن الخشكار[٦]، أو دقيق الشعير، أو الدقيق المزون، ثم يبطن به الخبز الخاص عند نفاقه، وجميع ذلك لا يخفى على وجه الخبز، وفى منظره ومكسره، ويمنعهم المحتسب أن يضعوا فيه البورق، فإنه مضرّ أيضًا، غير أنه يحِّسن وجه الخبز، ولا يخبزونه حتى يختمر، فإن الفطير ثقيل فى الوزن والمعدة، وكذلك إذا كان قليل الملح، فيمنعهم المحتسب من فعله، فإنهم يقصدونه لأجل رزانته فى الميزان، وينبغى لهم أن ينشروا على وجهه الأبازير الطيبة الصالحة له، مثل الكمون الأبيض، والشوْنيز[٧]، والسمسم، والمصطكى، ونحو ذلك. ولا يخرجون الخبز من التنور حتى ينضج حقّ نضجه، من غير احتراق فيه، والمصلحة أن يجعل على كلّ حانوت وظيفة يخبزونها كلّ يوم؛ لئلا يختل البلد عند قلة الخبز، ويلزمهم ذلك إن امتنعوا منه.

* * *

---

(١) الملعبة: ثوب بدون كُمّ. انظر: المخصص لابن سيده (١٣/١٦).

(٢) البشت: رداء من الصوف بلونه الطبيعى، يرتديه الفلاحون، والنساء، والعجانون عند عجنهم.

(٣) أو الصفيقة: هى الكثيفة. (اللسان: سفق، وصفق).

(٤) الجلبان: نوع من البقول، ويبدو أنه كان غذاء الفلاحين فى عصره. انظر: المفردات لابن البيطار (١/١٦٤، ١٦٥).

(٥) البيسار: هو فول مطبوخ بالسمن واللبن.

(٦) الخشكار: هو الدقيق الغير منزوع النخالة. انظر: المفردات لابن البيطار (٢/٦١).

(٧) والشونيز أو الحبة السوداء، والعامة تسمى بزورها حبة البركة، وينثرونها على الخبز الأبيض؛ لنزاهة اللون، وحسن الطعم. انظر: مبادئ علم النبات لجورج بوست (ص١٤٧).

الباب السابع

فى الحسبة على الفرَّانين

يفرّقهم المحتسب على الدروب والمحالّ وأطراف البلد، لما فيهم من المرافق وعظم حاجة الناس إليهم، ويأمرهم بإصلاح المداخن، وتنظيف بلاط الفرن فى كل ساعة من اللباب المحترق، والشرر المتطاير، والرّماد المتناثر؛ لئلا يلصق فى أسفل الخبز منه شىء. ويجعل الفرّان بين يديه إجانة نظيفة للماء، فإذا فرغ من الخبز أراق ما بقى فيها؛ لأنه إذا بقى فيها تغيرت رائحته، ثم يغسلها من الغد. ويتعاهد جرف الدفّ[(١)] الذى بين يديه؛ لأن العجين يلصق عليه. وإذا كثرت عنده أطباق العجين للناس، أخرج خبز كل واحد منهم بعلامة يتميز بها على غيره؛ لئلا يختلط الجميع فلا يعرف.

وينبغى أن يكون له مخبزان، أحدهما للخبز، والآخر للسمك، ويجعل السمك بمعزل عن الخبز؛ لئلا يسيل شىء من دهنه على الخبز، ولا يأخذ من العجين زيادة عما جُعل له. وقد يكون الدفّ الذى بين يديه مثقوبًا، أو يكون قطعتين وبينهما فرجة، فإذا أخذ دقيق الناس بين يديه، ونحته بأصابعه، فينزل من بين الدفتين إلى إجانة أخرى له، فيراعيه المحتسب ويمنعه من ذلك، ويكون غلمانهم وأجراؤهم صبيانًا دون البلوغ؛ لأنهم يدخلون بيوت الناس وعلى نسائهم، والله أعلم.

* * *

الباب الثامن

فى الحسبة على صنَّاع الزَّلابية[(٢)]

ينبغى أن يكون مَقْلى الزلابية من النحاس الأحمر الجيد، فأول ما يحرق فيه النخالة، ثم يدلكه بورق الصلق إذا برد، ثم يعاد إلى النار، ويُجعل فيه قليل من عسل، ويُوقد عليه حتى يحترق العسل، ثم يُجلى بعد ذلك بمدقوق الخزف، ثم يُغسل ويُستعمل، فإنه يُنَقّى من وسخه وزنجاره[(٣)].

---

(١) الدّف: هو اللوح من الخشب الذى يستعمله الخباز لرصّ العجين، وتسمىّ فى مصر الطاولة. وانظر: فقه اللغة للثعالبى (ص٢٠٢).

(٢) هى نوع من الحلوى المعروفة.

(٣) الزنجار: مادة تتولد من صفائح النحاس إذا وضعت فى مكان رطب. انظر: المفردات (١٦٨/٢)، وهى تعرف الآن بأكسيد النحاس.

فصل

ويكون ثلث دقيق الزلابية ناعمًا، وثلثاه سميذًا خُشكنانيًا[١]؛ لأنه إذا كثر فيه السميذ زادت الزلابية بياضًا وخفّة فى الوزن ونضجًا، غير أن السميذ يشرب من الزيت أكثر من الناعم، فلهذا يكرهونه.

وأجوَد ما قُليت به الشريج، فإن لم يكن فالزيت الصافى، ولا يُشرع فى قليها حتى يختمر عجنها، وعلامة اختمارها أنها تطفو على وجه الزيت، والفطير منها يرسب فى أسفل المقلى، والمختمر أيضًا يكون مثل الأنابيب، إذا جمعتها فى كفك اجتمعت، والفطير تكون مرضوضة، وليس فيها تجويف. ولا يُجعل فى عجينها ملح؛ لأنها تؤكل بالعسل، فَتَغْثَى النفس إذا كانت بالملح.

وأما سواد الزلابية، فقد يكون من وسخ المقلى، وقد يكون دقيقها ناعمًا لا سميذ فيه، أو تكون مقلوّة بالزيت المعاد، وهو الذى قُلِىَ به، وربما تكون فطيرًا فتسودّ، وربما جارت عليها النار لسوء الصناعة، فيعتبر عليهم المحتسب جميع ذلك. وينبغى أن تُصنع سلالًا صغارًا لطافًا، كل أربعين منها رطل، ومتى حمض عجينها جعله الصانع خميرًا، والله أعلم.

* * *

الباب التاسع

فى الحسبة على الجَّزارين والقصابين[٢]

يُستحبّ أن يكون الجزار مسلمًا بالغًا عاقلاً، يذكر اسم الله على الذبيحة، وأن يستقبل القبلة، وأن ينحر الإبل معقولة، ويذبح البقر والغنم مضطجعة على الجنب الأيسر، فجميع ذلك وردت به السنة عن النبى ﷺ. ولا يجرّ الشاة برجلها جرًّا عنيفًا، ولا يذبح بسكين كالة؛ لأن ذلك تعذيب للحيوان، وقد نهى رسول الله ﷺ عن تعذيب الحيوان.

ويلزمه فى الذبح أن يقطع الودجين والمرىء والحلقوم، ولا يشرع فى السلخ بعد الذبح حتى تبرد الشاة ويخرج منها الروح؛ لأن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أمر

---

(١) أى البسكويت.

(٢) أى الجزّارين.

مناديًا ينادى فى المدينة: لا تسلخ شاة مذبوحة حتى تبرد[١]. وتجوز الذكاة بكل شىء إلا السنّ والظفر، فإن رسول الله ﷺ نهى عن الذكاة بهما. وينهى المحتسب عن نفخ لحم الشاة بعد السلخ؛ لأن نكهة الآدمى تغير اللحم وتزفّره.

ومنهم من يشقّ اللحم من الصّفاقين[٢]، وينفخ فيه الماء، ولهم أماكن يعرفونها فى اللحم ينفخون فيها الماء، فيراعيهم المحتسب عند غيبة العريف. ومنهم من يشهر فى الأسواق البقر السّمان، ثم يذبح غيرها، وهذا تدليس.

فصل

وأما القصابون، فيمنعهم المحتسب من إخراج توالى[٣] اللحم من حدّ مصاطب حوانيتهم، بل تكون متمكنة فى الدخول عند حد المصطبة والركنين؛ لئلا تلاصقها ثياب الناس فيتضررّون بها. ويأمرهم أن يفردوا لحوم المعز عن لحوم الضأن، ولا يخلطوا بعضها ببعض، وينقطوا لحوم المعز بالزعفران[٤]؛ لتتميّز عن غيرها، وتكون أذناب المعز معلّقة على لحومها إلى آخر البيع، ويُعرف لحم المعز ببياض شحمه، ودقة ضلعه.

ولا يخلطون لحوم المعز بشحوم الضأن، ولا اللحم السمين باللحم الهزيل. ويعرف شحم المعز ببياضه وصفائه، وشحم الضأن بعلو صفرته. ويأمرهم ببيع الإليات مفردة عن اللحم، ولا يخالطها جلد ولا لحم. وإذا فرغ القصاب من البيع وأراد الانصراف، أخذ ملحًا مسحوقًا ونثره على القرمية[٥] التى يقصب عليها اللحم؛ لئلا تلحسها الكلاب، أو يدبّ عليها شىء من هوام الأرض، فإن لم يجد ملحًا، وإلا فالأشنان[٦] المسحوق يقوم مقامه. والمصلحة أن لا يشارك بعضهم بعضًا؛ لئلا يتفقوا على سعر واحد.

ويمنعهم المحتسب من بيع اللحم بالحيوان، وهو أن يشترى القصاب الشاة بأرطال

---

(١) انظر: بداية المجتهد لابن رشد (٣٥٨/١).

(٢) أو السفاقين، كما فى النسخ الخطيّة. وانظر: فقه اللغة للثعالبى (ص٩٥).

(٣) التوالى: الأعجاز من اللحم المذبوح. (اللسان).

(٤) هو نبات بصلى، وهو من الأنواع المعمرة لوجود الكورمات والأزهار كبيرة الحجم، وغلافها الزهرى مكون من ستة أجزاء متساوية حجمًا، والثمار كبسولية الشكل، بداخلها العديد من البذور المستديرة، وسمراء لونًا، وصغيرة حجمًا.

(٥) وتعرف بالقرمة، قطعة من الخشب الزّان، يقطع عليها اللحم.

(٦) نبات لا ورق له، مالح الطعم. انظر: المفردات (٣٧/١، ٣٨).

لحم معلومة، ويدفع إليه الجزّار كل يوم ما يتفقان عليه من اللحم؛ لأن النبى ﷺ نهى عن ذلك. وإذا شكَّ المحتسب فى الحيوان، هل هو ميتة أو مذبوح، ألقاه فى الماء، فإن رَسب فهو مذبوح، وإن لم يرسب فهو ميتة. وكذلك البيض إذا طُرِح فى الماء، فما كان مَذِرًا[١] فهو يطفو، وما كان صحيحًا فهو يرسب.

ويعتبر المحتسب على صيادى العصافير وسائر الطيور بما ذكرناه، فإن أكثرهم لا دين له، وأكثرهم لا يصلّون، فليتق الله المحتسب فى أمره، ولا يتناول منهم رشوة، ولا يقبل من أحد منهم هدية؛ لئلا يتسلطوا بذلك على المسلمين وينجسوا معايشهم، وربما اختلط معهم شىء من الطيور الميتة، فباعوه مع المذبوحة.

* * *

الباب العاشر

فى الحسبة على الشَّوّائين

ينبغى للمحتسب أن يزن عليهم الحِملان قبل إنزالها فى التنور، ويكتبها فى دفتره، ثم يعيدها إلى الوزن بعد إخراجها، فإن كان الشواء قد نقص منه الثلث، فقد تناهى نضجه، وإن كان دون ذلك، أعاده إلى التنور. ويعتبره عند وزنه وهو لحم؛ لئلا يُخفوا فيه صنج الحديد وثقاقيل الرصاص. وعلامة نضج الشواء أن يجذب الكتف بسرعة، فإن جاءت فقد انتهى فى النضج، وأيضًا يشق الورك، فإن ظهر فيها عروق حمر، ونزل منها ماء اللحم، فهو نىء ولم ينضج.

ومنهم من يدهن الحِملان بالعسل، ثم ينزلها بالتّنور، فإنها فى الحال تحمرّ ويظهر فيها نفح، فينظر الرائى لها أنها قد نضجت. ومنهم من يذبح حملانًا كثيرة، ثم يحمل بعضها إلى المحتسب، ويخفى الباقى. وينبغى أن لا يغمّ الشواء حالة إخراجه من التنور، ولا يوضع فى أوانى الرصاص ولا النحاس وهو حارّ، فقد قالت الأطباء: إنه يستحيل سُمًّا. ويأمرهم المحتسب أن يطيّنوا تنانيرهم بطين حرّ قد عجن بماء طاهر، فإنهم يأخذون الطين من أراضى حوانيتهم، وهو مختلط بالدم والفرث[٢]، وذلك نجس، وربما انتثر على الشواء منه شىء عند فتح التنور فينجس.

---

(١) أى فاسدًا حامضًا لا يصلح. وانظر: اللسان (مذر).

(٢) الفرث: هو المواد التى تخرج من الكرش. وانظر: جمهرة اللغة لابن دريد (٢/ ٤٠).

فصل

وأما باعة الشواء المرضوض[1]، فمنهم من يضع الماء والملح فى قدح عنده، ويضع عليه قليلاً من ماء الليمون، ثم يفرّقه على المشترين عند رضّ الشواء، ويرشّه عليه. وقد يفضل منه فضلة فى ليالى الصيف، فيصبح متغيرًا من الدهن الذى يقطر عليه، فيمزجونه بالليمون الطرى، ليخفى رائحته وطعمه على المشترى. ومنهم من يشترى الروس المغمومة عند كسادها، ثم ينشر لحمها على القرمة، ثم يرضّه مع الشواء قليلاً قليلاً، وربما رضّوا معه الكلى والكبود على غفلة من المشترى، وجميع هذا تدليس، يجب على المحتسب أن يعتبره عليهم. وإذا فرغوا من البيع وأرادوا الانصراف، نثروا على قُرَمهم الملح المسحوق، كما قلنا فى القصّاصين، والله أعلم.

* * *

الباب الحادى عشر
فى الحسبة على الرواسين

يأمرهم بنظافة سمط الروس والأكارع[2] بالماء الشديد الحرارة، وجودة تنقية الشعر والصوف منها، ثم تُغسل بعد ذلك بالماء البارد، غير الذى سمطت فيه. ويجب على الرواس أن يضمّ إصبعه فى الخياشيم، ويغسل داخلها، بعد أن يدقّ مقدمها، وينزل ما فيه من القذا، والوسخ، والدود المتولّد إن كان هناك منه شىء.

ولا يخلطون روس المعز بالضأن عند البيع، ويجعلون فى أفواه روس المعز كوارعها، لتتميز عن الضأن، ولا تشتبه على الجاهل. وعلامة روس الضأن أنّ تحت كل عين ثقب، وليس تحت عيون المعز شىء، وأيضًا أن خرطوم المعز دقيق من أصله، وليس كذلك الضأن. وربما كسدت عندهم الروس، فيخلطونها من الغد بالروس[3] الطريّة. وعلامة البائت منها أنك تنسل العظم الدقيق الذى فى المبلع المسمى بالشوكة، ثم تشمّ رائحته، فإن كان متغيرًا فهو بائت.

ومنهم من يشترى دهن الأبدان القاطر من الشواء، ويخلطه بدهن الأكارع، ويسقى

---

(١) المرضوض: هو المدقوق والمفروم من اللحم.

(٢) الأكارع: ويُقال فى مصر وغير: الكوارع، ويقال: كراع، وأكرع، وهو الجزء المستدق العارى من اللحم من ساق البقر والغنم.

(٣) هو عشبة طيبة الرائحة كالزعفران يعطى الطعام نكهة ورائحة جيدة.

به الثريدة[١]، فيعتبر عليهم المحتسب جميع ذلك. ولا يخرج الروس من الغمة حتى ينتهى نضجها، ويكون عنده الملح والسماق[٢] مسحوقين لينثره بعد البيع، والله أعلم.

* * *

الباب الثانى عشر

الحسبة على قلائى السَّمك

يُؤمرون كلّ يوم بغسل قفافهم وأطباقهم التى يحملون فيها السمك، وينثرون فيها الملح المسحوق كلّ ليلة بعد الغسل، وكذلك يفعلون بموازينهم الخُوص؛ لأنهم إذا غفلوا عن غسلها فاح نتنها، وكثر وسخها، فإذا وضع فيها السمك الطَّرِى تغير ريحه، وفسد طعمه. ويبالغون فى غَسْل السمك بعد شقّه، وتنظيفه، وتنقيته من جلده وفلوسه، ثم ينثرون عليه الملح والدقيق، وشرط العشرة أرطال، رطل دقيق، ثم يقلونه بعد أن يجفّ من نداوته. ولا يخلطون السمك البائت بالطرىّ، وعلامة الطرىّ أن خياشيمه محمرّة، والبائت ليس كذلك.

وينبغى للعريف أن يتفقد المَقْلىّ كل ساعة عند غيبة المحتسب عنه؛ لئلا يقلوه بدهن الشحم المستخرج من بطون السمك، ويَخلطوا هذا الدهن بالزيت عند قليه. وأجود ما قلى به الشيرجِ، ولا يقلونه بالزيت المعاد إذا كان متغير الرائحة، ولا يخرجون السمك من المقلَى حتى ينتهى نضجه، من غير سلق و لا احتراق.

فصل

وأما السمك الذى يُحْمَل إلى البلاد، أو يُكْسَد فى المخازن، كالفسيخ، والبطارخ، فلا تقشر فلوسه، ولكن يوثق بالملح، سيما رءوسه وخياشيمه، فإن الدود أول ما يتولد فيها، ومتى مَذر السمك المكسود والطريح[٣]، وجب أن يرمى على المزابل خارج البلد، والله أعلم.

* * *

---

(١) الثريد: طعام خليط من الأرز والخبز والطماطم، ويضاف إليه اللحم، ويُعرف فى مصر بالفتّة.

(٢) شجرة عظيمة ورقها كورق الباس، إلا أنه أحمر وفيه حموضة، ويوجد فى بر الترك . انظر: كشف الرموز (ص٨١).

(٣) هو سمك صغير الحجم يقوم مقام سمك البقلة المجفف فى وقتنا الحاضر.

الباب الثالث عشر

فى الحسبة على الطباخين

ويؤمرون بتغطية أوانيهم، وحفظها من الذباب وهوامّ الأرض، بعد غسلها بالماء الحارّ والأشنان، وألا يطبخوا لحوم المعز مع لحوم الضأن، ولا لحوم الإبل مع لحوم البقر؛ لئلا يأكلها نَاقِه من المرض فتكون سببًا لنكسه، ويعتبر المحتسب عليهم كثرة الأدَام وقلة اللحم، فإن أكثرهم يَسْلُون الدهن ويفرغونه فى القدر، فيطفو على وجه الطعام، فيغترّ به الناس، ويظنونه من كثرة اللحم.

وعلامة لحم المعز فى القدر سوادها وزُهُومَتها[١] ودقة عظامها. ويعتبر عليهم ما يغشّون به الأطعمة، فإنهم يغشون المَضِيرة بالدقيق، فيزيد فى وزنها ويَعْقدها، ومنهم من يعقدها بدقيق الأرز والسميذ الناعم، ومنهم من يغشّ الْبَهَطة[٢] بالقلقاس، وعلامة ذلك كله ميل الطعام إلى السمرة، ومنهم من يعقد اللبنية بالكسب أو بالنشا، ولولا أنى أخاف أن أنبّه من لا دين له على غشّ الأطعمة، لذكرت من ذلك جُملاً كثيرة فى أختلاف أشياء من عناصرها، ولكنى أعرضت عن ذكرها مخافة ممن يتعلّمها، فيعلّمها للناس.

وقد ذكر يعقوب الكندى[٣] فى رسالته المعروفة باسم: كيمياء الطبائخ، ألوان لحم تطبخ من غير لحم، وقَلى كُبود من غير كُبود، ومخ من غير مخ، ونقانق وطردين من غير لحم، وعجة من غير بيض، وجوذاب[٤] من غير أرز، وحلاوة من غير عسل ولا سكّر، وألوان كثيرة من غير عناصرها يطول شرحها، لا يهتدى إليها الطباخون، فأمسكت عن ذكرها. فيعتبر المحتسب عليهم ذلك؛ لئلا يكون أحد يعرفه، والله أعلم.

* * *

(١) الزهومة: الرائحة المنتنة للحم السمين. (اللسان: زهم).

(٢) البهطة: لفظة هندية، وهى الأرز المطبوخ باللبن والسمن. انظر: مفاتيح العلوم للخوارزمى (ص١٠٠).

(٣) هو أبو يعقوب الكندى الطبيب، الفليسوف، الموسيقى، المنجم، الكيميائى، الرياضى. انظر: طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (٢٠٦/١ - ٢١٣).

(٤) نوع من الحلوى يخلط بسكر ولحم وأرز وخبز وبقول.

(Dozy: Supp. Dict. Ar.).

الباب الرابع عشر
فى الحسبة على الهرائسيين

أوسطُ عيار الهريسة[١] من غير حيف على الهرائسيين، ولا تعسير على الناس، لكلّ صاع من القمح ثمانى أواق من لحم الضأن، ورطل من لحم البقر. ويكون لحم الهريسة سمينًا فتيًّا، نقيًّا من الدرن، والغدد، والعروق، والأعصاب، طريًّا غير غثٍّ، ولا متغيَّر الرائحة. وينبغى أن يُجعل فى الماء والملح ساعةً، حتى يخرج ما فى بطنه من الدم، ثم يُخرج ويُغسل بماء غير ذلك، ثم يُنزل فى القدر بحضرة العريف، ثم يُختم بخاتم المحتسب. فإذا كان وقت السَّحر حضر العريف وكسر الخاتم، وهرسوها بحضرة العريف؛ لئلا يشيلوا اللحم منها ويعيدوه إليها من الغد، فأكثرهم يفعل ذلك، وإذا لم يختم عليه القدر.

ومنهم من يغشُّ الهريسة بالقلقاس المدبر، ومنهم من يبتاع الروس المغمومة عند كسادها رخيصة، ثم يَنْسل لحمها ويجعله فى الهريسة. ومنهم من يسلق لحم البقر أو لحم الجمل، ثم يجففه ويدخره عنده، فإذا أمكنه العمل نقعه فى الماء الحارّ ساعة، ثم وضعه فى الهريسة. وربما بقى عندهم فى القدور فضلة، فخلطوها فى الهريسة من الغد، فيراعى المحتسب جميع ذلك بالختم.

فصل

ويكون دهن الهريسة طريًّا طيّب الرائحة، قد عمل فيه عند سليه المصطكى والدارصينى[٢]. ويعتبر المحتسب ما يغشون به الدهن، فإن منهم من يأخذ عظام البقر والجمال والروس، ثم يسلقها سلقًا جيدًا، فيخرج منها دهن كثير، فيمزجونه بدهن الهريسة. والطريق إلى معرفة ذلك أنك تقطر منه شيئًا على بلاطة، فإن سأل ولم يجمد، أو كان لونه مُشفًّا[٣]، فهو مغشوش بما ذكرناه. ويأمرهم المحتسب بغسل قدور الدهن وتنظيفها وتمليحها؛ لئلا تتغيّر رائحتها وطعمها، فيتولّد فيها الدود، فإذا أعيد الدهن إليها ثانيًا، صار متغيّرًا فى الرائحة والطعم، والله أعلم.

* * *

---

(١) نوع من خليط الحلوى المعروفة.

(٢) الدارصينى: معرب عن دارشينى الفارسى، شجر هندى كالرمان، وأوراقه كورق الجوز، إلا أنها أدقّ، ولا زهر لها، ولا بذر له. وانظر: تحفة ابن البيطار (ص٢٠٠) بتحقيقنا.

(٣) أى الشفاف الدقيق الذى يمكن رؤية ما وراءه. انظر: تاج العروس (شف).

الباب الخامس عشر

فى الحسبة على النقانقين[(١)]

الأوْلى أن تكون مواضعهم التى يصنعون فيها النَّقانِق بقرب دكّة المحتسب؛ ليراعيهم بعينه، فإن غشّهم فيها كثير لا يكاد يعرف. ويأمرهم بتنقية اللحم، وجودته، واستسمانه، ونعومة دقّه على القُرم النظيفة. وليكن عنده واحد حين يدقّ اللحم، بمذبة يطرد بها الذباب. ولا يخلطون معه البصل، والأبازير، والتوابل إلا بحضرة العريف؛ ليعلم مقداره بالوزن، ثم يحشونه بعد ذلك فى المصارين النقية. ويعتبر عليهم ما يغشّون به النقانق، فإن منهم من يغشها بلحوم الروس المغمومة، ومنهم من يغشها بالكُبُود والكلى والقلوب، ومنهم من يغشها باللحوم الواقعة الهزيلة، أو يخلطها بلحوم الإبل والبقر الواقعة. ومنهم من يرشّ الماء على اللحم وقت دقّه، فيمنعهم المحتسب من ذلك. ومنهم من يحشو السَّنبوسَك[(٢)] بلحوم السمك المشوية والتوابل، ومنهم من يغشها بالباقلا المنبت المقشور، وبياض البصل.

ويُعرف جميع ذلك بأن يشقَّ المحتسب النقانق قبل قليها، فينظر ما فيها للعين. وإذا نضجت فى المقلاة، فلا تكاد تعرف؛ لأنهم ينخسونها بالسفُّود إذا قاربت النضج، فيسيل ما فيها من الغش وتُنضجه النار فلا يعرف. ويكون دهنها الذى تقلى به طيب الطعم والرائحة، غير عتيق ولا متغيّر، ثم ينثرون عليها بعد قليل الأبازير الطيّبة والتوابل المسحوقة الصالحة لها، والله أعلم.

* * *

الباب السادس عشر

فى الحسبة على الحلوانيين

الحلْوى أنواع كثيرة وأجناس مختلفة، لا يمكن ضبطها بصفة ولا عيار، أخلاطها على قدر أنواعها، مثل النشا، واللوز، والخشخاش، وغير ذلك، فقد يكون ذلك كثيرًا فى نوع، وقليلاً فى نوع آخر، وإنما يُرجع فى معرفة ذلك كلّه إلى العريف. وينبغى أن تكون الحلوى تامّة النضج، غير نيئة ولا محترقة. ولا تبرح المذبّة فى يده، يطرد عنها الذباب.

---

(١) هم صانعى المصارين المحشوة باللحم وخليط التوابل والبصل متبلاً.

(٢) السنبوسك: طعام يُعمل من لحم فخذ الضأن.

ويعتبر المحتسب عليهم ما يغشّون به الحلوى، فإنه كثير، فمن ذلك أنهم يمزجون العسل النحل برُبِّ الكَرْم، وعلامة غشّه أنه إذا حُمل على النار ظهرت رائحة الـرُّب[١]، ومنهم من يمزج العسل القصب، وهو الذى يسمونه القَّطارة، بالدّبس[٢]، وعلامة غشّه أنه يركد فى أسفل الإناء، ومن الحلوى ما يُغَشّ بالدقيق، والنشا، وبدقيق الأرز، وبدقيق العدس، وبقشر السمسم، وعلامة غشه أنه يطفو على وجه الماء إذا طُرح فيه. وقد يغشّون ناطِف الخشخاش بالسميذ، وعلامة غشّه أنه يطفو على وجه الماء، وأيضًا فإنه يظهر فى مكسره، وقد يغشّون الناطف الهياجى بالسميذ المقلوِّ بالكشك[٣]، وقد يغشون الناطف الأصفر بالفتيت، وعلامة غشّ الجميع أنه يطفو على وجه الماء، ومنهم من يغشّ البسندود بالفتيت، وربما عملوه بدقيق العدس.

ومنهم من يغشّ كعب الغزال والمشاش بالقَنْد، وعلامة غشّه ميله إلى السمرة والسواد. ومنهم من يغشّ الزَّلاَبية المشبكة بالقند المحلول، عوضًا من العسل. وقد يغشّون الخبائص الناعمة والرطبة والصابونية بالنشا الخارج عن الحدّ، وعلامة غشّها أنها تَتَفَتّت، وإذا باتت حمرت. ومنهم من يغشّ النوبية بالدقيق، ومنهم من يغشّ الخشكنانج الذى يخبز فى التنور، فإنه إذا كان مغشوشًا وقع فى التنور وسقط. وجميع غشوش الحلاوة لا تخفى فى منظرها وذوقها، فيعتبر عليهم المحتسب جميع ذلك، والله أعلم.

* * *

الباب السابع عشر
فى الحسبة على الصيادلة

تدليس هذا الباب والذى بعده كثير، لا يمكن حصر معرفته على التّمام، فرحمَ الله من نظر فيه، وعرف استخراج غشوشه، فكتبها فى حواشيه تقربًا إلى الله تعالى، فهى أضرُّ على الخلق من غيرها؛ لأن العقاقير والأشربة مختلفة الطبائع والأمزجة، والتداوى على قدر أمزجتها، فمنها ما يصلح لمرض ومزاج، فإذا أضيف إليها غيرها أحرفها عن مزاجها، فأضرت بالمريض لا محالة، فالواجب على الصيادلة أن يراقبوا الله عزَّ وجلَّ فى ذلك.

---

(١) الرُّب: عصارة التمرة بعد طبخها حتى تصير غليظة. انظر: نهاية الأرب (١١/٨٩).

(٢) الدبس: عسل التمر وعصارته.

(٣) للكشك أنواع وعدة طرق لعمله وطبيخه. وانظر: فن الطبيخ الحديث (ص١٥٤، ١٥٥) ط/ دار الأندلس- بيروت.

وينبغي للمحتسب أن يخوّفهم، ويعظهم، ويُنذرهم العقوبة والتعزير، ويعتبر عليهم عقاقيرهم فى كلّ أسبوع، فمن غشوشهم المشهورة أنهم يغشّون الأفيون[١] المصرى بشياف ماميتا، ويغشّونه أيضًا بعصارة ورق الخس البرّى، ويغشّونه أيضًا بالصمغ، وعلامة غشّه أنه إذا أُذيب بالماء ظهرت له رائحة كرائحة الزعفران، إن كان مغشوشًا بالماميتا، وإن كانت رائحته ضعيفة، وهو خشن، كان مغشوشًا بعصارة الخس، والذى هو مّر صافى اللون ضعيف القوة، يكون مغشوشًا بالصمغ. وقد يغشّون الرّواند الصينى بنبتة يقال لها: رواند الدواب، تنبت بالشام، وعلامة غشّه أن الرواند الجّيد هو الأحمر الذى لا رائحة له، ويكون خفيفًا، وأقواه الذى يسلم من السوس، وإذا نقع فى الماء كان فى لونه صفرة، وما خالف هذه الصفة كان مغشوشًا بما ذكرناه.

وقد يغشّون الطباشير بالعظام المحروقة فى الأَتَاتين، ومعرفة غشّها أنها إذا طرحت فى الماء رسب العظم وطفا الطباشير. وقد يغشّون اللّبان الذكر بالقلفونية والصمغ، ومعرفة غشه أنه إذا طرح فى النار التهبت القلفونية ودخنت وفاحت رائحتها. وقد يغشون التمر هندى بلحم الأجاص. وقد يغشّون الحضض بعكَر الزيت ومرائر البقر فى وقت طبخه، ومعرفة غشّه أنه إذا طرح منه شيء فى النار، فإن الخالص يلتهب، ثم إذا أطفيته بعد الالتهاب يصير له رغوة كلون الدم، وأيضًا فإن الجيد منه أسود، ويرى داخله ياقوتى اللون، وما لا يلتهب وما لا يرغى يكون مغشوشًا بما ذكرناه.

وقد يغشون القَسْط[٢] بأصول الرَّاسِن[٣]، ومعرفة غشّه أن القسط له رائحة، وإذا وُضع على اللسان يكون له طعم، والرَّاسن بخلاف ذلك. وقد يغشّون زغب السنبل بزغب القلقاس، ومعرفة غشّه أنه بوضعه فى الفمّ يغثى ويحرق. وقد يغشّون الأَفْرِبْيُون[٤] بالباقلا اليابس المدقوق، وقد يغشّون المصطكى بصمغ الأبهل. ومنهم من يغشّ المُقل[٥] بالصمغ القوىّ، ومعرفة غشّه أنّ الهندى تكون له رائحة ظاهرة إذا بُخّر به، وليس فيه

---

(١) هو عصارة الخشخاش (أبو النوم) وأجوده ما أخذ بالمشرط، وأضعفه ما يؤخذ منه بالطبيخ أو العصر. انظر: تحفة ابن البيطار (ص١٧٨) بتحقيقنا أحمد فريد.

(٢) القسط: يُقصد به هنا العود، ومنه أبيض رقيق، وهو أجوده، والآخر يميل إلى السواد، ويُسمى بالعود الهندى. انظر: نهاية الأرب (١/٤٩ - ٥٢).

(٣) هو الجناح شربته إلى مثقال بدله سعد ونصفه شقاقى.

(٤) ساقه شوكية مستطيلة، كثير العصارة، ينمو بإفريقيه. انظر: عمدة المحتاج للرشيدى (١/٢٣١).

(٥) هو علك الدوم، وهو نوعان: أزرق حار يابس فى الثانية، وأسود وهو للرطوبة أميل بارد يابس، ويقال: مقل اليهودى.

مرارة، والأفْتِيمُون[١] الإقريطشى يغشّونه بالشامى، وليس بضارّ، ويغشّونه أيضًا بزغب البِسْبَايج[٢].

ومنهم من يغشّ المحمودة بلبن اليتوع المجمّد، ومعرفة غشّها أن توضع على اللسان، فإن قرصته فهى مغشوشة. ومنهم من يغشّها أيضًا بنشارة القرون، وتعجن بماء الصمغ على هيئة المحمودة، ومنهم من يغشّها بدقيق الباقلا ودقيق الحمص، ومعرفة غش ذلك كله أن الخالصة صافية اللون مثل الغرى، والمغشوشة بخلاف ذلك. وقد يغشون المرّ بالصمغ المنقوع فى الماء، وصفه غشّه أن الخالص يكون خفيفًا ولونه واحد، وإذا كسر ظهر فيه أشياء كشكل الأظفار ملساء، تشبه الحصى، وتكون له رائحة طيبة، وما كان منه ثقيلاً، ولونه لون الزفت، فلا خير فيه. ومنهم من يغشّ قشر اللّبان بقشور شجر الصنوبر، وصفة غشّه أن يلقى فى النار، فإن التهب وفاحت له رائحة طيبة فهو خالص، وإن كان بالضدّ فهو مغشوش، ومنهم من يغشّ المرزنجوش ببزر الحندقوق.

وقد يغشّون الشمع بشحم المعز وبالقلفونية، وقد يذرون فيه عند سبكه دقيق الباقلا، أو الرمل الناعم، أو الكحل الأسود المسحوق، ثم يُجعل ذلك بطانة فى الشمعة، ثم يُغشى بالشمع الخالص، ومعرفة غشّه أنك إذا أشعلت الشمعة، ظهر فيها ذلك. وقد يغشون الزنجار بالرخام والقلقند، ومعرفة غشه أن تبلّ إبهامك وتغمسها فيه، ثم تدلك بها السبَّابة، فإن نَعِمَ وصار كالزبد فهو خالص، وإن ابيضّ وتحبَّب فهو مغشوش، وأيضًا يترك منه شيء بين الأسنان، فإن وجدته كالرمل فهو مغشوش بالرخام، وأيضًا تُحمى صفيحة فى النار، ثم يذرّ عليها، فإن أحمرّ فهو مغشوش بالقلقند، وإن اسودّ فهو خالص.

وقد يختارون من الإهليلج[٣] الأسود إهليلجاً أصفر، ويبيعونه مع الكابلى، ويختارون من الإهليلج الأصفر المعصَّب حُباشة الكابلى، ويبيعونه مع الكابلى. وقد يرشّون الماء

---

(١) التسمية: يونانية، ومعناها: دواء الجنون، وهو نبات له أصل كالجزر شديد الحمرة، وهو عبارة عن بذور وزهور وقضبان صغار متهشمة، ويسكن النفخ، ويذهب أمراض السوداء، وينفع من التشنج، وهو حار حريف الطعم، أحمر البذر.

(٢) البسبايج: نبات ارتفاعه نحو شبر، وهو دقيق الورق، يشبه ورق اللبلاب، وزهره أبيض، وعضلاته صمغية، ويستخدم كمسّهل. انظر: ابن البيطار (١١٧/٣، ١١٨).

(٣) أهليلج: كابلى، وأصفر، وصينى، وهندى. انظر: تحفة ابن البيطار (ص١٧٩) بتحقيقنا.

على الخِيارشُنبر[1] وهو ملفوف فى الأكسية عند بيعه، فيزيد رطله نصف رطل. ومنهم من يأخذ اللَّك ويسكبه على النار، ويخلط معه الآجُرّ المسحوق والمغرة، ثم يعقده ويبسطه أقراصًا، ثم يكسره بعد جفافه ويبيعه على أنه دم الأخوين[2]. ومنهم من يدقّ العلَك دقّا جريشًا، ثم يجعل فيه شيئًا من الجاوشير، ويطبخه على النار فى عسل النحل، ويلقى فيه شيئًا من الزعفران، فإذا غلى وأرغى، طرح فيه العلك، وحرَّكه إلى أن يشتدّ، ثم يعمله أقراصًا إذا برد، ويكسره ويخلط معه الجاوشير، فلا يظهر فيه.

وأما جميع الأدهان الطبية وغيرها، فإنهم يغشّونها بدهن الخلّ بعد أنْ يُغْلَى على النار، ويُطرح فيه جوز ولوز مرضوض، ليزيل رائحته وطعمه، ثم يمزجونه بالأدهان.

ومنهم من يأخذ نوى المشمش والسمسم، ثم يعجنهما بعد دقّهما، ويعصرهما ويبيع دهنهما على أنه دهن لوز. ومنهم من يغشّ دهن البَلْسان بدهن السّوسن، ومعرفة غشّه أن يُقطر منه شيء على خرقة صوف ثم يغسل، فإن زال عنها ولم يؤثّر فيها فهو خالص، وإن أثّر فيها كان مغشوشًا، وأيضًا فإن الخالص منه إذا قُطر فى الماء ينحلّ ويصير فى قوام اللبن، والمغشوش يطفو مثل الزيت، ويبقى كواكبًا فوق الماء.

وقد أعرضتُ عن أشياء كثيرة فى هذا الباب لم أذكرها لخفىّ غشّها، ولامتزاجها بالعقاقير، مخافة أن يتعلّمها ممن لا دين له، فيدلّس بها على المسلمين، وإنما ذكرتُ فى هذا الباب وفى غيره ما قد اشتهر غشّه بين الناس، ويتعاطاه كثير منهم، وأمسكتُ عن أشياء غير مشهورة، قد ذكر أكثرها صاحب كتاب كيمياء العطر، فرحم الله من وقع فى يده ذلك الكتاب، فمزّقه وحرقه تقربًا إلى الله عزَّ وجلَّ.

* * *

الباب الثامن عشر

فى الحسبة على العطارين

غشوش العطر كثيرة مختلفة أيضًا، لاختلاف أجناس الطّيب وأنواعه، وتجانس العقاقير

---

(١) هو شجر فى حجم الخرنوب، ويجلب من البلاد الحارة، له زهر أصفر يضرب إلى البياض، وأجود استعماله طبخه مع التين.

(٢) هو عصارة حمراء معروفة، لمنع النزف ولزق الجروح والقروح. وانظر: تحفة ابن البيطار (ص٢٠٢) بتحقيقنا.

الطيبة وتقاربها فى الرائحة، وسأذكرُ من ذلك ما أشتهر غشّه وصنعته، وأعرضُ عما خفى غشّه وصنعته، ولا يتعاطاه كثير منهم، فمن ذلك أنهم يعملون نافجة[١] المسك من قشور الأملج[٢] والشَّيطرج[٣] الهندى، ومثلها شادوران، ويعجنونه بماء صمغ الصنوبر، ويجعلون كل أربعة دراهم من هذا درهم مسك، ويحشون به النافجة، ويسدّون رأسها بالصمغ، ثم يجففونها على رأس تنور، ومعرفة غشّها وسائر غشوش النوافج، أن يفتحها المحتسب ويلثمها، كالمتحشّى للشىء، فإن طلع إلى فيه للمسك حدّة كالنار، فهو محل لا غشّ فيه، وإن كان بالضدّ فهو مغشوش.

ومنهم من يعمل نافجة من الأملج والشادوران الذى قد نزع صبغه بالماء الحار، ومعهما الأنزورت، ويعجنه بماء الصمغ ويخدمه، ثم يجعل لكلّ ثلاثة دراهم منه درهم مسك صُغْدِىّ، ويسحق الجميع ويحشى منه النّافجة، ثم يجففه على تنّور، ومعرفة غشّه بما ذكرناه. ومنهم من يعمل نافجة بقشور البلّوط المخدوم بالنار، ويخلط منه لكل ثلاثة داهم درهم مسك، ثم يحشى به النافجة، ومعرفه غشّه بما ذكرناه. ومنهم من يعمل مِسْكًا بغير نافجة، من زرواند ورامك ودم أخوين، ويعجن الجميع، ويعمل للدرهم الواحد درهم مسك.

ومنهم من يعمل مِسْكًا من سنبل الطِّيب، وبرادة العود، وقرفة، وقرنفل، ويخلط بمثله مسكًا. ومنهم من يعمل من القرنفل، وشادوران، وزعفران، ويعجن الجميع بماء ورد ويخلط بمثله، ويحشون جميع ذلك عنبرًا، ومعرفة غِشّ جميع هذه الأنواع وغيرها من أنواع المسك، أن تطَرح منها شيئًا فى فِيك، ثمّ تتفله على قميص أبيض، ثم تنفضه، فإن انتفض ولم يصبغ، فلا غشّ فيه من دمٍ وغيره، وإن صبغ ولم ينتفض فهو مغشوش.

ومنهم من يلقى على المسك الخالص شيئًا من دم الأخوين، أو دم الجداء، ومنهم من يسحق المسك بدم الغزال، ثم يحشيه فى مصرانها، ويشدّه بخيط، ثم يجفّفه فى الظِّل، ثم يشقّ عنه ويخلطه مع غيره فى القوارير، ومنهم من يغشّه بالكبود المحروقة، ومعرفة غشّ ذلك بما ذكرناه. ومنهم من يطرح مع المسك رصاصًا على مقدار الفلفل وأصغر من ذلك، مصبوغًا بالمداد، فلا يتبيّن إلا عند السحق.

---

(١) جلد يجتمع فيه المسك.

(٢) شجر ينمو بالهند، يشبه الكمثرى، يستخدم للعقاقير.

(٣) نبات هندى ينمو فى القبور، والحيطان العتيقة، والأماكن المهجورة، وهو دائم النضرة، له رائحة حادة. انظر: القانون (١/٤٣٤).

فصل

وأما العنبر، فمنهم من يعمله من زَبَد البحر، والصمغ الأسود، والشمع الأبيض، والسَّندروس[١]، وجوزة الطيب، ويخدمه ويخلطه بمثله. ومنهم من يعمله من زَبَد البحر، والسَّندروس، والعود، والسنبل، وبعر الضبّ، ويخدمه ويدفنه فى بطون الخيل، ثم يخرجه ويخلطه بمثله، وربما عُمل على شكل تمثال، أو قلائد، أو غير ذلك. ومنهم من يعمله من المسك والشمع والعنبر، وقد يطلون جماجم العنبر بالسَّندروس، فيجب أن تُحرق رءوسها حتى تُعلم سلامتها منه ومن غيره، وربما حُفرت جماجم العنبر وألقى فيها قطع الرصاص، ومعرفة غشّ جميع ما ذكرناه أن يُجعل منه شيء فى النار، فلا تخفى رائحة شيء من ذاك، وتظهر رائحة الأخلاط فيه، وأيضًا فإنه لا يجفّ، وإن كان فيه سندروس فهو يتفتّت.

فصل

وأما الكافور[٢]، فإن منهم من يعمله بنخالة رخام الخرَّاطين المدبَّر، ومنهم من يعجن الكافور بماء الصمغ الأبيض، ويَنْجره على الغرابيل، ومنهم من يعمله من حجارة النوشادر، ويكسِّره صغارًا ثم يخلطه به، ومنهم من يعمله من ذريرة غير مفتوتة، وجبسين غير مشوىّ، وصمغ أبيض، ومِثْل الجميع كافور، ومنهم من يعمله من خشب الخروع النخر، والأرز المدبَّر، ومنهم من يعمله من نوى البلح بِدَقِّه حتى يصير مثل الزبد، ويجعل عليه مثله كافور، ثم يعجنه بماء الكافور، ويبسطه رقيقًا، فيبقى مثل الكافور، ومعرفة غشوش الكافور التى ذكرناها وما لم نذكرها هو أن يُلقى منه شيء فى الماء، فإن رسب فهو مغشوش، وإن طفا فهو خالص، وأيضًا يلقى منه شيء على خرقة، ثم يجعل على النار، فإن طار ولم يلبث فهو خالص، وإن احترق وصار رمادًا فهو مغشوش.

---

(١) صمغ شجرة يسيل قطعًا صغيرة سهلة الكسر، وله رائحة وطعم طيبين مثل الصنوبر. انظر: عمدة المحتاج للرشيدى (٢/٧٨٦).

(٢) الكافور: شجرة كبيرة مستديمة الخضرة، هندية، تكون فى تخوم سرنديب، قال بعضهم: إن شجرة الكافور كبيرة تظل خلقًا كثيرًا، وتنبت هذه الشجرة فى نواحى الصين، وخشب الكافور أبيض هش خفيف جدًا، وإن كثرة استعماله يُسرع الشيب، ويمنع الأورام الحارّة . انظر: تحفة ابن البيطار (ص٢٢٤)، بتحقيقنا.

فصل

ومنهم من يغشّ الزعفران الشعر بصدور الدَّجاج ولحوم البقر، بعد سلقها بالماء، ثمّ ينشر ما شاء منها، ويقدّده ويصبغه بالزعفران، ثم يجفّفه ويخلطه فى السّلال، ومعرفة غشّه أن يأخذ المحتسب منه شيئًا وينقعه فى الخلّ، فإن تقلَّص فهو مغشوش باللحم، وأيضًا يتغيّر لونه إذا وُضع فى الخلّ، والخالص يبقى لونه على ما كان عليه.

ومنهم من يقطع الأكشوت مثل شعرة الزعفران، ثم يطبخه بمطبوخ البَقَّم[1]، ويضيف إليه شيئًا مصبوغًا بماء الزعفران، ويذرّ عليه قليل سكر مدقوق، ليثقل ويلصق بعضه ببعض، ثم يخلطه بمثله زعفران، ويرفعه فى السّلال، وبيان غشه أن تأخذه فى فِيك، فإن كان حلوًا فهو مغشوش بما ذكرناه. ومنهم من يأخذ نبات الحلبة، وينقعه فى خمر عتيق قد ترك فيه فلفل وكركم[2] منخولان وزعفران أيامًا معلومة، ثم يبسطه فى الظّل، ويخلطه فى السّلال، ومعرفة جميع غشوش الزعفران أن يكون يابس الشعرة، فخذْ من وسط السلّة، فإنه يتبين لك الغشوش بيباسته.

ومنهم من يطحن الزعفران المغشوش ناعمًا؛ لئلا يظهر غشه، ويخلط معه فى الطحن دم الأخوين، ليبقى لونه على ما كان عليه، فإن المغشوش إذا طحن ابيضَّ لونه، فيجعلون معه دم الأخوين، ومعرفة غشّه أن يُلقى منه شيء فى الماء فى قدح زجاج، فإن رسب منه شيء فهو مغشوش، وإن طفا فهو خالص. ومنهم من يغشّه بالزجاج المسحوق، ومعرفة غشّه بما ذكرناه. ومنهم من يغشّه بالنشا المسحوق، ومعرفة غشّه أنه إذا وضع على النار فى إناء فيه ماء فإنه ينعقد ويَتَدَبّق. ومنهم من يغشّه بالخلوق[3]، ومعرفة غشّه أنه إذا وُضع فى الخلّ والخردل احمرّ لونه وصبغ، وقد يستحلّ قوم منهم أن يقيم قرطاسًا فى وسط البرنية[4]، ويملأ جانبها الواحد خلوقًا، والجانب الآخر زعفرانًا مسحوقًا، ثم يدفع إلى كلٍ بمقدار معرفته.

---

(١) البقم: خشب أحمر اللون، يوجد ببلاد الهند وجزائره، ويستخدم فى تركيب الأصباغ، ويُستخدم فى تزيين المخطوطات. كما ذكر ابن باديس وغيره من علماء التفسير.

(٢) الكركم: عيدانه صفراء من نبات معروف، وهو يُستعمل فى الصباغة. انظر: المخصص (٢١١/١١).

(٣) نوع من الطيب يضاف للزعفران لخلطه غشًا. انظر: نهاية الأرب (١٣٩/١١).

(٤) البرنية: نوع من الخزف والآنية. انظر: الإفصاح للصعيدى (ص١٨٨).

فصل

وأما الغالية[١]، فمنهم من يجعل أصلها من القطران المدبَّر، ثم يجعل على كلّ درهمين منه درهم مسك جيد، ودرهم عود مسحوق، ودرهم سكّ لادن مسبوك على النار، ويضيف إليه نصف مثقال عنبر، ويخلط الجميع فى أربعة مثاقيل دهن بان، فيجىء غالية لا تكاد تعرف، ومنهم من يعمل جسدها من نخالة الرخام الرخو والشادوران المدبِّر، ويجعل على كلّ درهمين منه ما قد ذكرنا من الطيب.

ومنهم من يعمل جسدها من الفستق، ويجعل عليها للواحد واحدًا. ومنهم من يجعل جسدها من السمسم الحديث المقشّر، والقرطاس المحرّق، ويجعل عليها الطيب المعروف. ومنهم من يعمل جسدها من شمع الشادوران وعيدانه، ويجعل عليها الطيب المعروف، وجميع هذه الغوالى المغشوشة لا تخفى على المحتسب والعريف، من اللون والرائحة والقَوَام، فيجب أن يراعيها كلّ منهما بعينه، فأكثر من يبيعها الدّوَّارُون والذين يجلسون على الطرقات ممن لا دين له.

وأما الزّباد، فغشوشه كثيرة، ولا فرق بين جسده وجسد الغالية فى الغشِّ، وإنما الاختلاف فى وزن الخميرة، فأعرضتُ عن ذكر ذلك لشهرته.

فصل

ومنهم من يغشُّ العود الهندى، فيأخذ الصندل يبرده نظير العود، وينقعه فى مطبوخ الكرم العتيق، ثم يدرجه ويخلطه بالعود الهندى، ومعرفة غشّه أن يُلقى منه شىء فى النار، فتظهر رائحة الصّندل. ومنهم من يعمله من قشور خشب يقال له: الإبليق[٢]، فينقعه فى ماء الورد المدبَّر بالمسك والكافور أيامًا، ثم يخرجه ويغليه ويدرجه. ومنهم من يعمل هذه الصفة من خشب الزيتون، ومعرفة غشّه أن يُلْقى منه شىء فى النار، فلا يخفى غشّه.

فصل

ومنهم من يغشّ دهن البان، فيعمله من دهن حبِّ القطن، أو دهن نوى المشمش،

---

(١) الغالية خليط من المسك والعنبر يعجنان بلبان الذكر، والذى سماها بذلك معاوية. انظر: المخصص (١١/١٠٢).

(٢) الإبليق: خشب ذو لونين أبيض وأسود، ويُستخدم فى زخرفة الأضرحة وآلات الطرب مثل العود وغير ذلك.

ويعتّقه بشىء من المسك الصُّغْدى والأفاويه، ومنهم من يعمله أيضًا من زيت الأنفاق، ثم يعتّقه ويطرح فيه أطراف الآس، فيجىء فيه خضرة، ويقارب المدائنى. ومنهم من يصعِّد عقد الصنوبر وقشور الكُنْدر، فلا يُشكّ أنه ماء كافور، ومعرفة غشّه أن يقطر المحتسب منه شيئًا على خرقة بيضاء، ثم يغسلها، فإن علق فيها وأثّرَ فهو مغشوش بما ذكرناه فى هذا الكتاب. ولا يتجاسر على عمله وبيعه إلا الغرباء الأعاجم، ومن يدور فى خلال الدروب، فلا يهمل المحتسب الكشف عن ذلك كلّه، وإشهار فاعله بالتعزير على ما تقدّم.

* * *

الباب التاسع عشر

فى الحسبة على الشَّرابيين[١]

لا يعقد الأشربة ويركّب المعاجين والجوارشنات إلا من اشتهرت معرفته، وظهرت خبرته، وكثرت تجربته، وشاهد تجريب العقاقير ومقاديرها من أربابها وأهل الخبرة بها، ولا يركبها الشرابىّ إلا من الكنّاشات المشهورة، والأقراباذينات المعروفة، مثل أقراباذين سابور[٢]، والملكى، والقانون، وغير ذلك مما يوثق به، وعليه أن يتقى الله عزَّ وجلَّ، ويخشى اليوم الآخر من التهاون بها والتفريط بأوزانها، وأن يدخل عليها ما ينافيها ويسلبها خاصيتها، مثل عسل القصب المدبَّر باللبن الحليب والخلّ والإسفيداج، فإن هذا يعمله كثير منهم، فيخرج صافى اللون، طيّب الطعم والرائحة، فيركّب منه الأشربة والمعاجين بدلاً من السكر وعسل النحل، فيحلّفهم المحتسب أنهم لا يعملونه؛ لأنه يضرُّ، ويحرف الأمزجة ويفسدها.

ومعرفة غشّه أنه لابدّ أن يرجع إلى السواد إذا أضيف إلى غيره من الأشربة، وتظهر فيه رائحة الخلّ إذا مضت عليه مدّة، وأيضًا يطرح المحتسب منه شيئًا فى وسط الراحة، ويقطر عليه الماء، ثم يحلّه بأصبعه، فإن العسل يبيضّ مثل الفانيد.

وينبغى أن يعتبر المحتسب عليهم الأشربة فى رأس كلّ شهر، فما وجد فيها حامضًا لتطاول المدّة عليه ومتغيرًا، فليس لصاحبه أن يعيده إلى الطبخ ثانيًا، لفساد مزاجها،

---

(١) صناع الأشربة ويعرف حاليًا بالصيدلى.

(٢) أى سابور بن سهل النصرانى، رئيس بيمارستان جنديسابور فى عهد الخليفة المقتدى بالله، توفى سنة ٢٥٥هـ. انظر: طبقات الأطباء (١/١٦١).

وانحراف طبعها، سوى شراب الورد، وشراب البنفسج، فإن تغيّرَهما يكون سريعًا، وردَّهما إلى الطبخ يزيدهما قوة وبقاءً ونفعًا للمعدة. والسكنجبين البزورى، متى كان لونه مائلاً إلى السواد، فهو مغشوش بعسل القصب المذكور، وكذلك المعاجين، إذا تغيَّرت فى البرانى وحمضت أو نتنت، تكون مغشوشة بما ذكرناه. وينبغى للصانع أن يقوّى عقد جميع الأشربة حتى يصير لها قَوَام، وإذا عقد من العنّاب شرابًا قوّاه بكثرته فيه؛ لأنه يزاد لطفى الدم. ومنهم من يعجن عكر الخلّ بدبس وشادوران، ثمّ يقرّصه ويبيعه على أنه عصارة برباريس.

* * *

الباب العشرون
فى الحسبة على السَّمَّانين

يعتبر المحتسب عليهم المكاييل والموازين والأرطال، على ما قدّمنا ذكره فى بابه، ويُنهَون عن خلط البضاعة الرديئة بالجيدة، إذا اشتروا كلّ واحدة منها على انفرادها بسعر، وعن خلط عتيق التمر والزبيب بالجديد، وألاّ يرشّوا الماء على التمر والزبيب ليرطّبه ويزيد فى وزنه، وألاّ يدهنوا الزبيب بالزيت، ليصفى لونه ويحسن منظره. ومنهم من يمزج العسل القصب بالماء الحارّ، ويرشَّه على الرّطب، ومنهم من يغشّ الزيت وقت نفاقه بدهن القرطم، ومعرفة غشّه أنه إذا ترك على النار يكون له دخان عظيم يخنق.

ومنهم من يخلط الشيرج لوقته، ومنهم من يمزج الزيت الذى قد ترك فيه الجبن فى الخوابى بالزيت الصافى، ومعرفة غشّه أنه يفقّع فى السراج، وأيضًا يكون زفرًا، وأكثرهم يغش الخلّ بالماء، ومعرفة غشّه أنّ الخالص إذا صُبَّ منه شىء على الأرض نشَّ(١)، والمشوب بالماء لا ينشّ، وأيضًا إذا وُضعت فيه حشيشة الطحلب، فإنها تشرب الماء دون الخلّ. وكذلك اللبن المشوب بالماء إذا طرحت فيه هذه الحشيشة فصلت بين الماء واللبن، وأيضًا يعرف غشّ اللبن بالحليب بأن يغمس المحتسب فيه شعرة، ثمّ يخرجها، فإن لم يعلق عليها شىء من اللبن يكون مغشوشًا بالماء، وإن علق اللبن وتكوكب كان خالصًا.

ويعتبر المحتسب عليهم المخلّل على اختلاف أجناسه، إذا طرح عليه الكرج، فكلما كان مجسُّه يابسًا قويًا أعيد إلى الخلّ الثقيف، وكلما لان مجسّه رُمى به، فإنه قد فسد،

---

(١) النش: سماع الصوت للزيت أو السمن عند صبّه. انظر: اللسان (نش).

ومتى حمضت عندهم الكوامخ، يأمر المحتسب بإراقتها خارج البلد، فإنها لا تصلح بعد حمضها، وكلما تغيَّر عندهم أو فسد ودوَّد شيء من الجبن المكسود فى الخوابى، والشحوم، والأدهان، فلا يجوز لهم بيعه؛ لما فيه من الضرر بالناس، وكذلك الكبر إذا دوِّد فى خوابيه.

وينبغى أن يمنعهم المحتسب من عمل المرْى المطبوخ على النار، فإنه يورث الجذام. ومنهم من يعمل مرْيًا يبيعه من يومه، وهو أن يأخذ ربّ الخرنوب، أو عسل القصب، والكموّن، والكراويا، والسماق، ويلتّ الجميع بدقيق الشعير، وهذا أيضًا كثير المضرّة، فيمنعهم المحتسب من عمله. وقد يخلطون الأبازير بعضها ببعض، ومنهم من يخلط الكراويا ببزور حشيشة يقال لها: عين الحيَّة، تشبه الكراويا فى اللون، إلا أن حبّها أكبر قليلاً، ولا رائحة لها، فيعتبر المحتسب ذلك عليهم. وقد يغشّون الدبس البعلبكى بدقيق الحورى والكدان[١]، ومعرفة غشّه أنه إذا جُعل منه شيء فى الماء رسب الحوارى فى أسفل الإناء، وربما بقى للماء رغوة. وأكثرهم يمزجون العسل النحل بالماء، وعلامة غشّه أنه يبقى فى زمن الشتاء محبّبًا كالسميذ، وفى زمن الصيف يكون مائعًا رقيقًا. ومنهم من يدقّ قشور الرمان ويغشّ بها الكركم، وقد يغشّون الحنا بالرّمل والخطمى، ومعرفة غشّه ظاهرة. وقد يغشّون الزفت برماد القصب أو بالرمل، وكذلك يغشّون القار.

فصل

وينبغى أن تكون بضائعهم مصونةً فى البرانى والقطارميز[٢]؛ لئلاّ يصل إليها شيء من الذباب وهوامّ الأرض، أو يقع عليها شيء من التراب والغبار ونحو ذلك، وإن وضعوها فى قفاف الخوص فلا بأس بها إذا كانت مغطاة بالميازر[٣]، وتكون المذبة فى يده، يذبُّ عن البضاعة بها الذباب. ويأمرهم المحتسب بنظافة أثوابهم، ويأمرهم بغسل مغارفهم وآنيتهم وأيديهم، ومسح موازينهم ومكاييلهم على ما ذكرناه. ويتفقد المحتسب أصحاب الحوانيت المنفردة فى الحارات و الدروب الخارجة عن الأسواق، ويعتبر عليهم بضائعهم وموازينهم فى كلّ أسبوع، على حين غفلة منهم، فإن أكثرهم يدلّس بما ذكرناه.

* * *

---

(١) هو نوع من الحصى يُؤخذ من التربة الصلبة.

(٢) هو عاء من الفخار قصير العنق واسع الفوهة.

(٣) مفرده مئزر: الثوب القصير الذى يستر الجسم من السرة إلى أسفل.

الباب الحادى والعشرون

فى الحسبة على البزَّازين

وينبغى ألا يتّجر فى البَزّ إلا من عرف أحكام البيع وعقود المعاملات، وما يحلّ له منها، وما يحرّم عليه، وإلا وقع فى الشبهات، وارتكب المحظورات. وقد قال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: لا يتّجر فى سوقنا إلا من تفقّه فى دينه، وإلاّ أكل الربا، شاء أو أبى. وقد رأيتُ فى هذا الزمان أكثر باعة البَزِّ فى الأسواق يفعلون فى بياعاتهم ما لا يحلّ عمله، مما سنذكره إن شاء الله تعالى.

فمن ذلك النَّجَش، وهو أن يزيد الرجل فى ثمن السلعة، ولا يريد الشراء، ليغرّ غيره، وهذا حرام؛ لأن النبى ﷺ نهى عن بيع النجش، روى أبو هريرة، رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال: «لا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا»[(١)].

ولا يزيد فى السلعة أكثر مما تساوى، ليغرَّ بها الناس فيكون حرامًا، ومن ذلك البيع على بيع أخيه، وهو أن يشترى الرجل سلعة بثمن معلوم بشرط الخيار، فيقول له رجل آخر: ردّها وأنا أبيعك خيرًا منها بهذا الثمن، أو مثلها بدون هذا الثمن، فهذا الفعل أيضًا حرام؛ لأن النبى ﷺ قال: «لا يبيع الرجل على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه».

ومنهم من يسوم على سوم أخيه، وهو أن يشترى سلعة من رجل، فيقول له رجل آخر: أنا أعطيك أجود منها بهذا الثمن، أو مثلها بدون هذا الثمن، ثم يعرض عليه السلعة فيراها المشترى، وهذا أيضًا حرام؛ لقوله ﷺ: «لا يسوم الرجل على سوم أخيه». ومنهم من يقول للمشترى: بعتك هذا الثوب مثل ما باع به فلان ثوبه، أو بعتك هذه السلعة برقمها.

ومنهم من يقول للتاجر: بعتك هذا الثوب على أن تبيعنى ثوبك، أو بعتك هذا الثوب بعشرة دراهم نقدًا، أو بعشرين نسيئة. ومنهم من يبيع السلعة إلى أجل مجهول، أو يبيعها على شرط مستقبل مجهول، وهو أن يقول: بعتك هذا الثوب إلى قدوم الحاج، أو

---

(١) رواه البخارى فى النكاح (١٠٥/٩) ح (٥١٤٢)، ومسلم فى النكاح (١٠٣٢/٢) ح (١٤١٢/٤٩).

إلى دِراس الغلّة، أو على عطاء السلطان، وما أشبه ذلك. ومنهم من يشترى سلعة من تاجر مثله، ثم يبيعها لرجل آخر قبل القبض، فجميع ذلك حرام، لا يجوز لهم فعله؛ لأن النبىّ ﷺ نهى عنه.

ولا يجوز بيع الملامسة، وهو أن يقول البائع للمشترى: إذا لمست الثوب بيدك ولم تشتره لزمك البيع، ولا يجوز بيع المنابذة، وهو أن يقول البائع للمشترى: بعتك هذا الثوب الذى معى بالثوب الذى معك، فإذا نبذ كلّ واحد منهما ثوبه إلى الآخر فقد وجب البيع، ولا يجوز بيع الحصاة، وهو أن يقول البائع للمشترى: بعتك ما تقع عليه الحصاة من أرض أو ثوب، لما روى أبو سعيد الخدرى، رضى الله عنه، أن النبى ﷺ نهى عن بيع الملامسة، والمنابذة، والحصاة، وأراد به ما ذكرناه.

فصل

ويعتبر المحتسب عليهم صدق القول فى أخبار الشراء، ومقدار رأس المال فى بيع المرابحة، فإن أكثرهم يفعلون ما لا يجوز، فمن ذلك أنّ أحدهم يشترى سلعة بثمن معلوم إلى أجل معلوم، ثم يخبر برأس المال فى بيع المرابحة، وهذا لا يجوز؛ لأن الأجل يقابله قسط من الثمن. ومنهم من يشترى سلعة بثمن معلوم، فإذا انعقد العقد، وطلب البائع الثمن، نقصه المشترى منه شيئًا، وهذا لا يجوز بعد تمام العقد. ومنهم من يشترى سلعة بثمن معلوم، فإذا وجد بها عيبًا، ورجع بالأرْش[1] على بائعها، يخبر برأس مالها الذى اشتراها به أولاً من غير أرش.

ومنهم من يواطىء جاره أو غلامه، فيبيعه ثوبًا بعشرة دراهم مثلاً، ثم يشتريه منه بخمسة عشر درهمًا، ليخبر بها فى بيع المرابحة، ويقول: اشتريته بخمسة عشر درهمًا، وجميع ذلك حرام لا يجوز، فإذا اشترى التاجر ثوبًا بعشرة دراهم، ثم قصره بدرهم، وطرَّزه بدرهم، ورفاه بدرهم، فإنه لا يقول: اشتريه بثلاثة عشر درهمًا؛ لأنه يكون كاذبًا، بل يقول: قام علىّ بثلاثة عشر درهمًا، أو هو علىّ بثلاثة عشر درهمًا، وإن كان هو الذى قصّره وطرّزه ورفاه بنفسه، فإنه لا يقول: قام علىّ بثلاثة عشر درهمًا؛ لأن عمل الإنسان لا يقوّم عليه، ولا يقول: رأسُ ماله ثلاثة عشر درهمًا؛ لأنه يكون كاذبًا، بل يقول: اشتريتُه بعشرة دراهم، وعملتُ فيه عملاً يساوى ثلاثة دراهم، فعلى

---

(١) أى الدية والخدش، ويُقصد به التعويض من البائع للمشترى لما كان من عيب وجد فى السلعة المشتراة. وانظر: بداية المجتهد (٢/١٥١).

المحتسب أن يعتبر عليهم جميع ما ذكرناه، وينهاهم عن فعل ذلك، ويتفقدّ موازينهم وأذرعتهم، ويمنعهم من شركة المنادى والدلاّل، ويراعى حسن معاملتهم مع المشترين وجلاّبى البضائع، وصدق القول فى جميع الأحوال.

* * *

الباب الثانى والعشرون
فى الحسبة على الدَّلاَّلين والمنادين

ينبغى أن يكونوا أخيارًا ثقاة، من أهل الدين والأمانة وصدق القول؛ لأنهم يتسلّمون بضائع الناس، ويقلّدونهم الأمانة فى بيعها، ولا ينبغى لأحد منهم أن يزيد فى السلعة من نفسه، ولا يكون شريكًا للبزّار، ولا يشتريها لنفسه، ولا يقبض ثمن السلعة من غير أن يوكّله صاحبها فى القبض. ومنهم من يعمد إلى صناع البزّ والحاكة، ويعطيهم ذهبًا على سبيل القرض، ويشترط عليهم ألا يبيع لهم شيئًا من متاعهم إلا هو، وهذا حرام؛ لأنه قرضُ جرَّ منفعة. ومنهم من يشترى السلعة لنفسه، ويُوهم صاحبها أن بعض الناس اشتراها منه، ويواطىء غيره على شرائها منه.

ومنهم من تكون السلعة له، فينادى عليها ويزيد فى ثمنها من عنده، ويوهم الناس أنها لبعض التجار. ومنهم من يكون بينه وبين البَزّاز شرط ومواطأة على شىء معلوم من الأجرة، فإذا قدم إلى البزاز تاجر ومعه متاع، فإن البزاز يستدعى ذلك المنادى لبيع المتاع، فإذا فرغ البيع وأخذ الأجرة، أعطى البَزّاز ما كان شرطه له وواطأه عليه، وهذا حرام على البَزّاز فعله. ومتى علم المنادى أن فى السلعة عيبًا، وجب عليه أن يُعلم المشترى به، ويُوقفه عليه، وعلى المحتسب أن يعتبر عليهم جميع ما قلناه، ويَتَفَقَّد أحوالهم فى ذلك.

* * *

الباب الثالث والعشرون
فى الحسبة على الحاكة[١]

يجب على المحتسب أن يأمرهم بجودة عمل الشِقَّة وصفاقتها، ونهاية طولها المتعارف به، وعرضها، ودقّة غزلها، وتنقيتها من القشرة السوداء بالحجر الأسود الخشن، ويمنعهم

(١) الحاكة: جمع حائك، وهو الذى ينسج الغزل قماشًا. انظر: اللسان: (حك).

من نثر الدقيق والجبصين المشوىّ عليها فى وقت نسجها، فإنه يستر وحاشتها، فتبين كأنها صفيقة الرقعة، وهذا تدليس على الناس، وإذا نسج أحدهم ثوبًا من الهدّاب والجدّاد المعقود، فإنه يبيعه مفردًا عن الثياب، إلا كان تدليسًا. ومنهم من ينسج وجه الشقّة من الغزل الطيّب المصطحب، ثم ينسج باقيها من الغزل الغليظ المعقّد من الهدّاب، فيراعيهم العريف، ويعتبر عليهم ذلك.

وإذا أخذ أحدهم غزلاً لإنسان لينسجه له ثوبًا، فيأخذه بالوزن، فإذا نسجه ثوبًا غسله، ثم دفعه إلى صاحبه بالوزن، ليكون أنفى للتهمة عنه، فإذا ادّعى صاحب الغزل أن الحائك أبدل غزله، عرضه المحتسب على العريف، فإن رجعا إلى قوله كان بها، وإلا حملها إلى حكم الشرع. ومنهم من يكون له على باب حانوته جرن من حجر يعرك شِقّته فيه، فإذا انصرف جاءت الكلاب وولغت فيه، فيكلّفهم المحتسب أن يجعلوا لها أغطية من الخشب، أو يغسلوها كل يوم سبع مرات إحداهن بالتراب، عندالحاجة إليها، وينبغى أن يمنعهم من أن يمدّوا شقّاتهم فى طرقات المسلمين؛ لأنها تضرّ بالمارّة، ويمنعهم أيضًا من أن يلقوا الطعام الذى فيها من دقيق ونحوه تحت أقدام المسلمين، والله أعلم.

* * *

الباب الرابع والعشرون

فى الحسبة على الخياطين

يؤمرون بجودة التفصيل، وحسن فتح الجيب، وسعة التّخاريص، واعتدال الكُمّين والأطراف، واستواء الذيل، والأجود أن تكون الخياطة درزًا لا شلاًّ، والإبرة دقيقة، والخيط فى الخرم قصيرًا؛ لأنه إذا طال انسلخ وانتقض فتله فيضعف، وأيضًا كلما نتر الخيّاط ضعف. وينبغى أن لا يفصل الخياط لأحد ثوبًا له قيمة حتى يقدّره، ثمّ يقطعه بعد ذلك، فإن كان ثوبًا له قيمة كالحرير والدّيباج، فلا يأخذه إلا بعد أن يزنه، فإذا خاطه ردَّه إلى صاحبه بذلك الوزن. ويعتبر المحتسب عليهم ما يسرقونه من أمتعة الناس، فمنهم من إذا خاط ثوبًا حريرًا ونحوه حشاه وقت كفّه رملاً وأشراسًا[1]، ويسرق بقدره من الثوب إذا كان موزونًا عليه.

---

(١) نبات ذو ألياف، تطعن أصوله، ثم تغمر فى الماء، ويستخدم فى تجليد الكتب. انظر: المفردات (٣٨/١).

ويمنعهم أن يماطلوا الناس بخياطة أمتعتهم، باستضرارهم بالتردّد إليهم، وحبس الأمتعة عنهم، ولا يتكلّفون للناس عملاً أكثر من الأسبوع، إلا أن يشرطوا لصاحبه أكثر من ذلك، ولا يتعدّون الشرط. وينبغى أن يُحلّف المحتسب الرفائين أن لا يرفوا لأحد من القصّار أو الدقّاق ثوبًا مخروقًا، إلا بحضرة صاحبه، ولا ينقل المطرِّز أو الرقّام رقم ثوب إلى ثوب يحضره إليه القصّار أو الدّقاق، فكثير منهم يفعلون ذلك بثياب الناس.

وأما صنّاع القلانس، فيأمرهم المحتسب بعملها من الخرق الجديدة، وخيوط الإبرسيم، والكتان المصبوغ، ولا يعملونها من الخرق البالية المصبوغة، ويُقَوّونها بالأشراس والنّشا، فهذا تدليس، فيمنعهم من فعله وعمله.

* * *

الباب الخامس والعشرون
فى الحسبة على القطّانين

لا يخلطون جديد القطن بقديمه، ولا أحمره بأبيضه، وينبغى أن يُندف القطن ندفًا مكرّرًا، حتى تطير منه القشرة السوداء والحبّ المكسور؛ لأنه إذا بقى فيه الحبّ ظهر فى وزنه، وإذا طُرح فى لحاف أو جبَّة أو قَباء قرضه الفأر، ولا يخلطون الذى فى أسفل البسطة من الصفايا، وما يطير على الحيطان من القطن الصافى. ومنهم من يندف القطن الردئ الأحمر، ويجعله فى أسفل الكُبَّة[1]، ثم يعليه بالقطن الأبيض النقىّ، فلا يظهر إلا عند غزله. وينهاهم المحتسب أن يُجلسوا النسوان على أبواب حوانيتهم، لانتظار فراغ الندف، وينهاهم عن الحديث معهنّ، ولا يضعون القطن بعد ندفه فى المواضع الندية، فإن ذلك يزيد فى وزنه، فإذا جفّ نقص، وهذا تدليس يفعله الكلّ، فيمنعهم المحتسب من فعله، والله أعلم.

* * *

الباب السادس والعشرون
فى الحسبة على الكتانين

أجود الكتان المصرى الجيزى، وأجوده الناعم المورق، وأردؤه القصير الخشن الذى ينقصف تحت الصدفة[2]، فلا يخلطون جيّده برديئه، ولا الكتان النابلسى بالمصرى.

---

(١) الكُبَّة: هو ما يخرج المغزّل من الغزل فضلاً . انظر: المخصص (٢٥٩/١٢).

(٢) هى المحارة التى يُمحر لها. انظر: اللسان: (صدف).

ومنهم من يخلط القنداس، هو ما يخرج من السرّاقة، بالكتان الناعم بعد مشطه، وجميع ذلك تدليس. ولا يتركون النسوان جلوسًا على أبواب حوانيتهم، كما ذكرنا فى القطّانين، والله أعلم.

* * *

الباب السابع والعشرون
فى الحسبة على الحريريين

لا يصبغون القَزَّ قبل تبييضه؛ لئلا يتغير بعد ذلك، وقد يفعلونه حتى يزيد لهم، ومنهم من يثقِّل الحرير بالنشا المدبَّر، ومنهم من يثقّله بالسمن أو الزيت، ومنهم من يجعل فى ظهره عقدًا من غيره، فيعتبر المحتسب عليهم جميع ذلك، والله أعلم.

* * *

الباب الثامن والعشرون
فى الحسبة على الصبَّاغين

أكثر صبّاغى الحرير الأحمر، وغيره من الغزل والثياب، يصبغون فى حوانيتهم بالحنّا عوضًا عن الفوّة[١]، فيخرج الصبغ حسنًا مشرقًا، فإذا أصابته الشمس تغيَّر لونه، وزال إشراقه. ومنهم من يدكّن الثياب بالعفص والزَّاج، إذا أراد صبغها كحليًا، ثم يدليها فى الخابية، فتخرج صافية اللون شديدة السواد، فإذا مضت عليها أقلّ مدّة تغيّر لونها، ونَفَضَ صبغها، وهذا كلّه تدليس، فيمنعهم المحتسب من فعله. وينبغى أن يكتبوا على ثياب الناس أسماءهم بالحبر؛ لئلا يتبدل منها شىء. وأكثر الصباّغين والمرندجين[٢] إذا كان فى أيام المواسم والأعياد، وغيرها من الأفراح، يغيّرون ثياب الناس، ويُكْرُونها بالأجرة لمن يلبسها فى ذلك اليوم ويتزيّن بها. وهذه خيانة وعدوان، فيمنعهم المحتسب من فعله، ويعتبر عليهم ما يفعلونه ويغشّون به الصبغ، ويعرض ذلك على عريفهم، والله أعلم.

* * *

---

(١) الفوة: Rubia: تزرع فى بَرِّ الشام، وفى فرنسا وغيرهما من أعمال أوربا، وتستعمل جذورها لصبغ اللون الأحمر. وانظر: مبادىء علم النبات لجورج بوست (ص٢١٢، ٢١٣).

(٢) يُقصد به صابغى الملابس باللون الأسود؛ لاستخدام مادة اليرندج، وهو الزاج.

الباب التاسع والعشرون
فى الحسبة على الأساكفة

لا يُكثرون حشو الخرق البالية فيما بين البشتيك والبطانة، ولا بين النعل والظّهارة، ويشدّون حشو الأعقاب، ولا يشدّون نعلاً قد أحرقته الدباغة، ولا فطيرًا لم ينضج، ولا أديمًا بهذه الصفة. وينبغى أن يحكموا إبرام الخيط، ولا يطوّلونه أكثر من ذراع؛ لأنه إذا طال أكثر من ذلك انسحج، فانتقض إبرامه، وضعف عن الجذب. ولا يخرزون بشعر الخنزير، بل يجعلون عوضه ليفًا أو شارب الثعلب، فإنه يقوم مقامه. ولا يمطلون أحدًا بمتاعه، إلا أن يشرطوا لصاحبه إلى يوم معلوم، فإنّ الناس يتضرّرون بالتردّد إليهم، وبحبس الأمتعة عنهم. ولا يعملون الورق واللبلد وأشباهه فى أخفاف النسوان، لكى تَصُرّ عند المشى، كما يفعله نساء بغداد، فإنه قبيح، وشهرة لا تليق للأحرار؛ فيمنع المحتسب من عمله ولبسه، والله أعلم.

* * *

الباب الثلاثون
فى الحسبة على الصيارف

التعيّش بالصرف خطر على دين متعاطيه، بل لا بقاء للدين معه إذا كان الصيرفىّ جاهلاً بالشريعة، غير عالم بأحكام الرِّبا، فالواجب ألاّ يتعاطاه أحد إلا بعد معرفته بالشرع؛ ليتجنّب الوقوع فى المحظور من أبوابه. وعلى المحتسب أن يتفقّد سوقهم، ويتجسّس عليهم، فإن عثر بمن رابى، أو فعل فى الصرف ما لا يجوز فى الشريعة، عزّره وأقامه من السوق. هذا بعد أن يعرّفهم بأصول مسائل الربا، وأنه لا يجوز لأحدٍ أن يبيع الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، إلا مِثْلاً بمِثْل، يدًا بيد، فإنْ أخَذَ الصيرفىّ زيادةً على المثل، أو تفرّقا قبل القبض، كان ذلك حرامًا.

وأما بيع الذهب بالفضة، فيجوز فيه التفاضل، ويُحرَّم فيه النسا والتفرُّق قبل القبض، ولا يجوز بيع الخالصَ بالمغشوش، ولا بيع المغشوش بالمغشوش من الذهب والفضة، كبيع الدنانير المصرية بالدنانير الصورية، أو الصورية بالصورية، أو الدراهم الأحدية بالدراهم القروية، لوجود الجهل بمقدارها، وعدم التماثل بينها، ولا يجوز بيع دينار صحيح بدينار قراضة، لاختلاف قيمتها، ولا دينار قاشانى بدينار سابورى، لاختلاف صفتهما، ولا يجوز بيع دينار وثوب بدينارين. وقد يفعله بعض الصيارف والبزّازين على غير هذا

الوجه، فيعطى المشترى دينارًا ويجعله قرضًا، ثم يبيعه ثوبًا بدينارين، فيصير له عنده ثلاثة دنانير إلى أجل معلوم، ويُشْهد عليه بجملتها، وهذا حرام أيضًا، لا يجوز فعله بهذا الشرط؛ لأنه قرض جَرَّ منفعة، ولو أنه لم يقرضه الدينار لما اشترى منه الثوب بدينارين.

ومنهم أيضًا من يشترى الدنانير بدراهم فضة، أو بالقراطيس الإفرنجية، ثم يقول للبائع: أجل بها علىّ غريمًا لك، لتبرأ أنت من نقدها ووزنها، أو استجرَّها من عندى قليلاً قليلاً، فيوافقه على هذا الفعل لفرط جهله، وهذا كلّه حرام لا يجوز فعله، فعلى المحتسب أن يعتبر عليهم جميع ما ذكرناه، وما لم نذكره من هذا الباب، وقد ذكروا أنّ وزن الأربعة مثاقيل إذا فُرِّقت نقصت نقصًا بَيِّنًا، ولهذا كثير من الصيارف يكره قبضها لنفسه، وإذا كان لأحدٍ عليه أكثر من أربعة دنانير، فإنه يدفع إليه أربعة، ويعده بقبض الباقى فى وقت آخر، أما اعتبار موازينهم وصنجهم، فقد سبق ذكره، والله أعلم.

* * *

الباب الحادى والثلاثون

فى الحسبة على الصَّاغة

يجب ألاَّ يبيعوا أوانى الذهب والفضّة والحلىّ المصنوعة إلا بغير جنسها، ليحلّ فيها التفاضل، وإنْ باعها الصائغ بجنسها حُرِّم فيه التفاضل والنسا والتفرّق قبل القبض، بما ذكرناه فى باب الصرف، فإن باع شيئًا من الحلىّ المغشوشة، لزمه أن يعرِّف المشترى مقدار ما فيها من الغشّ، ليدخل على بصيرة، وإذا أراد صياغة شىء من الحلىّ لأحد، فلا يسبكه فى الكور إلا بحضرة صاحبه، بعد تحقيق وزنه، فإذا فرغ من سبكه أعاد الوزن، وإنْ احتاج إلى لحامٍ، فإنه يزنه قبل إدخاله فيه، ولا يركّب شيئًا من الفصوص والجواهر على الخواتم والحلىّ إلا بعد وزنها بحضرة صاحبها.

وبالجملة إنّ تدليس الصاغة وغشوشهم خفيّة لا تكاد تعرف، ولا يصدّهم عن ذلك إلا أمانتهم ودينهم، فإنهم يعرفون من الجلاوات والأصباغ ما لا يعرفه غيرهم، فمنهم من يصبغ الفضة صبغًا لا يفارق الجسد إلا بعد السبك الطويل فى الروباص، ثم يمزجون بها الذهب للواحد اثنين، فمن ذلك صفة تصْفِيره، يُؤخذ ساذنج قد شويت ودهنت على الانفراد، وراسخت قد شوى بماء المرنج[١] المدبَّر سبع مرّات، وزاج وزنجفر[٢]

---

(١) نوع من العود. انظر: المخصص (١١/١٩٩).

(٢) هو حجر الزئبق، ويصنع من الكبريت والزئبق معًا. انظر: مفاتيح العلوم (ص١٤٩).

مشويان بماء العقاب المحلول فى القارورة، ثم يجمع بين الجميع فى السحق بعد ذلك، ثم يُشوى قدحان بماء المرنج المذكور سبع مرّات، ثم بماء العقاب المحلول سبع مرّات، فإنه ينعقد حجرًا أحمر مثل الدم، يلقى منه درهم على عشرة دراهم قَمَر يردّه شمسًا فى عيار ستة عشر، فإن حُلّ هذا الحجرُ الإكسيرُ الأحمرُ، ثم عُقد صار القمر فى عيار عشرين، يفرغ منه دنانير تُعمل منه، ويُعمل منه مصاغًا.

ومنهم من يأخذ راسخت يشويه بمرارة البقر سبعًا، ثم يضيفه إلى مثله ذهبًا مكلسًا بصفرة الكبريت المستخرجة بالجير والقلى، ثم يشوى الجميع بماء العقاب المحلول سبعًا، ثم يدهنه بدهن زعفران الطور سبعًا، فإنه ينعقد حجرًا مثل الأوّل، فإنْ حَلّه وعقده صار أبلغ من الأوّل، يقارب المعدنى، والمُلْقَى منه قيراط على درهم قمر. وقد يعملون من الطبخات والجلاوات أشياء يطول شرحها، ولولا أنى أخاف أن يطلّع على هذا السرّ من لا دين له، لأوضحت منه جملاً كثيرة، لا يهتدى إليها كثير من الصاغة، فيجب على كلّ مسلم مراقبة الله عزَّ وجل، ولا يزغل على المسلمين شيئًا بهذا ولا بغيره، فإنْ عثر المحتسب بأحدٍ يفعل هذا عزَّره وأشهره، كما سبق بيانه فى موضعه.

وأما تراب دكاكين الصاغة ورمادها، فلا يجوز بيعه إلا بالفلوس، أو بعَرَض من غير الفلوس، فإنه لا يخلو من ذهب وفضة يكون فيه، فيؤدى إلى الربا، والله أعلم.

* * *

الباب الثانى والثلاثون

فى الحسبة على النحاسين والحدادين

لا يجوز لهم أن يمزجوا النحاس بالحبق الذى يخرج للصاغة وسبَّاكى الفضة عند السبك، فإنه يصلّب النحاس ويزيده يبسًا، فإذا أُفْرِغ منه طاسة أو هاون انكسر سريعًا مثل الزجاج، وينبغى ألاّ يمزجوا النحاس المكسور من الأوانى وغيرها بالنحاس المعدنى الذى لم يستعمل، بل يُسبك كلّ واحد منهما على انفراده، ويُعمل منفردًا.

فصل

أما الحدَّادون، فلا يضربون سكينًا، ولا مقراضًا، ولا مخصفًا[١]، وما أشبه ذلك، من الأرمهان، ويبيعونه على أنه فولاذ، فإنّ ذلك تدليس، ولا يخلطون المسامير الرجعية المطُرّقة بالمسامير الجديدة الضرب، ولا يعملون إلا الفولاذ المصفى للسكّين والمقصّ والموسى، والله أعلم.

* * *

الباب الثالث والثلاثون

فى الحسبة على البياطرة

البيطرة علم جليل سطرته الفلاسفة فى كتبهم، ووضعوا فيها تصانيف كثيرة، وهى أصعب علاجًا من أمراض الآدميين؛ لأن الدوابّ ليس لها نطق تعبّر به عما تجد من المرض والألم، وإنما يستدلّ على عللها بالجسّ والنظر، فيفتقر البيطار إلى حذق وبصيرة بعلل الدوابّ وعلاجها، فلا يتعاطى البيطرة إلا من له دين يصدّه عن التهجّم على الدوابّ بفصد أو قطع أو كيّ، وما أشبه ذلك بغير خبرة، فيؤدى إلى هلاك الدابة أو عطبها.

فصل

وينبغى للبيطار أن ينظر إلى رسغ الدابة، ويعتبر حافرها قبل تقليمه، فإن كان أحنف[٢] أو مائلاً، نَسَف من الجانب الآخر قدرًا يحصل به الاعتدال، وإن كانت يد الدابة قائمة، جعل المسامير المؤخَّرة صغارًا والمقدّمة كبارًا، وإن كانت يدها بالضدّ من ذلك صغَّر المقدّمة وكبّر المؤخَّرة. ولا يبالغ البيطار فى نسف الحافر فتغمس الدابة، ولا يرخى المسامير فيتحرَّك النعل، ويدخل تحته الحصى والرمل فترهص[٣] الدابة، ولا ينبغى له أن يشدّها قويًّا على الحافر فتزمن الدّابة.

واعلم أنّ النعال المطرّقة ألزم للحافر، واللينة أثبت للمسامير الصلبة، والمسامير الدقيقة خير من الغليظة، وإذا احتاجت الدّابة إلى فتح عرق أخذ البيطار المبضع بين إصبعيه،

(١) المخصف: هو المخرز الذى تُثقب به النعال من الجلد، وغيره من الشياء السميكة، وهو من أدوات التزيين.

(٢) الحنف: حافر الدابة مائلاً إلى الداخل . انظر: صبح الأعشى (٢٨/٢).

(٣) الرهصة: وجع يصيب حافر الدّابة بسبب حجر أو ما شابه، يدخل بين النعل والحافر، فلا تطيق الدّابة وضع حافرها على الأرض كاملاً.

وجعل نصابه فى راحته، وأخرج من رأسه مقدار نصف ظفر، ثمّ فتح العرق تعليقًا إلى فوقى بخفّة ورفق، ولا يضرب البيطار العرق حتى يجسَّه بإصبعه، سِيمًّا عروق الأوداج، فإنَّها خطرة لمجاورتها المرىء، فإن أراد أن يفتح شيئًا من عروق الأوداج خنق الدّابة خنقًا شديدًا، حتى تبدُر عروق الأوداج، فيتمكّن حينئذ مما أراد.

فصل

وينبغى أن يكون البيطار خبيرًا بعلل الدوابّ، ومعرفة ما تحتاج إليه، وما يحدث فيها من العيوب، فيرجع النَّاس إليه إذا اختلفوا فى عيب الدّابة، وقد ذكر بعض الحكماء فى كتاب البيطرة أن علل الدوابّ ثلاثمائة وعشرون علّة، منها: الخنّاق[١]، والخنان[٢] الرطب، والخنان اليابس، والجنون، وفساد الدماغ، والصُّداع، والحمر، والنَّفخة، والورم، والمرّة الهائجة، والدّيبة، والخشام، ووجع الكبد، ووجع القلب، والدود فى البطن، والمغل، والمغس، وريح السّوس، والقضاع، والصّدام، والسعال البارد، والسعال الحار، وانفجار الدم من الدبر والذّكر، والبحل، والحلق، وعسر البول، ووجع المفاصل، والرَّهصة، والدّخس، والدّاحس، والنّملة، والنّكب، والخلد، واللّقوة، والماء الحادث فى العين، والمياخونة، ورخاوة الأذنين، والضَّرس، وغير ذلك مما يطول شرحه.

ويفتقر البيطار إلى تحصيل معرفة علاجه، وسبب حدوث هذه العلل، فمنها ما إذا حدث فى الدّابة صار عيبًا دائمًا، ومنها ما لم يصر عيبًا دائمًا، ولولا التطويل لشرحت من ذلك جُملاً وتفاصيل، فلا يهمل المحتسب امتحان البيطار بما ذكرناه، ومراعاة فعله بدوابّ الناس، والله أعلم.

* * *

الباب الرابع والثلاثون
فى الحسبة على نَخَّاسى العبيد والدّواب

يكون النخَّاس[٣] ثقة، أمينًا، عادلاً، مشهورًا بالعِفَّة والصِّيانة؛ لأنه يتسَلم جوارى الناس وغلمانهم، وربما اختلى بهم فى منزله، وينبغى ألاَّ يبيع النخّاس لأحد جارية ولا

---

(١) هو ضيق فى البلعوم. انظر: مفاتيح العلوم (ص٩٧).

(٢) هو داء يُصاب به الدواب، فيكون سببًا للفيح من المنخرين، والدموع من العينين. انظر: البيطرة لابن الأحنف (ص١٧٣).

(٣) بائع البهائم والحمير، والدواب عمومًا، وكذلك العبيد.

عبدًا حتى يعرف البائع، أو يأتى بمن يعرفه، ويكتب اسمه وصفته فى دفتره؛ لئلا يكون المبيع حرًّا أو مسروقًا، ومن أراد شراء جارية، جاز له أن ينظر إلى وجهها وكفَّيها، فإن طلب استعراضها فى منزله والخلوة بها، فلا يُمكِّنه النَّخَّاس من ذلك، إلاّ أن يكون عنده نساء فى منزله، فينظرون جميع بدنها، ومن أراد شراء غلام، فله أن ينظر منه إلى ما فوق السُّرَّة ودون الركبة، هذا كلّه قبل عقد البيع، فأما بعده، فله أن ينظر إلى جميع بدن الجارية.

ولا يجوز أن يفرّق بين الجارية وولدها قبل سبع سنين، ولا يجوز بيع الجارية أو المملوك إذا كانا مسلمين لأحد من أهل الذمّة، إلاّ أن يعلم النخّاس يقينًا أن المملوك ليس بمسلم، ومتى علم أنّ بالمبيع عيبًا، وجب عليه بيانه للمشترى، كما ذكرنا فى أوّل الكتاب.

فصل

وينبغى أن يكون النَّخَّاس بصيرًا بالعيوب، خبيرًا بابتداء العلل والأمراض، فإذا أراد بيع غلام، نظر إلى جميع جسده، سوى عورته قبل بيعه، ويعتبر ذلك لئلاّ يكون فيه عيب أو علَّة فيخبر به المشترى، فأوّل ما ينظر إلى وجهه، فإن كان مائل اللّون إلى الصفرة أو الغبرة، دلّ ذلك على مرض أو علة فى الكبد أو الطحال أو البواسير، بما يطلع عليه من ذلك، وينبغى للدلاّل ألاّ يبيع دابة حتى يعرف البائع أو يأتى بمن يعرفه، ويكتب اسمه فى دفتره كما قلنا أولاً؛ لئلا تكون الدابة معيبة أو مسروقة، والله أعلم.

* * *

الباب الخامس والثلاثون
فى الحسبة على الحمّامات وَقَوَمتها

قد ذكرنا فى هذا الباب، وفى الذى قبله، أشياء ليست من قبيل الحسبة، وإنما ذكرناها لعموم الانتفاع معرفتها، وهى لائقة بهذا المكان، ولعمرى إن الحكمة ضالّة كلّ حكيم، والفائدة حسنة حيث وُجدت. قال بعض الحكماء: خير الحّمامات ما قدُم بناؤه، واتّسع هواؤه، وعذب ماؤه، وقَدّر الأَتّان وقوده بقدر مزاج من أراد وروده. واعلم أن الفعل الطبيعى للحمام هو التسخين بهوائه، والترطيب بمائه، فالبيت الأول مبرِّد مرطِّب، والبيت الثانى مسخّن مرخٍ، والبيت الثالث مسخن مجفّف.

والحمام يشتمل على منافع ومضارّ، فأما منافعها: فتوسيع المسامّ، واستفراغ

الفضلات، وهى تحلّل الرياح، وتحبس الطّبع إذا كانت سهولته عن هيْضة، وتُنَظِّف الوسخ والعرق، وتُذْهِب الحكّة والجرب والإعياء، وترطّب البدن، وتُجوّد الهضم، وتُنضج النزلات والزكام، وتنفع من حّمى يوم، ومن حمّى الدّق والرّبع بعد نضج خلطها، وأما مضارّها، فإنها: ترْخى الجسد، وتُضْعف الحرارة عند طول المُقَام فيها، وتُسقط شهوة الطّعام، وتُضعف الباه، وأعظم مضارّها صبُّ الماء الحارّ على الأعضاء الضّعيفة.

وقد تُستعمل الحمَّام على الرِّيق والخُلُو، فتجفّف تجفيفًا شديدًا، وتهزل البدن وتُضْعفه، وقد تُستعمل الحمَّام على قُرْب عهد بالشّبع، فتُسِّمن البدن، إلاّ أنها تُحدث سددًا، وأجود ما استعمل الحمَّام على الشبع بعد الهضم الأول، فإنه يُرطّب البدن ويسمنه، ويُحّسن بشْرته.

فصل

وينبغى أن يأمرهم المحتسب بغسل الحمام، وكنسها، وتنظيفها بالماء الطاهر، غير ماء الغسالة، يفعلون ذلك مرارًا فى اليوم، ويدلكون البلاط بالأشياء الخشنة؛ لئلا يتعلّق به السّدر، والخطمى، والصابون، فتنزلق أرجل الناس عليها، ويغسلون الخزانة من الأوساخ المجتمعة فى مجاريها، والعكر الراكد فى أسفلها فى كلّ شهر مرّة؛ لأنها إن تركت اكثر من ذلك تغيّر الماء فيها فى الطعم والرائحة.

وإذا أراد القيِّم الصّعود إلى الخزَانة لفتح الماء إلى الأحواض، فينبغى أن يغسل رجليه بالماء ثمّ يصعد؛ لئلا يكون قد خاض فى الغسالات، ولا يسدّ الأنابيبِ بشعر المشّاطة، بل يسدّها باللّيف والخرق الطاهرة، ليخرج من الخلاف، ويشعل فيها البخور فى كلّ يوم مرّتين، سيّما إذا شرع فى غسلها وكنسها، ومتى بردت الحمَّام، فينبغى أن يبخّرها القيِّم بالخُزَامَى، فإنّ دخانها يُحَمّى هواءها، ويطيِّب رائحتها، ولا يحبس ماء الغسالات فى مسيل الحمّام؛ لئلا تفوح رائحتها، ولا يدع الأساكفة وغيرهم يصبغون الجلود فى الحمام، فإنّ الناس يتضرّرون برائحة الدباغة، ولا يجوز أن يدخل المجذوم والأبرص إلى الحمام.

وينبغى أن يكون للحمَّامى ميازر يؤجّرها للناس، أو يعيرها لهم، فإنّ الغرباء والضّعفاء قد يحتاجون إلى ذلك، ويأمرهم المحتسب بفتح الحمَّام فى السَّحَر، لحاجة الناس إليها للتطّهر فيها قبل وقت الصلاة، ويلزم النّاطور حفظ ثياب الناس، فإنْ ضاع منها شىء لزمه ضمانه، على الصحيح من مذهب الشافعى، رضى الله عنه.

فصل

ويكون المزيّن، وهو البلاّن، خفيفًا، رشيقًا، بصيرًا بالحِلاقة، ويكون حديده رطبًا قاطعًا، ولا يستقبل الرأسَ ومنابت الشّعر استقبالاً، ولا يأكل المزيِّن ما يُغَيّر نكهته، كالبصل، والثوم، والكرّاث، واشباه ذلك؛ لئلاّ يتضرّر الناس برائحة فيه عند الحلاقة. وينبغى أن يحلق الجبين، والصّدغين، على ما يليق بالحال، ولا يحلق شَعر صبىّ إلا بإذْن وليّه، ولا يحلق عذار أمرد ولا لحية مخّنث، ويأمر المحتسبُ المدلّك أن يدلّك يده بقشور الرمّان، لتصير خشنة، فُتخْرِج الوسخ، ويستلذ بها الإنسان، ويُمنع من دلوك الباقلا والعدس فى الحمام؛ لأنَّ ذلك طعام، فلا يجوز أن يمتهن.

فصل

ويلزم المحتسب أن يتفقّد الحمام فى كلّ يوم مرارًا، ويعتبر ما ذكرناه، وإن رأى أحدًا قد كشف عورته عزّره على كشفها؛ لأنَّ كشف العورة حرام، وقد لعن رسول الله ﷺ الناظر والمنظور إليه، والله أعلم.

* * *

الباب السادس والثلاثون
فى الحسبة على الفصَّادين والحجَّامين

لا يتصدَّى للفصد[1] إلا من اشتهرت معرفته بتشريح الأعضاء، والعروق، والعضل، والشرايين، وأحاط بمعرفة تركيبها وكيفيتها؛ لئلا يقع المبضع فى عرق غير مقصود، أو فى عضلة أو شريان، فيؤدّى إلى زمانة العضو وهلاك المفصود، فكثير هلك من ذلك. ومَنْ أراد تعلّم الفَصد، فليُدمن فصد ورق السّلق، أعنى العروق التى فى الوْرقة، حتى تستقيم يده، وينبغى للفاصد أن يمنع نفسه من عمل صناعة مهينة، تُكسب أنامله صلابةً وعسر حسّ، لا يتأتّى معها نبش العروق، وأن يراعى بصره بالأكحال المُقَوِّية له والأيارجات، إن كان ممن يحتاج إليها، وألاّ يفصد عبدًا إلا بإذن مولاه، ولا صبيًّا إلا بإذن وليِّه، ولا حاملاً ولا طامثًا، وألاّ يفصد إلا فى مكان مضىء، وبآلة ماضية، وألاّ يفصد وهو منزعج الجنان.

---

(١) راجع فى الفصد: الذخيرة فى الطب لابن قرة، ومختصر تذكرة السويدى، والتذكرة فى الطب والحكمة للقيلوبى، ومختصر الرحمة فى الطب والحكمة للصنيبرى، والمفيد فى الطب، ومجمع الفوائد البدنية، كلها بتحقيقنا، ط دار الكتب العلمية - بيروت.

وبالجملة ينبغى للمحتسب أن يأخذ عليهم العهد والميثاق ألاّ يفصدوا فى عشرة أمزجة، وليحْذَروا فيها حذرًا، إلا بعد مشاورة الأطباء، وهى: فى السن القاصر عن الرابع عشر، وفى سن الشيخوخة، وفى الأبدان الشديدة القضافة، وفى الأبدان الشديدة السِّمَن، وفى الأبدان المتخلخلة، وفى الأبدان البيض المرهّلة، وفى الأبدان الصفر العديمة الدم، وفى الأبدان التى طالت بها الأمراض، وفى المزاج الشديد البرد، وعند الوجع الشديد، فهذه الأحوال يجب أن يُكْشف على الفاصد عند وجودها.

وقد نهت الأطباء عن الفصد فى خمسة أحوال أيضًا، ولكن مَضَرَّته دون مضرَّة العشرة المتقدّم ذكرها، فالحالة الأولى الفصد عقيب الجماع، وبعد الاستحمام المحلّل، وفى حال الامتلاء من الطعام، وفى حالة امتلاء المعدة والأمعاء من الثِّقل، وفى حالة شدّة البرد والحرّ، فهذه أحوال يتوقّى الفصد فيها أيضًا.

واعلم أن الفصد له وقتان: وقت اختيار، ووقت اضطرار، فأما وقت الاختيار، فهو ضحوة نهارٍ بعد تمام الهضم والنقص، وأمَّا وقت الاضطرار، فهو الوقت الموجب الذى لا يتّسع تأخيره، ولا يلتفت فيه إلى سبب مانع. وينبغى للمُفْتَصَد ألاَّ يمتلىء من الطعام بعده، بل يتدرّج فى الغذاء ويُلَطِّفه، ولا يرتاض بعده، بل يميل إلى الاستلقاء، ويحذر النوم عقيب الفصد، فإنَّه يُحدث انكسارًا فى الأعضاء، ومن افتصد وتورّمت عليه اليدُ، افتصد فى اليد الأخرى بمقدار الاحتمال.

فصل

ينبغى أن يكون مع الفاصد مباضع كثيرة، من ذوات الشّعيرة وغيرها، وأن يكون معه كبَّة من حرير أو خزّ، أو شىء من آلة القىء، من خشب أو ريش، وينبغى أن يكون معه وبر الأرنب، ودواء الصبر والكندر، وصفته أن يؤخذ من الكندر، والصبر، والمرّ، ودم الأخوين، من كلّ واحد جزء، ومن القلقطار[1] والزّاج من كلّ واحد نصف جزء، ويجمع الجميع، ويعمل كالمرهم، ويرفعه الفاصد عنده لوقت الحاجة إليه.

وينبغى أن يكون معه نافجة مسك وأقراص المسك، ويعتدّ بجميع ما ذكرناه، حتى إذا عرض للمفصود غَشْىُ بادر فألقم الموضع كبّة الحرير، وألقمه بآلة القىء، وشمّمه النافجة، وجرّعه من أقراص المسك شيئًا، فتَنْعَش قوّته بذلك. وإن حدث فتوق دم من

---

(١) هو نوع من الزاج. انظر: عمدة المحتاج للرشيدى (١/٥٩٥).

عرق أو شريان، حشاه الفاصد بوبر الأرنب، ودواء الكندر المذكور[1]، ولا يضرب الفاصد بمبضع كالّ، فإنه كبير المضرّة؛ لأنه يخطىء، فلا يلحق العرق، فيورم ويوجع.

ولْيَمْسح رأس مبضعه بالزيت، فإنه لا يوجع عند البضع، غير أنه لا يلتحم سريعًا، وإذا أخذ المبضع فليأخذه بالإبهام والوسطى، ويترك السَّبَّابة للجسّ، ويكون الأخذ على نصف المبضع، ولا يكون فوق ذلك، فيكون التمكّن منه مضطّربًا، ولا يدفع المبضع باليد غمزًا، بل يدفع بالاختلاس، ليوصلَ طرفَ المبضع حشوَ العروق.

ولم أرَ فى صناعة الفصد أحذق من رجلين رأيتهما بمدينة حلب، افتخر كلّ واحد منهما على صاحبه بالحذق، فأمّا أحدهما، فإنه لبس غلالةً، وشدَّ يَدَه من فوق الغلالة، وانغمس فى بركة، ثم فصد يده فى قاع الماء من فوق الغلالة، وأما الآخر فمسك المبضع بإبهام رِجْله اليسرى، ثم فصد يده.

واعلم أنه ينبغى أن يُوَسّع الفاصد البضْع فى الشتاء؛ لئلا يجمد الدم، ويُضَيِّقه فى الصيف؛ لئلا يسرع إلى الغَشْى، وتثنية الفصد تحفظ قوَّة المفصود، فمن أرادها فى يومه، فَلْيَشُقَّ العرق مورّبًا؛ لئلا يلتحم سريعًا، وأجود التثنية ما أُخِّر يومين أو ثلاثة، ومتى تغيّر لون الدم، أو حدث غَشْىُ وضعف فى النبض، فليبادر الفاصد إلى شدْ العرق ومسكه.

فصل

واعلم أن العروق المفصودة كثيرة، منها عروق فى الرأس، وعروق فى اليدين، وعروق فى البدن، وعروق فى الرجلين، وعروق فى الشرايين، فيمتحنهم المحتسب بمعرفتها، وبما يجاورها من العضل والشرايين، وسأذكر ما أشتهر منها: أما عروق الرأس المفصودة، فعرق الجبهة، وهو المنتصب ما بين الحاجبين، وفصده ينفع من ثقل العينين والصّداع الدائم، ومنها العرق الذى فوق الهامة، وفصده ينفع من الشقيقة[2] وقروح الرأس، ومنها العرقان الملويان على الصدغين، وفصدهما ينفع من الرمد، والدّمعة، وجرب الأجفان وبثورها، ومنها عرقان خلف الأذنين، يُفْصدان لقطع النسل، فيحلّفهم

---

(١) الكندر: هو لبان الذكر، ويُعبّر عنه باللسان الشجرى، أو الشحرى، مضغه يزيل ثقل اللسان، وأجوده ما يرد من بلاد اليونان، ومن شأنه أنه سريع الاحتراق، يحبس القىء، وقشاره يقوى المعدة ويشدها وينفع من الدوسنتاريا، ويمنع انتشار القروح الخبيثة فى المقعدة إذا اتخذت منه فتائل. انظر: تحفة ابن البيطار (ص٢٢٤) بتحقيقنا.

(٢) ألم يحدث فى الرأس، وقيل: نوع من الصداع.

المحتسب ألاَّ يفصدوا واحداً فيهما؛ لأن ذلك يقطع النسل، وقطع النسل حرام، ومنها عروق الشَّفَة، وفصدها ينفع من قروح الفمّ، والقلاع[1]، وأوجاع اللثة وأورامها، ومنها العروق التى تحت اللسان، وفصدها ينفع من الخوانيق، وأورام اللوزتين.

فصل

وأما عروق اليدين فسته، وهى: القيفال، والأكحل، والباسليق، وحبل الذراع، والأسيلم[2]، والإبطى، وهو شعبة من الباسليق، وأسلم هذه العروق القيفال. وينبغى على الفاصد أن يُنَحِّى فى فصده عن رأس العضلة إلى موضع ليّن، ويُوسِّعَ بَضْعَه إن أراد أن يُثَنِّىَ. وأما الأكحل، ففى فصده خطر عظيم، لأجل العضلة التى تحته، فربّما وقعت بين عصبتين، وربما كان فوقها عصبة دقيقة مدوّرة كالوتر، فيجب على الفاصد أن يعرف ذلك ويتجنَّبه فى حال الفصد، ويحتاط أن تصيبه الضربة، فيحدث منها خدر مزمن. وأما الباسليق، فعظيم الخطر أيضًا، لوقوع الشريان تحته، فيجب على الفاصد أن يحتاط لذلك، فإن الشريان إذا يضع لم يَرْقَأ دمه. وأما الأسيلم، فالأصوب أن يُفصد طولاً، وحبل الذراع يُفصد مورّبًا، وكلما انحدر الفاصد فى فصد الباسليق إلى الذراع كان أسلم.

فصل

وأما عروق البدن، فعرقان على البطن، أحدهما موضوع على الكبد، والآخر موضوع على الطحال، و ينفع فصد الأيمن منهما للاستسقاء، والأيسر ينفع للطحال.

فصل

وأما عروق الرِّجلين، فأربعة، منها عرق النسا، ويُفْصد عند الجانب الوحشىّ من الكعب، فإن خَفى فلتفصد الشّعبة التى بين الخنصر والبنصر من القدم، ومنفعة ذلك عظيمة، سيّما فى النقرس والدوالى، وداء الفيل. ومنها عرق الصافن، وهو على الجانب الأيسر من الساق، وهو أظهر من عرق النسا، وفصده ينفع من البواسير، ويدرّ الطمث، وينفع الأعضاء التى تحت الكبد. ومنها عرق مأبض تحت الركبة، وهو مثل الصافن فى النفع. ومنها العرق الذى خلف العرقوب، وكأنه شعبة من الصافن، ومنفعة فصده مثل الصَّافن.

---

(١) القلاع: بثور تحدث فى الفم واللسان. انظر: مفتاح العلوم (ص٩٧).

(٢) عرق بين الخنصر والبنصر، وهو من شعب الباسليق المتقدّم ذكره. انظر: مفاتيح العلوم (ص٩٣)، والتصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوى (٢/٤٦٠).

فصل

وأما العروق والشرايين المفصودة فى الغالب، ويجوز فصدها، فهى الصغار والبعيدة من القلب، فإن هذه التى يرقأ دمها إذا فصدت. وأما الشرايين الكبار القريبة الوضع من القلب، فإنه لا يرقأ دمها إذا فصدت، والتى يجوز فصدها منها، على الأكثر، شريان الصدغين، والشريانان اللذان بين الإبهام والسبابة، وقد أمر جالينوس بفصدها فى المنام.

فصل

والحِجَامة(١) عظيمة المنفعة، وهى أقلّ خطرًا من الفِصَادة، وينبغى أن يكون الحجّام خفيفًا، رشيقًا، خبيرًا بالصناعة، فيخفّ يده فى الشروط ويستعجل، ثم يُعلّق المحجمة، وتكون التعليقة الأولى خفيفة سريعة القلع، ثم يتدرّج إلى القلع بإبطاء وإمهال، وينبغى للمحتسب أن يمتحن الحجّام بورقة يلصقها على آجرّة، ثم يأمره بشرطها، فإن نَفَذ الشّرط كان ثقيل اليد، سّىء الصناعة، وعلامة حذق الحجّام خفة يده، وألاّ يوجع المحجوم.

فصل

وقد ذكرت الحكماء أنّ الحجامة تُكْره فى أوّل الشهر وفى آخره؛ لأنّ الأخلاط فى أوّل الشهر لا تكون قد تحرّكت ولا هاجت، وفى آخره تكون قد نقصت، فلا تفيد الحجامة شيئًا، وإنما تستحبّ الحجامة وسط الشهر، إذا تكامل النور فى جرم القمر؛ لأن الأخلاط تكون هائجة، وتكون الأدمغة زائدة فى الإقحاف، وأفضل أوقات الحجامة الساعة الثانية والثالثة من النهار.

فصل

وأما منافع الحجامة، فإنها على النُقرة خليفة فصد الأكحل، وتنفع من ثقل الحاجبين، وجرب العينين، والبَخْر فى الفم، غير أنها تورث النّسيان، كما قال النبى ﷺ: «إن مؤخّر الدّماغ موضع الحفظ، وتُضْعفه الحجامة». والْحْجامة على الأكحل خليفة فصد الباسليق، وتنفع من وجع المنكب والحلق، غير أنها تضعف فم المعدة. والحِجامة فى الأخدعين خليفة القيفال، وتنفع الوجه، والأسنان، والأضراس، والعينين، والأذنين، والأنف، والحلق، ورعشة الرأس، غير أنها تُحْدث رعشةً فى الرأس لمن لم يكن به رعشة.

---

(١) انظر: التصريف للزهراوى (١/٨٥)، والمصادر المتقدمة فى الفصد بتحقيقنا، ط دار الكتب العلمية – بيروت.

والحِجامة تحت الذقن تنفع الوجه، والأسنان، والحلقوم، وتنقّى الرأس، والحِجامة على الهامة تنفع من اختلاط العقل، والدّوار، وتبطىء بالشيب، غير أنها تضرّ بالذهن، وتُورث بلهًا، والحجامة على الفخذين من قدام تنفع من وجع الخصيتين، وخراجات الفخذين والساقين، والتى على الفخذين من خلف تنفع من الأورام، والخرّاجات الحادثة فى الإلْيتين، والحجامة على السّاقين تقوم مقام الفصد، وتنقّى الدم، وتدرّ الّطمث، والله أعلم.

* * *

الباب السابع والثلاثون

فى الحسبة على الأطباء والكحّالين والمجبّرين والجرائحيّين

الطّبّ علم نظرىّ وعملىّ، أباحت الشريعة علمه وعمله، لما فيه من حفظ الصحّة ودفع العلل والأمراض عن هذه البنية الشريفة، والطبيب هو العارف بتركيب البدن، ومزاج الأعضاء، والأمراض الحادثة فيها، وأسبابها، وأعراضها، وعلاماتها، والأدوية النافعة فيها، والاعتياض عما لم يوجد منها، والوجه فى استخراجها، وطريق مداواتها، لِيُسَاوِىَ بين الأمراض والأدوية فى كمياتها، ويُخالف بينها وبين كيفيّاتها، فمن لم يكن كذلك، فلا يحلُّ له مداواة المرضى، ولا يجوز له الإقدام على علاج يُخاطر فيه، ولا يتعرّض إلى ما لم يحكم علمه من جميع ما ذكرناه.

وقد حُكِيَ أنّ ملوك اليونان كانوا يجعلون فى كل مدينة حكيمًا مشهورًا بالحكمة، ثم يَعرضون عليه بقية أطبّاء البلد ليمتحنهم، فمن وجده مقصّرًا فى عمله، أمره بالاشتغال وقراءة العلم، ونهاه عن المداواة. وينبغى إذا دخل الطبيب على مريض أن يسأله عن سبب مرضه، وعما يجد من الألم، ويعرف السبب والعلامة والنبض والقارورة[(١)]، ثم يُرَتّب له قانونًا[(٢)] من الأشربة وغيرها، ثم يكتب نسخةً بما ذكره له المريض، وبما رتّبه له فى مقابلة المرض، ويُسَلّم نسخته لأولياء المريض، بشهادة من حضر معه عند المريض. فإذا كان من الغد حضر ونظر إلى دائه، وسأل المريض، ورتّب له قانونًا على حسب مقتضى الحال، وكتب له نسخة أيضًا، وسلّمها إليهم. وفى اليوم الثالث كذلك، ثمّ فى اليوم الرابع، وهكذا إلى أن يبرأ المريض، أو يموت. فإن برىء من

---

(١) القارورة: أى الزجاجة.

(٢) يقصد المصنف بالقانون هنا: تذكرة العلاج.

مرضه، أخذ الطبيب أجرته وكرامته، وإن مات حضر أولياؤه عند الحكيم المشهور، وعرضوا عليه النسخ التى كتبها لهم الطبيب، فإن رآها على مقتضى الحكمة وصناعة الطب من غير تفريط ولا تقصير من الطبيب أعلمهم، وإن رأى الأمر بخلاف ذلك قال لهم: خذوا دِيَةَ صاحبكم من الطبيب، فإنه هو الذى قتله بسوء صناعته وتفريطه، فكانوا يحتاطون على هذه الصورة الشريفة إلى هذا الحدِّ، حتى لا يتعاطى الطبّ من ليس من أهله، ولا يتهاون الطبيب فى شىء منه.

وينبغى للمحتسب أن يأخذ عليهم عهد بقراط[١] الذى أخذه على سائر الأطباء، ويُحَلِّفَهمْ ألاّ يُعطوا أحدًا دواءً مضرًا، ولا يُرَكِّبُوا له سُماً، ولا يصفوا التمائم عند أحد من العامة، ولا يذكروا للنساء الدواء الذى يسقط الأجنَّة، ولا للرجال الدواء الذى يقطع النسل، وليغضُّوا أبصارهم عن المحارم عند دخولهم على المرضى، ولا يفشوا الأسرار، ولا يهتكوا الأستار.

فصل

وينبغى للطبيب أن يكون عنده جميع آلات الطب على الكمال، وهى كلبات الأضراس،ومكاوى الطحال، وكلبات العَلَق، وزرّاقات القولنج، وزرّاقات الذكر، وَمِلْزم البواسير، ومخرط المناخير، ومنجل النواصير، وقالب التشمير، ورصاص التثقيل، ومفتاح الرحم، وبوار النساء، ومكمدة الحشا، وقدح الشّوصة، وغير ذلك مما يُحتاج إليه فى صناعة الطب، غير آلة الكحّالين والجرائحيِّين، مما يأتى ذكره فى موضعه.

وللمحتسب أن يمتحن الأطباء بما ذكره حنين بن إسحاق فى كتابه المعروف: «محنة الطبيب». وأما كتاب: «محنة الطبيب» لجالينوس، فلا يكاد أحد من الأطباء يقوم بما شرطه جالينوس عليهم فيه.

فصل

وأما الكحّالون، فيمتحنهم المحتسب بكتاب حنين بن إسحاق كذلك، أعنى العشر مقالات فى العين، فمن وجده فيما امتحنه به عارفًا بتشريح عدد طبقات العين السبعة، وعدد رطوباتها الثلاثة، وعدد أمراضها الثلاث، وما يتفرَّع من ذلك من الأمراض،

---

(١) بقراط: هو الطبيب اليونانى القديم الشهير، ويطلق عليه أبو الطبّ، (Hippocrates)، توفى عن ٩٥ سنة من عمره، وهو من مواليد ٤٦٠ق.م. انظر: طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (٢٤/١ - ٢٧).

وكان خبيرًا بتركيب الأكحال، وأمزجة العقاقير، أَذِن له المحتسب بالتصدّى لمداواة أعين الناس. ولا ينبغى أن يفرّط الكحّال فى شيء من آلات صنعته، مثل صنانير السبل، والظّفرة، ومحكّ الجرب، ومباضع الفصد، ودرج المكاحل، وغير ذلك.

وأما كحّالو الطرقات، فلا يوثق بأكثرهم، إذ لا دين لهم يصدّهم عن التهجّم على أعين الناس بالقطع والكحل بغير علم ومخبرة بالأمراض والعلل الحادثة، فلا ينبغى لأحدٍ أن يركن إليهم فى معالجة عينيه، ولا يثق بإكحالهم وأشيافاتهم، فإن منهم من يصنع أشيافًا أصلها من النشا والصمغ، ويصبغها ألوانًا مختلفة، فيصبغ الأحمر بالأسريقون، والأخضر بالكركم والنيل، والأسود بالأقاقيا، والأصفر بالزعفران، ومنهم من يجعل أشياف ماميتا، ويجعل أصله من البان المصرى، ويعجنه بالصمغ المحلول، ومنهم مَنْ يعمل كحلاً من نوى الإهليلج المحرق والفلفل، وجميع غشوش أكحالهم لا يمكن حصر معرفتها، فيحلّفهم المحتسب على ذلك، إذ لا يمكنه منعهم من الجلوس لمعالجة أعين الناس.

فصل

وأما المجبّرون، فلا يحلُّ لأحدٍ أن يتصدّى للجبر إلا بعد أن يُحكِم معرفة المقالة السادسة من كنّاش بولص فى الجبر، وأن يعلم عدد عظام الآدمى، وهو مائتا عظم وثمانية وأربعون عظما، وصورة كلّ عظم منها، وشكله، وقدره، حتى إذا انكسر منها شيء أو انخلع ردّه إلى موضعه، على هيئته التى كان عليها، فيمتحنهم المحتسب بجميع ذلك.

فصل

وأما الجرائحيّون، فيجب عليهم معرفة كتاب جالينوس المعروف بقاطاجانس فى الجراحات والمراهم، وأيضًا كتاب الزّهراوى فى الجراح، وأن يعرف التشريح، وأعضاء الإنسان، وما فيه من العضل، والعروق، والشرايين، والأعصاب، ليتجنّب الجرّاح ذلك فى وقت فتح الموادّ وقطع البواسير. ويكون معه دست المباضع، فيه مدوّرات الرأس، والمورّبات، والحربات، وفأس الجبهة، ومنشار القطع، ومجرفة الأذن، وورد السَّلَع، مرهمدان المراهم، ودواء الكندر القاطع للدم، الذى قدَّمنا صفته. وقد يبهرجون على الناس بعظام تكون معهم، فيدسّونها فى الجرح، ثم يخرجونها منه بمحضر من الناس، ويزعمون أنّ أدويتهم القاطعة أخرجتها. ومنهم مَنْ يضع مراهم من الكلس المغسول

بالزيت، ثم يصبغ لونه أحمر بالمغرة، أو أخضر بالكركم والنيل، أو أسود بالفحم المسحوق، فيعتبر عليهم العريف جميع ذلك، والله أعلم.

* * *

الباب الثامن والثلاثون

فى الحسبة على مُؤَدِّبى الصبيان

لا يجوز لهم تعليم الخطّ للصِّبيان فى المساجد؛ لأن النبى ﷺ أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين؛ لأنهم يسوِّدون حيطانها، ويُنَجِّسون أرضها، إذ لا يحترزون من البول وسائر النجاسات، بل يتّخذون للتعليم حوانيت فى الدروب وأطراف الأسواق.

فصل

وأول ما ينبغى للمؤدِّب أن يعلِّم الصبىّ السُّور القصار من القرآن، بعد حذقه بمعرفة الحروف، وضبطها بالشكل، ويُدَرِّجه بذلك حتى يألفه طبعه، ثم يُعَرِّفه عقائد أهل السُّنّة والجماعة، ثم أصول الحساب، وما يُستحسن من المراسلات والأشعار دون سخيفها ومسترذلها. وفى الرّواحِ يأمرهم المؤدّب بتجويد الخطّ على المثال، ويكلّفهم عرض ما أملاه عليهم حفظًا غائبًا لا نظرًا، ومن كان عمره فوق سبع سنين، أمره المؤدّب بالصّلاة فى جماعة؛ لأن النبى ﷺ قال: «علموا صبيانكم الصلاة لسبع، واضربوهم على تركها لعشر»[1]. ويأمرهم المؤدّب ببِرّ الوالدين، والانقياد لأمرهما بالسمع والطاعة، والسلام عليهما، وتقبيل أيديهما عند الدخول إليهما، ويضربهم على إساءة الأدب والفحش من الكلام، وغير ذلك من الأفعال الخارجة عن قانون الشرع، مثل اللعب بالكِعَاب، والبيض، والسير، ونردشير[2]، وجميع أنواع القمار، ولا يضرب صَبِيًّا بعصًا غليظة تكسر العظم، ولا رقيقة تؤلم الجسم، بل تكون وسطًا، ويّتخذ مجلدًا عريضَ السّير، ويعتمد فى ضربه على اللوايا والأفخاذ وأسافل الرجلين؛ لأن هذه المواضع لا يخشى منها ضرر ولا غائلة.

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك فى الصلاة (١٩٧/١)، والبيهقى فى الكبرى فى الصلاة (١١٩/٣) ح (٥٠٩١، ٥٠٩٢).

(٢) هى الطاولة المعروفة فى مصر، من ألعاب الفرس القديمة. انظر: صبح الأعشى (١٤٨/٢، ١٤٩).

فصل

ولا ينبغى للمؤدِّب أن يستخدم أحد الصبيان فى حوائجه وأشغاله التى فيها عارُ على آبائهم، كنقل الزِّبل، وحمل الحجارة، وغير ذلك، ولا يرسله إلى داره وهى خالية؛ لئلاّ تَتَطَرَّق إليه التهمة، ولا يرسل صبيًا مع امرأة ليكتب لها كتابًا، ولا غير ذلك، فإن جماعة من الفُسّاق يحتالون على الصبيان بذلك، ويكون السّائق لهم أمينًا، ثقةً، متأَهِّلاً؛ لأنه يتسلّم الصّبيان فى الغدوّ والرواح، وينفرد بهم فى الأماكن الخالية، ويدخل على النسوان، فيلزم أن يكون كذلك.

ولا يعلم المُؤدِّب الخطّ امرأة ولا جارية؛ لأن ذلك مما يزيد المرأة شرًّا، وقيل: إن مثل المرأة التى تتعلم الخطّ، مثل حية تُسْقى سمًّا. وينبغى للمؤدّب أن يمنع الصبيان من حفظ شىء من شعر ابن الحجاج[1] والنظر فيه، ويضربهم على ذلك، وكذلك ديوان صريع الدَّلاّ، فإنه لا خير فيه، وكذلك الأشعار التى عملتها الروافض فى أهل البيت، فلا يُعرِّفهم شيئًا من ذلك، بل يعلّمهم الأشعار التى مُدحت بها الصحابة، رضوان الله عليهم، ليرسخ ذلك فى قلوبهم.

* * *

الباب التاسع والثلاثون
فى الحسبة على أهل الذِّمّة

لا يصحّ عقد الذّمّة إلا من الإمام، أو مِمَّنْ يُفَوِّض إليه الإمام، ولا تعقد الذمّة إلا لمن له كتاب، أو شبه كتاب من الكفّار، كاليهود، والنصارى، والمجوس، وأما غير هؤلاء ممن لا كتاب لهم، ولا شبه كتاب، كالمشركين، وعبدة الأوثان، ومن ارتدّ عن الإسلام، أو من أظهر الزندقة والإلحاد، فلا يجوز لهم عقد الذمّة، ولا يُقَرّون على ما هم عليه، ولا يُقْبَل منهم غير الإسلام.

فصل

وينبغى أن يشترط عليهم ما شرطه عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فى كتاب الجزية الذى كتبه لأهل الذمّة، ويؤخذون بلبس الغيار، فإن كان يهوديًا، وَضع على

---

(١) هو أبو عبد الله الحسين بن الحجاج، من كبار الشيعة، شاعر غزل، ومجون، كان محتسبًا على بغداد فى عهد عز الدولة بن بويه، توفى سنة ٣٩١هـ. انظر: وفيات الأعيان (١٩٤/١).

كتفيه خيطًا أحمر أو أصفر، وإن كان نصرانيًّا، شدّ فى وسطه زنّارًا، وعلّق فى عنقه صليبًا، وإن كانت امرأة لبست خُفَّين أحدهما أبيض والآخر أسود، وإذا عبر الذمّى إلى الحمّام، ينبغى أن يكون فى عنقه طوق من حديد، أو نحاس، أو رصاص، ليتميّز به عن غيره، ويمنعهم المحتسب من ركوب الخيل، وحمل السلاح، والتقلّد بالسيوف، وإذا ركبوا البغال ركبوها بالأُكُف عرضًا من جانب واحد، ولا يرفعون بنيانهم عن بنيان المسلمين، ولا يتصدّرون فى المجالس، ولا يُزاحمون المسلمين فى الطرقات، بل يلجأون إلى أضيق الطرقات، ولا يُبْدأُون بالسلام، ولا يُرَحَّب بهم فى المجالس، ويشترط المحتسب عليهم ضيافة مَنْ مرَّ بهم من المسلمين، وإنزالهم فى بيوتهم وكنائسهم، ويُمنعون من إظهار الخمر والخنزير، والجهر بالتوراة والإنجيل وضرب الناقوس، ومن إظهار أعيادهم، ورفع الصوت على موتاهم، فجميع ذلك اشترطه عليهم عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فى كتابه، فيراعى المحتسب أحوالهم فى جميع ذلك، ويجبرهم عليه.

فصل

ويأخذ منهم الجزية على قدر طبقاتهم، على الفقير المُعْيل دينارًا، وعلى المتوسط دينارين، والغنى أربعة دنانير عند رأس الحول، فإذا جاء المحتسب أو العامل لأخذ الجزية، أقامه بين يديه، ثم لطمه بيده على صفحة عنقه، وهو يقول له: أد الجزية يا كافر، ويخرج الذمى يده من جيبه مطبوقة على الجزية، فيعطيها له بذلّة وانكسار. ويشترط المحتسب عليهم مع الجزية التزام أحكام الإسلام، فإن امتنع الذمىّ من لزوم الأحكام، أو قاتل المسلمين، أو زنا بمسلمة، أو أصابها باسم نكاح، أو فتن مسلمًا عن دينه، أو قطع الطريق على مسلم، أو آوى المشركين، أو دلّهم على عورات المسلمين، أو قَتَل مُسلمًا، انْتقِضَتْ ذمّته فى ذلك جميعه، وقُتل فى الحال، وغُنِم ماله فى أصحّ القولين؛ لأنّ أهل الذمّة قد شُرِط عليهم الكفّ عن ذلك، فعلى المحتسب معرفة هذه الأشياء، وإلزامهم بجميعها، والله أعلم.

* * *

الباب الأربعون

يشتمل على جُمل وتفاصيل فى أمور الحسبة

قد ذكرنا فى هذا الكتاب من الحسبة على أرباب الصنائع المشهورة، ومن كشف غشوشهم وتدليسهم، ما فيه الكفاية للمحتسب، وأصلٌ يقيس عليه ما عداه، مما لم نذكره، وسأذكر فى هذا الباب تفاصيل جُمَل قد تقدّمت فى هذا الكتاب، وأذكر ما يلزم المحتسب فعله من أمور الحسبة فى صالح الرعية، غير ما ذكرناه. فمن ذلك السوط، والدِّرة، والطرطور:

أما السوط، فيتّخذه وسطًا، لا بالغليظ الشديد، ولا بالرقيق اللين، بل يكون بين سوطين، حتى لا يؤلم الجسم، ولا يخشى منه غائلة، وأما الدِّرّة، فتكون من جلد البقر، أو الجمل، محشوَّة بنوى التمر، وأما الطرطور، فيكون من اللبد، منقوشًا بالخرق الملوّنة، مكللاً بالجزع والودع والأجراس، وأذناب الثعالب والسنانير، وتكون هذه الآلة جميعها معلقة على دكة المحتسب يشاهدها الناس، فترعد منها قلوب المفسدين، وينزجر بها أهل التدليس.

فإذا عثر المحتسب بشارب خمر، جلده بالسوط أربعين جلدة، وإن رأى المصلحة فى جلْد الثمانين جَلَدَه؛ لأن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، جَلَد شارب الخمر ثمانين جلدة، بفتوى علىّ بن أبى طالب، رضى الله عنه، فيجردّه المحتسب عن ثيابه، ثم يرفع يده بالسوط حتى يبيض إبطه، ويفرّق الضرب على كتفيه وإليتيه وفخذيه، وإن كان زانيًا، وهو بكر، جَلَدَه فى ملأ من الناس، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [النور: ٢]، وإن كانت امرأة جلدها وهى فى إزارها وثيابها، وأما الزانى المحصن، فيجمع المحتسب الناس حوله خارج البلد، ويأمرهم برجمه، كما فعل رسول الله ﷺ بماعز، وإن كانت امرأة محصنة، حفر لها حفرة فى الأرض، وأجلسها فيها إلى وسطها، ثم أمر الناس برجمها، كما فعل رسول الله ﷺ بالغامدية[١]، وإن كان المذنب لاط بغلام، ألقاه المحتسب من أعلا شاهق فى البلد، هذا كلّه بعد ثبوته عند الإمام، ثم يتولاّه المحتسب.

---

(١) يقصد قصة رجم ماعز بن مالك، وانظر : المبسوط للسرخسى (٩/٩٢)، والغامدية: امرأة جاءت النبى ﷺ حاملاً نتيجة الزنا، وأقرّت بذلك، فأمهلها النبى ﷺ حتى وضعت حملها، ثم أمر برجمها.

فصل

وأما التعزير، فعلى قدر أحوال الناس، وقدر الجناية، فمن الناس من يكون تعزيره بالقول والتوبيخ، ومنهم من يُضرب بالسوط به أدنى الحدود، ومنهم من يُضرب بالدرّة ويُلبس الطرطور ويُركب على جمل أو حمار، وإذا رأى المحتسب رجلاً حامل خمر، أو يلعب بملهاة، كالعود، والمعزفة، والطنبور، والبربط(١)، والمزمار، عزّره على حسب ما يراه من المصلحة فى حقّه، بعد إراقة الخمر، وكسر الملهاة، وكذلك إن رأى رجلاً أجنبيًّا مع امرأة أجنبية، فى خلوة أو طريق، ويلزم المحتسب أن يتفقَّد المواضع التى تجتمع فيها النسوان، مثل سوق الغزل والكتان، وشطوط الأنهار، وأبواب حمّامات النساء، وغير ذلك، فإن رأى شابًا منفردًا بامرأة، ويكلّمها فى غير معاملة فى البيع والشراء، وينظر إليها، عزّره ومنعه من الوقوف هناك، فكثير من الشبان المفسدين يقفون فى هذه المواضع، وليس لهم حاجة غير التلاعب على النسوان.

ثمّ يتفقّد المحتسب مجالس الوعّاظ، فلا يدع الرجال يختلطون بالنساء، ويجعل بينهم ستارة، فإذا انفضّ المجلس، خرج الرجال وذهبوا فى طريق، ثمّ تخرج النساء ويذهبن فى طريق آخر، فمن وقف من الشباب فى طريقهن لغير حاجة، عزَّره المحتسب، ثم يتفقّد المآتم والمقابر، فإذا سمع نادبة أو نائحة عزَّرها ومنعها؛ لأنّ النواح حرام، قال رسول الله ﷺ: «النائحة ومن حولها فى النار»(٢).

ويمنع المحتسب النساء من زيارة القبور؛ لأنّ النبى ﷺ قال: «لعن الله زوّارات القبور»(٣)، وإذا خرجت جنازة أمر المحتسب النساء أن يتأخرن عن الرجال، ولا يختلطن بهم، ويمنعهن من كشف وجوههن ورءوسهن خلف الميت، ويأمر مناديًا ينادى فى البلد بالمنع من ذلك، والأَوْلَى أن يمنعهن من تشييع الجنازة، ومتى سمع المحتسب بامرأة عاهرة، أو مغنية، استتابها عن معصيتها، فإن عادت عزَّرها ونفاها من البلد، وكذلك يصنع بالمخنَّثين والمردان المشهورين بالفساد مع الرجال، ويمنع المحتسب الخنثى من حلق لحيته أونتفها، ودخوله على النسوان، وكذلك الأمرد النكريش، متى حلق لحيته كان ذلك دليلاً على فساده، فيعزّره المحتسب على فعل ذلك.

---

(١) البربّط: آلة موسيقية تعرف بالعود، وهو فارسى معرب. وانظر: الموسيقى الكبير للفارابى (ص٣٢)، والقاموس (برط).

(٢) لعن النائحة والمستمعة، أخرجه أبو داود (٣١٢٨)، وانظر: الكبائر للذهبى (١/١٦٥).

(٣) أخرجه الترمذى (٣/٣٧١) ح (١٠٥٦)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (١/٥٠٢) ح (١٥٧٤)، والإمام أحمد فى مسنده (٢/٣٣٧) ح (٨٤٣٠).

فصل

ويُشرف المحتسب على الجوامع والمساجد، ويأمر قَوَمها بكنسها فى كلّ يوم وتنظيفها من الأوساخ، ونفض حصرها من الغبار، ومسح حيطانها، وغسل قناديليها وإشعالها فى كلّ ليلة، ويأمرهم بغلق أبوابها عقيب كلّ صلاة، وصيانتها من الصبيان والمجانين، وممن يأكل فيها الطعام أو ينام، أو يعمل صناعة، أو يبيع سلعة، أو ينشد ضالّة، أو يجلس فيها للناس لحديث الدنيا، فجميع ذلك قد ورد الشرع بتنزيه المساجد عنه وكراهية فعله.

ويتقدَّم المحتسب إلى جيران كل مسجد بالمواظبة على صلاة الجماعة عند الأذان، لإظهار معالم الدين، وإشهار شعار الإسلام، سيمّا فى هذا الزمان؛ لكثرة البدع، واختلاف الأهواء، وتنوّع الباطنية، وما قد صَرَّحُوا به من تعطيل الشريعة، وإبطال أحكام الإسلام، فيجب على كلّ مسلم إظهار أركان الإسلام، وإشهار الشريعة فى مقابلة ذلك، لتَقْوى عقائد العامة.

فصل

ولا يُؤَذّن فى المنارة إلا عدلُ، ثقة، أمين، عارف بأوقات الصلوات؛ لأنّ النبى ﷺ قال: «المؤذّنون أمناء، والأئمة ضمناء، فرحم الله الأئّمة، وغفر للمؤذّنين»[(١)]. وينبغى للمحتسب أن يمتحنهم بمعرفة الأوقات، فمن لم يعرف ذلك منعه من الأذان حتى يعرفها؛ لأنه ربما أذّن فى غير الوقت، فيسمعه العامّة، فيصلّون قبل الوقت، فلا تصحّ صلاتهم، فيكون هو السبب فى إفساد صلاة الناس، فيجب عليه معرفة الوقت، ويقرأ باب الأذان والإمامة فى الفقه، ويُستحبّ أن يكون المؤذّن صبيًّا حسن الصوت.

وينهى المحتسب عن النعى فى الأذان، وهو التطريب، والتمطيط، ويأمره إذا صعد المنارة أن يَغُضّ بصره عن النظر إلى دور الناس، ويأخذ عليه العهد فى ذلك، ولا يصعد إلى المنارة غير المؤذّن فى أوقات الصلاة.

وينبغي للمؤذّن أن يكون عارفًا بمنازل القمر، وشكل كواكب كلّ منزلة؛ ليعلم أوقات الليل ومُضِيّ ساعاته، وهى ثمان وعشرون منزلة: الشرطان، والبطين، والثريا،

---

(١) صحيح: أخرجه ابن خزيمة (٣/١٦) ح (١٥٣١)، والبيهقى فى الكبرى (١/٤٣٠) ح (١٨٦٧).

والدبَرَان، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنثرة، والطرف، والجبهة، والخراتان، والصرفة، والعواء، والسماك، والغفر، والزبانان، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، وسعد الذَّابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، والفرغ المقدم، والفرغ المؤخر، وبطن الحوت، وهو الرشاء. فهذه جملة عدد منازل القمر، والصبح يدوم ويطلع فى كل منزلة من هذه ثلاثة عشر يومًا، ثم ينتقل إلى المنزلة التى بعدها، فإن عرف المؤذّن فى أىّ منزلة هو الصبح نظر إلى المنزلة المعترضة فى وسط السماء، فيعرف حيئذ الطالع والساقط، وكم بينه وبين الصبح، وهذا فيه علمٌ وحسابٌ يطول شرحه، فمن أراد معرفة ذلك، فعليه بكتاب الأنواء لابن قتيبة، فلا غنى للمؤذّن عن معرفته، ليحتاط على معرفة الصبح، ويجوز للمؤذّن أخذ الأجرة على الأذان.

وأما أئمة المساجد، فلا يجوز لهم أخذ الأجرة على الصلوات والإمامة، فيمنعهم المحتسب من أخذ ذلك، فإنه حرام، فإن رُفع إلى الإمام شىء من غير شرط، جاز له أخذه على سبيل الهدية، أو الهبة، أو الصلة، أو البرّ.

ويأمر المحتسب أهل القرآن بقراءته مرتّلاً، كما أمرَ الله سبحانه وتعالى، وينهاهم عن تلحين القرآن وقراءته بالأصوات الملحّنة، كما تلحّن الأغانى والأشعار، فقد نهى الشرع عن ذلك، ولا يأتون إلى جنازة من غير أن يستدعيهم وَلِىّ الميت، وإذا أعطوا شيئًا من غير شرط على سبيل الصّدقة، جاز لهم أخذه، فأما اشتراطه فلا يجوز، فيعتبر المحتسب عليهم ذلك.

ولا يغسل الموتى إلا ثقة أمين قد قرأ كتاب الجنائز فى الفقه، وعرف حدود ذلك، فيسألهم المحتسب عن ذلك، فمن كان قيِّمًا به تركه، ومن لم يعلم صَرَفَه ليتعلّم، وينهى المحتسب الأضِرَّاء وأهل الكدية المقنفين عن قراءة القرآن فى الأسواق للكُدية، فقد نهت الشريعة عن ذلك، ويمنعهم من إنشاد الشعر الذى عملته الروافض فى أهل البيت، ومن ذكر المصرع وأشباهه، فإن هذا كلّه فتنة للعامة، فلا يصح ذكره.

فصل

وينبغى للمحتسب أن يتردَّد إلى مجالس القضاة والحكام، ويمنعهم من الجلوس فى الجامع والمسجد للحكم بين الناس؛ لأنه ربما دخل عليهم الرجل الجنب، والمرأة الحائض، والذّمىّ، والصبىّ، والمجنون، والحافى، ومن لا يحترز من النجاسات، فيؤذون المسجد،

وينجّسون الحصر، وقد ترتفع الأصوات، ويَكْثُر اللغط فيه عند ازدحام الناس ومنازعتهم للخصوم، وكلّ ذلك قد ورد الشرع بالنهى عنه.

وقد رأيت مكتوبًا فى كتاب أبى القاسم الصميرى أنّ الخليفة المستظهر بالله أمير المؤمنين، رحمه الله، ولّى رجلاً من أصحاب الشافعي، رضى الله عنه، الحسبة ببغداد، فنزل الرجل إلى جامع المنصور، فوجد قاضى القضاة يحكم بين الناس فيه، فقال له: سلام عليك، قال الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾ [الحج: ٤١].

وقد مكن الله عزَّ وجلّ خليفته المستظهر بالله أمير المؤمنين فى أرضه، وبسط يده بالأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وقد جعلنى وإيَّاك نائبين عنه فى ذلك، قائمين فى رعيته بحدود الله، ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه، ونحن أولى بمن يعمل بحدوده، ولزوم ما أمر الله به، واجتناب ما نهى عنه، ليقتدى بنا العامّة، فنحن ملح البلد، نُصْلح ما فسد من أحوال العامة، فإذا فسد الملح، مَنْ يصلحه؟ ومجلسك هذا لا يصلح فى الجامع، أما سمعت قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ**﴾ [النور: ٣٦، ٣٧]، وليس فى هذا الذى أنت فيه شىء من ذلك، وإنه لتدخل إليك المرأة لتحتكم مع بعلها، ومعها الطفل فيبول على الحصر، وإنّ الرجل ليمشى على النّجاسة والقذر، ويدوس الحصر بنعله، وإنَّ الأصوات لترتفع باللّغَط خارج حلقتك، وربما دخل إليك الرجل الجنب، والمرأة الحائض، وجميع ذلك أمر نَبِيُّنَا ﷺ باجتنابه، فاجلس فى وسط البلد، بحيث لا يشقّ على أحدٍ القصد إليك، والسلام. قال الصميرى: فنهض القاضى من وقته، ولم يَعُدْ يجلس فى الجامع للقضاء.

ومتى رأى المحتسب رجلاً يسفه فى مجلس الحكم، أو يطعن على الحاكم فى حكمه، أو لا ينقاد إلى حكمه، عزَّره على ذلك، و أما اذا رأى القاضى قد استشاط على رجل غيظًا، أو شتمه، أو احتد عليه فى كلامه، ردعه عن ذلك، ووعظه، وخوّفه بالله عزَّ وجلَّ، فإن القاضى لا يجوز له أن يحكم وهو غضبان، ولا يقول هجرًا، ولا يكون فظًا غليظًا، وكذلك يكون غلمانه وأعوانه الذين بين يديه، فإذا كان فيهم شابّ حسن الصورة، فلا يبعثه القاضى لإحضار النسوان، وينبغى على القاضى أن يجلس للناس وسط البلد؛ لئلا يَشُقَّ على الناس القصد إليه.

فصل

وأما الوكلاء الذين بين يدى القاضى، فلا خير فيهم، ولا مصلحة للناس بهم فى هذا الزمان؛ لأنّ أكثرهم رقيق الدِّين، يأخذ من الخصمين، ثم يتمسكون فيه بسنة الشرع، فيوقفون القضية، فيضيع الحق، ويخرج من بيد يدى طالبه وصاحبه، فإذا حضر الخصمان عند الحاكم، فإن الحق يظهر سريعًا من كلامهما إذا لم يكن لهما وكيل، فكأنّ ترك الوكلاء فى هذا الزمان أَوْلَى من نَصْبهم، إلاّ أن يكون هناك امرأة غير بَرْزَة[1]، أو صبىّ، فحينئذ يوكل عنهما الحاكم وكيلاً.

فصل

ويقصد المحتسب مجالس الولاة والأمراء، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويعظهم ويُذَكِّرهم، ويأمرهم بالشفقة على الرّعية والإحسان إليهم، ويذكُر لهم ما ورد فى ذلك من الأحاديث عن النبىّ ﷺ، وليكن فى وعظه وقوله فى ردعهم عن الظلم لطيفًا، ظريفًا، لينًا في القول، بشوشًا، غير جبَّار، ولا عبوس، قال الله عزَّ وجلَّ لنبيّه ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقد تقدّمت الحكاية عن المأمون فى أوّل الكتاب.

فصل

وما سوى ذلك أرباب الحرف المذكورة، والصنائع المشهورة فى كتابى هذا، فلا يخفى على المحتسب كيفية الحسبة عليهم، والتّطَرُّق إلى كشف تدليسهم، فإنّ ذلك سهل يعرف بالمشاهدة والعيان، مثل الحسبة على البقّالين، وباعة الخضروات، فإنه يأمرهم ببيع البقول مغسولة من السرجين، مُنَقَّاة من الحشيش والطاقات المصفرة، ويأمرهم بقطع شغف أصول الخسّ والفجل، وينهاهم عن غسل البصل والثوم الرَّطْبين، فإن الماء يزيدهما زفرة ونتونة، وإذا بات فى دكاكينهم شىء من ذلك، فلا يخلطونه بالطّرىِّ المقطوع فى اليوم.

وينهاهم المحتسب عن بيع ما دَوَّد من البطيخ، والقثاء، والتين، والرُّطَب، وما قد تناهى نضجه حتى تهرى قشره من ذلك، ومثل الباقلائيين[2]، ينهاهم عن بيع ما سَوّس من الباقلاّ، والحمّص، وعن خلطِ ما بقى عندهم من أمس فيما سلقوه اليوم، ويأمرهم أن ينثروا عليه الملح المسحوق والصعتر، ليدفع مضارّه، ويتفقّد مكاييلهم، فإنهم يأخذون

---

(١) هى المرأة التى تلزم بيتها، فلا تبرز إلى الأسواق ولا تخالط الرجال. انظر: اللسان: (برز).

(٢) أى بائعى الباقلاء، والفول.

قطعة من خشب يحفرونها مكيالاً، فيكون طولها شبرًا مثلاً، والمحفور من داخلها أربع أصابع، فيغترّ الناس بسعتها وطولها، ولا يعلمون المقدار المحفور منها، وهذا تدليس لا يخفى.

ومثل باعة الخزف، والكيزان، والأوانى، فإنهم يطلون ما كان مثقوبًا منها، أو مشقوقًا بالكلس المعجون بالشحم، وبياض البيض، والخزف الأحمر المسحوق. ومثل الغسَّالين، ينهاهم المحتسب عن غسل ثياب الناس بالماء المطبوخ فيه القلى والنورة والنطرون، فإن ذلك يضرّ بالملابس ويبليها سريعًا، ويولّد فيها القمل والصِّيبَان. ومثل السقَّائين، وأصحاب الروايا والقِرَب، فإنه يأمرهم بالدخول فى النهر، حتى يبعدوا عن الشط ومواضع الأوساخ، ولا يستقون من موضع فى النهر بقربٍ من سقاية للدوابّ، أو مستخدم، أو مجرى حمام، بل يصعدون عنه، أو يبعدون من تحته، ومن اتخذ منهم رواية جديدة، أمره المحتسب بنقل الماء إلى معاجن الطين[1] أيامًا، ولا يبيعه للشرب، فإنه يكون مُتَغيِّر الطعم والرائحة من أثر الدباغة والزفت، فإن زال التغيُّر أذْن له المحتسب ببيعه للناس للشرب والاستعمال.

ويأمرهم المحتسب أن يشدّوا فى أعناق دوابِّهم الأجراس، وصفاقات الحديد والنحاس، لتعلو جَلَبة الدابة إذا عبرت فى سوق أو مَحَلَّة، فيحترس منها الضَّرير، والصبيان، والإنسان الغافل، وكذلك يفعل المكَارِيّة، وحمالو الحطب بدوابّهم، ويجبرهم المحتسب على فعل ذلك لما فيه من المصلحة، ولا يُحَمِّلُون الدوابَّ أكثر من طاقتها، ولا يسوقونها سوقًا شديدًا تحت الأحمال، ولا يضربونها ضربًا قويًا، ولا يوقفونها فى العراص وعلى ظهورها أحمالها، فإنّ هذا كلّه نهت الشريعة المطهّرة عن فعله، وعليهم أن يراقبوا الله عزَّ وجلَّ فى علف الدَّابّةِ وعليقها، ويكون موفَّرًا عليها بحيث يحصل به الشبع، ولا يكون مبخوسًا ولا نزرًا.

ولو شرعتُ أن أذكر جميع ما ينبغى للمحتسب أن يفعله من أمور الحسبة، لطال الكتاب، ولم يقع عليه حصر، ولكنى قد وضعت أصولاً وقواعد يقيس عليها المحتسب ما يجانسها، لعمرى إن الضّابط فى أمور الحسبة هو الشرع المُطَهّر، فكلّ ما نهت الشريعة عنه يكون محظورًا، ووجب على المحتسب إزالته والمنع من فعله، وما أباحته الشريعة أقرَّه على ما هو عليه، ولهذا ذكرنا فى أوّل الكتاب أنه يجب أن يكون

---

(١) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص٢٤٠).

المحتسب فقيهًا، عالمًا بأحكام الشريعة، ومتى كان المحتسب جاهلاً، اختلفت عليه الأمور، ووقع فى المحظور والمحذور، ونسأل الله العون والعصمة والتوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

المحتويات

نهاية الرّتبة في طلب الحسبة

لمحمّد بن أحمد بن بسّام المحتسب

تحقيق
محمّد حسن محمّد حسن إسماعيل
أحمد فريد المزيدي





المقدمة

بسم الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله العترة، وعلى أصحابه، رضوان الله عليهم، الخليفة أبو بكر، رضى الله عنه، والخليفة عمر، رضى الله عنه، والخليفة عثمان، رضى الله عنه، وبقية أصحابه، رضوان الله عليهم أجمعين، وبعد:

فهذا الكتاب قليل الحجم، عظيم الفائدة فى الحسبة، لمؤلفه محمد بن أحمد بن بسام المحتسب، ولم نعرف له ترجمة، إلا أن أقدم نسخة للكتاب كانت سنة ٨٤٤هـ، فهو إذًا قد عاش قبل هذا التاريخ، فإن النسخة لم تكن بخطه، وقد اعتمد ابن بسام على كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة للشيزرى، الذى حققناه قبل هذا الكتاب فى نفس المجلد، ولقد اعتمدنا فى تحقيق هذا الكتاب على النسخة المطبوعة فى مطبعة المعارف بغداد، التى اعتمدت على نسختين خطيتين:

إحداهما: أحمد الثالث - استانبول برقم (٢٣٠٤/عموى)، وتقع فى (١٢٢/ق).

والثانية: نسخة دار الكتب المصرية - الخزانة التيمورية، تحت رقم (٢٢٦٩/٦١٤) اجتماع طلعت.

ولا يسعنى إلا أن أقدم الشكر لمشايخى ووالدى، رحمه الله، ووالدتى، وليعذرنا طلبة العلم فى التقصير.

طالب العلم

محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعى

المعروف بـ (محمد فارس)

* * *

 (1)

والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

قال محمد بن أحمد بن بسام المحتسب: أحمد من الحمد له، والنعمة منه، والهداية به، والفضل من عنده، والصلاة على خير خلقه وبه نستعين، قال الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾ [الحج: ٤١]، فأمر بذلك مع القدرة عليه، والتمكن منه، ومن الأمر بالمعروف أيضًا، تصفح أحوال السوقة فى معاملاتهم، واعتبار موازينهم، وغشهم، ومراعاة ما تجرى عليه أمورهم.

وقال تبارك وتعالى: ﴿**وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ**﴾ [المطففين: ١ - ٣]، وقال عز من قائل حكاية عن نبيه شعيب، عليه السلام: ﴿**وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ**﴾ [هود: ٨٥].

وقد رأيت المؤلفين من المتقدمين سبقوا إلى ذكر كثير مما يحتاج إليه وينتفع به، ولم أجد أحدًا منهم ذكر ما ينبغى ذكره من الغبن، والفحش، والغش، والخيانة بين الناس فى المعاملات والمبايعات، والتنبيه على ذلك، والتحذير منه، حتى لا يكون ولا شىء منه بعون الله تعالى، فأحببت أن أؤلف عليه كتابًا أدل فيه على ما تيسير من أنواع ذلك، رجاءً لثواب الله، وجعلته أبوابًا، أذكر فى كل باب منها ما يقربه ويشاكله، وبالله التوفيق.

* * *

---

(١) أى أؤلف أو أبدأ إن قلنا: إن الباء متعلقة بمحذوف اسم فاعل، أو ابتدئ متبركًا ومستعينًا بالله، إن قلنا: إن الباء متعلقة بحال من فاعل الفعل المحذوف، أو ابتدائى باسم الله ثابت، إن قلنا: الباء متعلقة بمصدر مبتدأ خبره محذوف. انظر: نهاية المحتاج للشمس الرملى (١٦/١).

فصول الأبواب

قال الشيخ الإمام الأوحد عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله الشيزرى[١]: أحمد الله على ما أنعم، وأستعينه فيما ألزم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له العلى الأعظم، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله النبى الأكرم، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم، وبعد:

فقد سألنى من استند لمنصب الحسبة[٢]، وقلد النظر فى مصالح الرعية، وكشف أحوال السوقة، وأمور المتعيشين، أن أجمع له مختصرًا كافيًا فى سلوك منهج الحسبة على الوجه المشروع؛ ليكون عمادًا لسياسته، وقوامًا لرياسته، فأجبته إلى ملتمسه، ذاهبًا إلى الوجازة لا إلى الإطالة، وضمنته طرفًا من الأخبار، وطرزته بحكايات وآثار، نبهت فيه على غش المبيعات، وتدليس أرباب الصناعات، وكشف سرهم المدفون، وهتكت سرهم المصون، راجيًا بذلك الثواب المنعم ليوم الحساب، وذكرت فيه الحرف المشهورة دون غيرها؛ لمسيس الحاجة إليها، وجعلته أبوابًا يحتذى المحتسب على أمثالها، وينسج على منوالها، وسميته: «نهاية الرتبة فى طلب الحسبة»، وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب.

الباب الأول: فيما يجب على المحتسب من شروط الحسبة ولزوم مستحباتها.

الباب الثانى: فى النظر فى الأسواق والطرقات.

الباب الثالث: فى الخبازين.

الباب الرابع: فى السقائين وغشهم.

الباب الخامس: فى السوقة وغشهم.

الباب السادس: فى جزاري الضأن والمعز والإبل، والقصابين وغشهم.

الباب السابع: فى الشوائين.

---

(١) أى فى كتابه الذى حققناه قبل هذا.

(٢) قال الشيخ أبو يعلى: هو أمر بالمعروف، إذا ظهر تركه، ونهى عن منكر، إذا ظهر فعله. انظر: الأحكام السلطانية لأبى يعلى (ص٢٨٤)، الأحكام السلطانية للماوردى (ص٢٩٩).

الباب الثامن: فى الهرائسيين.

الباب التاسع: فى الزلبانيين.

الباب العاشر: فى الرواسين وغشهم.

الباب الحادى عشر: فى الطباخين وغشهم.

الباب الثانى عشر: فى الحلوانيين وغشهم.

الباب الثالث عشر: فى هرايس التمر ومطبوخ العدس.

الباب الرابع عشر: فى الباقلانيين، أى الفوالين.

الباب الخامس عشر: فى السماكين والسمك.

الباب السادس عشر: فى باعة الصير والبورى والملح.

الباب السابع عشر: فى قلائي السمك وسمك الطاجن.

الباب الثامن عشر: فى صيادي الطيور والعصافير.

الباب التاسع عشر: فى الطحانين وغشهم.

الباب العشرون: فى الفرانين وصبيانهم.

الباب الحادى والعشرون: فى الحطب والحطابين.

الباب الثانى والعشرون: فى القصب والقصابين.

الباب الثالث والعشرون: فى الجبس والجباسين.

الباب الرابع والعشرون: فى الجير والجيارين.

الباب الخامس والعشرون: فى الحمامات، وذكر قوامها، ومنافعها، ومضارها، وما يلزم حراسها، والبلانين، والمزينيين، والوقادين، وباعة النورة.

الباب السادس والعشرون: فى الغزالين والغزل.

الباب السابع والعشرون: فى الكتاتينيين.

الباب الثامن والعشرون: فى الحريريين.

الباب التاسع والعشرون: فى القطانين والندافين.

الباب الثلاثون: فى القلانسيين وغشهم.

الباب الحادى والثلاثون: فى الخياطة والخياطين وغشهم.

الباب الثانى والثلاثون: فى سماسرة البز.

الباب الثالث والثلاثون: فى البز والبزازين.

الباب الرابع والثلاثون: فى الغسالين.

الباب الخامس والثلاثون: فى القصارة والقصارين.

الباب السادس والثلاثون: فى المطرزين.

الباب السابع والثلاثون: فى الرفائين وغشهم.

الباب الثامن والثلاثون: فى الصيادلة والعقاقير.

الباب التاسع والثلاثون: فى الأشربة والمعاجين وما يضاف إلى ذلك.

الباب الأربعون: فى العطر والعطارين.

الباب الحادى والأربعون: فى الصيارف.

الباب الثانى والأربعون: فى الصاغة والصياغة.

الباب الثالث والأربعون: فى الأطباء والفصادين.

الباب الرابع والأربعون: فى الكحالين والكحل.

الباب الخامس والأربعون: فى المجبرين.

الباب السادس والأربعون: فى الجرائحيين.

الباب السابع والأربعون: فى البياطرة.

الباب الثامن والأربعون: فى صباغى الحرير والغزل.

الباب التاسع والأربعون: فى الخزازين صناع الشراك.

الباب الخمسون: فى الأساكفة وصناع الأخفاف.

الباب الثالث والسبعون: فى شعابى البرام.

الباب الرابع والسبعون: فى الزجاجين وغشهم.

الباب الخامس والسبعون: فى معلمى الصبيان، ومعلمات البنات.

الباب السادس والسبعون: فى الدهانين وغشهم.

الباب السابع والسبعون: فى المكارية.

الباب الثامن والسبعون: فى النحاتين، والمصولين فى التراب.

الباب التاسع والسبعون: فى كساحى السماد وحمالته.

الباب الثمانون: فى الغرابيل ومناخل الشعر.

الباب الحادى والثمانون: فى حافرى القبور.

الباب الثانى والثمانون: فى الوراقين والمبهرجين.

الباب الثالث والثمانون: فى من يكتب الرسائل على الطريق والرقاع والدروج.

الباب الرابع والثمانون: فى كتاب الشروط.

الباب الخامس والثمانون: فى الوكلاء بأبواب القضاة وتدليسهم.

الباب السادس والثمانون: فى الميازيب ومضرتها.

الباب السابع والثمانون: فى إصلاح الجوامع والمساجد.

الباب الثامن والثمانون: فى قراء القرآن قدام الموتى.

الباب التاسع والثمانون: فى غسالى الموتى، نفع الله بهم.

الباب التسعون: فى المراصد والمراقب.

الباب الحادى والتسعون: فى طباخى الولائم.

الباب الثانى والتسعون: فى معرفة الموازين.

الباب الثالث والتسعون: فى معرفة المكاييل.

الباب الرابع والتسعون: فى معرفة مثاقيل الذهب وصنج الفضة.

الباب الخامس والتسعون: فى معرفة الأرطال والقناطير.

الباب السادس والتسعون: فى معرفة الأقساط.

الباب السابع والتسعون: فى معاصير الزيت وغشهم.

الباب الثامن والتسعون: فى التبن والتبانين.

الباب التاسع والتسعون: فى القرط والقراطين.

الباب المائة: فى الأنماط وصناعتها.

الباب الحادى والمائة: فى صناع الأخمرة والحرير والوقايا.

الباب الثانى والمائة: فى الحصر العبدانى.

الباب الثالث والمائة: فى الخيزرانيين.

الباب الرابع والمائة: فى اللبود واللبادين.

الباب الخامس والمائة: فى الأرجوان وصناعته.

الباب السادس والمائة: فى العصار.

الباب السابع والمائة: فى الأبارين.

الباب الثامن والمائة: فى الحلفاء وعدده ورسومه.

الباب التاسع والمائة: فى المحامل وصناعتها.

الباب العاشر والمائة: فى الروايا والقرب.

الباب الحادى عشر والمائة: فى الدباغين.

الباب الثانى عشر والمائة: فى دباغى الكيمخت.

الباب الثالث عشر والمائة: فى دباغ جلود البقر.

الباب الرابع عشر والمائة: فى أهل الذمة.

الباب الخامس عشر والمائة: يشتمل على تفاصيل وجمل.

الباب السادس عشر والمائة: فى ترتيب التعزير.

الباب السابع عشر والمائة: فى مجالس الحكام.

الباب الثامن عشر والمائة: فى مجالس الأمراء والولاة.

* * *

الباب الأول

فيما يجب على المحتسب(١) من شروط الحسبة ولزوم مستحبّاتها

اعلم وفقك الله لما كانت الحسبة أمرًا بمعروف، ونهيًا عن منكر، وإصلاحًا بين الناس، وجب أن يكون المحتسب فقيهًا، عارفًا بأحكام الشريعة؛ ليعلم ما يأمر به وينهى عنه، فإن الحسن ما حسَّنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع، ولا مدخل للعقول فى معرفة المعروف والمنكر إلا بكتاب الله عزَّ وجلَّ، وسُنة نبيه ﷺ، ورُبّ جاهل يستحسن بعقله ما قبّحه الشرع، فيرتكب المحظور وهو غير عالم به، ولهذا المعنى كان طلب العلم فريضة على كل مسلم، كما قال النبى ﷺ.

فأول ما يجب على المحتسب أن يعمل بما يعلم، ولا يكون قوله مخالفًا لفعله، فقد قال الله عزَّ وجلَّ فى ذمّ علماء بنى إسرائيل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، وروى أنس بن مالك، رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال: «رأيت ليلة

---

(١) اعلم أن الفرق بين المحتسب والمتطوع من تسعة أوجه:

أحدها: أن فرضه متعين على المحتسب بحكم الولاية، وفرضه على غيره داخل فى فرض الكفاية.

والثانى: أن قيام المحتسب به من حقوق تصرفه الذى لا يجوز أن يتشاغل عنه بغيره، وقيام المتطوع به من النوافل الذى يجوز التشاغل عنه لغيره.

والثالث: أنه منصوب للاستعداء إليه فيما يجب، وليس المتطوع منصوبًا للاستعداء.

والرابع: أن على المحتسب إجابة من استعدى به، وليس على المتطوع إجابته.

والخامس: أن عليه أن يبحث عن المنكرات الظاهرة، ليصل إلى إنكارها، ويفحص عمّا ترك من المعروف الظاهر، ليأمر بإقامته، وليس على غيره من المتطوعة بحث ولا فحص.

والسادس: أن له أن يتخذ على الإنكار أعوانًا؛ لأنه عمل هو له منصوب، وإليه مندوب، ليكون له أقهر، وعليه أقدر، وليس لمتطوع أن يندب لذلك أعوانًا.

والسابع: له أن يعزر على المنكرات الظاهرة، ولا يتجاوزها إلى الحدود، وليس للمتطوع أن يعزر على منكر.

والثامن: له أن يرتزق من بيت المال على حسبه، ولا يجوز لمتطوع أن يرتزق على إنكاره.

والتاسع: أن له اجتهاد رأيه فيما تعلق بالعرف دون الشرع، كالمقاعد فى الأسواق، وإخراج الأجنحة، فيقر وينكر من ذلك ما أداه اجتهاده إليه.

انظر: الأحكام السلطانية للماوردى (ص٢٩٩)، الأحكام السلطانية لأبى يعلى (ص٢٨٤، ٢٨٥).

أسرى بى رجالاً تقرض شفاههم بالمقاريض، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء أمتك الذين يأمرون الناس بالبرّ وينسون أنفسهم»[١]، وقال الله عزَّ وجلَّ مخبرًا عن شعيب، عليه السلام، لما نهى قومه عن بخس الموازين ونقص المكاييل: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، ولا يكون المحتسب كما قال ابن همام السلولى:

إذا نُصبوا للقول قالوا فأحسنوا ... ولكنّ حسن القول خالفه الفعل

وذمّوا لنا الدنيا وهم يرضعونها ... أفاويق حتى ما يدرّ لها ثعل[٢]

وقال الآخر[٣]:

لا تنه عن خلق وتأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

ويجب على المحتسب أن يقصد بقوله وفعله وجه الله تعالى، وطلب مرضاته، خالصًا مخلص النية، لا يشوبه فى طويته رياء ولا مراء، ويجتنب فى رياسته منافسة الخلق، ومفاخرة أبناء الجنس، لينشر الله تعالى عليه رداء القبول، وعلم التوفيق، ويقذف له فى القلوب مهابة وجلالة، ومبادرة إلى قبول قوله بالسمع والطاعة، وقد قال النبى ﷺ: «من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله شرّهم، ومن أرضى الناس بسخط الله وكله الله إليهم[٤]، ومن أحسن فيما بينه وبين الله، أحسن الله فيما بينه وبين الناس[٥]، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته[٦]، ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه»[٧].

---

(١) أخرجه البخارى فى بدء الخلق (٢٤)، ومسلم فى الإيمان (٢٦٧).

(٢) قال ابن منظور: وإنما ذكر الثعل للمبالغة فى الارتضاع، والثعل لا يدر. انظر: لسان العرب (١/١٨٤) (مادة/ثعل).

(٣) البيت منسوب لأبى الأسود الدؤلى. انظر: معجم البلدان (٧/٣٨٤)، ونسبه الأصفهانى للمتوكل الكنانى. انظر: الأغانى للأصفهانى (١١/٣٩).

(٤) إلى هنا أخرجه ابن حبان فى صحيحه (١/٥١١) ح (٢٧٧).

(٥) قوله: «من أحسن»، إلى قوله: «وبين الناس»، لم أجده.

(٦) قوله: «ومن أصلح سريرته، أصلح الله علانيته»، أخرجه البيهقى فى الكبرى (١٠/١٠٦) ح (٢٠٠٧٠)، وابن أبى شيبة فى مصنفه (٧/١٦٢) ح (٣٤٩٨٨)، وهناد فى الزهد (١/٣٠٠) ح (٥٢٨).

(٧) وقوله: «ومن عمل لآخرته، كفاه الله أمر دنياه»، أخرجه الحاكم فى المستدرك (٢/٤٨١) ح (٣٦٥٨)، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، والكنانى فى مصباح الزجاجة (١/٣٨) ح=

وذكروا أن طغتكين أتابك سلطان دمشق، طلب له محتسبًا، فذُكر له رجل من أهل العلم، فأمر بإحضاره، فلما بَصُر به، قال له: إنى وليتك أمر الحسبة على الناس، بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فقال: إن كان الأمر كذلك، فقم عن هذه الطرَّاحة(١)، وارفع هذا المسند الذى وراء ظهرك، فإنهما حرير، واخلع هذا الخاتم من إصبعك، فإنه ذهب، فقد قال النبى ﷺ فى الذهب والحرير: «إن هذين حرام على ذكور أمتى، حِلٌّ لإناثها»(٢)، قال: فنهض السلطان عن طرَّاحته، وأمر برفع مسنده، وخلع الخاتم من أصبعه، وقال: قد ضممت إليك النظر فى أمور الشرطة، قال: فما رأى الناس محتسبًا أهيب منه.

وينبغي للمحتسب أن يكون مواظبًا على سنن رسول الله ﷺ، من قصّ الشارب، ونتف الإبط، وحلق العانة، وتقليم الأظفار، هذا مع القيام على الفرائض والواجبات، فإن ذلك أزيد فى توقيره، وأنفى للطعن فى دينه. وقد حكى أن رجلاً حضر عند السلطان محمود يطلب الحسبة، فرأى شاربه قد غَطّى فاه من طوله، وأذياله تسحب على الأرض، فقال له: يا شيخ، اذهب فاحتسب على نفسك، ثم عد واطلب الحسبة على الناس.

وينبغي أن يكون شيمته الرفق فى القول، وطلاقة الوجه، وسهولة الأخلاق عند أمره الناس ونهيه، فإن ذلك أبلغ فى استمالة القلوب، وحصول المقصود، وقد قال الله تعالى: ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ**﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقد حكى أن رجلاً دخل على المأمون، فأمره بمعروف ونهاه عن منكر، وأغلظ على المأمون فى القول، فقال له المأمون: يا هذا، إن الله تعالى أمر من هو خير منك أن يلين القول لمن هو شر منى، فقال لموسى وهارون: ﴿**فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ**

=(١٠٢)، وابن ماجه (١/٩٥) ح (٢٥٧)، وابن أبى شيبة فى مصنفه (٧/٧٦) ح (٣٤٣١٣)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٢/٣٠٦) ح (١٨٨٨)، والبيهقى أيضًا فى الزهد الكبير (٢/٦٦) ح (١٦)، وابن أبى عاصم فى الزهد (١/٢٢)، وهناد فى الزهد (٢/٣٥٥) ح (٦٦٨)، والإمام أحمد فى الزهد (١/٨٠، ٨١) ح (١٦٦).

(١) هى مرتبة يفترشها السلطان إذا جلس.

(٢) رواه الترمذى (١)، والنسائى (٤٠)، وابن ماجه (١٩).

يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، ثم أعرض عنه، ولم يلتفت إليه، ولأن الرجل قد ينال بالرفق ما لا ينال بالتعنيف، كما قال النبى ﷺ: «إن الله رفيق يحبّ كل رفيق»[١].

وليكن أيضًا متأنيًا، غير مبادر إلى العقوبة، ولا يؤاخذ أحدًا بأوّل ذنب يصدر، ولا يعاقب بأوّل زلة تبدو؛ لأن العصمة من الناس مفقودة، فيما سوى الأنبياء.

وإذا عثر بمن نقص المكيال، أو بخس الميزان، أو غشّ بضاعة، بما يأتى وصفه فى أبوابه من أنواع الغشوش، استتابه عن معصيته، ووعظه وخوّفه، وحذره العقوبة والتعزير، فإن عاد إلى فعله عزّره على حسب ما يليق به من التعزير بقدر الجناية، ولا يبلغ به الحدّ.

ويتخذ له سوطًا، ودرّة[٢]، وغلمانًا، وأعوانًا، فإن ذلك أرعب للقلوب، وأشدّ خوفًا، ويلازم الأسواق والدروب فى أوقات الغفلة عنه، ويتخذ له فيها عيونًا يوصلون إليه الأخبار وأحوال السوقة، فقد ذكر أن على بن عيسى الوزير ببغداد[٣] وقع إلى محتسب كان فى وقت وزارته، ذكروه له بأنه يكثر الجلوس فى داره، فكتب له يقول: الحسبة لا تحتمل الحجبة، فطف بالأسواق تدر لك الأرزاق، وإن لزمت دارك صار الأصر كله عليك، والسلام. فإذا فعل المحتسب كذلك، فقد أوفى ما يجب عليه، والذى يجب له أيضًا على سلطانه إدرار الرزق عليه بما يكفيه، وبسط يده، وترك معارضته، وترك الشفاعة عنده فى الخاصة والعامة.

ويكون متورّعًا عن قبول الهدية من المتعيشين من أرباب الصناعات، فإن ذلك رشوة، قال النبى ﷺ: «لعن الله الراشى والمرتشى»[٤]، والتعفف عن ذلك أصون، ويُلزم أيضًا غلمانه وأعوانه، فإن علم أن أحدًا منهم قبل رشوة، أو أخذ هدية، صرفه عنه؛ لتنتفى عنه المطلوب، وتنجلى عنه الشبهات.

ويجب عليه أن يجعل له نائبًا على ساحل البحر مكان ترد إليه الغلة ليعلمه ما يرد إليه

---

(١) رواه البخارى فى الاستتابة (٤)، ومسلم فى البر (٤٧)، وأبو داود فى الأدب (١٠)، والترمذى فى الاستئذان (١٢)، وابن ماجه فى الأدب (٩)، والدارمى فى الرقاق (٧٥) والإمام مالك فى الموطأ فى الاستئذان (٣٨)، والإمام أحمد فى مسنده (١/١٤٠) ح (٩٠٥).

(٢) الدرة: أداة للضرب.

(٣) هو على بن عيسى بن داود بن الجراح، وزير للمقتدر، توفى سنة ٣٣٤هـ.

(٤) أخرجه أبو داود فى الأقضية (٤)، والترمذى فى الأحكام (٩)، وابن ماجه (٢)، والإمام أحمد فى مسنده (٢/٢٥٦) ح (٦٧٨٩).

فى كل يوم، ويحتم على مخازن من غلته رسم عبور إلى وقت الحاجة؛ لأن ربما جرى بعد ذلك تفريط فى أوجه، وهذا أمر جليل لا ينبغى الغفلة عنه، ولا التفريط فيه. ويلزم المحتسب بعد ذلك أن يفرق الغلة بالتعريف على مقدار ما فى البلد، وينظر فيمن عنده من الناس، وذلك مأخوذ من الأحجار التى تطحن فى البلد؛ لأن كل حجر فارسى يطحن فى كل يوم وليلة ستة أرادب[1]، فإذا جعلناها أقداحًا[2] كانت خمسمائة قدح وستة وسبعين قدحًا، يقيت كل إنسان منها قدح، فهذه الأحجار يعرف بها عدد الناس فى كل مدينة بالتقريب.

* * *

الباب الثانى

فى النظر فى الأسواق والطرقات

ينبغى أن تكون الأسواق فى الارتفاع والاتساع على ما وضعته الروم قديمًا، ولا يجوز لأحد من السوقة إخراج مصطبة[3] دكانه عن سَمْتِ أركان السقائف[4] إلى الممرّ الأصلى؛ لأنه عدوان وتضييق على المارّة، فيجب على المحتسب إزالته والمنع من فعله، لما فى ذلك من إلحاق الضرر بالناس، ويجعل لأهل كلّ صنعة سوقًا يختص بهم، تعرف صناعتهم، ومن كانت صناعته تحتاج إلى وقود نار، كالخباز، والجردقانى[5]، فالمستحب أن يبعد حوانيتهم عن البزازين والعطارين، لعدم المجانسة بينهم وحصول الأضرار.

وينبغى للمحتسب ويستحب له أن يجعل له على أهل كل صنعة عريفًا من صالح أهلها، خبيرًا بصناعتهم، بصيرًا بغشوشهم وتدليسهم، مشهورًا بالثقة والأمانة، يكون

---

(١) جمع إردب، وهو مكيال ضخم لأهل مصر، وهو أربعة وعشرون صاعًا، بصاع النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم، ومقدار الإردب عند الحنفية: (٣,٢٥ × ٢٤ = ٧٨) كيلو جرامًا. وعند الجمهور: (٢,٠٤ × ٢٤ = ٤٨,٩٦) كيلو جرامًا. انظر: المكاييل والموازين الشرعية لعلى جمعة (ص٣٩).

(٢) القدح: مكيال مصرى، وهو ثمن كيْلة مصرية. فحجم القدح: (١٦,٥ ÷ ٨ = ٢,٦٠٢٥) لترًا. انظر: المكاييل والموازين لعلى جمعة (ص٣٦).

(٣) المصطبة: بناء من الحجر.

(٤) جمع سقيفة، وهى ما تسقف به الأسواق لحماية الناس من المطر وما شابهه.

(٥) هو الخباز بالفارسية.

مشرفًا على أحوالهم، ويطالعه بأخبارهم، وما جلب إلى سوقهم من المتاجر والبضائع، وما تستقر عليه من الأسعار، وغير ذلك من الأسباب التى يلزم المحتسب معرفتها، لقوله ﷺ: «استعينوا على كل صنعة بصالح من أهلها»(١).

ولا يجوز للمحتسب أن يسعر البضائع على أهلها، ولا أن يلزمهم بيعها بسعر معلوم، فقد غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ، فقال الناس: يا رسول الله، سعِّر لنا، فقال ﷺ: «هو القابض والباسط والمسعّر، وإنى لأرجو أن ألقى الله وليس أحد يطالبنى بمظلمة فى نفس ولا فى مال»(٢).

وإنما إذا رأى المحتسب أحدًا قد احتكر الطعام من سائر الأقوات، وهو أن يشترى فى وقت الغلاء، ويتربص به ليزداد فى ثمنه أكثر منه، ألزمه بيعه إجبارًا؛ لأن الاحتكار حرام، والمنع من فعل الحرام واجب، وقد قال النبى ﷺ: «الجالب مرزوق، والمحتكر ملعون»(٣).

ولا يجوز تلقِّى الركبان، وهو أن تقدُم قافلة فيلتقيهم إنسان خارج البلد، فيخبرهم بكساد ما معهم ليبتاعه منهم رخيصًا، وقد نهى النبى ﷺ عن ذلك(٤)، ونهى عن بيع السلع حتى يهبط بها إلى الأسواق، فإن عثر المحتسب بمن يقصد ذلك، عزره وردعه عن فعله.

وينبغى أن يمنع أحمال الحطب، والحلفاء، وأحمال التبن، وروايا الماء، والرماد، وما أشبه ذلك، من الدخول إلى الأسواق، لما فيه من الضرر بلباس الناس، ويأمر أهل الأسواق بكنسها، وتنظيفها من الأوساخ، وغير ذلك مما يضرّ بالناس، فإن النبى ﷺ قال:

---

(١) هو مما اشتهر على ألسنة الناس، وليس هو من لفظه، ولذا قال الحافظ العجلونى: يستأنس له بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما كان من أمر دنياكم فإليكم». وقال فى التمييز: ويشهد له ما ثبت فى سنن أبى داود، عن سعد، قال: مرضت، فأتانى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعودنى، فوضع يده بين ثديى، حتى وجدت بردها على فؤادى، وقال لى: «إنك رجل مفؤود، فأتِ الحرث بن كلدة من ثقيف، فإنه رجل يطبب...» الحديث. انظر: كشف الخفاء للعجلونى (١٣٤/١) ح (٣٤٠).

(٢) أخرجه الترمذى فى البيوع (٧٣)، وأبو داود فى البيوع (٤٩)، وابن ماجه فى التجارات (١٣)، والإمام أحمد فى مسنده (٤٩٣/٢) ح (٨٨٧٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه فى التجارات (٦)، والدارمى فى البيوع (١٢).

(٤) وهو النهى عن تلقى الركبان. أخرجه البخارى فى البيوع (٤٣٣/٤) ح (٢١٥٨)، ومسلم فى البيوع (١١٥٦/٣) ح (١٥١٧/١٤).

«لا ضرر ولا إضرار»[١].

وأما الطرقات وأزقة الحارات، فلا يجوز لأحد إخراج جدار داره إلى الممرّ المعهود، وكذلك كل ما فيه أذية على السالكين، كمجارى الأوساخ الخارجة من الدور فى زمن الصيف إلى وسط الطريق، فإنه يكلف بسده فى الصيف، ويحفر له فى داره حفرة يجمع فيها.

ولا يجوز التطلّع إلى الجيران من الأسطحة والنوافذ، ولا أن يجلس الرجال فى طرقات النساء من غير حاجة، فمن فعل ذلك عزَّره المحتسب، سيما إذا رأى رجلاً أجنبيًا مع امرأة أجنبية يتحدّثان فى موضع خلوة، فإنه أكثر للتهمة فى حقّها[٢]، وإذا تكررت خيانة رجل من أهل السوق أدبه، فقد روى أن أمير المؤمنين على بن أبى طالب، رضى الله عنه، أمر بضرب رجل وجب عليه الحد، فقال له وهو يضربه: قتلتنى يا أمير المؤمنين، فقال له: الحق قتلك، قال: فارحمنى، قال: لست أرحم بك ممن أوجب عليك الحد[٣]. فإن عاد إلى الخيانة أقامه من السوق[٤].

* * *

الباب الثالث

فى الخبازين

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة من أهل صناعتهم، ويأمره أن يكتب له جريدة بأسمائهم وعدتهم، ويطالبوا برسومهم فى كل يوم، ولا يسامحوا منها بشىء، ومتى سومحوا منها بشىء، كان ذلك سببًا للاضطراب فى الأسواق وفساد الأحوال.

ويتفقد ما يغشون به الأخباز من دقيق الجلبان[٥]، والفول، فإنهما يسودانه، وكذلك

---

(١) أخرجه مسلم فى البيوع (١١٥٦/٣) ح (١٥١٧).

(٢) ولا يعجل بالتأديب عليهما حذار من أن تكون ذات محرم، وليقل: إن كانت ذات محرم فصنها عن مواقف الريب، وإن كانت أجنبية، فخف الله تعالى من خلوة تؤديك إلى معصية الله تعالى، وليكن زجره بحسب الأمارات. انظر: الأحكام السلطانية للماوردى (ص٣١١)، الأحكام السلطانية لأبى يعلى (ص٢٩٣، ٢٩٤).

(٣) لم أجده.

(٤) انظر هذا الباب فى نهاية الرتبة فى طلب الحسبة للشيزرى (ص٢١٦).

(٥) نوع من البقول.

دقيق الحمص، فإنه يثقله ويفججه، وكذلك دقيق الشعير والسميذ[١] ما يخفى نظرهما على وجهه، وأيضًا فى كسره، وإذا لم ينضج الخبز أدب الخباز والفران جميعًا؛ لأن الخباز إذا أمر الفران ائتمر.

ويطالبون بنظافة أوعية الماء وتغطيتها، ونظافة المعاجن، وما يغطى به الخبز، وما يفرش تحته، ولا يعجن عجان بقدميه، ولا بركبتيه، ولا بمرافقه؛ لئلا تنحدر أعراق أبدانهم فى العجين، وفى ذلك أيضًا احتقار بالطعام، ويكون العجان متلثمًا؛ لئلا يبدر من بصاقه أو مخاطه شيء فى العجين إذا تكلم أو عطس، ولا يعجن إلا وعليه ملعبة، أو ثوب مقطوع الأكمام، ويشد جبينه بعصابة بيضاء لتمنع عرقه أن يقطر، ويحلق شعر ذراعيه كل قليل، وإذا عجن فى النهار، فليكن عنده من ينش عنه الذباب، هذا كله بعد نخل الدقيق بالمنخل الصفيق.

وأما الجرذقانيون، فلا يضع أحد منهم فى عجينه شيئًا من النطرون[٢]؛ لأنه يورث العطش، ويسهل البطن، ويورث البواسير. وينبغى أن يجعلوا عوضه الكمون الأبيض، وأن لا يحمى أحد منهم تنوره بساس الكتان، ولا بقرمة؛ لأنه يورث النسيان. وكذلك حوانيتهم التى توقد فيها التنانير، تكون سقوفها مرتفعة، وتفتح أبوابها، ويجعل فى سقوفها منافس واسعة يخرج منها الدخان، وإذا فرغ من حموه مسحه بخرقه، ثم يسرع فى الخبز، ويقرر بيع الخبز بلا غبن ولا حيف على الخباز ولا على الرعية. ويؤمرون أن لا يخبزوا خبزاً إلى أن يختمر، فإن غير الخمير يثقل فى الميزان، ويثقل فى المعدة. وكذلك إذا كان قليل الملح، فإنهم يقصدون بذلك ثقله ووزانته.

وينبغى أن يرشوا على وجهه الأبازير الطيبة مثل الكمون الأبيض والأسود، والشونيز[٣]، والقرطم[٤]، وما أشبه ذلك، وكذلك فى العجين، والمصطكى، وعرق الكافور، والشيبة، ويعتبر سعر الأقات ونقصانه، ويفتش على لوح الخبازين أوزانها على أطرافها، وإذا عرض حركة على الخبز أمرهم بعمل وظائفهم كلها خبزًا.

---

(١) نوع من الدقيق.

(٢) النطرون هو: البورق الرومى، وهو لونان: أبيض خفيف، فيه مشابه كور الزنابير، ويسمّى: غوله، والآخر: أصفر قطاع كالصفائح.

(٣) هو: حبة البركة السوداء.

(٤) هو: القرطم الهندى، أو حب النيل.

وبعد، فاعلم وفقك الله أن الحملة الدقيق الحوارى[١] ثلاثمائة رطل بالقلعى[٢]، وكذلك الخشكار[٣]، فإذا أردت معرفة مؤونة كل واحد منهم ووقوع خبزهم بالرطل القلعى أيضًا، فوجدت قمح الحملة الحوارى مدخلها عشر ويبات[٤] ونصف قمحًا غلتا يصبح فى سبعة ونصف، وطحينها ستة دراهم، ويلحقها فى العجين والخبيز أربعة دراهم، ومن الخمير عشرون رطلاً، وخبزها ثلاثمائة وثمانون رطلاً بالقلعى، وعيار الحملة الخشكار من القمح نظير الحوارى، وطحنها ثلاثة ونصف، ويلحقها أيضًا فى العجين والخبيز أربعة دراهم، ومن الخمير عشرون رطلاً، ووقوع خبزها عليها فى محاسبة الخبازين إذا احتيج إلى ذلك يومًا، وبالله التوفيق[٥].

* * *

الباب الرابع

فى السقائين وغشهم

ينبغي أن يعرف عليهم عريفًا، ويعرفه أنه لما كانت الأمواج تجيب الأوساخ والأقذار إلى الشطوط، وجب أن يكون السقاؤون يدخلون فى الماء إلى أن يبعدوا عن الأوساخ، وألا يستقوا من مكان يكون قريبًا من سقاية، ولا مستحم، ولا مجراة حمام، ومن اتخذ منهم رواية جديدة، فلينقل بها الماء إلى الطين أيامًا، فإن ماءها يكون متغير الطعم

---

(١) هو: لب الدقيق.

(٢) الرطل: معيارٌ يوزن به، وهو مكيال أيضًا، وإذا أطلق فى الفروع الفقهية فالمراد به: رطل بغداد، أو الرطل العراقى. الرطل العراقى عند الحنفية: نصف مَنّ أى (١٣٠ درهمًا)، فالرطل العراقى (٨١٢,٥ ÷ ٢ = ٤٠٦,٢٥ جرامًا)، وعند الجمهور الرطل يساوى (١٢٨ درهمًا وأربعة أسباع)، فالرطل عند الجمهور = (١٢٨,٥٧٥ × ٢,٩٧٥ = ٣٨٢,٥ جرامًا)، والرطل الشامى (٦٠٠ درهمًا)، فهو عند الحنفية (٣,١٢٥ × ٦٠٠ = ١٨٧٥ جرامًا)، وعند الجمهور (٢,٩٧٥ × ٦٠٠ = ١٧٨٥ جرامًا)، والرطل المصرى يقدر بـ (٤٤٩,٢٨ جرامًا)، قاله الشيخ على جمعة فى المكاييل والموازين الشرعية (ص٢٩، ٣٠).

(٣) الخشكار هو الدقيق الذى لم تنزع نخالته.

(٤) جمع ويبة، وهو وزن مصرى يعادل (٤٠ - ٤٢رطلاً مصريًا). انظر: معالم القربة فى أحكام الحسبة لابن الأخوة (ص٩٠).

(٥) انظر هذا الباب فى نهاية الرتبة فى طلب الحسبة (ص١٨٩)، معالم القربة فى أحكام الحسبة لابن الأخوة (ص٩١ - ٩٢).

والرائحة من أثر الدباغ، فإذا زال التغير، أذن له المحتسب فى بيع مائها.

وينبغى أن يكون فى أوساطهم التبانين[١]؛ ليستروا عوراتهم. وسقاة الماء بالكيزان أصحاب القرب، يؤمرون بنظافة أزيارهم، وصيانتها بالأغطية، وتغطية قربهم التى يسقون منها فى الأسواق بالميازر، ويمنعهم أن يسقوا بكيزانهم المجذم، والأبرص، وأصحاب العاهات والأمراض الظاهرة، وجلاء الكيزان النحاس كل ليلة، وتطييب شبابيكها بشمع المسك واللادن[٢] الطيب العنبرى، وافتقاد الخوابى بالبخور، والغسل كل ثلاثة أيام.

* * *

الباب الخامس

فى السوقة وغشهم

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة، ويأمر أحدهم أن لا يقدم فرشه خارجًا عن مصطبته بشىء، وأن يجعل فراش أكبرهم إلى داخل حانوته، وإذا أجلس البياع على ميزانه صبيًا دون البلوغ، اشترط على معلمه أنه إذا بخس كانت العقوبة واقعة به دون صبيه، وبعد الشرط، فلا يمنع الصبى التعيش.

ويعير موازينهم، وصنجهم، وأقداحهم، ويمنعوا من أن يكون فى حوانيتهم دستان من الصنج، والأرطال حديد لا يكون فى شىء منها حلقة أصلاً، ويختم بالخواتم الرصاص، ويكتب عليها المحتسب، ويرسم الختم بخطه، ويفتقد كل قليل، وربما جلدوا على اللفت وزنوا به فى جملة الأرطال، وينبغى إذا شرع فى الوزن أن يسكن الميزان، ويضع فيها البضاعة، ولا يهمز حافة الكفة بإبهامه، فإن ذلك بخس وتدليس.

ولا يكون فى ميزانهم الفضة صنجة ثلاثة دراهم، ولا فى ميزان الأرطال ثلث رطل؛ لأن الثلث يشابه النصف رطل، وكذلك صنجة الثلاثة تشابه الدرهمين، ويعتبر حبات القمح التى فى موازينهم، فقد تنقع ويدس فى أجسامها ما يزيد فى ثقلها من أطراف الأبر وغيرها. وتكون كفات موازين الذهب والفضة خفافًا، ومساميرها فولاذًا. وتكون موازينهم الفضة من بين أيديهم حتى يشرف عليها من يزن أو يوذن له.

---

(١) جمع تبان، وهو سراويل صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة فقط، يكون للملاحين عادة.

(٢) اللادن: نبات يستخرج منه مادة لزجة طيبة الرائحة.

ويأمرهم أن يجعلوا ما يبيعون به من الدراهم فى بطون موازينهم، ولا يتركوها فى جملة ما فى أيديهم من الصنج، بحيث ألا يكون فوق فراخ موازينهم إلا الصنج لا غير. ولا ينقد أحد دراهم الناس وبين يديه جوز، أو لوز، ولا شيء من المكسرات، فربما يسقط فيها من دراهم الناس عند النقد، ويجمعها إذا انصرفوا. ويكون سائر ما يكتالون به مختومًا بالرصاص، ومنقوشًا فى طرفها اسم الإمام؛ لئلا يبردوا رءوس المكاييل بعد العيار فتنقص. ويكون سائر ما يكال به سعة أسفله أو قريب منه، ويفتقدها بعد ذلك كل قليل؛ لئلا يصب فيها ما ينقصها مثل الجبس وغيره.

وربما حشيت أواقى الزيت التى يطوفون بها البيعة، والمكاييل، بالقير فى أسفلها، ويقلعها إذا خاف. ويلزمون أن تكون موازين الأرطال متعرضة فى قوس الدكان ليشاهد الزبون ما يحمل له من الأرطال عند الوزن والمأكولات. ويمنعهم أن يجعلوا فى كفة الميزان خيطًا من حلفاء، فإنه يمنعها النزول، ويجنبها بسرعة الرجحان. ولا يكون لشيء من الأوزان خطافًا، فإن الغرض منه أن يعلق فى الكفة القدامية، فتكون الخيانة بمقدار وزنه، وتكون جميع موازينهم وأوعيتهم التى لأطعمة الناس نظيفة مصونة بالأغطية والشد عليها.

ويمنعوا أن يسقوا الجبن السنارى بالزيت الطيب، ولا بالشيرج؛ لأنه تدليس. وربما فجوه بأفواههم، فيكون ذلك ضررًا لمن يأكله. ولا يغسلوا الجبن الحيسى فى مَطاهر الحمامات. ويمنع من يرطب التمر بالماء، ومن يرش الماء الممزوج بعسل القصب على الرطب. وكذلك باعة الزيت يمنعون من فجه بالماء، وينهاهم عن بيع ما دوّن من البطيخ، والقثاء، والتين، والرطب، وما قد تناهى نضجه حتى يهرأ قشره من جميع ذلك. وتكون ملاعق بيع الصابون من خشب، فإن صدأ ملاعق الحديد يبقى فى الصابون، فإن طبوعها محرقة لما يتعلق منه فى الملابس.

ويعتبر عليهم الزيوت فى زمن نفاقها، فإن الزيوت تغش بزيت القرطم فى زمنه، إلا أن له دخانًا عظيمًا فى النار، وهو يخلط أيضًا فى الشيرج لوقته، وكذلك زيت الخس، وهو يعرف بخفته فى الوزن، ورقته فى الوعاء، وشمه إذا مسح به على ظهر اليد. وقد يخلط الشيرج بالزيت للإنفاق إذا غلا سعره، وجسم الشيرج أخف من جسم الزيت، فلا يمكنهم من ذلك، فإنه غش وتدليس.

وإذا غشوا الخل بالماء، انحبس فيه خشيشة من الراس، فإنها تشرب الماء وتقبله دون

الخل، ومن معرفته أيضًا إذا صب الخل الخالص على الأرض نش، وإذا كان معيوبًا لم ينش، ومن معرفته أيضًا خذ خوصة أطليها بدهن أو بزيت، ثم اغمسها فى الخل، فإن خرجت وعليها الخل، ففيه الماء، وإن خرجت ملساء ليس عليها شيء، فليس فيه ماء.

وكذلك اللبن الحليب إذا كان فيه الماء، اغمس فيه شعرة، فإنه لم يطلع منه عليها شيء، وإذا كان خاليًا من الماء طلع اللبن عليها مكللاً، وكذلك إذا غمست فيه الريش، فإنه يشرب الماء دون اللبن فتمصه، فيخرج فى فيك، وإذا كان بلا ماء، فإنك تمصها ما يخرج منها شيء، ومن معرفته أيضًا إذا قطر منه على خرقة سال كالدهن وجرى، وإذا لم يكن فيه ماء وقف، وسبيله أن لا يبيعه إلا الغنامة من ضروع الغنم إلى المشترى، وبيعه اللبن الحامض يعتقون عندهم المش الحامض، ثم يخلطونه بالطرى، وهو أحد السمائم، ثم يبيعونه حامضًا، فيمنعون من ذلك، ويحلفون عليه، وتفتش دكاكينهم، ويلزمون بأن يكون بيعهم وشراؤهم بالقسط الجروى، وهو أربعة أرطال ونصف.

ويمنعون من عمل المرىء المطبوخ وبيعه، فإن الفلاسفة يذكرون أنه يورث الجذام، ويعتبر عليهم غش المرى الشعير الذى يعملون به من رُبِّ الخَرُّوب، أو من عسل القصب، والملح، والكامون الأسود، والكراويا، والشمار، ويبيعونه، فهو يبين فى اليد من قلة ذكائه، وإنه يفسد ما يعمل به من الطعام، ويفسد طعمه ورائحته. ويمنعهم أن يدهنوا النيدة البائتة بالزيت، وتباع فى هيئة الطرية، فإن هذا تدليس. ويعتبر عليهم الكوامخ[1]، والملوحات، والمخللات، فإنها كثيرة التغيير والاستحالة، فيخزنونها ويستحلون بيعها، فما وجد فى شيء منها عتيق أو تغيير، رمى على المزابل.

ويفتقد أوعيتهم التى عندهم من الأوساخ، والتهاون بتركها مكشوفة، ولا يمكنون من ذلك، والسبب فى فساد الكوامخ وحموضها وكرخها والدود المتولد فيها، أن تكون فى الأصل قليلة الملح، والعلف بالعطائر، فتحمض، وربما خلطوه بغيره ففسد الكل، ويتولد فيه الدود، فيراعى ذلك بالعطر والذوق.

والبصل المخلل إذا طلع عليه الكرخ، وكان محبسه يابسًا، يأمرهم بتنظيفه من قشره، ويلقى عليه الخل، فإنه ينصلح ويثبت، وإن كان جسمه لينًا، وفيه خمج، فينبغى أن يرمى. وإن تغير اللفت المخلل ولان جسمه، فيجب أن يرمى على المزابل. وكذلك

---

(١) جمع كامخ، وهو الذى يؤتدم به، وهو معرب.

الكشك قد يعمل من القمح العتيق، ويسقى بماء الخمير، والمش، ويترك حتى يختمر ويحمض، فيعتبر هذا عليهم بالذوق والنظر والرائحة.

والبقالون يلزمون بيع جميع ما يبيعون من البقول بشداته التى يشترونه بها، ولا يحلوا حزمة يعملونها اثنتين، ولا شرش[١] كبير يفرقونه حزمًا صغارًا، ويبيعوا جميع البقول مغسولة منقية من الحشيش والطاقات المصغرة. ويأمرهم بقطع سعد أصول الخس. والفجل لا يباع إلا مغسولاً. وإذا بات عندهم شيء فى دكاكينهم من الخضروات، فلا يخلطوه من طرى يومه، ويمنعون من ذلك، فإن ذلك غش وتدليس. وينهاهم أيضًا عن غسل البصل والثوم الطرى الأخضر، فإنه يزيده نتونة وزفرة، ويتفقد عليهم أرطالهم وموازينهم، ومن خالف هذا أدب.

* * *

الباب السادس

فى جزارى الضأن، والمعز، والإبل، والقصابين وغشهم

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا، ثقة من أهل معيشتهم، ثم بعد ذلك يستحب أن يكون الجزار مسلمًا، بالغًا[٢]، عاقلاً[٣]، يذكر اسم الله على كل ذبيحة[٤]، وأن يستقبل

---

(١) هو الحزمة الكبيرة، وتستعمل عادة لمن يريد أن يشترى كمية كبيرة من البقول.

(٢) قال شيخ الإسلام موفق الدين: كل من أمكنه الذبح من المسلمين وأهل الكتاب إذا ذبح حل أكل ذبيحته، رجلاً كان أو امرأة، بالغًا أو صبيًا، حرًا كان أو عبدًا، لا نعلم فى هذا خلافًا. انظر: المغنى لموفق الدين (١١/٥٤، ٥٥).

قال ابن المنذر: وأجمعوا على إباحة ذبيحة الصبىّ والمرأة إذا أطاقا الذبح، وأتيا على ما يجب أن يؤتى عليه. انظر: الإجماع لابن المنذر (ص٥٨).

(٣) أى يستحب أن يكون عاقلاً، فمذهب الإمام الشافعى عدم اعتبار العقل، وله فيما إذا أرسل المجنون الكلب على صيد قولان، خلافًا للجمهور. انظر: المغنى لموفق الدين (١١/٥٥ - ٥٦). وبهذا يتضح ثانيًا للتأكيد أن مذهب الشيخ ابن بسام المصنف مذهب الشافعية. طالب العلم.

(٤) أى أن التسمية مستحبة، وهو قول الشافعى، ورواية عن الإمام أحمد، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]، يعنى الميتة، ذكر ذلك عن ابن عباس. انظر: المغنى لموفق الدين (١١/٣٣).

وروى عن سيدنا ابن عباس أنها شرط مع الذكر، وتسقط بالسهو، وهو قول الإمام مالك، والثورى، وأبى حنيفة، ومشهور مذهب أحمد، وإسحاق، وعطاء، وطاوس، وسعيد بن المسيب، =

القبلة[١]، وأن ينحر[٢] الإبل[٣] معقولة من قيام[٤]، والبقر[٥]، والغنم مضجعة على الجانب الأيسر؛ لأن ذلك وردت به السنة عن النبى ﷺ. ويأمرهم أيضًا أن لا يجروا الشاة برجلها جرًّا عنيفًا، وأن لا يذبحوا بسكين كالة، فإن فى ذلك تعذيبًا للحيوان، وقد نهى رسول الله ﷺ عن تعذيب الحيوان[٦].

ويلزمه فى الذبح أن يقطع الودجين، والمرىء، والحلقوم[٧]، ولا يشرع فى السلخ بعد الذبح حتى تبرد الشاة ويخرج منها الروح؛ لأن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أمر

= والحسن، وعبد الرحمن بن أبى ليلى، وجعفر بن محمد، وربيعة. انظر: المغنى لموفق الدين (٣٢/١١ - ٣٣). وبهذا يتضح أن المصنف ابن بسام شافعى المذهب.

(١) استحب استقبال القبلة سيدنا ابن عمر، رضى الله عنهما، وابن سيرين، وعطاء، والثورى، والشافعى، وأصحاب الرأى، وكره ابن عمر، وابن سيرين، أكل ما ذبح لغير القبلة، وقال سائرهم: ليس ذلك مكروهًا؛ لأن أهل الكتاب يذبحون لغير القبلة قد أحل الله ذبائحهم. انظر: المغنى لموفق الدين (٤٦/١١).

(٢) اعلم أن النحر هو المستحب فى الإبل، والذبح فيما سواها، بلا خلاف بين أهل العلم، قال الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]، قال مجاهد: أمرنا بالنحر، وأمر بنو إسرائيل بالذبح، فإن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم، بعث فى قوم ماشيتهم الإبل، فسن النحر، وكانت بنو إسرائيل ماشيتهم البقر، فأمروا بالذبح. انظر: المغنى لموفق الدين (٤٥/١١).

(٣) فالنحر خاص بالإبل.

(٤) صحيح: أخرجه ابن خزيمة فى صحيحه (٢٨٥/٤) ح (٢٨٩٣)، وابن حبان فى صحيحه (٢٢٤/١٣) ح (٥٩٠٣)، والحاكم فى المستدرك (٢٦٠/٤) ح (٧٥٧١)، وقال: صحيح، ولم يخرجاه، وأبو داود (١٤٩/٢) ح (١٧٦٧)، وابن أبى شيبة فى مصنفه (٢١٤/٣) ح (١٣٥٥٨). وانظر: نصب الراية للزيلعى (١٦٤/٣).

(٥) أى ينحر البقرة ..الخ، للعطف على الإبل، وليس مرادًا للاتفاق على ذبح ما سوى الإبل. انظر: المغنى لموفق الدين (٤٥/١١).

(٦) نعم، فقد قال النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله كتب الإحسان على كل شىء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته».

(٧) هذا قول الإمام مالك، وأبى يوسف، خلافًا للإمام الشافعى، واعتبر الإمام الأعظم أحد الودجين. انظر المغنى لموفق الدين (٤٤/١١ - ٤٥).
وبهذا يتضح أن ابن بسام مرة يأخذ بمذهب الإمام الشافعى، ومرة يخالف فلعله ما كان متمذهبًا. طالب العلم.

مناديًا ينادى فى المدينة: لا تسلخ شاة مذبوحة حتى تبرد[١]. وتجوز الذكاة بكل شىء، إلا السن والظفر، فإن رسول الله ﷺ نهى عن الذكاة بهما[٢]. ويمنعهم أيضًا ألا يذبحوا جملاً يكون مقرح الجسم إلى أن يبرأ جميع ما فيه من القروح، وقد كان لأمير المؤمنين الحاكم بأمر الله فى سجل مجلد فى ديوان الإنشاء، بأن لا يذبح من البقر المخلوج الورك، والأعور، والأعمى، والمقلوع السن، والمريش العنق، والمجنون، والجرب، وكل مشقوق الحافر، والمقطوع، والمكوى، وكل شىء كانت عيوبه ظاهرة، والصحيح الرقاد، والمعلوفة إذا كان بها شىء من هذه العيوب المذكورة، فينهاهم المحتسب عن ذلك جميعه.

وينهاهم أن لا ينفخوا شاة بعد السلخ، فإن نكهة ابن آدم تغير اللحم وتزفره، ومنهم مَن يشق اللحم من الصفاقين، وينفخ فيه الماء، ولهم أيضًا أماكن يعرفونها فى اللحم ينفخون فيها الماء، فيجب مراعاتهم فى ذلك، ومنهم من يشهر فى الأسواق البقر السمان، ثم يذبح غيرها، وهذا تدليس.

وأما القصابون، فيمنعهم من إخراج توالى اللحم عن حد مصاطبه، بل تكون متمكنة فى الدخول عند المصطبة والركنين، فلا يلاصقهم ثياب الناس فيضرون بها، ويأمرهم أن يفردوا لحوم المعز من لحوم الضأن، وأن لا يخلطوا بعضها ببعض، وينقطوا لحوم المعز بالزعفران؛ ليتميز من غيره، وتكون أذناب المعز معلقة على لحومها إلى آخر البيع، ولحم المعز يعرف برقة لحمه وعظمه، وبياض شحمه.

ويأمرهم بأن لا يلصقوا على سائر اللحوم شيئًا من القزدير، فإن الحكماء قد ذكروا بأنه يسممه، ولا يخلطوا اللحم السمين بالهزيل، بل يباع كل واحد منهما على حدته، ويمنعهم أيضًا أن لا يخلطوا شحم المعز بشحم الضأن، وعلامة شحم المعز صفو لونه وبياضه، وشحم الضأن تعلوه الصفرة، وكذلك بطون المعز لا تختلط ببطون الضأن، وكذلك الإليات تباع مفردة لا يخالطها جلد ولا لحم.

وإذا فرغ من البيع وأراد الانصراف، أخذ ملحًا مسحوقًا ونثره على القرمة[٣]؛ لئلا

---

(١) أخرجه ابن الجعد فى مسنده (٤٦٨/١) ح (٣٢٤٥).

(٢) حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أنهر الدم، وذكر اسم الله عليه، فكلوا ما لم يكن سنًّا أو ظفرًّا»، متفق عليه.

(٣) هى قطعة من الخشب يقطع عليها اللحم.

تلحسها الكلاب، أو يدب عليها شيء من الهوام، فإذا لم يجد ملحًا، وإلا الأشنان[1].

والمصلحة أن لا يشارك بعضهم بعضًا؛ لئلا يتفقون على واحد. ويمنعهم أيضًا من بيع اللحم بالحيوان؛ وهو أن يشترى الشاة بأرطال لحم معلومة، ويدفع إليه كل يوم ما يتفقان عليه من اللحم، فإن النبى ﷺ نهى عن ذلك[2].

* * *

الباب السابع

فى الشوائين

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة، ويأمرهم أن لا يلطخوا الخروف والجدى بشئ من العسل ولا غيره من الحلاوات، فإنه ينفخ جسم البهيمة، كما يدخل النار من غير نضج. ومن علامة نضجه أن ينقص الربع، فينبغى أن يزن الشواء قبل إنزاله إلى التنور، وبعد طلوعه منه، ومن علامة نضجه أيضًا أن يجذب كتفه، فإن جاء بسرعة، فهو المراد منه، وإلا ألزم بإعادته إلى النار، ومن علامته أيضًا أن يشق الورك، فإنه يوجد فيه عرق من الدم باقيًا فيه.

وتكون خرافهم مقطوعة الملحات من أصلها، وكذلك الأعضاء، وإلا قطعوها بعد الوزن، وإذا عرف أوزانها نقصه من الوزن بعد شيه، ويفتقد ما يبقى عندهم منه بلا بيع فى ليالى الصيف، فإنه كثيرًا ما يتغير، فيرضونه مع الليمون المالح ويبيعونه، فيخفى رائحته وطعمه على مشتريه. وربما كسدت الرءوس على الرواسين، فتبتاعها منهم الشوائون، ويبروا لحمها على قرمهم قليلاً بعد قليل، ويبيعونه فى جملة الشواء بسعره، فيراعى ذلك عليهم أشد مراعاة.

ويأمرهم أن لا يحموا تنانيرهم بساس الكتان أصلاً، ويفتش دكاكينهم كل وقت على الملاحى التى يسرقونها من ذبائح الناس، وكذلك شحوم الخراف وعصبانها، ويحتاط على جميع ذلك إلى أن ينزلوا الشواء إلى التنور، فإذا نزل طين عليه بطين كثيف نظيف، وكذلك رمانة الكتف التى تكون تحت الكتف، فإنهم يسرقونها، ويباشر أيضًا ما يسرقونه من السميذ، والأرز، واللبن.

---

(١) نبات صحراوى.

(٢) انظر هذا الباب فى معالم القربة لابن الأخوة (ص٩٧ - ١٠٥).

ويأمرهم أن لا يؤخروا أشوية الناس عنهم فى أوقاتها، فما كان من الشوائين الذين يتعيشون يدفع إليهم شواءهم ضحوة نهار، وأكثر الناس الظهر، ولمن كان صائمًا عند المغرب، وكذلك أرباب المآتم، ومن اختار التأخير إلى آخر النهار؛ وإن أخر عن الناس أطعمتهم فى هذه الأوقات المحدودة، فقد أضرّ بهم، واستحق عند ذلك الأدب بعد الإعذار إليه. ويمنع الشوائين من بيع الجدابة التى يعملونها من الماء الذى يقطر من الخراف مع يسير من شحومها ودمائها؛ لأنه تدليس، فينهوا عن ذلك، فمن عاد أدب وأشهر.

ويفتقد الطين الذى يطينوا به التنور، وربما عجنوه فى أرض دكاكينهم، فإن الجيف تؤذى رائحته، وربما يسقط عنه عند فتح التنور، فيأمرهم بعجنه فى قصرية نظيفة، ويفتقد إزياهم لتكون مصونة نظيفة[1].

* * *

الباب الثامن

فى الهرائسيين

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة من أهل صناعتهم، بصيرًا بها، ويطالبهم بنظافة قدورهم وجميع آلاتهم بالغسل بكرة كل يوم بالأشنان، والماء الحار، وعيار الهرايس لكل قدح من القمح رطل واحد بالجروى من لحم البقر الطيب السمين، ومن لحوم الضأن لكل قدح ثمانى أواق بالجروى. ويراعى العريف نظافة اللحم كل يوم بنفسه من الغدد، والعروق، والجلود، وينتقع فى الماء والملح وقتًا طويلاً حتى يحمر الماء، ويلقى فى القدور بحضرة العريف، ويختم عليها، فقد يضاف إلى الهرايس من الحيوان الذى ما له قيمة ويلقى فى القدور، فإذا كان آخر الليل يشيل منها إلى دار مَنْ يُعينُه على فساد أطعمة الناس، فيجب أن لا يفرط فى الختم، ولا يفتحها إلا العريف بعد وقوفه على صحة الختم، ويقطر من دهنها على بلاطة نقطًا، أو يغمس فيه ريشة، فإن كان فيه زيت أو شيرج، فإنه لا يجمد، وإن كان شحمًا نقيًا خالصًا عرف بجموده. ولا يمكنهم من العمل بلحوم البقر المعدة عندهم للمصلوقة، فربما عازهم اللحم الطرى، فيكون ذلك عندهم، فلا يمكنون من ذلك، ولا من العمل باللحوم البائتة التى تغيرت رائحتها، ولا بلحوم

---

(١) انظر هذا الباب فى معالم القربة لابن الأخوة (ص٩٢ - ٩٤).

الوقايع التى تغيرت رائحتها، ويفتقد قدور الشحوم المَسْلِية؛ لأنها ربما دارت، وكذلك قدور الزبد التى عند الباعة، فينبغى أن تراعى[١].

* * *

الباب التاسع
فى الزلبانيين

ينبغى أن يطالبوا بنظافة آلاتهم كلها، وتغيير مقاليهم، فإنهم ربما أخذوا عظام البقر والجمال وغيرها يسلقونها، ويأخذون ما صفا من دهنها، وكذلك دهن الرءوس، ويخلطونه بالزيت، ويقلون به الزلابية، فإذا أردت معرفة ذلك، اغمس فيه ريشة، أو قطّر منه شيئًا على بلاطة، أو على قليل من الماء، فإن كان فيه دهن جمد على الماء، وإن كان زيتًا خالصًا لم يجمد.

[وربما بقى فى قدورهم شىء من الهريسة، فيخلطونه فيما يعمل من الغد، فيعتبر عليهم ذلك، وربما باعوا ما يفضل منهم لمن يخلطه فى الكشك السوقى، فيراعى ذلك بشق النقانق قبل قليها، فإنه لا يخفى][٢].

وينبغى أن يكون مقلى الزلابية من النحاس الأحمر الطيب، ويأمرهم بغسله كل يوم قبل أن يقلوا فيه، وهو أن يحرق فيه النخالة، ثم يدلكه بورق الصلق إذا برد، ثم يعاد إلى النار، ويجعل فيه قليل عسل، ثم يوقد حتى يحترق العسل، ثم يجلى بعد ذلك بالخزف، ثم يغسل ويستعمل، فإنه ينقى من وسخه وزنجاره.

ويكون ثلث دقيق الزلابية ناعمًا وثلثاه سميذًا؛ لأنه إذا أكثر فيه السميذ، زادت الزلابية بياضًا وخفة فى الوزن ونضجًا، غير أن السميذ يشرب الزيت أكثر من الناعم، فلهذا يكرهونه.

وأجود ما قليت به الشيرج، فإن لم يكن، فالزيت الصافى، ولا يشرع فى قليها حتى يختمر عجينها، وعلامة اختمارها أن تطفوا على وجه الزيت، والفطير منها يركد أيضًا فى أسفل المقلى، والخمير أيضًا يبقى مجوفًا مثل الأنابيب، والفطير تكون مرصوصة وليس فيها تجويف، ولا يجعل فى عجينها ملح؛ لأنها تؤكل بالحلاوة، فتقىء النفس إذا كانت بالملح.

---

(١) انظر: نهاية الرتبة للشيزرى (ص٢٣٢).

(٢) ما بين المعكوفين هكذا فى النسختين الخطيتين، ولا علاقة له بالباب.

وأما سواد الزلابية، فقد يكون من وسخ المقلاة، أو تكون مقلوة بالزيت المعاد، وهو الذى يقلى به، أو تكون فطيرًا، وربما جازت عليها النار لسوء الصناعة، فيعتبر المحتسب عليهم جميع ذلك، وينبغى أن تُصنع سلالامًا صغارًا لطافًا، ومتى حمض عجينها جعله خميرًا.

* * *

الباب العاشر
فى الرواسين وغشهم

ينبغى أن يعرف عليهم ثقة عارفًا بمعيشتهم، فيأمرهم أنهم إذا سلقوا الرءوس والأكارع يسمطونها بعد ذلك، حتى لا يبقى عليها شىء من الشعر، ويدقوا الرءوس على مقادمها؛ ليقع ما فيها من سائر الأوساخ والدود المتولد فيها، وتسوك تسويكًا نظيفًا، ويجعل فى أفواهها شيئًا من الدارصينى[1] والكرفس، ولا يخلطوا رءوس الضأن برءوس المعز، وعلامة رءوس الضأن تحت كل عين ثقب يسمونه ماقا، وليس تحت عيون المعز مثله. وربما كسدت عندهم، فيخلطونها بما يبيعونه من غد، وعلامة ذلك ان تُسل العظم الرقيق الذى فى أصل المبلع، وهو المسمى بالشوكة، وتشمه، فإن كان متغيرًا، تعلم أنه بائت.

ويجب أن تكون أوعيتهم نظافًا مغطاة. ومنهم من يشترى دهن الأبدان القاطر من الشواء، ويخلطه بدهن الأكارع، ويسقى به الثريد، فيعتبر المحتسب عليهم ذلك، وأن لا يخرجوا الرءوس من الغمة إلى أن ينتهى نضجها، ويكون عنده الملح والدارصينى مسحوقًا ينثره عليها بعد البيع[2].

* * *

الباب الحادى عشر
فى الطباخين وغشهم

ينبغى أن يعرف عليهم ثقة بصيرًا عارفًا بمعيشتهم، ويطالبهم بنظافة آلاتهم كلها، وغسلها كل يوم بالماء الحار والأشنان، وأن لا يطبخوا بلحوم المعز، ولا بلحوم الجمال؛ لئلا يأكل منه العليل فيزيد فى علته، أو ناقه من مرض، فتكون سببًا لنكسته.

وينهوا عن حشو النقانق بكبود الجمال وكبود البقر، ولا بلحوم المعز، ولا بكبودها،

---

(١) الدارصينى: شجر له قشر يستعمل مسحوقه فى أخلاط التوابل والبهار.

(٢) انظر هذا الباب فى نهاية الرتبة للشيزرى (ص٢٢٩)، معالم القربة لابن الأخوة (ص١٩٥).

وإنهم أيضًا يجعلون مع كل خمسة أرطال من البقر، رطلين من بياض البصل، ورطل دهن، ورطلين ماء، بعد دقها، فينبغى أن يعتبر عليهم ذلك بالشق عنها قبل أن تقلى، فإنه إذا قلاه نخسه فى المقلى بالسفود ليفجره حتى يستر عيوبه ويسيل ما فيها من الغش، وكذلك غش السنبوسك يبين قبل قليه وبعد قليه، فإنه يغش بالباقلاء المقشر المنبت، وبياض البصل، فإذا فتحته رأيته عديم اللحم، وهو ما ذكرناه، فاعلم أنه مغشوش، وقد يعمل فيه من لحوم الأسماك المشوية والتوابل[1].

وإن طبخوا المعز، فعلامته فى القدور سواده، وزهومته، ورقة سائر عظامه. ويمنعون من غش المضيرة بالدقيق لتعقد ويزيد فى وزنها، وقد تعقد أيضًا بدقيق الأرز. ويتفقد عليهم كثرة الأدهان فى قدورهم. ويغشوا أيضًا البهطة بالقلقاس، وقد يغشون به الهريسة أيضًا، وقد يغشون أيضًا الهرايس بالكروش المسلوقة المبشورة، ويسترون عيوبها بالشحوم. ويعتبر عليهم أيضًا العصبان، فإنهم يبيعونها الجزارون.

وينبغى أن يعتبر غسلهم بالشق، ويمنعوا أن تنقع فى الماء قبل بيعها، ويؤمروا بنظافته، وحشوه بلحوم الخواصر، وقناقه بالنعنع، واليسير من السداب، ويحلفوا بالله العظيم أنهم إذا عملوا عصبانًا من بطون المعز وباعوه، أن يعلموا الزبون بذلك، ويراعيه العريف أيضًا.

وقد وجدت فى الرسالة التى تعرف بكيمياء الطبيخ، التى ألفها يعقوب بن إسحاق الكندى إلى المعتضد ألوانًا تطبخ من غير لحم، وقلايا كبود من غير كبود، ومخ من غير مخ، ونقانق من غير لحم، وعجة من غير بيض، وجوذاب من غير جبن ولا أرز، وحلاوة من غير عسل ولا سكر، وألوانًا كثيرة من غير عناصرها يطول شرحها، وليس يهتدى إلى دقة صناعتها، وخشيت من تدليس المتعيشين فى الأسواق، فأمسكت عن صفتها خوفًا من التنبيه على عملها، رجاءً لثواب الله تعالى[2].

* * *

الباب الثانى عشر
فى الحلوانيين وغشهم

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة؛ لأن غش هذه الصنعة كثير جدًا، فمن ذلك أن العسل النحل إذا كان نافقًا غاليًا، غشوه برب العنب، وهو يعرف إذا جعل على النار،

---

(١) انظر: نهاية الرتبة للشيزرى (ص٢٣١)، معالم القربة لابن الأخوة (ص١٠٦).

(٢) انظر: نهاية الرتبة للشيزرى (ص٢٣١)، معالم القربة لابن الأخوة (ص١٠٦ - ١٠٨).

فإن رائحة الرّب تظهر، وكذلك العسل القصب إذا غلا غشوه بالدبس، فإن النوى يوجد فى أسفل الوعاء. والفالوذج يُحلّف صانعه ألا يطرح لكل رطل عسل إلا أوقيتين من النشأ، أن يكثر فالوذه، وأن لا يحشيه.

ومن الحلوى ما يغش بالدقيق، والنشا، ودقيق الأرز، ودقيق العدس، وبقشر السمسم، وربما عملوا عوض العسل النحل القَنْد، والسميذ مكان الخشخاش وغيره، ومنه ما يغش بالفتيت وبدقيق السندود، ومنه ما يمزج فى النشا ليخفى سواده، والذى يغش منه بالدقيق، إذا ألقى فى إناء زجاج وصب عليه الماء، ذاب سكره، وصفا لونه، وركد دقيقه.

ومما يغش به من دقيق اللوزنيج المعزول واليابس، والقاهرية[1] يغش حشوها بالدقيق، ويعجن بالدقيق أيضًا، وفى حشو القطايف أيضًا يسقى خبزه بالماء الحار حتى لا يشرب الدهن، وكذلك القطايف والمقلى يغش حشوه بالدقيق، ويسقى بخل القند عوضًا عن العسل النحل، وكذلك ناطف[2] الخشخاش يغش بالسميذ، وإنه لا يبين فى الخشخاش، وهو يطفو أيضًا على الماء.

والناطف الهياجى يغش أيضًا بالسميذ المقلى والبندق، والكشك الأبيض والأصفر يغشان بالفتيت، وهو يعود أيضًا على الماء، وكذلك البسندود يغش بالفتيت، وربما عمل بدقيق العدس، وكعب الغزال إذا كان أسمر اللون، فهو معمول من القند، وقد يدرج فى النشا ليخفى أمره، وناطف المشاش[3] أصفر وأبيض، وكذلك المزاج أصفر وأبيض، فما كان منه بقند عرفته بسواده، وما كان صافيًا كان مزاجًا حسنًا يباع كل منها بسعره، وما يساوى فى الوقت.

والخشكنان[4] الذى يخبز فى التنور إن غشوه يقع عليهم فى التنور عند خبيزه، والخشكنان المقلى يغش حشوه أيضًا بالدقيق، والمشبكة أيضًا تغش بحل القند عوضًا عن العسل النحل، والخبائص[5] الرطبة والناغمة، فغشها أن يكون نشأها خارجًا عن الحد؛

---

(١) نوع من الحلوى، يدخل فيها اللوز والعسل.

(٢) نوع من الحلوى.

(٣) هو عسل يطبخ، ثم يوضع فى إناء ليجمد، فيصبح حلوى.

(٤) هو البسكوت بالفارسية.

(٥) نوع من الحلوى.

لأن منهم من يعمل لكل رطل حلاوة رطل نشأ، ومنهم من يعمل مع كل رطل نصف رطل نشأ، وهذا هو الخطأ، فمن فعل هذا استتيب أول مرة، فإن عاد أدّب وشهرّ.

ولا يمكنهم العريف أن يطرحوا لكل رطل حلاوة سوى أوقيتين نشأ لا غير، وهذه الخبايص الرطبة الكثيرة النشأ إن خفيت فى منظرها وذوقها، فإنها إذا باتت حمضت، والفانيد الخزائنى إذا عمل من الأجاجير كان صافيًا حسنًا شديد الحسن، وكذلك كعب الغزال إذا عمل من القند عرف بسمته، فيباع كل واحد منهما بما يساوى، وأجود ما عمل فى السوق ما كان من السميذ، وما كان فى العسل القصب، والماء ورد بالفستق لا غش فيه.

* * *

الباب الثالث عشر

فى هرايس التمر ومطبوخ العدس

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة عارفًا بمعيشتهم، ويأمره أن يتقدم إليهم ويلزمهم بغسل جرارهم، وقدورهم، كل يوم بالماء الحار والأشنان، ويعتبر عليهم شغلهم، فمنهم من يعمل فى الهرايس من التمر شيئًا يسيرًا، ويلقى عليه من النوى المجموع من على المزابل والطرقات شيئًا كثيرًا، ويطرح فيه خشبًا يعرف بالقلم[1] ليصبغه ويزيد فى حمرته، ويطرح فيه شىء من النطرون، أو الكمون الأبيض لينوب عنه، وهو أسلم من النطرون وأنفع منه، فينبغى أن يمنعوا من هذا ويحلفوا عليه.

ثم يعتبر جرارهم بعد ذلك، فإذا رأى شيئًا مما ذكرناه بعد ذلك، كسر ورمى فى أتونات الحمام، ويؤدبون ويشهرون، وكذلك باعة حشو العدس، يتقدم أيضًا لهم ويأمرهم بنظافة أوعيتهم، وتغطيتها، ونظافة مياهها، ونظافة العدس قبل طبخه، ويحلفوا أن لا يخلطوا فيه ماء الحمص المسلوق بعد طلوعه من التنور ليكثّره؛ لأنهم يفعلون هذا فى وقت تحريك السعر وقلة العدس.

* * *

(١) القلم هى: قشور الجوز الأخضر.

الباب الرابع عشر

فى الباقلانيين، أى الفوّالين

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة عارفًا بمعيشتهم، ويأمره أن يمنعهم من عمل الباقلاء المسوس، بل يكون جيدًا طيبًا، منقى من القديم، وهو يزيد فى تنبتة مثله، وكذلك الحمص السالم من التسوس قبل بَلِهِ وقبل سلقه [ينظف][1] من الطين والحجارة، ولا يخلط ما بقى من أمسه مسلوقًا فى حمص يومه، ويؤمرون أن ينشروا عليه الملح المطحون، والكمون الأبيض بعد بيعه؛ ليدفع مضاره، ويفتقد مكاييلهم، فإنهم يأخذون قطعة خشب يحفرونها مكيالاً، فيكون مثاله طول شبر، والمحفور من داخلها أربعة أصابع، فيغتر الناس بسعتها وطولها، ولا يعلمون ما المقدار المحفور منها، وهذا تدليس ظاهر لا يخفى.

وكذلك الترمس المسلوق، لا يسلق إلا بعد إقامته فى الماء ثلاثة أيام لتزول مرارته، ويجاد سلقه، ويذر أيضًا عليه بعد بيعه الكمون المدقوق بالملح، وكذلك الباقلاء؛ ليعين عل هضمه لفرط ثقله. ويتعاهد موازينهم، وصنجهم، ومكاييلهم، فإن صنجهم قد تتكاثف عليها الأوساخ، ومكاييلهم قد يصبوا فيها الجبس فى أسفلها، أو خبز الفجل حتى تنقص، فيعتبر عليهم ذلك فى سائر الأوقات.

وربما كان معهم أقداح صغار ليس لها عيار، يدعون أنهم يكتالون بها للصغار، وهى مما لا يقع عليها مقدار ولا تحديد، فيمنعون من ذلك وتكسر، ومن شأنهم أن يكون عندهم ثلاثة أقداح، فلا يترك ذلك عندهم أصلاً، ولا ثلث درهم، ولا ثلث رطل أصلاً، جملة كافية.

* * *

الباب الخامس عشر

فى السماكين والسمك

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا عارفًا بمعيشتهم، ويأمره أن يعتبر عليهم، فقد يموت السمك فى الماء لفرط البرد وشدته، فتقذفه الأمواج إلى الشطوط، فيأخذونه فى جملة ما

---

(١) ما بين المعقوفتين زيادة ليست فى الأصل، يتم بها المعنى.

كان يصاد حيًا، وهو ممنوع من أكله لانحراف مزاجه، وفساد طبعه قبل موته، فيمنعون من ذلك. وما بقى عند باعة السمك شيء وبات، جعل صيرًا[(١)]. وأرطال السماكين، فرسمها أن تكون زائدة على عيار غيرها أوقيتين، وتكون حديدًا مختومة قطعة واحدة بلا حلقة، وإن كانت حجارة، فتكون مجلدة مختومة بالرصاص كما قدمنا ذكرها أولاً.

ويأمر باعته بمواصلة غسل حصرهم، وموازينهم ، وجميع آلاتهم، وقفاف الحمالين أيضًا، ويرشوا عليها الملح عند انصرافهم لتنقطع رائحتها، فمن خالف ذلك، وكانت قفته من الحمالين منتنة أدب وأشهر، ومن اشترى سمكًا لنفسه، فليكن حمله فى زنبيل معه، لكى لا يعدم به ثياب الناس فى الأسواق، ومن وجد حاملاً سمكًا فى يده، وضع فى حجره تأديبًا لغيره.

* * *

الباب السادس عشر

فى باعة الصير والبورى والملح

أما الملح، إذا كان جريشًا، ينهوا عن تهشيمه، فإن ذلك تدليس، ومكاييل الملح الجريش فى المراكب، ودكاكين الملاحين، كلها حروية، فمن اشترى بالحروى وباع باللّيتى، فقد ظلم وجار.

وأما البورى، فيعتبر عليهم الفائت منه، ويمنعهم من بيعه، وأن لا يخلطوا بعضها مع بعض، مثاله أن يكون شفف مع لاج، أو طوبار مع طرى، ولكن كل واحد منهما وحده. وينفض ما فى خياشيمه من الملح قبل وزنه. ومن باع منه طريًا فأعطى فائتًا ألزم برده، وإعادة ما غرم عليه من حوائجه، وأن تكون أرطالهم كأرطال السماكين، زائدة من عن عيار غيرها أوقيتين، وأن يكون تحت يد كل واحد منهم قفة كبيرة لتقشير السمك، [وأخرى][(٢)] لوضعه ولجمعه فيها، وإذا قشر السمك لصاحبه، فلا يشق بطنه إلا بإذن صاحبه، فإنهم يعملون تحت أيديهم الأوعية للمصران، ويأخذون بغير إذن صاحبه ويبيعونه، وهذا حرام، فيعتبر عليهم ذلك.

وأما الصيّر، فيعتبر عليهم ما ريح منه، أو ما داد من قلة ملحه، أو أن يبيعوا جنسين

---

(١) الصير هو السمك المجفف المملح.

(٢) زيادة ليست فى الأصل، يتم بها الكلام.

مخلوطين، مثاله أن يبيعوا راى وهو مخلوط بغيره، فهو تدليس، فإنه يظهر لونه، وتزيد حمرته فى رأى العين، فيكون بطعمه وذوقه بخلاف ذلك، ويمنعهم أن يشيل أحدهم الملوحة من المطر إلى الميزان بمرته، فهذا تدليس. ويجتهد فى تغطية أوعيته. ويؤخذ عليهم أن لا يعملوا مرى صيرًا غيره. ويمنعهم أن لا يعملوا عليه الشرش من ماء الفول المسلوق، فيمنعوا من ذلك، وأن لا ينقلوا من وعاء إلى وعاء، فإن ذلك يغيره ويزيد زفرته، وأن لا يبيع ملوحة جديدة قبل استحقاق أكلها، ومتى ظهر عليهم شيء من ذلك، أدبوا وأشهروا، فيؤمر بأن يفرك عليها بعد بيعها الصعتر الشامى.

* * *

الباب السابع عشر

فى قلائى السمك وسمك الطاجن

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة عارفًا بمعيشتهم، ويأمره أن يأمرهم أن لا يعملوا سمكًا بائتًا، ولا متغير الرائحة، وينظر إلى حمرة خيشومه، ويغسلوا آنيتهم كل وقت بالماء الحار والأشنان، وتدق حوائجه دقًا ناعمًا، ويكون الدقاق متلثمًا؛ لئلا يتكلم أو يعطس، فيقع بصاقه أو مخاطه فى الحشو، ويكون عيار الحشو لكل طاجن إذا كان فيه سمك، ما قيمته عشرة أرطال، وتكون أبزاره معتبرة، ويكون فلفله ثمن أوقية، وكراويا ثمن قدح، وكزبرة ثمن قدح وثوم ثلث أوقية، وسماق ثمن قدح، وزيت طيب ثمن رطل، وطحينه نصف رطل، وماء ليمون نصف رطل، وخمس شدات بقدونس، وقليل صعتر نصف رطل شامى، وقلب بندق محمص مدقوق غير ناعم، فيعتبر عليهم ذلك، ويأمرهم بقلع عظمه وقت وزنه للمشترى، وأن لا يعملوا مع الحوائج شيئًا من الماء إلا ما يغسل به إناء الحوائج عند فراغه، ويكون ذلك بحضرة المحتسب أو نائبه.

وكذلك القلاؤون للسمك من باعته المقيمين فى البلد، والمسافرين به إلى البلدان والأسواق، يطالبون بطراوة ما يبتاعونه من السمك، وبنظافته وغسله، ومواضع خياشيمه، ونظافة مقاليه، وطيب وزنه، وغسل أوعيته، وأن يقلى السمك قليًا واحدًا بليغًا، بشرط أن لا يعاد إلى الطاجن مرة أخرى، إلا أن يختار ذلك المشترى لتسخينه. وأن ينثر عليه بعد بيعه الأبزار المدقوقة بالملح، ولا يخلطوا البائت بالطرى، وعلامة الطرى حمرة خياشيمه، والبائت ليس كذلك، وينبغى أن يفتقد العريف الطاجن كل وقت عند غيبة المحتسب؛ لئلا يقلوه بدهن الشحم المستخرج من بطون السمك؛ لأنهم يخلطونه مع

الزيت عند قليه، ويمنعهم أيضًا أن لا يقلوا بالزيت المعاد إذا كان متغير الرائحة، ولا يفسح لهم فى شىء من ذلك.

* * *

الباب الثامن عشر
فى صيادى الطيور والعصافير

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة عارفًا بمعيشتهم، ويمنعهم من نفخهم الطيور، لما فيه من الضرر والوسخ، ولاسيما إذا نفخه فتكون نكهته متغيرة، ويعتبر الميت منه، فربما خلطوه بالذى كان حيًا، ومعرفته أن يلقى الجميع فى الماء، فإن الميت يعوم، فمن ظهر عليه شىء من هذا أدب وشهر لكى يعتبر به غيره، وكذلك العصافير المأخوذة من على الدبق، وعصافير الذبح، فهى كثيرة ممن يموت فى الشباك، فيوجب مراعاتها أيضًا، فإن الميت منها يعوم على الماء كما ذكرنا أولاً.

* * *

الباب التاسع عشر
فى الطحانين وغشهم

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة، ويأمره أن يكون فى كل طاحون ميزان من خشب نظير موازين الجبس، وأوزانه وكلابه كما شرطنا فى موازين الجبس، يوزن به القمح إذا ورد، والدقيق إذا صدر، ويشد على أذن كل قفة لوح صغير، ويكتب فيه اسم صاحبها ووزنه، فإذا صح الوزن زالت التهمة وارتفع الشك، وتكون الحجارة التى يوزن بها القمح مجلدة معيرة مختومة بالرصاص، مكتوبًا عليها بالحبر بخط المحتسب أوزانها، ويشترط على المتاجرين من الطحانين اعتدال موازين الحجارة؛ لأنها إذا رفعت خفت على الدواب وجرشت الدقيق، وإذا وضعت سحقت وأضرت بالدواب، وإنما يكون الميزان معتدلاً حتى لا يقع الضرر، ويصلح حال الدواب، ويطيب الدقيق من غير حيف على الجهتين.

ويحلفون أن لا يخونوا أحدًا فى قمحه، ولا فى دقيقة، ومنهم من إذا وزن عليه زنبيل قمح، أفرغه فى القادوس وبلَّ أسفل الزنبيل بالماء، وأخذ بمقدار بلله من ذلك الدقيق، يفعل هذا بقفاف كثيرة، ويستحلون ذلك، فيحلفون أن لا يفعلوا ذلك، ولا يأمروا من يفعل لهم ذلك.

ثم يوصى بعد ذلك أرباب دواب العمل أن يتقوا الله تعالى فى ترفيهها فى كل يوم وليلة بحاجتها إلى الراحة والسكون، وأن لا يخاف على العمالة الشرعية الجارى بها العادة، فإن فى ذلك مثوبة، وبقاء للنعمة، وإذا حسنت لهم وفيهم، مع ترك الخيانة.

* * *

الباب العشرون
فى الفرانين وصبيانهم

ينبغى أن يكون للفران مطرحتان، واحدة للخبز، وأخرى للسمك، لا يطرح فيها خبزًا جملة كافية، ويلزم بتوريد سائر ما يخبزه للخبازين ولأهل البلد، ولا يقبل من ذلك الخباز إذا قال له: جر يدك ليخرج خبزه غير نضيج ائتمر. ويكون فرنه نظيفًا، لا يسود أسافل الخبز، ولا يقربه لشىء من الرماد، وأن لا يوقد بشىء من الأزبال التى تجمع من على الأكوام، ومتى فعل هذا أدب ولطخ منه وجهه وأشهر، ولا يغسل، ويجعل عوضها قصاريًا جدادًا فيها المآكل كل يوم، ويهراق فى آخره.

ويجددوا حشيش مكانسهم من غير حصر المساجد، ويكون على مصطبته التى يلقى عليها أخباز الناس حصيرًا مصونة من التراب والأوساخ، وإذا شووا سمكًا أو لحمًا، وشموا رائحته، أخذ منه قطعة بحضور صاحبه، ويجعلها تحت يده لمن يأتى إليه ويطالبه بالرائحة من النساء الحوامل، وإذا خبز طبقًا، وكان عليه مئزر أو خرقة، سلمها لصاحب الطبق، وإن كان صاحبه غائبًا، جعلها تحت يده إلى أن يحضر، فإن لم يفعل كذلك، وعدم لأحد شىء، لزمه غرامته.

وكذلك أخباز الناس تعد بحضور أربابها، وإذا غاب صاحب طبق أعد على من يشهد له به من الحاضرين. وغلمانهم الذين ينقلون إليهم أخباز الناس، ويدخلون بها إلى بيوتهم، يكونون دون البلوغ، وإذا جاءهم صبى بالغ صرفوه لحال سبيله يحمل فى السواحل، وإذا أتاهم من يطلب نارًا اعتبروه، فإن كان صغيرًا يعلمون أنه لا يحسن تدبرها ولا يحملها، فلا يعطوه شيئًا، ويمنعونه من ذلك، ومتى فعلوا بخلاف ذلك واحترق طفل صغير أدبوا وشهروا، وكذلك المداخن التى لأفرانهم يرفعون بنيانها بالبرابخ وتعلّى، بحيث يخرج دخانها مرتفعًا عن دور مجاوريهم، ومنهم من يخبز بعد فراغه من أخباز الناس وغلق فرنه للمزارين، فينبغى للعريف مباشرتهم فى مثل هذه الأوقات.

* * *

الباب الحادى والعشرون
فى الحطب والحطابين

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا عارفًا، يأمر الحطابين الذين يبتاعونه للخزين إذا قدمت به المراكب، أن يتوقفوا عن الشراء إلى أن يكتفى الخبازون وأهل البلد، وما فضل عنهم وكسد اشتروه، وما كان منه حزمًا موفر الشد، باع على حاله، وشده بما أطعم الله ورزق من غير حيف على الناس، ولا علمهم بالعدد كما جرت به العادة، ويتقدم إليهم بالمنع من حطاب النزاع البائت عليها وحولها؛ لأن قطعه يخلخل أرضها، ويفسد نظامها، ويكون سببًا لهجوم الماء وقلة نباتها، فيضر ذلك، فمن فعل منهم شيئًا من ذلك بعد الإنذار أشهر.

* * *

الباب الثانى والعشرون
فى القصب والقصابين

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة، يتقدم إلى أرباب مراكب القصب بأن يوفروا حزمهم كلها، ولا يحيلوا على صبيان المراكب، ولا يقبل لهم عذر. وعيار الحزمة خمسون قبضة بالإبهام والإصبع الوسطانى. وينبغى للمحتسب أن يختم لهم حزمة بثلاث خواتيم تكون عيارًا لهم، على ما ذكرنا، ليسقط الحلف، ويزول العذر، وتكون عند العريف يطالبهم بها أبدا. ومتى جرى من أحد منهم بخس، رفع إلى المحتسب ليؤدبه ويشهره. ولا يبيع لأحد من الخزانيين شيئًا من القصب إلى أن يكتفى سائر أصحاب الأشغال والعمارات، ومهما فضل عن هؤلاء ابتاعوه للتجارة وخزنوه.

* * *

الباب الثالث والعشرون
فى الجبس والجباسين

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة عارفًا بمعيشتهم، ويتقدم إليهم ويأمرهم بإنضاج الجبس فى الوقيد حتى يصفو، وتظهر منه رائحة كرائحة الطفل، وعلامة نضجه أنه إذا خلط بالماء لم يشتد لوقته، فإذا كان نيئًا لصق، وكذلك إذا صب على الحائط فنشف لوقته، فهو نىء، وإن بقى رطبًا ساعة، فهو نضيج.

ويكون لهم موازين خشب نظير الطحانين، كما ذكرنا فى أول الكتاب، وتكون أوزانها مسمرة من تحت العمود مواجهة الأرض، ولا تكون مسمرة فى طرفى عمود

الميزان فى طوله، وإلا متى اختار إبرازها إلى خارج، فيلحق المشترى الضرر فى الزيادة عليه فى بخسه بمقدار ما أخرجها. وتكون قفة العيار خمسة أرطال بالجروى، معيرة، مختومة بخاتم السلطان الرصاص، ومن فوقه بخط المحتسب، حتى لا يوزن بغيرها، ولأنهم ربما وزنوا فى قفف فى قعرها إبراش مخيطة، فيدخل بينها جبس، فتكون السرقة فى كل وزنة عدد القفف، فينبغى مراعاة ذلك وقلة التغفل عنه، ومتى تخطوا إلى ذلك، أو إلى شىء منه، أدبوا وأشهروا ليكونوا شعفة لغيرهم.

وكذلك الوقاد إذا قصر فى وقيد الجبس ونضجه أدب وأشهر، وكذلك الحجر الذى يعير به الجبس، يكون معيرًا، مختومًا، وقنطار الجبس جروى.

* * *

الباب الرابع والعشرون
فى الجير والجيارين

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة عارفًا بمعيشتهم، لا يمكنهم من ترك الحجارة، يعنى ترابه الذى يتفتت وقت كسره، حوالى المجيرة، ويكنسون حواليها قبل إنزالها، ويستظهر عليهم ويباشرهم، وكلما قل حمل الجير على المجيرة كان أجود للجير وشيّه، ويتقدم إليهم بإنضاجه، ليخف ويجود، وتقل حجارته وأذيته، وأن يكون لهم ميزان خشب نظير موازين الجباسات، فإن دعت الحاجة إلى العيار، فيكون معينًا، وينقش وزن رمانته على صدره عند لسانه، وينقش أيضًا على الرمانة؛ لئلا تبدل برمانة أقل وزنًا منها، وقنطار الجير ليتى، وإذا طلع فى الجير حجارة أعيدت لصاحبه وأخذ وزنها.

* * *

الباب الخامس والعشرون
فى الحمامات، وقوامها، وذكر منافعها ومضارها، وما يلزم حراسها، والبلانين، والمزينين، والوقادين، وباعة النورة

اعلم وفقك الله أنه قد ذكرنا فى هذا الباب وفى اللذين قبله، أمورًا ليست من قبيل الحسبة، وإنما ذكرها لعموم الانتفاع بها ومعرفتها، وهى لائقة بهذا الباب، ولعمرى إن الحكمة ضالة كل حكيم، والفائدة حسنة حيث وجدت، قال بعض الحكماء: خير الحمام ما قدم بناؤه، واتسع هواؤه، وعذب ماؤه، وقدر الوقاد وقوده بقدر مزاج من أراد وروده. واعلم أن الفعل الطبيعى للحمام هو التسخين بهوائه، والترطيب بمائه، فالبيت الأول مبرد، والثانى مسخن مرتفع، والثالث مسخن مجفف.

والحمام يشتمل على منافع ومضار، فأما منافعها: فتوسع المسام، وتستفرغ الفضلات، وتحلل الرياح، وتحبس الطبع عن السهولة، وتنظف الوسخ والعرق، وتذهب الحكة، والجرب، والإعياء، وترطب الدماغ، وتجود الهضم، وتنضج النزلات والزكام، وتنفع من حمى يوم، ومن حمى الدق. وأما مضارها عند طول القيام فيها، فإنها تسقط شهوة الطعام، وتضعف الباه، وأعظم مضارها صب الماء الحار على الأعضاء الضعيفة، وقد تستعمل على الريق والخلو، فتجفف تجفيفًا شديدًا، وتهزل، وتضعف.

وقد تستعمل الحمام على قرب عهد بالشبع فتسمن البدن، إلا أنها تحدث سدادًا، وأجود استعمال الحمام على الشبع بعد الهضم الأول، فإنه يرطب البدن ويسمنه، ويحسن بشرته، فينبغى للمحتسب أن يأمر ضامن الحمام بنظافتها، وكنسها، وغسلها بالماء الطاهر، غير ماء الغسالة، يفعلون ذلك كل يوم مرتين، ويدلكون البلاط بالأشياء الخشنة؛ لئلا يتعلق به السدر، والخطمى[1]، والصابون، فتزلق عليها أرجل الناس، ويغسلون الخزانة من الأوساخ المجتمعة فى مجاريها، والعكر الراكد فى أسفلها كل شهر مرة؛ لأنها إن تركت أكثر من ذلك، تغير الماء فيها فى الطعم والرائحة.

ولا يسد الأنابيب بشعر المشاطة، بل يسدها بالليف والخرق الطاهرة. ويستحلفون بأن لا يخلوا فى الأحواض ماء، ويخلوها كل ليلة. وإذا استعملت مياه الأحواض، ولم ينضحوها، ولا يغسلوها، وأصبحوا ليسيبوا عليها الماء، وأراد المحتسب معرفة ذلك، جعل ماء الحوض وماء الميزاب فى إنائين متساويين فى السعة والوزن ويزنهما، فإن رجح ماء الحوض على ماء الميزاب فهو لابد[2]، وقد يدركه أيضًا بشمه.

ويبخر الحمام بالفحم واللبان فى كل يوم مرتين، لاسيما إذا شرع فى كنسها وغسلها، ومتى بردت الحمام، فينبغى أن يبخرها بالخزامى[3]، فإنه يحمى هواءها، ويطيب رائحتها، وفى أيام الشتاء يزيد فى بخورها الميعة اليابسة. ويجب عليه تقديم استعماله سحرًا، لما يحتاج إليه من يتطهر قبل الصلاة. وتسد المنافس التى يدخل منها الدخان الذى يسمى الزنبور، فإن ذلك مضرة لعيون الناس ورءوسهم، ويأمر ضامن الحمام أيضًا بأن يجعل عنده ميازر يكريها أو يعيرها لمن يحتاج، فإن الغرباء والفقراء قد

---

(١) ويسمى الغاسول، وهو نبات له ورق مستدير.

(٢) هكذا فى الأصل، ولم يتم الكلام.

(٣) الخزامى هى عشبة طويلة العيدان، رائحتها طيبة.

يحتاجون إلى ذلك، فإن كشف العورة حرام، وقد لعن رسول الله ﷺ الناظر والمنظور، وكذلك ما يقلب به الماء، إما اصطال نحاس، وإما قطع خشب.

ويمنع من الدخول إليها الأجذم، والأبرص، وأصحاب العاهات الظاهرة، ولا يدع الأساكفة تغسل فيها الجلود، فإن الناس يتضررون برائحة الدباغ، وكذلك من كانت صنعته نقل السماد والجيف، إلا أن يغتسل ويتنظف قبل أن يدخل إلى الحمام، وكذلك البوارين والسماكين.

ويلزم القومة بنظافتها، وغسل أعقاب أبوابها، وأن لا يقطعوا إطلاق مياه الطهور من أحواضها، وأن تكون محاكهم معروضة على النار، أو تنقع فى الماء والملح كل ليلتين، ويعتنوا بجلاء الأحواض قبل انصرافهم، وإذا أخذ الحارس أجرة على حفظ ملابس الناس وعدم شىء منه، لزمه غرمه.

ولا يستقبل البلان الرأس ومنابت الشعر استقبالاً، ولا يأكل ما يغير نكهته، كالبصل والثوم، فإنه يضر الناس، ويلزمون فى خلط الزرنيخ والجير أن يلقى على كل عشرة أوزان من الجير الأبيض وزنًا واحدًا من الزرنيخ الخالص، وإن قصّر عن ذلك أضرت النورة بالصفراوى، والعليل، وبالقلق لطول مكثها، فيعتبر النورة عليهم بريشة أو بصوفة تغمس فيها وتترك لحظة، فإن تلاشت، وإلا أدّب صاحبها بعد إنذاره وتحذيره، ويأمرهم أن لا يمكنوا الباعة من غسل الأجبان فى مطاهر الحمامات.

وسبيل المزينين أن يصلحوا لحية كل أحد على مقدار ما يليق بوجهه، وأن يكون حديدهم رطبًا قاطعًا، ويأمرهم أن لا يحلقوا رأس صبى دون البلوغ إلا بإذن وليه، ولا يحلقوا ذقن مخنث، ولا يزينوا له صدغًا، ولا لغيره من المردان والأحداث، وأن لا يعمقوا شرط الحجامة؛ لئلا يقطعوا ما تحتها من الشريانات الرقاق، فيشترط ذلك عند مواضع المحاجم، وهذا موجود قوى، مما يصيب الناس، وهذا التعميق فى شرط الحجامة سببه، فينبغى أن يعتبر على المزينين هذا الأمر بورقة سلق، أو بورقة موز تلصق على قطعة طين لين، ويتقدم المزين بشرط الورقة، فإن نفذ مشراطه إلى الطين أدب، وإن خفف كان علامة حذقه، وإنه إذا شرط لم يؤمل، فيكون ذلك سببًا للسلامة.

ويأمر المدلك أن يدلك يده بقشور الرمان؛ لتصير خشنة فيخرج الوسخ، ويستلذ بها الإنسان، ويمنع من دلوك الفول، والعدس، فإن ذلك طعام لا يجوز امتهانه، ويعتبر على

باعة الدلوك ما يغشون به، فمن ذلك ما يغشون به السدر بالرمل، وبخبز الفجل، والحناء بالرمل، وقد يغشون خبز الفجل بزبل الدواب المطحون، والأشنان بالرمل.

والوقادون فى الحمامات يتقدم إليهم، ويأمرهم بأن لا يوقدوا بسماد، ولا بطعام، وأن يتفقدوا مجاريها، ويحسنوا تدبيرها، ولا يقطعوا ماء الطهور عنها، وإن قل، ولا تقطع أرسال ميازيب المسلخ؛ ليكون ذلك عونًا على نظافة الأسطوان، ولا يبيت الماء فى أحواض الحرارة، ولا يمكن السوقيون أن يأخذوا من رماد الحمام؛ لأنهم يغشون به رمادهم إذا باعوه للزيادة فى ثمنه، فيمنعون من ذلك.

وقيل: إن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله نهى عن الفقاع، فإنه ربما غشوه وعملوه من غبار الطواحين، فإذا أراد المحتسب امتحانه عليهم، أمر أن تغلى كيزانه فى الماء الحار وهى مملوءة مسدودة، ثم يقلبها عند غليانها، فإن تعذر ولم ينزل من كيزانه، فهو غبار معمول، وإن كان من شعير انساب ونزل بلا كدر. ويؤمرون بتكثير أفاويه ومسكه، ويقللون من سدابه لعلة فساده للباه. والفقاع مكروه فى الشرع والطب جميعًا.

* * *

الباب السادس والعشرون
فى الغزالين والغزل

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة، طاهرًا، مأمونًا، بصيرًا بما يجرى فى السوق من الخطأ والتدليس، ويجعل كل جزء من النساء منفردًا غير مختلط. وقد يشترى بعض السماسرة الغزل الرخيص ويعيده إلى السوق مع غيره إلى من يسأله شراء مثله، فيبيعه له بزيادة متفاوتة. وينبغى أيضًا أن يتأمل من يشترى الغزل، فإن كان مظنونًا به، أو مواصيًا للمشترى أكثر ما يحتاج إليه، حل غزله وبل بالماء قبل دفعه إليه، ويستحلف سماسرته أتم يمين أن لا يدلسوا غزلاً، ولا يشاركوا فى ذلك، ولا يواطئوا عليه أحدًا، ومتى ما أطلعوا على هذا من غيرهم نموا عليه، ولم يسكتوا عنه، وأظهروا فعله ولم يستروه كائنًا ما كان من المسلمين وغيرهم.

ولا تبخس الموازين، ولا يظلمون أحدًا من البائعين والبائعات، وأن ينقدوا لهم نقدًا جيدًا يغنى عن المعاودة والمراجعة، ويعتبر موازينهم وصنجهم كل وقت، ولا يترك عند أحد منهم دستى صنج، ولا صنجة ثلث درهم، ولا ثلث أوقية.

* * *

الباب السابع والعشرون
فى الكتاتينين

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة بصيرًا، ويلزمهم أن يكون بينهم وبين من يشترى منهم من النساء حجب، ومقاطع من أقفاص وغيرها؛ ليكونوا بذلك غير متلامسين.

واعلم أن أجود الكتان المورق، وأردؤه القصير الخشن الذى يتقصف تحت الصدفة[١]، فيأمرهم أن لا يخلطوا جيده برديئه، ولا الكتان الصعيدى بالبحرى، ومنهم من يخلط ما يخرج بالسراقة[٢] بالكتان الناعم بعد مشطه، فجميع ذلك تدليس فيعتبر، وتعتبر بعد ذلك موازينهم، وصنجهم، وأرطالهم فى كل وقت.

* * *

الباب الثامن والعشرون
فى الحريريين

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة، ويعرف أن فى صبغ الحرير غشوشًا خافية، فمن ذلك أنه إذا صُبغ قز غير مبيض أسود لهم المثل، وإذا كان مبيض زاد لهم الثلث، وكان أقوى وأنقى بعيد تغييره، وينبغى أن لا يباع الحرير المصبوغ بالبقم عوضًا من القرمز، فإنه يتغير فى الماء، ويأمرهم أن لا يصبغوا القز بالفَوّة قبل اللك[٣]، فإنه غش وتدليس، وأن لا يبيعوا حاكة الصنفين ما يتغير عليهم فى المراس، وأن لا يكون عندهم دستًا صنج، ولا ثلث درهم، وكذلك يعتبر أيضًا ما ذكرناه من غش أصباغهم.

* * *

الباب التاسع والعشرون
فى القطانين والندافين

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا، وتكون أرطالهم معيرة مختومة، وكذلك موازينهم، ويستحلفون يمينًا لا كفارة لهم منها، أنهم لا يخلطون قطنًا قديمًا بجديد، لا فى كفن ولا غيره، بل يبيعون كل واحد على حدته، ويتقدم على الندافين منهم أن يتقصوا فى إخراج الحب عند ندفه فى ملابس الناس، فإن خالفوا ووجد الحب فيما عملوه، أدبوا على ذلك؛ ليكونوا شعفة لغيرهم.

* * *

(١) هى المحارة التى يمحر بها.

(٢) هى آلة من آلات النجارة.

(٣) اللك هو شجر يخرج منه صمغ أحمر اللون، يستعمل فى الصبغ ونحوه.

الباب الثلاثون
فى القلانسيين وغشهم

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا عارفًا بمعيشتهم، يمنعهم من عمل القلانس من الخرق البالية التى يلقونها بالقراطيس والأشراس وغير ذلك، فما يلبث أن ينخرق ويهلك. ويتقدم إليهم أن لا يعملوا إلا جديدًا، ويبيعون بما قسم الله لهم، ولا يخيطوا عتيقًا إلا أن يكون فتيقًا مقلوبًا، ويكتب على بطانة الجديد: جديدًا، والعتيق: عتيقًا، بخط المحتسب. ويمنعهم أن يسودوا القندس، ولا يخرموا على قطع، ولا يشقوا جاخًا أسود بسواد، ولا أحمر بحمرة، ويصقلوه ليخفى على شاريه، فإن ذلك تدليس. ولا يعملوا زيفًا عتيقًا على جديد، ولا يحشو شيئًا جرت عادته أن يحشى بقطن بمشاق. ويحلفون بأن لا يخيطوا بطاق غير مفتول، ويحلفون أنهم إذا فصلوا لأحد شيئًا وفضل عندهم منه شىء يردونه لأربابه. ومنهم من يُدفع له الحرير، فيأخذه ويخيط بدله بغزل، فيحلفون أيضًا على ذلك، ومن خالف منهم أدب[١].

* * *

الباب الحادى والثلاثون
فى الخياطة والخياطين وغشهم

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة عارفًا، ويؤمرون بتضييق الأبدان، وسعة التخاريص[٢]، وأن تكون خياطتهم درزًا، ولا تكون شلاً، وأن لا تكون الخيوط طوالاً، فإنها تضعف من التكرار، وتكون الأذيال معتدلة، والأطواق لازمة، وإذا دفع إلى أحد منهم ثوبًا مما له قيمة، قبضه بالميزان ورده موزونًا، وتراعى خياطته، فربما حشوه رملاً، أو بخ داخلها بماء وملح إذا كانت ممن لا يتبين بياضه، ويتقدم إليهم أيضًا بترك المطل للناس، وأن لا يأخذ أحد شغلاً وهو غير فارغ؛ إلا أن يشترط على صاحبه مدة فراغه، ومن خالف أدب[٣].

* * *

---

(١) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص١٤٠).

(٢) هو ما يزيد فى عرض الثوب تحت كميه.

(٣) انظر: نهاية الرتبة للشيزرى (ص٦٧، ٦٨).

الباب الثانى والثلاثون

فى سماسرة البز

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة عارفًا بمعيشتهم، ويأمرهم أن لا يخلطوا أموال التجار إذا وردت إليهم، بل يشترون بما لكل إنسان على حدته، ويتقوا الله تعالى فى ذلك، ولا يزيدوا ثمن غال على رخيص، ويحذروا الغلط، ويشتروا لكل واحد منهم بقسمه ورزقه، وينبغى أن يعتبر عليهم موازينهم، وصنجهم كل وقت، فإنهم كثيرًا ما يزنون للحاكة ناقصًا. وأن لا يكون فى ميزان أحد منهم دستًا صنج، ولا ثلث درهم. وتكون وزنات الحاكة مفردة، ولا ينقل أحد منها على أحد، ولا على ما حَدّه لهم السلطان من الجُعل، وهو على كل دينار درهم ورق، ولا يطرح أحد من السماسرة عنده شيئًا من أموال التجار، فيصله بدفعه إليه، وهو خيانة وتدليس.

* * *

الباب الثالث والثلاثون

فى البز والبزازين

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا، وأن يحلّف البزازين فيما يباع بينهم؛ لأنهم ربما قوموا المتاع قيمة قد توافقوا عليها من الزيادة فى رأس المال الذى قد ابتاعوه، ويتأولون فيه هذا التأويل عند بيعه وهم كاذبون؛ لأن الذى يجرى فى هذا وأمثاله يجرى مجرى الحيل والخديعة، فيحلفون على ذلك بحضرة عريفهم. ثم إنهم يراعون بعد ذلك، فإن عاد أحد منهم إلى مثله صُرف من السوق لقلة أمانته. وينبغى أن لا يكون بين أحد من الدلالين، وبين بزاز شركة؛ لئلا يصفق عليه المتاع بنقص.

وينبغى أن يعمل ذراع من خشب طوله، بعرض الإبهام، أربعة وعشرون إصبعًا محزوزة، وينقش على طرفه الأول اسم الإمام، وعلى الطرف الثانى اسم المحتسب، يتعيشون به، ليرتفع الشك فى طول أمتعة الناس وعرضها فى الزيادة والنقصان. وإذا أشهر المنادى ثوبًا، فلا يزيد إلا ما زاده المشترى، ويمنع من أن يزيد من نفسه شيئًا، ولا يأخذ جعالته إلا من البائع بحكم أن لا يبيع إلا مُسلّمًا. ولا يتجاوزون فى أشغالهم على كل دينار درهمًا واحدًا ورقًا، ويعتبر موازينهم كل وقت، ويأمرهم أن لا يبتاع بينهم قطعة قماش لأحد، كائن من كان، إلا ويكتب اسمه واسم ضامنه فى درجه، يفعل

ذلك السمسار، ويكتب أيضًا البزاز فى دفتره اسم المنادى، ومن خالف كان دركه لازمًا له[1].

* * *

الباب الرابع والثلاثون
فى الغسالين

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة، ويحلفون أن لا يضربوا على الحجر أكثر من ثوب واحد، وأن لا يعصروا المتاع بشىء من الخشب، ومراعاة أمتعة الناس فى الولائم والمآتم، ومن لبسها على كل الوجوه والأسباب، ويمنعون أيضًا من غسل أمتعة الناس بالماء المطبوخ فيه القلى والنطرون، فإن ذلك يضر الأعلام والطرز، ويبلى القماش سريعًا، ويولِّد فيه القمل والصئبان، ولا يغسل ثوب الرجل على ثوب لغيره، ولا يستبدل شيئًا من أمتعة الناس.

* * *

الباب الخامس والثلاثون
فى القصارة والقصّارين

ينبغى أن يعرف عليهم ثقة، ويستحلفهم أن لا يجلبوا إزرًا فى ثوب لغيرهم، وكذلك لا يستخدموا شيئًا من سائر ما يخدمونه ويقصرونه، لا فى أوساطهم، ولا يلتحفوا به، ولا يشيلوا فيه شيئًا من السوق، وأن لا يتركوا المتاع فى النورة سوى ساعة؛ لئلا تُضر الطرز والأعلام، ويؤمروا بنظافة المتاع، وسلاسته، وقلة جيره، وإزره، ويؤمروا أن لا يطووا المتاع رزمًا بالعشايا وهو ندى، فإن ذلك يوجب عفنها وفسادها.

ومن حسن النظر لسائر أمتعة الناس، أن يؤمروا أن لا يرزموا فى شىء من أمتعة الناس، بل يستعدون لهم أكسية يرزمون فيها، وتكون مناديلهم التى يلبسونها على رءوسهم فوطًا، أو ميازر، ولا يتعرضوا لشىء من أمتعة الناس على رءوسهم، ولا فى أوساطهم، ولا يناموا فى شىء منه فى منازلهم، ولا أهاليهم، ومتى لحقت المتاع عاهة لزمهم الغرم[2].

* * *

---

(١) انظر: نهاية الرتبة للشيزرى (ص٢٤٥ - ٢٤٧).

(٢) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص١٣٩، ١٤٠).

الباب السادس والثلاثون

فى المطرزين

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا، ويستحلفهم أنهم لا يطرزون بقز ويدعون أنه حرير، وإذا عمل لأحد شغلاً بشيء من الحرير يرده إليه، وأن لا يطرز أحد شيئًا حتى يزنه بالميزان، ويكتب وزنه على طرفه، وإذا أتاهم أحد بثوب يطرز، أو بشيء من سائر المتاع، لا يزيد فيه شيئًا من التطريز، ولا ينقلوا رقم ثوب على ثوب غيره، فإن من القصارين والغسالين مَنْ ليس بثقة، يفعلون هذا بثياب الناس، ويؤمرون أيضًا أن لا يعيدوا رقم ثوب قد انحَتَّ من الرءوس، ويؤديه للمطرز يصلح له ما فسد من غير أن يعلم صاحبه، وهذا تدليس وخيانة، ومن ظهر عليه شيء مما ذكرنا أدب.

* * *

الباب السابع والثلاثون

فى الرفائين وغشهم

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة عارفًا بمعيشتهم، ويحلفوا بالله العظيم أن لا يرفوا لأحد من الغسالين والقصارين شيئًا من المتاع، إلا بحضور مالكه، وأمره له فى ذلك، وينتقد عليهم أيضًا ما يرفونه من جودة الأوصال وحسنها، وكذلك الدفن، والقلع، وغيره من سائر ما يرفونه، ومتى فعلوا شيئًا بخلاف ما رسمنا، بعد الإنذار، أدبوا وأشهروا[١].

* * *

الباب الثامن والثلاثون

فى الصيادلة والعقاقير

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة عارفًا بمعيشتهم؛ لأن العقاقير نحو ثلاثة آلاف عقار، ولها أشباه وأمثلة تقاربها وتدانيها فى الصورة، وتنافيها وتبعد عنها فى المزاج والمنفعة، فينبغى أن يعدل بما يشترى منها إلى من قد نصب لذلك قبل استعمالها، فإذا تبين ما هو ذهب الشك فيه وفى استعماله، فتكون النفس إليه قابلة، وإلى نحوه ساكنة. والذى

---

(١) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص١٣٩).

وجب على مؤلف هذا الكتاب ذكر ما يؤدى إليه من غش بعض هذه الأدوية، وهو يقسم بالله العظيم على من عرف شيئًا من غش الصيدلة، وغيرها من سائر الأشياء المغشوشة، ممن وقف على كتابنا هذا أن ينبه فى آخر كتابنا هذا، وإن أمكنه التنبيه على معرفة استخراج غشه فليذكره، راجيًا بذلك ثواب الله عز وجل.

فينبغى للمحتسب أن يباشرهم، ويخوفهم، ويعظهم، وينهرهم بالعقوبة، والتعزير، ويعتبر عليهم عقاقيرهم فى كل أسبوع، فمن غشوشهم المشهورة أنهم يغشون الأفيون المصرى بشياف[١] الماميتا[٢]، ويغشونه أيضًا بعصارة ورق الخس البرى، ويغشونه أيضًا بالصمغ، وعلامة غشه أنه إذا أذيب بالماء ظهرت له رائحة كرائحة الزعفران، إن كان مغشوشًا بالماميتا، وإن كانت رائحته ضعيفة، فهو بالخس، والذى هو مر صافى اللون، ضعيف القوة، فهو مغشوش بالصمغ.

وقد يغشون الراوند[٣] بنبتة يقال لها: راوند الدواب، تنبت بالشام، وعلامة غشه أن الراوند الذى لا رائحة له ويكون خفيفًا، هو الجيد، وأقواه الذى يسلم من السوس، وإذا نقع كان فى لونه صفرة، وما خالف هذا اللون والصفة كان مغشوشًا بما ذكرناه، والجيد من الإثمد ما كان لفتاته بريق، وكان ذا صفاء صالح وهو نقى من الوسخ، سريع التفتيت.

وقد يغشون الطباشير[٤] بالعظام المحروقة، ومعرفة غشها أنها إذا طرحت فى الماء رسبت العظام وطفا الطباشير، وقد يغشون التمر هندى بلحم الأجاص، وقد يغشون الحضض[٥] بعكر الزيت ومرائر البقر، فى وقت طبخه، ومعرفة غشه أنه إذا طرح منه شيء فى النار، فإن الخالص يلتهب، ثم أنه إذا أطفيته بعد الالتهاب تصير له رغوة كلون الدم، وأيضًا فإن الجيد منه أسود، ويرى داخله ياقوتى اللون، وما لا يلتهب وما لا يرغى يكون مغشوشًا بما ذكرنا.

---

(١) الشياف: نوع من الأدوية، يتخذ قمعًا أو نحوه لمعالجة أمراض المستقيم.

(٢) هو نبات يميل إلى الزرقة، قليل الارتفاع، مر الطعم.

(٣) الراوند هو ساق نبات يميل إلى الحمرة، وإذا مضغ مال لونه إلى الصفرة، يستخدم معالجة أوجاع الكبد، والكلى، والمغص، وغيرها.

(٤) هو رماد الخيزران، يستعمل فى معالجة أمراض القلب، والحميات.

(٥) نوع من الأشجار الشوكية، تستعمل عصارتها فى الأدوية.

وقد يغشون القَسْط[١] بأصول الرَّاسِن، ومعرفة غشه أن القسط له رائحة، وإذا وضع على اللسان يكون له طعم، والرَّاسِن بخلاف ذلك، وقد يغشون زغب السنبل السفيل[٢] بزغب القلقاس، ومعرفة غشه أنه إذا وضع فى الفم يغثى ويحرق، والسنبل المسحوق يغش ليزيد فى وزنه بالأثمد يرش عليه، وكذلك السِّك مسك المدقوق، وقد يغشون الأفربيون[٣] بالباقلاء اليابس المدقوق، وقد يغشون المصطكى بصمغ الأبهل[٤].

ومنهم من يغش المقل بالصمغ القوى، ومعرفة غشه أن الهندى تكون له رائحة ظاهرة إذا بُخِر به، وليس فيه مرارة، والأفتيمون[٥] الأقريطشى يغشونه بالشامى، وقد يغشونه بزغب البسبايج[٦]، ومنهم من يغش المحمودة[٧] بلبن اليتوع[٨] المجمد، ومعرفتها أنك تضعها على اللسان، فإن قرصك فهى مغشوشة، ومنهم من يغشها بنشارة القرون، يأخذونه ويعجنونه بماء الصمغ، ويعملونه كهيئة المحمودة، ومنهم من يغشها بدقيق الباقلاء، ودقيق الحمص، ومعرفة ذلك أن الخالصة صافية اللون مثل الغِرى، والمغشوشة بخلاف ذلك.

وقد يغشون المر بالصمغ المنقوع بالماء، وصفة غشه أن الخالص يكون خفيفًا، ولونه واحد، وإذا كسر ظهر فيه أشياء مثل الأظافر ملساء، تشبه الحصى، وتكون له رائحة طيبة، وما كان منه ثقيلاً، لونه لون الزفت، فلا خير فيه، ومنهم من يغش قشور اللبان بقشور شجر الصنوبر، ومعرفة غشه أن يلقى فى النار، فإن التهب وفاحت له رائحة طيبة فهو خالص، وإن كان بالضد فهو مغشوش، ومنهم من يغش المرزنجوش[٩] ببزر الخندقوق[١٠].

---

(١) هو العود.

(٢) السفيل هو شجر طيب الرائحة، له سنابل صغيرة.

(٣) الأفربيون هو نبات كثير العصارة، ساقه شوكية مستطيلة، وإذا شق هذا الساق خرجت منه عصارة لينة.

(٤) هو نوع من النبات، قريب من النبق فى الحجم، أحمر اللون، رائحة أوراقه عطرية.

(٥) نبات له أصل كالجزر، شديد الحمرة، زهره أحمر، وبذره صغير.

(٦) نبات ارتفاعه نحو شبر، دقيق الورق، لونه بين الأصفر والأحمر.

(٧) تسمى أيضا السقمونيا، عصارته تستخدم بعد تجفيفها كمسهل.

(٨) هو نبات كثير العصارة.

(٩) هو نوع من الرياحين، بذره كالريحان.

(١٠) نبات له بزر شبيه ببزر الحلبة.

وقد يغشون الشمع بشحم المعز وبالقلفونية[١]، وقد يذرون فيه عند سبكه دقيق الباقلاء، والرمل الناعم، والكحل الأسود المسحوق، ثم أنه يجعل ذلك بطانة للشمعة، ثم يغمسها بعد ذلك فى الشمع الخالص، ومعرفة غشه أنك إذا أشعلت الشمعة ظهر فيها ذلك، وقد يغشون الزنجار بالقلقند[٢] والرخام، ومعرفة غشه أن تبل إبهامك وتغمسها فيه، ثم تدلك بها السّبابة، فإن نَعِمَ وصار كالزبد فهو خالص، وإن ابيضّ وتحبّب فهو مغشوش، وأيضًا يترم منه بين الأسنان، فإن وجدته كالرمل فهو مغشوش بالرخام، وأيضًا تحمى صفيحة فى النار، ثم تذره عليها، فإن احمر فهو مغشوش بالقلقند، وإن اسودَّ فهو خالص.

وقد يختارون من الأهليلج الأسود إهليلجًا أصفر، ويبيعونه مع الكابلى، وقد يغشون الماء على الخيار شنبر، ويلفونه فى الأكسيه عند بيعه، فيزيد لهم كل رطل نصفًا، ومنهم من يأخذ اللك ويسليه على النار، ويخلط معه الآجر المسحوق، والمغرة، ثم يخلطه، ويعقده، ويبسطه أقراصًا، ويكسره بعد جفافه، ويبيعه على أنه دم الأخوين[٣]، ومنهم من يدق العلك دقًا جريشًا، ويجعل فيه شيئًا من الجاوشير[٤] على النار فى العسل النحل، ويلقى فيه شيئًا من الزعفران، فإذا غلى دارغر ألقى فيه العلك، وحركه إلى أن يشتد، ثم يعمله أقراصًا إذا برد، ويكسره ويخلط معه الجاوشير، فلا يظهر فيه.

وأما جميع الأدهان الطيبة وغيرها، فإنهم يغشونها بدهن الخل، وهو الشيرج بعد أن يغلى، ويطرح فيه قلب الجوز، وقلب اللوز مرضوضًا؛ ليزيل رائحته وطعمه، ثم يمزجه بالأدهان، ومنهم من يأخذ نوى المشمش ليستخرج دهنه، ويخلطه بالشيرج، ويبيعه على أنه دهن لوز، ومنهم من يغش دهن البلسان[٥] بدهن السوس، ومعرفة غشه أن يقطر منه شيء على خرقة صوف، ثم يغسل، فإن زال منها ولم يؤثر فيها فهو خالص، وإن أثر فهو مغشوش، وعلامة دهن البلسان الخالص أن تغمس فيه سنبلة وتشعلها، فإن اشتعلت فهو خالص، وإذا قطر على اللبن جمد للوقت، وأيضًا إن الخالص منه إذا قطر فى الماء

---

(١) صمغ الصنوبر.

(٢) هو الزاج الأخضر.

(٣) هو صمغ أحمر.

(٤) هو شجر يعمر فى الأرض، أزهاره صفراء، صمغه قوى الرائحة، مر الطعم.

(٥) البلسان: شجرة يجمع ما يرشح منها، فلا يتجاوز بضعة أرطال من الدهن الطيب الرائحة.

الحار، فيصير فى قوام اللبن، والمغشوش يطفو مثل الزيت، ويصير كواكبًا على وجه الماء.

وقد يخلطون دهن العراق بدهن الشام، أعنى الورد والبنفسج، وهذا تدليس، وقد أعرضت عن أشياء كثيرة فى هذا الباب لم أذكرها، ليخفى غشها مخافة من تعليمها، وإنما ذكرت ما قد اشتهر غشه بين الناس، ويتعاطاه كثير منهم، وقد أمسكت عن أشياء ليست بمشهورة قد ذكرها صاحب كتاب كيمياء العطر، كما أمسكت عن أشياء كثيرة قد ذكرها يعقوب بن إسحاق الكندى فى رسالته المعروفة بكيمياء الطبايخ، فرحم الله من وقع فى يده ذلك الكتاب فمزقه[١].

* * *

الباب التاسع والثلاثون

فى الأشربة والمعاجين وما يضاف إلى ذلك

اعلم وفقك الله أنه لما كانت المعاجين، والأشربة، والأقراص، والسفوفات، والأدوية المركبة، إنما يقف على معرفتها، ويتيقن مصلحتها، مَنْ حضر عملها، وشاهد خلطها، وعجنها، فيجب أن يكون ذلك قبل تركيبه بحضور من جعل عريفًا على مثلهم، حتى تزول الظِنة، وترتفع الشبهة، فإن لم يمكنه حضور جميع ذلك، عينت الحوائج، وحملها الشرابى إلى مجلس العريف فى طبق، أو غيره ليشاهدها، ويعد عقاقيرها، ويقابلها بمن يعول عليه. أما شابور أو غيره، ويخلطها بعد المقابلة بيده، ويمضى بها صاحبها يركّبها، ويتقى الله تعالى أن لا يركبها بعسل القصب، ولا بقطارة، فإنهم يركبون المعاجين بأشياء من عسل القصب، يأخذون منه عشرة أرطال، يغلونه، ويقلعون نيمه حتى يصفو سواده، ويرش عليه مقدار ثلاث أواق لبن حليب، حتى يصفو، وتطيب رائحته، ثم أنه يسحق له وزن درهمين اسفيداج[٢] العرايس، فى أوقية خل خمر حاد، ويقلبها فى القدر وهى تغلى، ثم يصلح منه ما شاء من الأشربة والمعاجين.

فينبغى أن يراعى ذلك منهم، ويستحلفون أن لا يفعلوه، ولا يأمروا واحدًا يفعله لهم، وهو لابد له ما يرجع فى الأشربة إلى السواد، ويلت فى المعاجين، وتظهر رائحة الخل فيه، ويعتبر أيضًا بأن يؤخذ منه قليل، ويحل بالماء فى وسط الراحة، فإن المعسل يبيض

---

(١) انظر: نهاية الرتبة للشيزرى (ص٢٣٧)، معالم القربة لابن الأخوة (ص١٦٤ - ١٦٨).

(٢) الإسفيداج: رماد الرصاص.

مثل الفانيد[1]، ومتى تطاولت مدة الأشربة، فحمضت، أو غلت، لم يكن لصاحبها أن يردها إلى الطبخ ثانيًا، لفساد مزاجها وانحرافه.

ولا يذكى أحد منهم حلاوته بغير ماء الورد، ولا يجعل فيه مسكًا ولا كافورًا. وسبيل شراب البنفسج أن يكون مكررًا، فإنه سريع التغيير، وشراب الورد مثله أيضًا أن يكون مكررًا؛ لأنه أتقى وأنفع للمعدة. والسكنجبين[2] البزورى والتادج يكونان بخل خمر، وإذا رأيت السكنجبين إلى السواد لونه، فهو كما ذكرناه من عسل القصب، أو معمول من القند، وكذلك المعاجين إذا أذيت فى البرانى، فينبغى أن يراعى ذلك، ولا يعمل شيء من سائر الأشربة والسويقات وغيرها إلا على النسج من كتاب سابور، أو غيره، بالعسل النحل، والمعاجين والأشربة من السكر الأبيض، وكذلك السفوفات، وكذلك الأقراص، يُعْنى بتركيبها على ما نصه الفلاسفة.

وشراب العناب يقوى بكثرة العناب فيه؛ لأنه يراد لطفية الدم، ولا يعجن الورد بالمراسيق من السكر، وكذلك البنفسج المربى لا يعلق أيضًا بسكر، فإنه غش وتدليس، ويستحيل فى المعدة أصفرًا، ويجودون عقد جميع الأشربة، حتى يكون لها قوام، ولا يعجن التمر هندى، الذى قد عتق عندهم وجف بالخل، ولا يباع الحارسين المصرى على أنه فارسى، ولا يلفونه فى الخيش المبلولة ليزيد لهم فى الوزن، ولا يغشون شيئًا من أدهان العراق بشيء من أدهان الشام، ولا بدهن الخل الشيرج، ويمنعون من عمل حشو الشعير فى الأفران؛ لأنهم يعيدون عليه ماءً ثانيًا، وربما وردوه بيسير من المضرة، فيعتبر جميع ذلك، ويعتبر موازينهم وصنجهم فى كل وقت، وتكون أواقيهم معيرة على الرطل البغدادى عشرة دراهم ونصف وثلث الأوقية[3].

* * *

الباب الأربعون

فى العطر والعطارين

ينبغي أن يعرف عليهم عريفًا ثقة، فإن غشوش العطر أشياء كثيرة، مختلفة بحسب غشوشها، واختلاف أنواعها، فمن ذلك المسك، يعمل من اثنى عشر صنفًا مغشوشة

---

(١) الفانيد: عصارة القصب تطبخ حتى تصير أغلظ وأكثر صلابة من السكر الأبيض المعتاد.

(٢) السكنجبين هو شراب يتخذ من العسل والخل.

(٣) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص١١٥ - ١٢١).

كلها، فمنه ما يعمل من زراوند[١]، ورامك[٢]، ودم الأخوين، ويعجن بمثله مسك جيد، ويعمل منه أيضًا عنبر، ومنه ما يعمل من سنبل الطيب، ويولد بالعود، وقرنفل، وشادوران[٣]، وزعفران، ويعجن بماء ورد، ويخلط بمثله مسك جيد خالص، وقد عملت نوافج مسك من قشور الأملج[٤] والشيطرج[٥] الهندى، ومثله شادوران، ويعجن بماء صمغ الصنوبر، ويخلط مع كل أربعة مثاقيل من هذه العقاقير مثقال واحد مسك، ويحشى فى النافجة، ويسد رأسها بماء صمغ، وتجفف على رأس تنور، ويباع.

ويعمل أيضًا نوافج من الأملج، والشادوران الذى قد نزع صمغه بالماء الحار، ومعهم الأنزورت[٦]، ويعجن بماء الصمغ، ويخدم، ويعمل مع كل ثلاثة مثاقيل منه مثقال مسك جيد صُغْدى، أو تبتى، ويسحق الكل، ويحشى فى النافجة، ويوضع على رأس تنور، ويباع. ويعمل أيضًا من قشور البلوط المخدوم بالنار المجفف، ويخلط منه ثلاثة أجزاء بجزء مسك، ويلقى منه أيضًا كل مثقالين على مثقال مسك ويباع، ويحشى أيضًا فى النوافج، وأبلغ ما يدل على النوافج وقوارير المسك أن تفتحها وتلثمها كالمستحسن لها، فإن طلع إلى فيك من المسك حدة كالنار، فالمسك فحل لا غش فيه، وإن كان بخلاف ذلك فهو مغشوش.

وقد يلقى على المسك الجيد التبتى دم الأخوين، أو دم الغزلان، أو دم الجداء، ليثقل، وقد يسحق المسك ويحشى فى مصارينها، وتشد بخيوط صغار على قدر العنبر، ويجفف على الحبال فى الظل، ويشق عنه، ويعبأ مع غيره فى القوارير، ومنه ما يغش بالكبود المحرقة والمسحوقة، وقد يطرح فى قوارير المسك حب رصاص على مقدار الخردل مصبوغة بالمداد، فلا تبين إلا عند السحق.

وينبغى أن يعتبر أيضًا جميع ذلك الذى ذكرناه من غشوش المسك، وهو أن تطرح فى فيك منه شيئًا، وتتفل على بعض الملابس البيض وتنفضه، فإن انتفض ولم يصبغ، فلا

---

(١) الزرواند: نبات ورقه طيب الرائحة.

(٢) الرامك: مادة سوداء كالقار تخلط بالمسك.

(٣) الشادروان: حجر أسود براق، يتكون فى تجويفات أصول الأشجار العتيقة كالجوز، فإذا قطفت وجد فى وسطها.

(٤) شجر ثمره كالكمثرى الصغيرة، وكانت تستخدم فى العقاقير.

(٥) نبات هندى ينمو فى القبور والحيطان العتيقة، له رائحة حادة جدًا.

(٦) صمغ شجرة شوكية تنبت ببلاد فارس.

غش فيه من سائر ما ذكرنا، وإن صبغ ولم ينتفض فهو مغشوش.

وغشوش العنبر خمسة، فمنه ما يعمل من زبد البحر، والصمغ الأسود، والشمع الأبيض، والسَّندروس[١]، وسنبل الطيب، ويخدم ويعمل منه عنبر، ومنه ما يعمل من زبد البحر، والسندروس، والعود، والسنبل، وربما خلط معه بعر الضباء، ويخدم، ويدق، ويدفن فى زبل الخيل سبعة أيام، ويخلط معه مثله عنبر خالص، وربما عمل منه تماثيل، وصورًا، وقلائد، وغير ذلك، ومنه ما فعل من المسك الجيد، والصمغ، والعنبر، ويباع قلائد وتماثيل، وجماجم العنبر، قد تطلى بالسندروس، فيجب أن يحذف رءوسها متى يعلم سلامتها منه، ومن غيره، وربما حفرت وألقى فيها القطع الرصاص، وإذا حذف رأسها نظر إلى داخلها. والسندروس أيضًا إذا كان عليها منه شىء، فإنه يغيب إذا جف، وإن كانت معيوبة بما ذكرنا أيضًا، نُظِر ولم يخف.

والكافور أيضًا يعمل منه سبعة أصناف مغشوشة، فمنه ما يعمل من الرخام، نحاتة الخراطين، بمثله كافور معجون بماء الصمغ الأبيض يجر على الغرابيل، ومنه ما يعمل أيضًا من قلار الجبس الغير مشوى عوضًا عن الرخام، ومنه ما يعمل من حجارة النشادر، تكسر صغارًا، وتخلط به، ومنه ما يعمل أيضًا من ذريرة[٢] غير مفتوتة، وجبس قلار غير مشوى، وصمغ أبيض، ومثل الجميع كافور.

ويعمل أيضًا من خشب الخروع، ويعمل أيضًا من الأرز المدبَّر، فإن عمل تماثيل وقلائد، جعل فى كل خمسة مثاقيل من الأرز، مثقال واحد كافور خالص للبيع، فمثقال بمثقال، ومنه ما يعمل أيضًا من نوى البلح المنحوت، يدق حتى يصير مثل الزبد، ويخلط بمثله كافور، ويعجن بماء الكافور، ويبسط رقيقًا مثل الكافور، وجميع غشه يبان فى الماء والنار؛ لأنه إذا طرح فى الماء فغرق كان مغشوشًا، وإذا عام فهو جيد لا غش فيه، وكذلك إذا ألقى قطعة من خزف، أو جام، على النار، وجعل عليها شىء من الكافور، وكان جيدًا، طار ولم يمكث، وإن كان فيه مما ذكرناه احترق وصار رمادًا.

وكذلك الزعفران غير المطحون يغش بأشياء كثيرة، فمنها أن تبشر لحوم صدور الدجاج، وكذلك لحوم البقر بعد سلقها، وتنشر بالملح، وتقدد، فإذا قددت تصبغ بماء

---

(١) السندروس: صمغ شجرة يسيل قطعًا صغيرة، رائحته وطعمه كالصنوبر.

(٢) الذريرة: نوع من العطر، يستخرج من نبات يسمى قصب الذريرة، ينمو فى الهند، وبلاد العرب.

الزعفران، وتخلط بالزعفران، ومعرفة غش ذلك أن تنقعه فى الخل، فإنه يتقلص، ويبان غشه، وإذا وجد عند مذاقه حلوًا، فهو قليل الصبغ، قد ثقل وغش بالقند، والمطحون منه إذا ألقى فى إناء زجاج فيه ماء فرسى منه شيء، فهو مغشوش بدم الأخوين، فأخذ ما رسى، ويمزجه بخل ويحركه، فإنه يصبغ روحه ويحمر، وقد يغش بالنشأ المطحون، ومعرفته أن تبل منه قليلاً على النار، فإنه يتدبق ويتعقد.

وغش العود، أن يؤخذ الصندل قشرًا مطرًا يبرد به العود، وينقع فى مطبوخ الكرم العتيق شهرًا، يغير عليه بعد كل ثلاثة أيام وينشف، ويخلط فى العود، فلا يشك أنه عود، فيعتبر بالنار، وقد يغلو فيباع مطرًا مدرجًا.

وغش البان[١]، فإنه يعمل من دهن حب القطن، ويعمل من دهن حب المشمش، ويعبق بشيء من المسك التبتى الجيد، والأفاويه[٢]، ويعمل من الزيت الانفاق[٣]، ويعبق، وتطرح فيه أطراف الآس الأخضر، فتجيء منه خضرة تقارب البان.

وغش ماء الكافور يعمل من عقد الصنوبر، وقشور الكُنـدُر ويُصعَّد، فلا يشك أنه خالص، ومعرفة غشه أنه إذا قطر فى خرقة بيضاء وغسل منها فخرج، فهو غير مغشوش، وإن طبع فهو كما ذكرنا من عقد الخشب، والقشور.

وغش المحلب المعجون المؤلف بالأدهان، يغشه العطارون باللوز المر المقشر من قشره أيضًا، ويغش أيضًا بنوى المشمش، ويغش بنوى الخوخ المقشر، ويخلط مثل نصفه محلب، ومنهم من يأخذ كسب السمسم فيجففه ويسمقه ويعجنه مع المحلب، ويبخره ويبيعه، وقد يخلطه قوم من العطارين بالنشأ ويبيعونه، فينبغى أن يعتبر عليهم ذلك، ويحلفوا بما لا كفارة لهم منه.

وقد يغش الزعفران أيضًا بالأكشوت[٤] المصبوغ بالبَقَّم[٥] بعد أن يقطع نظير شعر الزعفران، ويخلط معه نشأ مصبوغ، ويدر عليه سكر مسحوق فى ليفه، ويلصق، ويخلط

---

(١) البان: شجر ثمرته تشبه قرون اللوبيا، إذا نضج يستخرج منه دهن البان.

(٢) جمع فوه، وهو الطيب عامة.

(٣) هو الزيت الذى يستخرج من زيت الزيتون قبل نضجه.

(٤) الأكشوت: نبات لا ورق له، يلتف على الشوك والشجر، وزهره أبيض فيه مرارة، تعالج به أمراض المعدة والكبد.

(٥) البقّم: خشب أحمر اللون، ويدخل فى تركيب الأصباغ.

عليه الزعفران، ويعبأ فى السلال، ويعمل أيضًا سكرًا من نبات الحلبة منقوعًا فى خمر عتق قد أذيب فيه قليل كركم منخول وزعفران أيامًا معلومة، ويُبَيَّت فى الظل، فلا يشك الذى يراه أنه زعفران، ويخلط فى السلال ويباع، وهذا الزعفران الشعر وغيره بلون الشعر، فإذا أردت معرفته، خذ من وسط السلة، فإنه يبين لك الغش والعيب. ويطحن هذا الزعفران المغشوش بعينه، ربما خلط معه وزن جلنار ملتوت بشيرج، وقد يغش بالزجاج المطحون أيضًا، وقد يستحل قوم منهم أن يخلطه بأبى مليح النصف منه، والنصف زعفران، وبيعه على المسافرين.

وقد يستعمل أقوام من باعة الزعفران أيضًا أن يقيم قرطاسًا فى وسط البرنية[١] يجعله، وعلى جانبها خلوقًا[٢] مغشوشًا، والجانب الآخر خلوقًا جيدًا، ويدفع إلى كل إنسان منها على قدر معرفته ورايه فيه، ويغش العود أيضًا من قشور خشب يقال له: الأبليق[٣]، ويجيىء شبه العود، إلا أنه يبرى كما يبرى العود، وينقع فى ماء مدبَّر بالمسك الجيد، والورد الصحيح، والكافور أيامًا كثيرة، ويخرج منه، وينشف، ويدرج، ويباع.

وغش الغوالى[٤]، فقد تعمل غالية أصلها قطران مصعّد مدبَّر بالقرعة إلى أن يذهب نتنه ورائحته، ثم يجعل على كل مثقالين منه مثقال مسك جيد، ومثقال عود طيب، ومثقال مسك تبتى أو صغدى، ومثقال لادن مسلى على النار، ونصف مثقال عنبر، وثلاثة مثاقيل دهن بان مدينى بارد، وربما عمل بغير عنبر فتجىء طيبة عجيبة، وغالية من نحاتة الرخام الرخو، والشادوران مدبرة، ويحمل على جسد كل مثقال منها ما قد ذكرناه من الطيب فيما تقدم.

وغالية يعمل جسدها من قلب الفستق، وتجىء عجيبة أيضًا إذا حمل على جسدها الطيب كما ذكرنا، وغالية تعمل من السمسم الجديد المقشر، والقرطاس المحرّق[٥]، ويعمل على جسدها الطيب كما ذكرنا، وقد يغشون الغوالى أيضًا بدون هذا، فيعمل أصلها من المرادشنج[٦] المدبر، وغالية أصل جسمها الأفليجة، وغالية أصل جسمها من

---

(١) البرنية: إناء من خزف.

(٢) الخلوق: ضرب من الطيب.

(٣) هو خشب ذو لونين.

(٤) هو مسك وعنبر معجونان بالبان.

(٥) القرطاس المحرق هو الكاغد الأبيض المصنوع من نبات البردى.

(٦) كلمة فارسية تعنى شجر طيب الرائحة.

المومياى، وغالية أصل جسمها من الموز القسطالى الصغار، وغالية أصل جسمها من صنع الشادوران وعيدانه، ويحمل على جسد هذه الغوالى لكل مثقالين منها وزن دانق مسك جيد، وحبة مسك.

وأكثر من يعمل هذا الذين يجلسون على الطريق ممن لا دين له، وكذلك من لا دين له من العطارين، ولا يخافون من الاستخفاف بهم، فينبغى أن يراعى ذلك لمباشرة العريف حتى لا يكون شىء منه، وينذرهم، ويخوفهم، فمن تخطى إلى شىء مما ذكرناه، أدب وأشهر.

وإذا أردت أن تسحق العنبر لتستعمله فيما شئت بلا نار، فخذ بلاطة رخام وضعها على الثلج، فإذا صارت باردة مثل الثلج، وتكون قد قرضت العنبر صفارًا، فضعه على البلاطة، فإنه يبرد ويجف، ثم اسحقه فإنه ينسحق كالكحل، واستعمله فيما شئت فى الوقت، وإلا عاد إلى صفته إذا حمى، فإنه ذهبى، فلا يرجع بعدها على البلاطة، بل النار.

* * *

الباب الحادى والأربعون

فى الصيارف

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة، يتعاهد موازينهم، بحيث أن لا يكون عندهم دستًا صنج يزنون بما شاءوا منها، ويتفقد ذهبهم، ودراهمهم، حتى لا تكون فيها شبه، ولا بهرج، ولا يطلق للمنادين إلا فى كل عشر دراهم من البيع دانقين، ومن الدينار نصف قيراط من البيع أيضًا، ولا يباع الذهب إلا بالورق، ولا الورق إلا بالذهب، كما أمر رسول الله ﷺ، وأن لا يصرفوا لصبى دون البلوغ شيئًا، ولا لجارية، ولا عبد، ولا يشتروا منهم ذهبًا، إلا بحضور الأولياء، ومن يضمن دركهم، وإذا قبضوهم المبلغ يشهد عليهم جيران حانوته من الجهتين، ويوقفهم على الوزن قبل تسليمه لهم، ولا يعطون الناس إلا فضة جيدة، بحيث لا يحوجوهم إلى المراجعة إليهم.

ومن البخس الخفى فى ميزان الذهب، أن يرفعه بيده، تلقاء وجهه، ثم ينفخ على الكفة نفخة خفيفة فترجع، وذلك أن المشترى تكون عينه إلى الميزان، لا إلى فم صاحبه، ولهم أيضًا فى مسك العلاقة صناعة يحصل بها البخس، فيلزم المحتسب مراعاة ذلك فى

كل وقت، ومن يخالف منهم ذلك أدب وأشهر[١].

* * *

الباب الثانى والأربعون
فى الصاغة والصياغة

ينبغي أن يعرف عليهم عريفًا ثقة بصيرًا بخيانتهم، يمنعهم أن تكون أكوار السبك معلقة مرتفعة، بل تكون فى قصارى مبنية على وجه الأرض، حتى لا يخفى فيها ما يسبك عن صاحبه من ذهب، أو فضة، ويحلف أن لا يسرق من البوتقة بالماسك، ويسمى بسيك النار، وأن يدلس فيها نحاس ولا غيره من أنواع السرقة والخيانة، ويجعل كل صانع شيئًا قليلاً من جسم ما سبكه عند فراغه مما يريد صياغته عند صاحبه، فمتى وقع شك أو تهمة، رجعوا إلى ذلك اليسير الذى مع صاحب الصياغة، فيعتبر عليه ويزول الشك والتهمة.

وينبغي أن يكون بيد كل واحد من الصائغ والمصوغ له خط بشرح حال ما اتفقوا عليه، ووزنه؛ ليرجع إليه متى احتيج إليه، ولا يشترى أحد من الصيارف، ولا الصاغة، علقًا مصغًا ويرده إلى النداء، ويزيد فيه ويلصقه على غيره بزيادة؛ لأن هذا تدليس وخيانة.

ويتقدم إلى سباكى الفضة، ويحلّفون أنهم لا يبيعون الخبث الذى يخرج لهم من الفضة لسباكى النحاس؛ لأنهم إذا خلطوه بالنحاس عند سبكه صار النحاس مثل الزجاج، فينكسر إذا سقط من يد أحد، وإن كان فى هاون انخسف بسرعة.

وكذلك باعة الخواتيم وغشهم، ينبغي أن يعرف عليهم عريفًا، يحلفهم أن يصدقوا فى أوزان أثمانها للزبون إذا اشترى منهم شيئًا، وأن لا يحرم ما اشتراه بالزيادة فى إخبار المشترى، وكذلك يصدقون فى أوزانها، وفضتها، فإنهم يعملونها باليسير من الفضة، ويحشونها بالرصاص، وبالزفت، ويكذبون عند بيعها، فإن اشتراها الناس منهم تهشمت بسرعة، وتقشرت فضتها، فيوجد مثل قشر البصل فى رقته، ويشترط عليهم أن يصدقوا فى نعت فصوصها، فإن أكثرها زجاج مصنوع، ومن مطبوخ دهان الزبادى[٢].

* * *

---

(١) انظر: نهاية الرتبة فى الحسبة للشيزرى (٢٥١).

(٢) انظر: نهاية الرتبة فى الحسبة للشيزرى (ص٢٥٢، ٢٥٣)، معالم القربة لابن الأخوة (ص١٤٤ - ١٤٧).

الباب الثالث والأربعون

فى الأطباء والفصادين

ينبغى أن يكون المقدم على الأطباء، والمرجوع إليه منهم، مَنْ كثرت حرمته، وتبالغت تجربته، ويحلف بما لا له كفارة، أن يطالب سائر الأطباء بما شرحه يوحنا بن ماسويه المتطبب فى كتابه المعروف بـ«محنة الطبيب»، فمن وجده قيمًا بجميع ما حوته شروطه فصلاً فصلاً، أمره فى معيشته، وأعلمه أنه قد أحسن إليه، وأنه إذا لم يطالبه بما شرط جالينوس فى «محنة الطبيب»، فإنه لا يكاد أن يقوم بذلك كثير منهم، ومن كان بضد ذلك صرفه عن هذه المعيشة، ويمضى فى الدروس، فيلزم قراءة الكتب قبل انتصابه لمداواة الناس؛ لما فى ذلك من الضرر الواقع بالمرضى، فقد بلغنى أن ملوك الأكاسرة جعلوا الأطباء الذين يختصون بهم، ويتيقنون فضيلتهم ولاة على سائر المتطببين، فكانوا يمتحنون من يريد الجلوس للناس، فمن وجدوه قيّمًا بما التمسه، طبائعيًا، أباحوه ذلك، وكتبوا له رقعة إلى المحتسب بجلوسه، وإن كان بالضد صرفوه.

وينبغى أيضًا أن يقرأ عليه ما شرطه بقراط[1] على نفسه، وعلى سائر المتطببين، ويحلفهم عليه، وعلى أنهم لا يعطون لأحد دواءً قتالاً، ولا يشيرون به، ولا يعطون للنسوان العوسج، وهى الصوفة التى تسقط الأجنة، ولا المعجون المعروف بالمرهم، فإنه يقتل الأجنة، ولا للرجال ما يقطع النسل، وليغضوا أبصارهم عن المحارم عند دخولهم إلى المرضى، ولا يفشون الأسرار، ويهتكون الأستار، ويكون عنده آلات الطب مكملة، وهى كلبات الأضراس، وكلبات العلق، ومكاوى الطحال، وزراقات الذكر، وملزم البواسير، ومخرط المناخر، وقالب التشمير، ورصاص التثقيل[2]، ومفتاح الرحم، وبوار النساء، وكدة الحشا[3]، وقدح الشوصة، وجميع ما يحتاجه.

وينبغى أن يرجع إلى رأى هذا المقدم الطبائعى، ويتشاورون إذا عرض مريض يشك فيه، ويختلف عليه، حتى يطابق على مداواته، ويتقدم إليهم بأن لا يأمروا بإخراج الدم فى غير الفصول؛ لأن من المتطببين من غرضه أخذ العوض عن إخراجه الدم، فينبغى أن

---

(١) بقراط الطيب يونانى قديم، ويطلق عليه أب.

(٢) التثقيل: قطع من الرصاص تكون مدورة، أو مثلثة، أو مستطيلة، على قدر النتوء.

(٣) آلة تستعمل للضماد.

ينهوا عن ذلك؛ لأنه ربما أعقبت أمراضًا سوداوية وإعلالاً للرطوبة[(١)].

وأما الفصادون، فينبغى أن لا يتصدى للفصد إلا من اشتهرت معرفته بتشريح الأعضاء والعروق، والمفاصل، والشرايين، وأحاط بمعرفة تركيبها، وكيفيتها؛ لئلا يقع المبضع فى عرق غير مقصود، أو فى عضلة، أو فى شريان، فيؤدى إلى زمانة العضو، وهلاك المفصود، فكثير من هلك من ذلك، ومن أراد تعلم الفصد، فليدمن فى ورق السلق، يعنى يفصد فى العروق التى فى الورقة، حتى تستقيم يده.

وينبغى أيضًا للفاصد أن يمنع نفسه من عمل صناعة مهينة تكسب أنامله منها صلابة، ويعتمد عشر خصال تلين العروق، وأن يراعى بصره بالأكحال المقوية له، والأيارجات[(٢)] إن كان ممن يحتاج إليها، وأن لا يفصد عبدًا إلا بإذن مولاه ولا صبيًا إلا بإذن وليه، ولا حاملاً ولا طامثًا، وأن لا يفصد إلا فى مكان مضىء، وبآلة ماضية، ولا يفصد وهو منزعج.

وبالجملة أن يكون المحتسب يأخذ عليهم العهد إلا يفصدوا فى عشرة أمزجة، وليحذرونه فيها إلا بعد مشاورة الأطباء، وهى: فى السن القاصرة عن الرابع عشر، وفى سن الشيخوخة، وفى الأبدان الشديدة اليبس، وفى الأبدان المتخلخلة، وفى الأبدان البيض المرهلة، وفى الأبدان الصفر العديمة الدم، ولا فى الأبدان التى طالت بها الأمراض، وفى الأمزجة الشديدة البرد، وعند الوجع الشديد، فهذه الأحوال التى يكشف عنها الفاصد فى وجودها، وقد نهت الحكماء والأطباء عن الفصد فى خمسة أحوال، ولكن مضرتها دون مضرة العشرة المقدم ذكرها، فالحالة الأولى الفصد عقيب الجماع، وبعد الاستحمام المحلل، وفى حالة الامتلاء من الطعام، وفى حالة امتلاء المعدة والمعى من الثقل، وفى حال شديد البرد والحر، فهذه الأحوال يتوقى الفصد فيها.

واعلم أن الفصد له وقتان: وقت اختيار، ووقت اضطرار، فأما وقت الاختيار، فهو ضحوة نهار بعد تمام الهضم والنقص، وأما وقت الاضطرار، فهو الوقت الموجب الذى لا يسع تأخيره، ولا يلتفت فيه إلى سبب مانع.

وينبغى أيضًا للمفتصد أن لا يمتلىء من الطعام بعده، بل يتدرج فى الغذاء ويلطفه،

---

(١) انظر: نهاية الرتبة للشيزرى (ص٢٢٨)، معالم القربة لابن الأخوة (ص١٦٥ - ١٦٨).

(٢) هى المعجونات المسهلة.

ويميل إلى الاستلقاء، ويحذر النوم عقيب الفصد، فإنه يحدث انكسارًا فى الأعضاء، ومن افتصد وتورمت عليه اليد، فليفصد فى اليد الأخرى بمقدار الاحتمال، وينبغى أن يكون مع الفاصد مباضع كثيرة فى دقة الشعرة وغيرها، وأن يكون معه كبة من حرير، أو شيء من آلة القيء، من خشب، أو ريش، وأن يكون معه الأرنب، ودواء الصبر، والكندر، وصفته أن يؤخذ من الكندر، والصبر، والمر، ودم الأخوين، من كل واحد جزء يعمل كالمرهم، ويرفعه عنده لوقت الحاجة إليه، وأن يكون معه نافجة مسك، وأقراص المسك، ويعتمد جميع ما ذكرناه، حتى إذا عرض للمفصود غشى بادر بسرعة فألقم الموضع الكبة الحرير، وقيأه بآلة القيء، وشممه النافجة، وجرّعه من أقراص المسك شيئًا، فتنتعش قوته بذلك، وإن وجد فتوق دم، من عرق، أو شريان، حشاه من وبر الأرنب.

ولا يضرب بمبضع كال، فإنه كثير المضرة؛ لأنه يخطىء ولا يلحق [العرق][1]، فيورم، ويوجع، ويمسح رأس مبضعه بالزيت؛ لأنه لا يوجع عند البضع، غير أنه بطيء الالتحام، وإذا أخذ المبضع، فليأخذه بالإبهام والوسطى، ويترك السبابة للجس، ويكون الأخذ منه على النصف، ولا يكون فوق ذلك، فيكون التمكن منه مضرًا، ولا يدفع المبضع باليد غمزًا، بل يكون دفعها بالاختلاس، ليوصل طرف المبضع حشو العروق.

ولم أر [أحدًا][2] أحذق فى صناعة الفصد من رجلين رأيتهما بمدينة حلب، افتخر كل واحد منهما على صاحبه، فأما أحدهما [فإنه][3] لبس غلالة، وشد يده من فوق الغلالة، وانغمس فى بركة، ثم فصد يده [فى قاع الماء من فوق الغلالة، وأما الآخر فمسك المبضع بإبهام رجله اليسرى، ثم فصد يده][4].

واعلم أنه ينبغى أن يوسع البضع فى الشتاء؛ لئلا يجمد الدم، ويضيقه فى الصيف؛ لئلا يسرع إلى الغشى، ومتى تغير لون الدم، أو حدث غشى وضعف فى النبض، فليبادر إلى رده ومسكه.

واعلم وفقك الله أن العروق المفصودة كثيرة، منها فى الرأس، وعروق فى اليدين،

---

(١) ما بين المعقوفتين زيادة من نهاية الرتبة للشيزرى.

(٢) ما بين المعقوفتين زيادة من نهاية الرتبة للشيزرى.

(٣) ما بين المعقوفتين زيادة من نهاية الرتبة للشيزرى.

(٤) ما بين المعقوفتين زيادة من نهاية الرتبة للشيزرى.

وعروق فى البدن، وعروق فى الرجلين، وعروق فى الشرايين، فيمتحنهم المحتسب بمعرفتها، وبما يجاورها من العضل والشرايين، فأما عروق الرأس المفصودة، فعرق الجبهة، وهو المنتصب ما بين الحاجبين، وفصده ينفع من ثقل الرأس، وثقل العينين، والصداع الدائم، ومنها العرق الذى فوق الهامة، وفصده ينفع الشقيقة[(١)]، وقروح الرأس، ومنها العرقان الملويان على الصدغين، وفصدهما ينفع الرمد، والدمعة، وجرب الأجفان وبثورها، ومنها عرقان خلف الأذنين، يفصدان لقطع النسل، فيحلفهم المحتسب أن لا يفصدوا أحدًا فيهما؛ لأن ذلك يقطع النسل، وقطع النسل حرام، ومنها عروق الشفة، وفصدها ينفع من قروح الفم، والقلاع[(٢)]، وأوجاع اللثة، وأورامها، ومنها العروق التى تحت اللسان، وفصدهما ينفع الخوانيق[(٣)]، وأورام الأراويل[(٤)].

وأما عروق اليدين، فستة: منها القيفال[(٥)]، والأكحل[(٦)]، والباسليق[(٧)]، وأسلم هذه العروق، القيفال، وينبغى أن يتجافى فصده[(٨)] [رأس العضلة][(٩)]، وأما الأكحل، ففى فصده خطر عظيم؛ لأجل العضلة التى تحته، فربما وقعت بين عصبتين، وربما كان فوقها عصبة دقيقة مدورة كالوتر، فيجب أن يعرف ذلك ويجتنبه فى حال الفصد، ويحترز أن تصيبه الضربة، فيحدث منها خذلان مزمن، وأما الباسليق، فعظيم الخطر أيضًا، لوقوع الشريان تحته، فيجب أن يحترز ذلك، فإن الشريان إذا بضع لم يرقأ دمه[(١٠)].

وأما عروق الرجلين، فأربعة: منها عرق النسا[(١١)]، يفصد عند الجانب الوحشى من الكعب، فإن خفى فليفصد الشعبة التى بين الخنصر والبنصر، ومنفعة ذلك عظيمة، سيما

---

(١) هو داء يحدث فى نصف الرأس.

(٢) القلاع: بثور فى الفم واللسان.

(٣) الخوانيق: أورام فى الحنجرة.

(٤) الأراويل: اللوزتان.

(٥) القيفال: من عروق الذراع.

(٦) الأكحل: العرق الأوسط فى الذراع.

(٧) الباسليق هو العرق الممتد فى الجانب الداخلى من الجسم.

(٨) أى فى رأس.

(٩) زيادة من نهاية الرتبة للشيزرى.

(١٠) أى لم ينقطع الدم بعد وقت قليل.

(١١) عرق النسا: موضعه عند العقب من الجانب الخارجى للقدم.

فى النقرس[(١)]، والدوالى، وداء الفيل[(٢)]، ومنها عرق الصافن، وهو فى الجانب الأيسر، وهو أظهر من عرق النسا، وفصده ينفع من البواسير، ويدر الطمث، وينفع الأعضاء التى تحت الكبد، ومنها عرق باطن الركبة، وهو مثل الصافن فى النفع، ومنها العرق الذى خلف العرقوب، كأنه شعبة من [الصافن. وأما][(٣)] المقصود من الشرايين فى الغالب، ويجوز فصدها، فهى الصغار والبعيدة من القلب، فإن هذه هى التى يرقأ دمها إذا فصدت، وأما الشرايين الكبار القريبة الوضع من القلب، فإنه لا يرقأ دمها إذا فصدت، والتى يجوز فصدها على الأكثر، شريان الصدغين، والشريانان اللذان بين الإبهام والسبابة، وقد أمر جالينوس بفصدها فى المنام، رآها رؤيا.

والحجامة عظيمة المنفعة، وهى أقل خطرًا من الفصادة، وينبغى أن يكون الحجام خفيفًا، رشيقًا، خبيرًا بعلمها، فيخف يده فى الشروط ويستعجل، ثم يعلق المحجمة، وتكون التعليقة الأولى خفيفة سريعة القلع، ثم يتدرج إلى القلع بإبطاء وإمهال، ثم ينبغى للمحتسب أن يمتحن الحجام بورقة يلصقها على طوبة، ثم يأمره بشرطها، فإن نفذ الشرط كان ثقيل اليد سيىء الصنعة، وعلامة حذاقة الحجام خفة يده، وأن لا يوجع المحجوم، وقد ذكرت الحكماء أن الحجامة تكره أول الشهر مخافة أن تكون الدماء هاجت، وفى آخر الشهر مخافة أن يكون قد نقص الدم، فلا تفيد الحجامة شيئًا، وإنما تستحب الحجامة فى وسط الشهر إذا تكامل النور فى جرم القمر؛ لأن الأخلاط تكون هائجة، والأدمعة تكون زائدة فى الأجفان، وأفضل أوقات الحجامة الساعة الثانية والثالثة من النهار.

وأما منافع الحجامة، على الفقر، أى فقر الظهر، خليفة فصد الأكحل، وتنفع من ثقل الحاجبين، وجرب العينين، والبخر فى الفم، غير أنها تورث النسيان، كما قال ﷺ: «إن مؤخر الدماغ موضع الحفظ، وتضعفه الحجامة». والحجامة على الأكحل خليفة فصد الباسليق، وتنفع من وجع المنكب والحلق، غير أنها تضعف فم المعدة، والحجامة فى الأخدعين خليفة فصد القيفال، وتنفع الوجه، والأسنان، والضرس، والعينين، والأذنين، والأنف، والحلق، ورعشة الرأس، والحجامة تحت الذقن تنفع الوجه، والأسنان، والحلقوم، وتنقى الرأس، والحجامة على الهامة تنفع اختلاط العقل، غير أنها تضر الذهن،

---

(١) النقرس: ورم فى المفاصل.

(٢) داء الفيل هو مرض تورم الساق من أعراضه.

(٣) ما بين المعقوفتين زيادة من نهاية الرتبة للشيزرى.

وتورث بلهًا، والحجامة على الفخذين تنفع الأورام، والخراجات الخارجة فى الإليتين، والحجامة فى الساقين تقوم مقام الفصد، وتدر الطمث، وإخراج الدم فى غير الفصول ربما أعقب أمراضًا سوداوية، وأعلالاً للرطوبة(١).

* * *

الباب الرابع والأربعون
فى الكحالين والكحل

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة، فيبتدىء بسؤال من نصب نفسه إلى هذه الصناعة عن كتاب حنين بن إسحاق، أعنى العشر مقالات فى العين، فإن كان عارفًا بتشريح عدد طبقات العين السبعة، وعدد طوياتها الثلاث، وعدد أمراضها الثلاث، وما يتفرع من هذه الأمراض، فإن كان قيمًا بذلك، ناهضًا به، اعتبر عليه آلة صنعته مثل صنافير السبل، والظفرة، ومحك الجرب، ومباضع الفصد، ودرج المكاحل، فإن كمل ذلك استمرَّه المقدم عليهم فى معيشته، وإن وجده بضد ذلك، رفع خبره إلى المحتسب ليعرفه، ويمنعه من التعرض إلى أعين الناس، فإن عاد أدب وأشهر ليكون شعفة لغيره.

ويجب أن يأتوا إلى أكبرهم والحاكم عليهم بما عندهم من الأكحال والأشيافات، ليعتبرها ويباشرها، وأما كحالو الطرقات، فلا يوثق بأكثرهم، إذ لا دين لهم يصدهم عن التهجم على أعين الناس بالكحل بغير علم، فلا يركن إلى شىء من أكحالهم، وأشيافهم، فإن منهم من يعمل أشيافات أصلها من النشأ والصمغ، ويصبغها ألوانًا من الأحمر بالأسريقون، والأخضر بالكركم والنيل، والأسود بالأقاقيا، والأصفر بالزعفران، ويعملون أشياف ماميتا من التربة المصرية، ويعجن بيسير من الصمغ، ويعملون كحلاً من نوى الإهليلج المحترق، والفلفل، ومنهم من يعمل نظير مرارة الطير، وغيرها من صمغ وكبذكير، يخلط، ويربب فى الهاون، ويعمل مصارين رقاق صغار، ويدعى أنها مرائر الطير وغيرها، فيعتبر عليهم جميع ذلك، ويؤدب فاعله ويشهر، بعد أن تؤخذ عليهم القسامة بالله العظيم أن يكونوا نصحاء فى مداواتهم(٢).

* * *

الباب الخامس والأربعون
فى المجبرين

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا، ويسأل من نصب نفسه للجبر عن المعروفة بالمقالة

---

(١) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص١٦٣، ١٦٤)، نهاية الرتبة للشيزرى (ص٢٢٨).

(٢) انظر: نهاية الرتبة للشيزرى (ص٢٢٨)، معالم القربة لابن الأخوة (ص١٦٨، ١٦٩).

السادسة من كتاب بولص فى الجبر، ويسأل عن معرفة عدد عظام الإنسان، وهى مائتا عظم وثمانية وأربعون عظمًا، وصورة كل واحد منها، وسكنه، ليرده إلى مكانه إذا انخلع، ويجبره إذا انكسر، فإن كان قيمًا فيما ذكرناه، وإلا أقامه[١].

* * *

الباب السادس والأربعون
فى الجرائحيين

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة عارفًا، ببهرجتهم، وحيلهم، ودكهم؛ لأنها خطيرة، والذى يجب على الجرائحى أولاً أن يكون عالمًا بكتاب جالينوس المعروف بقطاجانس، قيمًا به، ويكون خبيرًا، وإن كان طبائعيًا كان أفضل، وإن لم يكن، فالأولى أن يحضر معه طبائعيًا خبيرًا، وكذلك المجبر أيضًا؛ لأنهم قد يبطّون ما لا يحتاج إلى بط، ويقطعون ما لا يحتاج إلى قطع، ويفتحون الشريانات، فيكون ذلك سببًا إلى تعطيل العضو عن فصله، فيجرون ذلك.

ويكون معه دست المباضع، فيه مباضع مدورات الرأس، والمورّبات، والحربات، وفأس الجبهة، ومنشار القطع، ومجرفة الأذن، وورد السَّلَع[٢]، ومرهمدان[٣] المراهم، ودواء الكندر القاطع للدم، ومن جملة بهرجتهم أنهم أيضًا يدوسون العظام فى الجرح، ويبهرجون بإخراجها بالأدوية، وأن أدويتهم هى التى أخرجتها، فلهذا قلنا: إنه إذا كان طبائعيًا حاضرًا، كان أجود للعمل، ويستحل قوم منهم أن يصلحوا مراهم أصلها من الكلس المغسول بالزيت، ثم يصبغ ألوانًا، أحمر بالأسريقون، وأخضر بالكركم، وأسود بالفحم، فيعتبر ذلك عليهم[٤].

* * *

الباب السابع والأربعون
فى البياطرة

اعلم أن البيطرة علم جليل سطرته الفلاسفة فى كتبهم، ووضعوا فيها كتبًا، على أنها أصعب علاجًا من أمراض الآدميين؛ لأن الدوابّ ليس لها نطق تعبّر به عما تجد من

---

(١) معالم القربة لابن الأخوة (ص١٦٩).

(٢) مفردها: سلعة، وهى: زائدة تحدث فى الجسد.

(٣) المرهمدان: شريط من القماش يوضع عليه المرهم.

(٤) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص١٦٩).

المرض والألم، وإنما يستدلّ على عللها بالحسّ والنظر، فيفتقر البيطار إلى حس وبصيرة بعلل الدوابّ وعلاجها، فلا يتعاطى البيطرة إلا من له دين يصدّه عن الدوابّ بفصد، أو قطع، أو كيّ، وما أشبه ذلك بغير خبرة، فيؤدى إلى هلاك البهيمة وعطبها.

وينبغى للبيطار أن ينظر إلى رسغ الدابة، ويعتبر حافرها قبل تقليمه، فإن كان أحنفًا، أو مائلاً، نَسَف من الجانب الآخر قدرًا يحصل به الاعتدال، وإن كانت يد الدابة قائمة، جعل المسامير المؤخَّرة صغارًا والمقدّمة كبارًا، وإن كانت يدها بالضدّ من ذلك صغَّر المقدّمة وكبّر المؤخَّرة. ولا يبالغ فى نسف الحافر فتغمز الدابة، ولا يرخى مسامير النعل فيتحرك، ويدخل تحته الرمل والحصى فترهص[1] الدابة، ولا يشدّها بقوة على الحافر فتزمن.

واعلم أنّ النعال المطرّقة ألزم للحافر، واللينة أثبت للمسامير الصلبة، والمسامير الرقيقة خير من الغليظة، وإذا احتاجت الدّابة إلى تربيع أو إلى فتح عرق، أخذ المبضع بين إصبعيه، وجعل نصابه فى راحته، وأخرج من رأسه مقدار نصف ظفر، ثمّ فتح العرق تعليقًا إلى فوق بخفّة ورفق، ولا يضرب العرق حتى يجسَّه بإصبعه، لاسِيمَّا عروق الأوداج، فإنَّها خطرة لمجاورتها المرىء، فإن أراد أن يفتح شىء من عروق الأوداج، خنق الدّابة خنقًا شديدًا، حتى تبدو عروق الأوداج، فيتمكّن حينئذ مما أراد.

وينبغى أن يكون البيطار خبيرًا بعلل الدواب، ومعرفة ما يحدث فيها من العيوب، فإن الناس ترجع إليه إذا اختفلوا فى الدابة، وقد ذكر بعض الحكماء فى كتاب البيطرة فى علل الدواب ثلاثمائة وعشرون علة، فمنها: الخناق، والخنان الرطب، والخنان اليابس، والجنون، وفساد الدماغ، والصداع، والحمر[2]، والنفخة[3]، والورم، والمرة الهائجة[4]، والدبية[5]، والخشام[6]، ووجع الكبد، والقلب، والدود فى البطن، والمغل[7]، والقولنج،

---

(١) هو من الرهصة، وهو وجع يصيب حافر الدّابة، سببه حجر يدخل بين النعل والحافر.

(٢) الحمر: علة تصيب الدابة فى صدرها، من الإفراط من أكل الشعير، أو بشرب الماء عقب العمل.

(٣) هو الإمساك عن الإخراج للروث والبول.

(٤) الحمر: علة تصيب الدابة يؤدى إلى اشتباك قوائم الدابة، وغلظ البول، وورم الرأس، والحلق.

(٥) الدبية: ورم فى الصدر، تمتنع به الدابة عن العلف.

(٦) الخشام: داء يصيب الدابة فى أنفها.

(٧) المغل: داء يصيب الدابة فى رأسها، يؤدى إلى انتفاخ البطن، ونتن الروث، وغلظ البول، والعجز عن السير.

وريح السوس[(١)]، والقضاع[(٢)]، والصدام[(٣)]، والسعال من البرد ومن الحر ومن الغبار، وعسر البول، والنقرس، والذبحة، وانفجار الدم من الدبر والذكر، والبحل[(٤)]، ووجع المفاصل، والرهصة، والدَخس[(٥)]، والداحس[(٦)]، والنّملة[(٧)]، والنكب[(٨)]، والخلد[(٩)]، والماء الحادث فى العين، والمياخونة[(١٠)]، والبياض فى العين، والزنبور، ورخاوة الأذنين، والضَّرس، والخلع، والكسر، وغير ذلك مما يطول شرحه، فيفتقر البيطار إلى معرفة علاجه، وسبب حدوث هذه العلل، فمنها ما إذا حدث فى الدابة صار عيبًا دائمًا، ومنها ما لم يصر عيبًا دائمًا، ولولا التطويل لشرحت من ذلك جُملاً كثيرة، فلا يهمل المحتسب امتحان البيطار بما ذكرناه، ومراعاة فعله بدواب الناس[(١١)].

* * *

الباب الثامن والأربعون

فى صباغي الحرير والغزل

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة عارفًا بغش هذه الصنعة، ويمنعهم أن يطرحوا فى حوانيتهم الحناء، فإن أكثر صباغى الحرير الأحمر يصبغونه بالحناء عوضًا عن الفوّة، فيخرج الصبغ حسنًا مشرقًا، فإذا أصابته الشمس تغير لونه، وزال إشراقه، وكذلك صبغ الغزل إذا دكن بالعفص والزاج[(١٢)]، وصبغ بعد ذلك، تغير وانتفض، ولم يثبت، وينبغى أن لا يصبغ الحرير والغزل، إذا كان أحمر، بغير الخل الجيد الخمر، وكذلك الياقوتى،

---

(١) ريح السوس، هو داء يصيب الدابة فى عجزها، فيمنعها من الاعتدال.
(٢) القضاع هو داء يصيب الحيوان فى بطنه.
(٣) الصدام هو داء يصيب صغار الدواب.
(٤) البحل: قرحة تصيب ذكر الحيوان.
(٥) الدخس: ورم يصيب الحافر.
(٦) الداحس:ورم فى الحافر.
(٧) هو شق فى الحافر من ظاهره.
(٨) النكب: داء يصيب الدابة فى كتفها.
(٩) الخلد: داء يصيب الدابة على هيئة ثقب يسيل منه ماء أصفر.
(١٠) المياخونة: ضرب من الجنون يصيب الدواب.
(١١) انظر: نهاية الرتبة للشيزرى (ص٢١٩)، معالم القربة لابن الأخوة (ص١٥٠ - ١٥٢).
(١٢) الزاج: مادة معدنية توجد غالبًا مخالطة لأصحاج لا تقبل التحليل.

والخلوقى، ويستحلفوا أن لا يتجاوزوا ذلك، ويعتبر موازينهم وصنجهم، وكذلك موازين الحرير، والغزل فى كل وقت(١).

* * *

الباب التاسع والأربعون

فى الخرازين صناع الشراك

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا، ويأمره أن يمنعهم أن يعملوا فى خصف النعال بجلود الميتة، وأن يقللوا من حشوها، وأن تكون عند بيعها غير مشدودة، لتبين اليسرى من اليمنى إلى المشترى، ويطبق الزوج على ظهره لتكون وجوهها ظاهرة، ويؤمر الخرازون أن يجعلوا عوض شعر الخنزير ليفًا، فإنه يقوم مقامه، ويمنع من عمل الشراك المظفورة من البطاين، أو من الجلود الضعيفة المصبوغة، وكذلك لا يوصل ما انقطع من شراك النعال بمثل هذا، ومن خالف أدب وأشهر.

* * *

الباب الخمسون

فى الأساكفة صناع الأخفاف

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة عارفًا، ويأمره أن يمنعهم من عمل العتيق ويطرونه، ويبيعونه جديدًا، وأن لا يكثروا حشو الخرق بين البشتيك والبطانة، ولا بين النعل والظهارة، وأن يشدوا حشو الأعقاب، ولا يشدوا نعلاً قد أحرقته الدباغة، ولا فطيرًا لم ينضج، ولا أديمًا فاسدًا، ولا مسوسًا، ولا معيوبًا، وأن يحكموا إبرام الخيط ولا يطولوه أكثر من ذراع؛ لأنه إذا طال انسلخ وانتقض إبرامه وضعف من الجذب، ولا يخرزوا بشعر الخنزير، ويجعلوا عوضه ليفًا، أو شارب الثعلب، فإنه يقوم مقامه، ولا يمطلوا أحدًا بمتاعه، إلا أن يشترطوا عليه أيامًا معلومة، فإن الناس يتضررون من التردد إليهم، وأن لا يعملوا الورق فى الأخفاف لكى تَصُرّ عند المشى، كما كانت تفعله نساء بغداد، فيمنع المحتسب من عمله(٢).

* * *

---

(١) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص١٤١، ١٤٢).

(٢) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص١٤٩).

الباب الحادى والخمسون
فى عمل الأسفاط

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا يحلفهم بالله العظيم أن لا يدبغوا الجلود إلا بالنخال، وأن لا يجلدوا بواطن الأسفاط إلا من الجلود التى يجلّدون بها ظواهرها؛ لأنهم ينتهزون جلود الأسفاط من جلود لها قيمة، ويغشونها من دواخلها بما لا قيمة له، فإذا قوى عليها الشد والحزم تخرقت وتمزقت، وهذا غش، فينبغى أن يمنعوا منه.

* * *

الباب الثانى والخمسون
فى عمل البطط

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا يمنعهم أن يعملوا من جلود الجمال الميتة، ويحلفون بما لا كفارة لهم منه أنهم لا يعلمونها من الميتة، ويفتش دكاكينهم كل وقت، وبيان ذلك عليهم أنهم إذا عملوها من جلود الدباغ، كان لونها إلى الصفاء والصفرة، وإذا عملوها من الميتة كان لونها مائلاً إلى السواد. ويعتبر عليهم أيضًا بالرائحة وخشونة اللمس، وأيضًا أنه لابد أن يبقى عليه اليسير من الشعر؛ لأن الصانع لا يقدر على إنقاء الشعر من الميتة، وما عمل من جلود الميتة يملح عند جفافه، والصواب أن يمنعوا من عمل المصاصات؛ لأن كل من يمص بها لابد أن ينزل شىء من بصاقه فى أطعمة الناس من الزيوت، والعسل وغيرهما، وذلك ضرر ووسخ، لاسيما إن كان الفاعل أبخر، فالصواب أن يمنعوا من ذلك[١].

* * *

الباب الثالث والخمسون
فى الخياطين والعلافين

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا يمنعهم احتكار الغلة، ولا يخلطون ردىء الحنطة بجيدها، ولا عتيقها بجديدها، فإن ذلك تدليس على الناس، وأن لا يجعلوا القمح بجوار الشعير، وإذا دعت الحاجة إلى غسل قمح لأمر حدث، جففت بعد غسلها وبيعت منفردة[٢].

* * *

---

(١) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص٢٣٠).

(٢) معالم القربة لابن الأخوة (ص٨٩، ٩٠).

الباب الرابع والخمسون

فى صنعة الشرابات

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة، ويأمرهم أن يكون طول الشرابات كلها ثلاثة أشبار، وينقع ليفها فى الماء قبل استعماله يومًا وليلة، لتزول الحمرة منه، ولا يخلطوا فى الليف الجديد شيئًا من الليف القديم، ويكون حولها دائرة جلود[1] التماسيح المذبوحة، فإن الميتة منها منتنة الجلود، فإن عدمت جلود التماسيح، فجلود البقر المذبوحة، وتقوى خرزها بخيوط الكتان الرقاق، ولا يغشوا ظهورها بالجلود المجموعة، ولا من الأنطاع المخلقة، بل تكون جلودًا جددًا مدبوغة، ومن خالف أدب.

* * *

الباب الخامس والخمسون

فى الحاكة والقزازين

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة، ويأمرهم أن يعطوا لكل من عمل عندهم مسلاكًا من غزله، لتزول التهمة، ويرتفع الشك، فإذا جرى فى ذلك دعوى من صاحب الغزل، أن غزله قد أبدل، رجع العريف وأهل الصنعة إلى ذلك المسلك، ونظر ما رسمناه للصناعة، ورسم نقض الغزل درهم واحد لكل ذراع، ويتقدم إليهم بأن يكروا عقد كل شىء يعملوه للناس وللبيع أيضًا، ويصفقوه، ولا يحلوا لأحد من سائر حاكة الشرب، والصفيق، وغيرهم الخيانة جملة كافية، ومن خالف أدب[2].

* * *

الباب السادس والخمسون

فى الزنهار[3] وغشه

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا عارفًا بغش صنعتهم، فقد يغش بالسبك بتربة تعرف بالشمعة، تكون إلى الحمرة مائلة، وبدقيق الرمل، حتى يثقل، وقد يغش الصفر بالتراب الأحمر، وهو يزيده المثل، أو قريبًا منه، فينبغى أن يحلف من يبيعه، بما لا لهم منه كفارة، أنهم لا يخلطون فيه شيئًا مما ذكرناه، ولا يخلطون فيه دقيق الفول. وأيضًا قد تدق قشور

---

(١) أى: من جلود.

(٢) معالم القربة لابن الأخوة (ص١٣٦، ١٣٧).

(٣) الزنهار: التوابل.

الرمان، ويغش به الكركم المسحون، ويغش أيضًا بالتربة المصرية، وقد تغش الحناء بالرمل، فيعتبر ذلك عليهم.

* * *

الباب السابع والخمسون
فى الأبزار والأبزاريين

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة، فإن الأبزار كثيرًا ما يخلطون بعضها فى بعض، فللكراويا أبزار تعرف بعين الحية، وهى فى هيئة الكراويا، إلا أنها أكبر من حب الكراويا قليلاً، وليس تفعل فعل الكراويا فى ذكاء الطبيخ، ويمنعهم أن يخلطوا الكزبرة المصرية فى الشامية، ويعتبر مكاييلهم.

* * *

الباب الثامن والخمسون
فى السماسم[1] وبائعيه

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة بصيرًا بغشهم؛ لأن أغلافهم ظواهرها البارزة من خشب مثل الأبنوس والسماسم، وباطنها من غيره، فإذا دعت إلى ذلك ضرورة، فيبين ذلك للمشترى إذا باعوه، ولا يخفوه عنه، حتى تزول الشبهة والتدليس، وقد ينشرون من سيقان البقر والجمال ما يجعلونه عوضًا من العاج، وذلك غش، وينبغى لمن يسمسر فى ذلك أن لا يأخذ الجعل من وجهين، فمن فعل ذلك أدب.

* * *

الباب التاسع والخمسون
فى الخشب وباعته

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ينهى أخبارهم إلى المحتسب، ويستحلفهم، بما لا كفارة له، أنهم لا يشتركون فى البيعة الخشب، يوقفها أحدهم على دكانه، فإذا جاء المشترى أعان بعضهم بعضًا فى توفير الثمن، وهو بينهم شركة، وهذا تدليس، وأن لا يؤخذ الجعل إلا من البائع، من الدينار نصف قيراط، ومن العشرة دانقين[2].

* * *

---

(١) السماسم: هى الصناديق والأسفاط الخشبية، وكانت تستعمل لحفظ المتاع.

(٢) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص٢٣٤).

الباب الستون

فى الزفاتين

ينبغى أن يعرف عليهم ثقة، ويحلفوا بالله العظيم أن لا يغشوا الزفت برماد القصب، ولا بنشارة الخشب، ولا بالرمل، وغشه يتبين لك بالنار، فيراعى ذلك، ويعتبر موازينهم[١].

* * *

الباب الحادى والستون

فى الحدادين

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا، ويحلفوا بالله العظيم أن لا يبيعوا السكاكين، والمقاريض، والشفار، والمخاصف، وغير ذلك من الأرمهان[٢]، ويبيعوها فولاذًا، ولا يماطلوا الناس بأشغالهم، وكذلك سائر الصناع، ولا يأخذ صانع من سائر الصناع فوق طاقته إلا شيئًا يعلم أنه يفرغه فى أسبوع، ومن خالف أدب[٣].

* * *

الباب الثانى والستون

فى المسامريين وغشهم

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة، ويأمره أن يمنعهم أن يخالطوا المسامير الجديدة فى العتيقة؛ لأن ذلك تدليس، وتكون أرطالهم دون أرطال جميع البيعة، فنحن أمرنا أن تكون أرطال جميع أصحاب المعاش حديدًا، ما خلا هذه الطائفة تكون أرطالهم حجارة مجلدة مختومة بالرصاص مكتوبًا عليهم بخط المحتسب؛ لأن الحديد يمكنهم فيه الزيادة والنقصان، والحجارة بضد ذلك، ويعتبر أيضًا موازينهم.

* * *

(١) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص٢٣٩).

(٢) الأرمهان: لفظ فارسى معناه: الحديد المطاوع.

(٣) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص١٤٨).

الباب الثالث والستون
فى النحاسين وسباكى النحاس

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة عارفًا، ويأمرهم أن يبينوا للمشترى غشوش النحاس، فإنها كثيرة، فينبغى أن يبينوا عيوبها لمن يشتريها، ويجرى الأمر فى باعته ومناديه، على ما رسمنا. ولا يأخذ السمسار جعالته إلا من البائع، بحكم أن لا يكون البيع مسَلَّمًا، وإذا لحم المكسور يكتب على جنبه ملحومًا، ويكتب على الجديد جديدًا، والعتيق عتيقًا، والسبّاكون قد يجعلون فيما يسبكونه من النحاس خبث الفضة والرصاص، فينكسر ما يعمل منه بسرعة، وتنخسف الهواوين على الضعفاء والمساكين، ويمزجون النحاس المضروب بالمصبوب، فيمنعون من ذلك؛ لأنه غش[1].

* * *

الباب الرابع والستون
فى النجارين والبنائين والفعلة والنشارين

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا له دين وبصيرة بصناعتهم، فقد يوافق أكثر الصناع على أجرة معلومة كل يوم، فيتأخرون عند الغدوّ، وينصرفون قبل المساء، فينبغى أن يشترط فى ذلك بما يمتنع منه، ولا ينصرفوا إلا مساءً، ومن البنائين والنجارين من يقرب على أصحاب الأشغال ما يعملونه لهم، ويهونونه عليهم، ويقلّلون مؤونته، حتى إذا نشطوا إليه، وشرعوا فيه، طالبوهم بزيادة المؤونة عما قرروه، فكان فى ذلك خطر، وغش؛ لأنه ربما افتقر، وركبه دين بسببه، وربما ألجأته الضرورة فباع الموضع بسبب المطالبة قبل إتمامه، وفى هذا أذية عظيمة، فينبغى أن يتقدّم المحتسب بالمنع من ذلك أتم منع، بالأيمان المؤكدة، ومتى لم يستعمل من يبنى من الصناع ما لم يصح به من زوايا، وموازين، وخيوط، ثم جرى فيما عمله زيغ، أو ميل، أو انحراف عن الاستواء، لزمه عيب ذلك وفساده، إلى أن يعود صحيحًا مستقيمًا، ومتى قطع البناؤون من أخشاب الناس المستأجرة للدعائم شيئًا، لزمهم أرشه، وعليه الأدب بعد الإنذار.

ويلزم الفعلة بلباس التباين الملحم، فإن فيه سترة لعوراتهم عند تعريهم فى أشغالهم، فى طلوعهم ونزولهم، ولا ينصرفون إلا عند المغيب، وكذلك البناؤون والنّشارون، فيلزمهم أن يعمل على كل مقص ثلاث أنفس، أحدهم يحد المنشار، وإذا تعب واحد من الاثنين ناب عنه الآخر إلى أن يأخذ صاحبه راحة، ولا ينصرفوا إلى آخر النهار، ويمنعوا

---

(١) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص١٤٧، ١٤٨).

من اشتراك جميعهم على الناس، بل يكونوا مثل النجارين والبنائين ما يعملوا إلا بما قسم الله ورزق، وأن لا يحرقوا شيئًا مما ينشرونه فيتلفون الخشب، ويستحق من التجار، فمن فعل هذا بعد الإنذار أدب، ويحلف البناؤون بحضرة عريفهم أنهم لا يأخذون من الجبّاسين رشوة، ولا هدية، على سائر الوجوه كلها، ليكتموا منهم قلة نضج الجبس، فإنه لا يدخل، ويدخل فى القصريّة وقت خلطه بالماء بسرعة، فهذا الجيد النضيج، وإن دخل فى القصرية، أو جفّ بسرعة على الحائط للوقت، فهو جبس قليل النضج، فيجب أن يُراعى ذلك، فإن فيه تحملاً على المشترى فى الوزن، وفسادًا فيما بينّا به، وسوء عاقبة، فيجب الأدب على الجباس، والوقاد، والبناء إذا كتم ذلك، بعد الإعذار إليهم أجمعين.

ويجب على البنائين أيضًا نصيحة أرباب العمل ممن ينون له بالجير والأصطال فى الصهاريج والقنوات، وما يشاكل ذلك، أن يكون الخلط الجيد الذى تحمد عاقبته، خمسة عيارات جير مصفى بالماء العذب، وعيار واحد منها أصطال مسحوق من الطوب العتيق والمتوسط، وأربعة رماد من رماد الأتاتين وما يشاكله، وما بين جير مصفى ودونه، خمسة رماد، واثنين جير، فجميع ما ذكرناه واجب على البنائين القيام به، وأن ينصحوا صاحب العمل، ومن خالف أدب وأشهر، بعد الإعذار إليه.

ومن شأن البنائين القيام به أن يبيضوا موضع الإنسان، وأن يكثروا من أخلاط الجير فى جبس البياض وقت عجنه، ليسهل عليهم بسطه على الحيطان بغير تعب، فيكون سببًا لوقوع البياض من على الحيطان، وقلة حفظه لها، وثباته عليها، فيمنعون من ذلك. ويجب على البنائين إذا بنوا الحيطان، أن لا ينوها بالطوب القليل النضج اللّين، فإنه يتفتت بعد مدة، فيسقط ما فوقه، ويخرب الحائط، فيأمرهم أن يجعلوه حشوًا مع الطوب، وبالله التوفيق.

* * *

الباب الخامس والستون
فى نجارى الضبب

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة عارفًا بمعيشتهم، بصيرًا بهذه الصناعة، وينشر جواسيسها، وهو باب جليل يحتاج إلى ضبطه؛ لأن فيه حفظ أموال الناس، وصيانة حريمهم، فينبغى أن يراعى، ويحلفون بحضرة عريفهم، بما لا كفارة لهم منه، أن لا يعملوا لرجل ولا لامرأة، مفتاحًا على مفتاح، إلا أن يكونا شريكين مشهورين، ويؤمرون أن لا

يثقبوا رأس الأبيات لطرح الأسنان، بل ينقروا لها فى رءوس الأبيات لحفظ الأسنان، وتكون الأسنان التى فيها مربعة الرءوس، مدورة الأسافل، مبرودة، مجلسة، وكذلك أسنان المفتاح مبردة، مجلسة، حتى لا يخرب ذكر الغلق، لا من فوقه، ولا من تحته، ويؤمرون أن يضموا الأغلاق بالجواسيس المختلفة، حتى لا يعمل مفتاح على مفتاح، ومن خالف ذلك أدب[1].

* * *

الباب السادس والستون

فى نجارى المراكب

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة، ثم إن هؤلاء النجارين والقلافطة يأخذون فى الصناعة المعمورة بالعز الدائم من السلطان، أعزه الله تعالى، أوفر الأجرة إذا عملوا له عملاً، ثم يشتركون على أرباب المراكب، ويأخذون عما شاءوا أجرته درهمًا واحدًا، خمسة دراهم، فإن امتنع عليهم أحد تركوه وانصرفوا عنه، وحلفوا أنهم لا يعملونه إلا بزيادة عما قرروه فى الأول، فيرجع الناس إليهم للضرورة؛ لأنهم عصبة لا يخالف بعضهم بعضًا، فهم فى هذا أول شىء خالفوه: خالفوا سُنة رسول الله ﷺ؛ لأنه قد حرم شركة الأبدان، وهم فى ذلك يشيعون على السلطان بالكذب؛ لأنهم يذكرون للناس أنهم يعملون فى الصناعة عملاً يساوى فوق أجرتهم أضعاف ما يأخذون، فينبغى أن لا يمكنوا من الشركة؛ لأنها حيف ومضرة على أرباب المراكب، فينبغى أن يحلفوا جميعًا على ترك هذه الشركة، ويشهر هذا الأمر بالجرس فى كل السواحل، ويعملوا لسائر الناس كما يعمل نجارو الدور وغيرهم من الصناع، وكذلك القلافطة من غير أن يحيف على الجهتين، ومن خالف أدب.

* * *

الباب السابع والستون

فى النخاسين باعة العبيد

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة عارفًا، ويحلفوا بما لا كفارة لهم منه، أنهم لا يخفون عيبًا قد ظهر وعلموه، من ذكر ولا أنثى، ويتفقدون عهدة المماليك المقدمة فى أيدى

---

(١) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص١٣٦، ١٣٧).

مواليهم، ليعلم منها ما قد شرط على المشترى من ذلك، لاسيما العبد الذى مع الغرباء، ويطالبون بضمناء من أهل البلد، ويكتب اسمه وصنعته فى دفتره؛ لئلا يكون العبد مسروقًا، أو يكون له أهل، وإذا كان فى العهدة ذكر لنفسه، فهى كناية عن المخبور. ولا يبيعون جارية إلا من دمها، أعنى فى أيام حيضها، وتنظره امرأة يوثق بدينها، وتتأمله؛ لئلا يكون دمًا فاسدًا.

ولا يبيعون صبيًا ولا صبية، من الجلب على أهل الذمة؛ لئلا يهودونه أو ينصرونه، بل إذا كانت جارية نصرانية فصيحة، ومعها أولادها دون البالغ، فإن أولادها لاحقين بها، ولا يقبل قول جلاب ولا دعواه، إذا ادعى على من قد جلبه من العجم الذين لا يفقهون، أنهم نصارى. ولا يفرق بين جارية وأولادها، ومن أراد شراء جارية، جاز له أن ينظر إلى وجهها، وكفيها، فإن طلب استعراضها فى بيته، والخلوة بها، فلا يمكنه النخاس، إلا أن يكون عنده نساء فى منزله، وإن أراد شراء غلام، فله أن ينظر منه ما فوق السرة، وما دون الركبة، هذا كله قبل عقد البيع، وأما بعده، فله أن ينظر إلى جميع بدن الجارية.

ولا يفرق بين جارية وأولادها، إلا أن يكونوا بوالغ، وعن تراضٍ بينهم. ويستحلف النخاسون أيضًا أنهم لا يشترون مملوكًا على أكياسهم للتجارة، ولا يدسوا من يشتريه لهم على سبيل الشركة ولا غيرها على سائر الوجوه والأسباب. وينبغى أن يتفقدوا لون المملوك والمملوكة، فإنه إذا كان خاملاً دل على علة كبده، أو الطحال، أو المعدة، أو بواسير ينزف منها دم، ثم يتفقد ظاهر البدن بنفسه فى موضع نير مضىء، كيما لا يخفى أن كان به بهق رقيق، فإن البهق فى ابتدائه يكون خفيفًا، وإنما يكون بياضًا رقيقًا، أو سوادًا فى الموضع، ثم يقوى، ويزيد بتزايد الأيام، وأما القوباء، فإن ابتداءها خشونة تحدث فى الموضع، ثم تقوى، وتزيد على مدى الأيام.

وإن كان فى موضع من بدنه تشبيه بشامة، أو لصقة، أو وشم، فليتفقد ذلك تفقدًا كثيرًا، فربما كان فى ذلك الموضع برص فكوى، أو وشم فصبغ ليخفى، فإذا امتدت الأيام محى الصبغ، واتسع البرص عن موضع الكى أو الوشم، فإذا كانت شامة يشك فيها، فليدخل الحمام، ويغسل المكان المشكوك فيه بالماء، وإن كان كيًا أو وشمًا فى موضع منكر سُئل عنه، ويتفقد ذكاء سمعه، وكمال كلامه، وعقله، ثم يتفقد شعر الرأس، وجلدته هل فيها حزازًا وشقيقة، ويتفقد حدقة العين، وحدقته هل هى صافية

معتدلة فى العظم، ومبلغ حدة نظره، وصفاء بياض العين، فإن كدورته وظلمته منذرة بالجذام، وإن كان فيها صفرة دل على زيادة الكبد، وإن كان فيها عروق حمر كثيرة ظاهرة، فإنه يسأل.

ويتفقد أجفانه هل هى نقية، وكيف سهولة حركتها، فإن الغليظة جربة فى الأكثر، أو مستعدلة، والعسيرة الحركة رديئة، ويتفقد أجفانه، وحواجبه، فإن كانت حواجبه رديئة مع رداءة جفونه، لاسيما إن كان به بحة فى صوته، وحمرة فى وجهه، ويتفقد جلاء نَفَسِهِ من أنفه وفمه؛ لئلا يكونا أبخرين، وينظر إلى شكل الأنف، فإن غلظه، أو انحناءه، أو اعوجاجه يدل على أن فى داخله بواسير، فينظر فيها فى الشمس، وينظر إلى سهولة تنفسه، ويتفقد حال أسنانه فى الاستواء، والنقاء، والقوة، وهل فيها شىء يتحرك، أو يتآكل، فإن الأسنان القوية طويلة البقاء، والرقيقة سريعة السقوط، ويعتبر مع ذلك البدن كله.

ويتفقد رقبته واستواءها، ويغمز عليها ويجس، ويتفقد هل فيها بترة، أو أثر قوبة، فإنه ربما كان هناك غدد تتولد منها الخنازير، وينظر إلى الصدر هل هو عريض لحيم، فإن الرقيق النحيف مع الأكتاف البارزة يدل على السل، ويأمره بالمشى، ويتفقد قوة قبضه، فإن ضعف ذلك دليل على ضعف العصب، ويؤمر بالعدو، وينظر هل يعتريه فى عنقه ربو، أو سعال، ويقدر يديه ورجليه بعضهما ببعض، فربما كانت إحداهما أقصر من الأخرى، ويتفقد حال مفاصله فى سلاستها للحركات، ويتفقد ساقه هل فيه عروق ثخان واسعة، فإن ذلك يؤدى إلى الدوالى، وداء الفيل، وسائر بقية أموره يستعان عليها بالذين يعرفون الأمزجة وطبائعها، فينبغى مراعاة جميع ذلك[١].

* * *

الباب الثامن والستون

فى النخاسين باعة الدواب

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا له دين وبصيرة بصناعة البيطرة، حتى يكون عارفًا بعيوب الدواب، ويأمرهم أن يحلفوا أنهم لا يخفون عن المشترى عيبًا قد علموه، ويبحثون عن ذلك أتم بحث، ومن عيوب الدواب وعللها الكبار الخرخرة، وهى علة من

---

(١) انظر: معالم الرتبة لابن الأخوة (ص١٥٢، ١٥٣).

برد يعرض فى رءوسها، ينحدر منها رطوبة، فإن كانت منتنة أعدت الدواب الذين يأكلون معها ويشربون، وتهلك هى من بعد، وإن كان المنحدر إلى الشمس، فهو نوعان: أحدهما الذى يعرض فى ركبها وجع ويزول، والنوع الآخر يعرف بالخطر يتولد فى ركبها ويزيد إلى أن يمنعها المشى فيهلكها، فيجب على النخاسين أن يعرفوا ابتداء العلل وما تؤول إليه.

والعلة الداويدية: هو ورم يحصل فى زندها، فإن صلب لم تفكر فيه إلا أنه عيب، وإن كان لينًا كان أضر عليها، والدخس وهو نظير الداحس، يحصل فوق حافرها، فإن دارت طرحت الحوافر وبطلت سنة إلى أن ينبت لها غيره. ويتفقد منها الطرش، وعلامتها أن تقيم آذانها إذا صاح بها صياحًا عظيمًا بغير نهطة. ويتميز أيضًا أثر اللوقة إذا عرضت، وهو اعوجاج الشفة الفوقانية على السفلانية. وكذلك إذا كان بها ضيق نفس، وضيق عليها الحزام والمقود رمت بنفسها إلى الأرض، فيعلم أن بها ضيق نفس.

ويجب أن يتفقد أضراسها، فإن كانت معلقة بلعت الشعير صحيحًا. وربما نبت للدابة أنياب رقاق زائدة الطول تمنعها من أكل العلف فيكسر لها، ولا يكسرها إلا الحاذق العارف بكسرها، إلا أنه عيب، فيجب أن يراعى ويتبرأ منه. والسلاف عيب؛ لأنه يبل المسدود بالزبال، ويكدم الضلف، ولا ينال منه إلا اليسير. والعنق القصير الخلقة عيب، والنكب عيب، وهو ينبت إلى طرف وقوف الدابة، فيعتبر ذلك بالمشى، فإن انطلقت، وإلا فهى علة فى العصب، والدابة التى تمنع البيطار عيب، والأذان المطروحة عيب فى خلقتها، والدابة التى لا تقبل اللجام عيب.

ويجب اعتبار عين الدابة من العمى، والعور، والظفر، وهو لحم ينبت فى الماقين، ويتفقد قطع لسان الدابة من اللجام، ومن قصبة تأكلها فتجرى على لسانها فتقطعه، والشموص التى تضرب عيب فى الدابة، والدابة التى تمنع الشكل عيب، وعللها كثيرة، مثل أكل المقاود، وقلع الأوتاد، وقلة الطلوع إلى المعادى، وما أشبه ذلك، فيجب على النخاسين أن يتقوا الله عز وجل، ويخلصوا للفريقين بحسن النية، ويشرطوا للمشترى أنه بالخيار ثلاثة أيام، ولا يأخذوا الجعل إلا من البائع بغير حيف، وإن كان للسلطان على الدابة رسم أخذ من المشترى[1].

* * *

---

(١) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص١٥٣).

الباب التاسع والستون
فى الطوابين وغشهم

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة، ويحلفهم بالنصيحة فى أشغالهم بخلط المعاجن وملء القالب، وأن لا يقطع طينًا سبخًا، ويأمرهم أيضًا أن لا يُعد للمشترى الطوب إلا اثنان، فإذا تعبا ناب عنهما اثنان غيرهما، وأن يتقوا الله، ولا يحيفوا على المشترى، ويحرصوا ويجتهدوا فى تجريد الأثلاث، والأنصاف، والأرباع من الطوب، وأن لا يغشوا فى طبخه، ونضجه، وأن لا يعدلوا فى بيعة إلا لمن يلاطفهم، بل يعرضوه ويشهروه على كل من له عمارة، وإنشاء دار، ويعتبر عليهم المحتسب فى بعض أوقات الغفلة ما أعدوه للناس بعدّادين غيرهم.

* * *

الباب السبعون
فى دلالى العقارات

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا عارفًا، ويحلفوا أن لا يبيعوا ملكًا بقرية، ولا دارًا، ولا جدارًا، وقد خرج من ملك صاحبه بكتاب زور، ولا كتاب حيلة، ولا شبهة، ولا رهن، ولا يأخذوا الجعل إلا من البائع، ولا يعدل عما زاد فى ثمن شىء من ذلك إلى من نقص منه لعلة من العلل، ومن خالف هذا أدب.

* * *

الباب الحادى والسبعون
فى تقديرات المراكب

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا جيدًا، له دين، يراعى الضرر بالناس وبأموالهم، ويلزمهم أن تكون قرايا المراكب غير زائدة على أطوالها، والرجل غير ناقصة، فإنهما متى كانا على هذه الحال كما ذكرنا، كانتا إلى الأمن والسلامة أقرب، وإذا كانت القرية زائدة على ذلك، والرجل ناقصة، لم يؤمن عند قوة الرياح والعواصف، من انقلابها واضطرابها، وينبغى أن تكون أوساق المراكب خفيفة، حتى تكون نواحيها على وجه الماء ظاهرة غير غائبة فيه، ويوافقوا على أن لا يضروا بالناس، ولا بأموالهم، بالسير فى أيام النيل، ومن خالف أدب(١).

* * *

---

(١) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص٢٢٢).

الباب الثانى والسبعون

فى باعة الفخار

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا، ويتقدم إليهم بأن لا يدلسوا على الناس بسد المثقـوب، والمشقوق، ومن سائر ما يبيعونه، بالشحم والجير وماء البيض، ويبيعونه على أنـه سـالم، ومتى وجد عند أحدهم شيئًا بهذه الصفـة كسر، وينهـوا عـن المعـاودة، فـإن عـادوا إلى الغش والتدليس، أدبوا وأشهروا، ويعلق منه شيء فى حلقهم ليكون شعفة لغيرهم(١).

* * *

الباب الثالث والسبعون

فى شعّابين البرام

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا، فإن هؤلاء الشعابين يغشون بما لم يحله الله عـز وجـل؛ لأنهم يأخذون دم الذبائح، فيعجنونه بالدماء، ويلحمونها به، فينبغى أن يحلفوا أن يجعلـوا عوضًا من الدم الذى يستعملونه، ويستعملون أيضًـا دم الحجامـة إذا عـازوا دم الذبـائح، ويأخذون طحالاً من ذبائح الضأن، والمعز، والإبل، والبقر، فيشوونه، ويدقونه دقًا ناعمًا، ويلحمون بها شقوق البرام.

وكذلك إذا عجنوا الدماء بشـيء مـن حجـارة البـرام مدقوقـًا، منخـولاً، مجبـولاً بمـاء البيض، ويلحمون بها الشقوق فإنها تلتحم، وإن عجن ما ذكرناه بزيـت الفجـل، وليـط بها البرام، ألصقها وضبطها، فيراعى ذلك منهـم، فمـن وجـد منهـم قـد تخطـى إلى هـذا المحظور، بعد الإنذار، أدب وأشهر.

* * *

الباب الرابع والسبعون

فى الزجاجين وغشهم

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا، ويحلفوا أن لا يخرجوا الزجاج من الكور إذا فرغ حتى يمضى له يوم وليلة، فإذا تشرب دخانه أخرجه بعد ذلك وباعه، وإن عجـل فـى إخراجـه قبل أن يشرب دخانه يصدع ويهلك على سائر من اشتراه، ويأمر المحتسـب العريـف أن

---

(١) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص٢٢٢).

يختم على الكور، فإذا تشرب فتحه، وكذلك يصنع بصناع المثاقيل الزجاج، ويحملها عند فتحها إلى المحتسب يعيرها قبل بيعها؛ لأن فيها الزائد والناقص، فيتقى الله.

* * *

الباب الخامس والسبعون
فى معلمى الصبيان ومعلمات البنات

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة له دين، يمنعهم من التعلم فى المساجد؛ لأن النبى ﷺ أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين؛ لأنهم يسودون حيطانها، وينجسون أرضها، ويمشون على البول، وسائر النجاسات، بل يتخذون للتعليم حوانيت فى أطراف الأسواق، أو على الشوارع، ولا يعلّمون فى بيوتهم، ولا فى دهاليزهم، وأول ما ينبغى للمؤدب أن يعلم الصبى السور القصار من القرآن، بعد حذقه بمعرفة الحروف، وضبطها بالشكل، ويدرجه بذلك، ثم يعرفه عقائد السنن، ثم أصول الحساب، وما يستحسن فى المراسلات والأشعار، دون سخيفها، ومسترذلها.

وفى الرواح يأمرهم بتجويد الخط، ويكلفهم عرض ما أملاه عليهم حفظًا غائبًا، ومن كان عمره سبع سنين أمره بالصلاة فى الجماعة، فإن النبى ﷺ قال: «علموا أولادكم الصلاة لسبع، واضربوهم على تركها لعشر»(١)، ويأمرهم ببر الوالدين والانقياد لأمرهما بالسمع والطاعة، والسلام عليهما، وتقبيل أياديهما عند الدخول عليهما، ويضربهم على إساءة الأدب، والفحش من الكلام، وغير ذلك من الأفعال الخارجة عن قانون الشريعة، مثل اللعب بالكعاب، والبيض، ونردشير، وجميع أنواع القمار.

ولا يضرب صغيرًا بعصى غليظة تكسر العظم، ولا رقيقة تؤلم الجسم، بل تكون وسطًا، ويتخذ مجلدًا عريض السير، ويعتمد بضربه على اللوايا، والأفخاذ، وأسافل الرجلين؛ لأن هذه المواضع لا يخشى عليها مرض، ولا غائلة. ولا ينبغى للمؤدب أن يستخدم أحدًا من الصبيان فى حوائجه وأشغاله التى فيها عار على آبائهم، كنقل الزبل، وحمل الحجارة، وغير ذلك من نقل الماء إلى بيته، وما أشبه ذلك، ولا يرسله إلى داره وهى خالية، ولا يرسل صبيًا مع امرأة لكتب كتاب، ولا مع رجل لكتب قصة، ولا رسالة، فإن جماعة من الفساق يحتالون على الصبيان بذلك.

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك فى الصلاة (١/١٩٧)، والبيهقى فى الكبرى فى الصلاة (٣/١١٩) ح (٥٠٩١، ٥٠٩٢).

ومتى جعل عليهم عريفًا، جعله يؤنس. رشده وعفافه، ويمنعه من ضربهم، والحيف عليهم، ويراعى طعامهم وقت جوعهم، ولا يعلم الخط لامرأة ولا لجارية؛ لأن فى ذلك مما يزيد المرأة شرًا، وقد قيل: إن المرأة التى تتعلم الخط كمثل حية تسقى سمًا، وينبغى أن يمنع الصبيان من حفظ أشعار ابن الحجاج[1] والنظر فيه، ويضربهم على ذلك، وكذلك ديوان صريع الدلاء[2]، فإنه لا خير فيه.

ومعلمات البنات يمنعن بالغات البنات من الفواحش، ومن القصائد والأشعار والكلام الذى لا خير فيه، ويمنعن من زينتهن وبهرجتهن يوم عيدهن فى البطالة، كذلك الصبيان يوم الجمعة ليخرجوا إلى صلاتها، والبنات يوم الأحد[3].

* * *

الباب السادس والسبعون
فى الدهانين وغشهم

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا، يراعى أحوالهم، وينهى أخبارهم، ويحلفون بالله العظيم أنهم لا يدهنون ما يبيعونه من جميع أغلاقهم، وما يتعلق بصناعتهم، مما هو لهم خاصة ولسائر الناس، مما يستعملونه عندهم، وينقلونه منهم، إلا بثلاث دهنات، ثلاثة وجوه، ويشمسونه حتى يشبع قبل دفعه إلى أربابه؛ لأن كثيرًا منهم يدهن دهنة واحدة أو دهنتين، فأول ما يصيبه الماء والنداوة تقشر وتلف على أربابه، فيمنعون من ذلك، ويعذر إليهم وقت حلفهم، ومن خالف عن هذا أدب وأشهر[4].

* * *

الباب السابع والسبعون
فى المكارية

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا، ويأمرهم أن يعلقوا فى أعناق الدواب الأجراس، وصفاقات الحديد والنحاس، لتعلوا الجلبة للدابة إذا حضرت السوق، وكذلك يفعل بحمير حمالين الحطب، لتعلو أيضًا جلبتهم، فحينئذٍ ينذر الغافل، والمفكر، والضرير، ومن

---

(١) هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن الحجاج شاعر اليتيمة، له ديوان ضخم ملئ بشعر الخلاعة، والمجون، والفسق، توفى سنة ٣٩١هـ.

(٢) هو أبو الحسن على بن عبد الواحد البغدادى.

(٣) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص١٧٠ - ١٧٢).

(٤) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص٢٣٧).

يشاكل ذلك بمجىء الدابة. وينبغى أيضًا أن تكون أحمالها وأوساقها بقدر طاقتها واستطاعتها، وأن لا يخاف عليها حيف يضر بها، ولا يسوقها سوقًا حثيثًا تحت الأحمال، ولا يضربوها ضربًا قويًا، ولا يوقفوها فى العراص وهى بحمولها على تجهزها، ويراقبوا الله سبحانه فى علفها، وتكون موفرة بحيث يحصل لها الشبع، ومن خالف ذلك أدب.

* * *

الباب الثامن والسبعون

فى النحاتين والمصولين فى التراب

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا يمنعهم أن يغربلوا التراب فى وسط الطرقات، ويأمرهم أن يعتزلوا بها إلى الأكوام والمزابل، ولا يتركوها فى وسط الطريق بالجملة الكافية؛ لأن الدواب تنثره إذا مرت عليه، فيؤذى الناس، وكذلك الماشى إذا لم يجعل باله منه، وإلا ما يدرى إلا وقد غطست رجله فيه، وفى ذلك مضرة، والصواب المنع منها، والذى يغسل التراب ويصوله بالجفان ويغسله عند رءوس الأنهار والخلجان، وفى ذلك مضرة، فيمنعون منها.

* * *

الباب التاسع والسبعون

فى كساحى السماد وحمالته

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا، ويأمرهم بأنهم إذا نقلوا السماد إلى ظاهر البلد أن يحفروا له حفائر، فإذا نقل إليها يطم عليه، حتى تنقطع رائحته، فلا يتأذى منه أحد، ويمنعون من نقل ذلك إلى الماء وطرحه فيه أو حوله، ويمنعون أيضًا من سرقة الطوب والشقاق فى قفف الرماد إذا جابوه، ويرمونه فى البير، ويدقونه، ويقولون لصاحب البيت: هذه الأرض الجلدة قد بلغنا إليها، وهم كاذبون، وفى البير سماد كثير قد بقى، فيقف العريف على نظافة ذلك وعلى حقيقته، بالبحث والحفر، ويكون له نصيب من أجرتهم يستعين به على مراعاتهم، والطواف عليهم. ويمنعهم أيضًا من فتح آبار الناس قبل الشرط على الأجرة؛ لأنهم ربما فتحوا البئر وتغالوا فى الأجرة، فإن ارتضى صاحب البيت بما يختارونه، وإلا تركوه مفتوحًا وانصرفوا عنه، فيؤدى إلى الضرر بصاحبه، لدخوله تحت ما يحبون، فيمنعون من ذلك، ومن فعل أدب.

* * *

الباب الثمانون
فى الغرابيل ومناخل الشعر

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة، يأمرهم بغسل جميع الشعر غسلاً نظيفًا قبل استعماله؛ لئلا يكون فيه شىء من شعر الميتة، ويمنعون من عمل الليف المصبوغ أحمر وأسود مع الشعر فى الغرابيل؛ لأنه غش، وإذا غسل الليف المصبوغ بان صبغه، فيمنعون من ذلك، إلا اليهود، فإنهم لا يؤمرون بغيره. ويحلفون أيضًا أن لا يظهروا غرابيل من جلود الميتة، وأن يغسلوا الجلود، وينصِّعوها قبل تقويرها؛ لئلا تكون قليلة الإقامة فتتقطع سريعًا، وتضر بمشتريها، ومن خالف أدب(١).

* * *

الباب الحادى والثمانون
فى حافرى القبور

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة يمنعهم أن يعتدوا على تربة، يحفروا فيها بغير أمر مالكها، ويستغنمون غيبة صاحبها، فيحفرون فيها لغيره، وعلى كل وجه وسبب، أو تكون التربة لامرأة غائبة فى منزلها لا تدرى بهم، فيعتدون عليها فيحفرون فيها. ويؤمرون أن تكون القبور عميقة قدر قامة وبسطة؛ لئلا تنبش الكلابُ الناسَ؛ ولئلا تطلع رائحتهم، ويؤمرون بأن لا يحيفوا على الناس فى الأجرة، ولا يطالبوا الضعفاء بما لا يقدرون عليه، وكلما ظهر لهم وقت حفرهم عظم من عظام الناس ستروه بالتراب، ولا يتركونه ظاهرًا بين أيدى الناس، ويُعمل للقبر لحد، إلا أن تكون الأرض رخوة محفورة، فتشق، ويدفن فى شقها، ويُسَل الميت من قبل رأسه، ويسجى بثوب عند إدخاله القبر، ويقول عند إدخاله: بسم الله، وعلى ملة رسول الله ﷺ، ويضجعه على الجنب الأيمن، وتوضع تحت رأسه لبنة، ويفضى بخده إلى الأرض، وينصب عليه اللبن، ويحثى عليه التراب، ويرفع القبر عن الأرض قيد شبر، ويرش عليه الماء، وتسطيحه أفضل(٢).

* * *

الباب الثانى والثمانون
فى الوراقين والمبهرجين

ينبغى أن يمنعوا، ولا يسامحوا بذلك، وأن يسترزقوا الله من وجوه غير هذه الوجوه؛

---

(١) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص٢٢٨، ٢٢٩).

(٢) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص٤٩، ٥٠).

لأنه كذب، ومحال، وحرام، فلا يمكن مجالسهم ومقاعدهم إلا على الطريق والشوارع، بحيث أن لا ينفرد واحد منهم بحرمة فى منزله، ولا فى دهليزه، ولا يستخبر منه المحال، ولا يكذب على النساء، ولا على جهال الرجال بحديث سحر، ولا كهانة، ولا بكتاب قبول، ولا بغض، ولا يتحيل عليهم ببذل تراب، ولا بقدح ماء، ولا بالمداد على الإبهام، ولا يُحيل الأشخاص على الصبيان الذين لا تمييز لهم، وجميع أشباه ذلك، ومن فعل بالناس شيئًا من ذلك، هذر عليهم بهذه المعانى، فقد وجب عليه الأدب؛ لأن هذا كذب وتدليس[١].

* * *

الباب الثالث والثمانون

فى من يكتب الرسائل على الطريق، والرقاع، والدروج

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا، ويأمره بأن يتقدم إليهم ويأمرهم بأن لا يكتبوا كتابًا فى سب أحد، أو شتمه، أو قذفه، ولو وفرت له الأجرة، وعظمت له الغبطة، لا يفعل ذلك إلا ما يجرى فى مجرى المراسلات، والاستعطافات، والزيارات، وكذلك ما جرى مجرى السعايات، والإغراء، والنميمات، إلى أولى الأمور، ويحلفون بالله العظيم أن لا يتجاوزوا ما جرت به العادة فى المكاتبات من استعلام الأخبار، وذكر ما تجرى عليه الأحوال، فمتى جرى الأمر هكذا، لم يكن على الكاتب طريق للذم، ولا عيب، ولا تعزير، ومن خالف أدب[٢].

* * *

الباب الرابع والثمانون

فى كتاب الشروط

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا من أهل العلم، والفضل، والنحو، والفقه، واللغة، والبيان، وينبغى لكاتب الشروط أن يكون مقرئًا، فقيهًا، عارفًا بأكثر الاختلاف على مذهب الأئمة، رضوان الله عليهم أجمعين، ويكون حاسبًا، فمتى عدم فنًا من هذه الفنون التى ذكرتها، كان عجزه بمقدار نقصه من ذلك العلم، ومتى كان فى كل فنٍ من هذه

---

(١) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص١٨٢، ١٨٣).

(٢) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص١٨٣، ١٨٤).

الفنون فاضلاً، صلح أن يكون كاتبًا للشروط، مرجوعًا إليه، وإلى رأيه، وما يشير به، سيما إذا كان دينًا ظاهر الستر، والله أعلم.

* * *

الباب الخامس والثمانون
فى الوكلاء بأبواب القضاة وتدليسهم

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا، وأن يكون الوكلاء المناظرين بأبواب الحكام أمناء غير خونة، ولا فسقة، فقد يمسك أحدهم عن إقامة الحجة لموكله من أجل الرشوة على ذلك، ولا يسمى الوكيل فى فراق زوجين، ولا يُعَلِّمْ مقرًا إنكارًا، فمن انكشف بذلك، أو بعضه، أدب وأشهر، وأصرف، وإن كان فيهم شاب حسن الصورة، فلا يرسله القاضى لإحضار النسوان، ويجب على جماعتهم، إذا شكوا فى شىء، رجعوا إلى رأى مَنْ نصب إلى هذا الأمر[1].

* * *

الباب السادس والثمانون
فى الميازيب ومضرتها

اعلم وفقك الله أنه قد يجعل بعض أرباب العقارات ميازيب يقلبون فيه ما يستعملونه من الماء فى طول الزمان، ويحتفرون تحتها حفيرًا تجمع تلك المياه فيه، وليس لهم أن يفعلوا ذلك فى طرقات المسلمين، إلا فى وقت المطر، فإن الله تعالى قال: ﴿**إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ**﴾ [النساء: ١٠٢]، فإذا لم يكن مطر، فليس لهم أذية للناس فى طريقهم، فإن هذه الحفرة ربما سقط فيها الضرير، والغافل، والمعرض، والغريب إذا عبر فى الليل، وفى ذلك إثم كبير ومضرة، وربما وقع من هذه المياه على ثياب الناس بشىء فينجسها، فينبغى أن يمنع من ذلك، حتى لا يكون منه سبب.

* * *

الباب السابع والثمانون
فى إصلاح الجوامع والمساجد

يؤمر القَوَمَة بنفض الجوامع والمساجد فى كل يوم بالغدو وبالعشى، ورفع حصرها، وكنسها كل يوم جمعة، وغسل قناديلها كل شهر مرتين، وإشعالها فى كل ليلة فى صلاة المغرب، والعشاء، والصبح، ويعنى بنظافة ساحاتها، وينبغى للمحتسب أن يباشر

---

(١) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص٢٠٩، ٢٠٩).

وقودها، فإذا رأى نقصًا فى وقودها، جعل من جهته مشرفًا على صب زيتها، ويتقدم إلى أئمة المساجد المتطوعة، والمؤذنين المتطوعة، ويسألهم الحضور فى كل يوم جمعة للجامع الأعظم للأذان بصلاة الجمعة، فإن فى كثرة الأصوات، واجتماع النيات، كثرة وقوة للدين، وضعفًا لقلوب المشركين.

وتكون العناية والمرعاة لجميع المساجد كما ذكرنا فى حال الجامع، ويأمرهم بغلق أبوابها عقيب كل صلاة، وصيانتها من الصبيان، والمجانين، كما أمر سيد المرسلين، وكذلك من يأكل فيها الطعام، وينام، أو يعمل صناعة، أو يبيع سلعة، أو ينشد ضالة، أو يجلس فيها لحديث الناس، فقد ورد الشرع بتنزيه المساجد عن ذلك. ويتقدم إلى جيران كل مسجد بالمواظبة على صلاة الجماعة عند سماع الأذان، لإظهار معالم الدين، وإشهار شعائر المسلمين، لاسيما فى هذا الزمان، لكثرة البدع، واختلاف الأهواء، وما قد صرحوا به من الأحوال الخارجة عن الأحكام، فيجب على كل مسلم إظهار شعائر الإسلام، وإشهار الشريعة فى مقابلة ذلك، لتقوى عقائد العامة.

ولا يؤذن فى المنارة إلا عدل، ثقة، عارف بأوقات الصلاة؛ لأن النبى ﷺ قال: «المؤذنون أمناء، والأئمة ضمناء، فرحم الله الأئمة، وغفر للمؤذنين»[1]. وينبغى للمحتسب أن يمتحنهم بمعرفة الأوقات، فمن لم يعرف ذلك منعه من الأذان حتى يعرفها؛ لأنه ربما أذن فى غير الوقت، فسمعه العامة، فيصلون قبل الوقت، فلا تصح صلاتهم، فيكون هو السبب فى إفساد صلاة الناس، فيجب عليه معرفة الوقت، ويقرأ باب الأذان والإقامة فى الفقه، ويستحب أن يكون المؤذن صيتًا، حسن الصوت، وينهاه المحتسب عن التغنى فى الأذان، وهو التطريب، والتمطيط، ويأمره إذا صعد المنارة أن يغض بصره عن النظر إلى دور الناس، ويأخذ عليه العهد فى ذلك.

ولا يصعد إلى المنارة غير المؤذن فى أوقات الصلاة، وينبغى للمؤذن تحرير أوقات الصلاة فى النهار بالميزان، وإذا لم يكن له ميزان، مكن الوقت تمكينًا، لا يكون عليه درك بعده، وعليه أيضًا أن يكون عارفًا بمنازل القمر، وشكل الكواكب، ليعلم أوقات الصلاة، وأوقات الليل والنهار، وهى ثمان وعشرون منزلة، أسماؤها: الشرطان،

---

(١) صحيح: أخرجه ابن خزيمة فى صحيحه (١٦/٣) ح (١٥٣١)، والبيهقى فى الكبرى (٤٣٠/١) ح (١٨٦٧)، والشافعى فى مسنده (٣٣/١)، وعبد الرزاق فى مصنفه (٤٧٧/١) ح (١٨٣٩)، والإسماعيلى فى معجمه (٤٦٦/١، ٤٦٧) ح (١١٩).

والبطين، والثريا، والدبران، والهنعة، والذراع، والنثرة، والطرف، والجبهة، والخراتان، والصرفة، والعواء، والسماك، والغفر، والزبانان، والأكليل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، وسعد الذَّابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، والفرغ المقدم، والفرغ المؤخر، وبطون الحوت، فهذه جملة عدد منازل القمر.

والفجر يدوم طلوعه فى كل منزلة من هذه المنازل ثلاثة عشر يومًا، ثم ينتقل إلى المنزلة التى تليها، فشرحه طويل، فمن أراد معرفة ذلك، فعليه بكتاب الأنواء لابن قتيبة، ولا غنى للمؤذنين عن معرفته؛ ليحتاط على معرفة الفجر، ويجوز للمؤذن أخذ الأجرة على الأذان بالصلوات، إلا الإمامة، فإنهم يمنعون من أخذ ذلك، فإنه حرام، فإن دفع للإمام من غير شرط، جاز له أخذه على سبيل الهدية، والرهبة، والصلة، والبر[1].

* * *

الباب الثامن والثمانون
فى قراء القرآن قدام الموتى

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا، ويأمر أهل القرآن بقراءته مرتلاً، كما أمر الله سبحانه وتعالى، وينهاهم عن تلحين القرآن، وقراءته بالأصوات الملحنة، كما يلحن المغنى بالأشعار، فقد نهى الشرع عن ذلك، ولا يأتون إلى جنازة من غير أن يستدعيهم ولىّ الميت، فإن أعطوا شيئًا من غير شرط على سبيل الصدقة، جاز لهم أخذه، وأما اشتراطه فلا يجوز، فيعتبر المحتسب ذلك[2].

* * *

الباب التاسع والثمانون
فى غسالى الموتى

اعلم يرحمك الله أنه لا ينبغى أن يغسل الموتى إلا ثقة أمين، قد قرأ كتاب الجنائز فى الفقه، وعرف حدودها، فيسأله المحتسب عن ذلك، وصفته أن يستر الميت فى الغسل عن العيون، ولا ينظر الغاسل إلا ما لابد منه، والأولى أن يغسل فى قميص، وغير المسخن من الماء أولاً، إلا أن يحتاج إلى المسخن، ويتولى غسله، وينجيه، ولا يجوز أن يمس عورته، ويستحب أن لا يمس سائر جسده إلا بخرقة، ويوضئه وضوءه للصلاة،

---

(١) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص١٧٢ - ١٧٩).

(٢) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص١٧٨، ١٧٩).

ويغسل رأسه بماء وسدر، ويسرح شعره، ويغسل شقه الأيمن، ثم الأيسر، ثم يفيض الماء على سائر جسده، يفعل ذلك ثلاثًا، يتعاهد فى كل مرة إمرار اليد على البطن، فإن احتاج إلى الزيادة غسل، ويكون ذلك وترًا، ويجعل فى الغسلة الأخيرة كافورًا، ويقلم أظفاره، ويحف شاربه، ويحلق عانته، والغرض من ذلك النية والغسل، ثم يستر بثوب، وإن خرج بعد الغسل شىء أعيد غسله، وقيل: يوضأ، وقيل: يكفيه غسل المحل، ومن تعذر غسله ييمم، فمن كان قيمًا بما ذكرنا تركه، ومن لم يعلم صرفه ليتعلم.

* * *

الباب التسعون
فى المراصد والمراقب

ينبغى أن يتقدم إلى متولى المراقب على البحر المالح، ورصدة البحار، ويأمرهم بالتهليل، والتكبير، والتوقيد للنار فى كل ليلة جمعة، ليعلم أنه متيقظ وعلى حذر، فإذا رأى خبرًا أو لاح شىء تفقده، ولم يغفل عن مراعاته، نهارًا كان أو ليلاً، ويراعى ذلك منهم، ويتفقد مبيتهم فى المراقب، فإن جرى من أحد نقص استبدل به غيره، والصواب أن يسأل قوم من المستورين، وكذلك من المؤقتين، ومن شاكلهم أن يذكروا الناس فى الأسواق بتأذين، بالتهليل، والتكبير، والصلاة على النبى ﷺ، وعلى الأئمة، وينهون الناس عما نهاهم الله عنه من البخس والظلم؛ لقوله عز وجل: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ...﴾ [المطففين:١ - ٤]، فقد يوافق هذا التحذير بالإقلاع عن الأضرار، ويحثوا أيضًا على اشتهار أمر الأعلاّء والمرضى من فى منازلهم من المسلمين ليعود بعضهم بعضًا، لما فى ذلك من المثوبة الحسنة، فقد لحقت أنا شيوخًا مستورين كانوا يسألون الأطباء عن الأعلاء والمرضى، فيخبرونهم بأماكنهم، فيمضون إليهم، ويلاطفونهم، ويتعاهدونهم بالملاطفة، والهدايا، والأشربة، والفواكه، وغير ذلك.

* * *

الباب الحادى والتسعون
فى طباخي الولائم

ينبغى أن يتقدم إليهم ويمنعهم من أن يدخل الرجال إلى الأماكن التى تجتمع فيها النساء، ولا يقدم الموائد إليهم، ولا يرفعها من بين أيديهم، إلا جوارى أو نساء من الخدام، ولا تجتمع الرجال مع النساء، ولا ينظرون إلى وجوههن، ولا يمكنوا من ذلك، ويُحلَّف الطباخون أنهم لا يهونون على أحد قيمة ما يريد أن ينفقه فى الوليمة التى

يذكرها الصعاليك، فربما كان ذلك سببًا لإنكاره، وسقوط جاهه، فيمنعون من ذلك، ويراعى ذلك.

* * *

الباب الثانى والتسعون

فى معرفة الموازين

اعلم وفقك الله أن معرفة الموازين وضعًا ما استوى جانباه، واعتدلت كفتاه، وكان ثقب علاقته فى وسط القصبة فى ثلث سمكها، فيكون تحت مرود العلاقة الثلث، ومن فوقه الثلثان، وهذا يعرف رجحانه بخروج اللسان من قلب العلاقة، وتهبط الكفة سريعًا بأدنى شىء، وأما الشواهين الدمشقية، فيوضع ثقب علاقتها بخلاف ما ذكرناه، ويعرف رجحانها بدخول اللسان فى قب العلاقة من غير هبوط الكفة، وقد يكون مرور العلاقة مربعًا ومثلثًا ومدورًا، وأجودها المثلث؛ لأنه أسرع رجحانًا من غيره[(١)].

* * *

الباب الثالث والتسعون

فى معرفة المكاييل

اعلم وفقك الله أن المكاييل الصحيحة ما استوى أعلاه وأسفله فى الفتح والسعة، من غير أن يكون محصرًا أو أزور، وأن لا يكون بعضه داخلاً وبعضه خارجًا، وينبغى أن يكون مشدودًا بالمسامير؛ لئلا يصعد فيزيد، أو ينزل فينقص، وأجود ما عُيرت به المكاييل الحبوب الصغار التى لا تختلف فى العادة فى طول الزمان، مثل الكزبرة، والخردل، والزر قطونا، والبرسيم، والسمسم، وما أشبه ذلك، وصحة الويبة ستة عشر قدحًا على ما أوجبه الحق والحساب[(٢)].

* * *

الباب الرابع والتسعون

فى معرفة مثاقيل الذهب وصنج الفضة

اعلم وفقك الله أنه ليس بين الناس خُلف فى أن المثقال درهم ودانقان ونصف، وهو

(١) معالم القربة لابن الأخوة (ص٨٣).

(٢) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص٨٥، ٨٦).

أربعة وعشرون قيراطًا[(١)]، وهو خمس وثمانون حبة، والدرهم ستون حبة، والمعول فى أكثر الأوقات من ذلك على الصنج الواردة من الباب العزيز من الحضرة المطهرة، فيعتبر ويطلق للناس المعاملة بها، وأصح ما عيرت به الصنج الموازين الطيارات الصغار، ومن الكبار الطيارات أيضًا[(٢)].

* * *

الباب الخامس والتسعون

فى معرفة الأرطال والقناطير

اعلم وفقك الله أنه لما كانت هذه أصول المعاملات، وبها اعتبار المبيعات، لزم المحتسب معرفتها، وتحقيقها، لتقع المعاملة بها من غير غبن على الوجه الشرعى، وقد اصطلح أهل كل بلد وإقليم على أرطال تتفاضل فى الزيادة والنقصان، وسأذكر ما لا يسع المحتسب جهله، ليعلم بذلك تفاوت الأسعار.

فأما القناطير التى ذكرها الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم، فقد قال معاذ بن جبل، رضى الله عنه: هو ألف ومائتا أوقية[(٣)]، وقد قال أبو سعيد الخدرى، رضى الله عنه: هو ملء مسك ثور ذهبًا[(٤)]. والقنطار المتعارف مائة رطل، والرطل مائة وأربعة وأربعون درهمًا، وهو اثنا عشر أوقية، كل أوقية اثنا عشر درهمًا، هذا رطل مصر الذى رسم بها، وأما رطل دمشق، فستمائة درهم، وأوقيتها خمسون درهمًا، ورطل حمص سبعمائة درهم وأربعة وتسعون درهمًا، وأوقيتها سبعة وستون درهمًا وحبة وثلثا حبة[(٥)].

---

(١) اعلم أن القيراط جزء من أجزاء الدينار، وقد اختلفت المذاهب فى مقداره، فعند الحنفية = ١/٢٠ من الدينار، فالقيراط = (٤,٢٥ ÷ ٢٠ = ٠,٢١٢٥) جرامًا، وعند الجمهور = ١/٢٤ من الدينار، فالقيراط = (٤,٢٥ ÷ ٢٤ = ٠,١٧٧١) جرامًا. انظر: المكاييل والموازين لعلى جمعة (ص٢٣).
فالمثقال عند الحنفية = ٢٤ × ٠,٢١٢٥ = ٥,١ جرامًا، والمثقال عند الجمهور = ٢٤ × ٠,١٧٧١ = ٤,٢٥١ جرامًا.

(٢) انظر: إتحاف الخيرة للشيزرى (ص١٦، ١٧)، معالم القربة لابن الأخوة (ص٨١، ٨٢).

(٣) انظر: تفسير ابن عطية (٢/٣٥٢)، تفسير القرطبى (٤/٣٠)، تفسير ابن كثير (١/٣٥١).

(٤) لم أجده.

(٥) على اعتبار أن القنطار = ١٢٠٠ أوقية، فمقداره عند الحنفية = (١٢٠٠ × ١٢٤,٨ =

=

ورطل حماة ستمائة وستون درهمًا[(١)]، وأوقيتها خمس وخمسون درهمًا[(٢)]، ورطل المعرة مثل حمص، ورطل شيراز ستمائة وأربعة وثمانون درهمًا، وأوقيتها سبع وخمسون درهمًا، والرطل البغدادى مائة وثلاثون درهمًا[(٣)]، وأوقيته أحد عشر درهمًا إلا دانقًا، والمن مائتان وستون درهمًا[(٤)]، وهو منسوب إليه، وقد وجدنا جميع العطارين والصيادلة يزنون بالعشرة دراهم عوضًا عن الأوقية، وهذا بخس وخيانة، فألزمانهم الأوقية عشرة دراهم ونصف وثلث، وجعلناها مخالفة لصنجة العشرة دراهم، وجعلناها مثالاً عند المعير، يعيرون بها، ويعملون نظيرها فى أيام حسبتنا، وأما الرطل الليتى، فمائتا درهم، وأوقيته ستة عشر درهمًا ونصف وثمن وحبة وثلثا حبة، وأما الرطل الجروى، فثلاثمائة درهم، وأوقيته خمسة وعشرون درهمًا.

وأما القناطير، فينبغى أن تضبط، فمنها ما يكون قد نقش وجهها بالعربية ليقرأها كل أحد، ومنها ما يكون الوجه الواحد عربيًا والآخر قبطيًا، فينقش على قب القبابين، تحت لسنها، بالعربية، وينقش على الرمانة وزنها، ليكون أصلح وأبين؛ لأن كل رمانة تنقص عن حقها رطلاً، فيدخل على المشترى بها نقص عشرة أرطال، فينبغى للمحتسب أن يحتاط على هذا أتم حيطه.

وينبغى أن يتفقد القبابين فى كل وقت بالعيار؛ لأنها تعبب إلى النقص، لاسيما إذا ميّلها الوزان، ليطرح الوزنة عنها من غير حمالين يرفعون الثقل عنها، فإنها تعب للوقت، والقبان الرومى أصح من القبطى، وينبغى أن يكون المحتسب يمتحنهم بعد كل حين وتختبرهم، فإنها ربما تَعوَّج من شيل الأثقال، فتفسد كما ذكرنا أولاً[(٥)].

* * *

= ١٤٩,٧٦) كيلو جرامًا، وعند الجمهور = (١٢٠٠ × ١١٩ = ١٤٢,٨) كيلو جرامًا.
على اعتبار أن الأوقية = ٤٠ درهمًا، والدرهم عند الأحناف = ٣,٢٥ جرامًا، وعند الجمهور = ٢,٩٧٥ جرامًا تقريبًا. انظر: المكاييل والموازين لعلى جمعة (ص٢٤، ٢٥).

(١) فعند الأحناف تضرب فى ٣,١٢٥ جرامًا، وعند الجمهور تضرب فى ٢,٩٧٥ جرامًا.

(٢) وعند الأحناف تضرب فى ٣,١٢٥ جرامًا، وعند الجمهور تضرب فى ٢,٩٧٥ جرامًا.

(٣) لأن الرطل العراقى عند الحنفية نصف من ، والمن = (٢٦٠ درهمًا)، فالرطل العراقى عند الحنفية يساوى (١٣٠ درهمًا).

(٤) وعند الأحناف تضرب فى ٣,١٢٥ جرامًا، وعند الجمهور تضرب فى ٢,٩٧٥ جرامًا.

(٥) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص٨٠، ٨١).

الباب السادس والتسعون

فى معرفة الأقساط

اعلم وفقك الله أن عيار القسط الجروى المتعامل به أربعة أرطال ونصف[(١)]، والسوقة يجعلونه ثمانية أكواز فى مبايعاتهم، والكوز هو ثمن القسط، ومطر العسل الذى تعير به الأمطار وقتًا عند مقاولة الحمل، وعند تحصيل الثمن، خمسة أقساط، والقسط الليتى أيضًا يجب أن يكون ثلث الجروى، ونظير الرطل أيضًا، فيكون ثلاثة أرطال بالجروى، فمن جعل القسط من اللبانين وغيرهم ثلاثة أرطال إلا ثلث، فقد خان وبخس، فيتقدم المحتسب إليهم بأن لا يفعلوا هذا، ويعيِّر عليهم عيارًا يحتاط عليه، ويعملون به، ومن خالف أدب وأشهر، ويجب أن تكون جميع الأقساط والأمطار معيرة مختومة بالخواتيم الرصاص، ويعير عليهم كل وقت.

* * *

الباب السابع والتسعون

فى معاصير الزيت وغشهم

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا عارفًا ثقة بمعيشتهم، ويمنعهم أن يعتصروا بزر الكتان إلا مقليًا، فإنه إذا قلى ظهرت رائحة زيته، وإذا اعتصروه بلا قلى خفيت رائحته، ويخلطوه فى الزيت الحلو، ويدلسوا به، والزيت المعتصر من القرطم يضر النساء الحبالى إذا أكلوه، ويسقط شعورهن، وقد يخلطه من يستحل ذلك فى الزيت الطيب، وفى الشيرج، فينبغى مباشرة ذلك، والاهتمام به، ويتقدم إلى الحمالين بأن لا يبيعوا الزيوت على الغرباء دون أن يملؤا الأسواق، ويظهروه ويشهروه دفعات قبل بيعه للغرباء، و لا يعترض الحمالون للسمسرة، وأن يكون الحمال غير السمسار[(٢)].

* * *

الباب الثامن والتسعون

فى التبن والتبانين

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا عارفًا بمعيشتهم، ويمنعهم أن يخلطوا مع تبن الحنطة تبن الفجل، ولا تبن العدس، ولا تبن البرسيم، ولا تبن المبلول الذى يكون فى قعر الشباك،

---

(١) فهو عند الحنفية = ٤,٥ رطلاً × ٤٠٦,٢٥ جرامًا = ١,٨٢٨ كجم، وعند الجمهور = ٤,٥ رطلاً × ٢,٩٧٥ جرامًا = ٠,٠١٣٣٨ كجم.

(٢) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص٢٢٨).

ولا تبن الجلبان، ولا البروينا، وهو أصول القمح الغليظة، ولا يتخطوا إليه، ولا يأمروا به، ولا من فِعْله، ويعرف على حماليه عريفًا ثقة عارفًا عيبهم، يأمرهم أن يعيروا بمنهية ترياك رحمه الله، التى عيارها مائة رطل، فيكون الحمل مائتين وخمسين رطلاً بالقلعى. وأخبرنى من أثق به أن عيار المنهية الترياكية ثلاثة أرادب[(١)] بالقفيز المصرى، ويكتب على عيار كل واحدة منها عيارها بعد أن تصح، ويكتب عليها اسم المحتسب الذى يعيرها، ويؤمرون بجودة الحشو، وإذا وجد من أحد بخس فى كيله، أدب وأشهر بعد الإنذار[(٢)].

* * *

الباب التاسع والتسعون
فى القرط[(٣)] والقراطين

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة، ويأمرهم أن لا يحلوا شيئًا من القت، ويحشونه من الدقاق، ولا يخلطوا الطيب منه بالدون، وليكن بيع كل واحد منهما على حدته، ولا يخلطوا الحزم الكبار ويشدونها صغارًا، بل يبيعوا بشد الغيط[(٤)] بما أطعم الله ورزق، ويعتبر موازينهم، وصنجهم، ومن فعل شيئًا من هذا أدب.

* * *

الباب المائة
فى الأنماط وصناعتها

ينبغى أن يعرف عليهم رجلاً منهم، ثقة، له بصيرة وخبرة، ويأمره أن يتقدم إليهم، وأن لا يمكن رجلين من شراء سلعة مثمنة أو غير مثمنة، إلا أن يكونا شريكين فى مال واحد وحانوت واحد؛ لأنهما إذا كانا متفرقين وأخذ أحدهما السلعة عنده، وجاء رجل مشتر بليل جد فى طلب تلك السلعة ليأخذها له من شريكه بزيادة عن قيمتها، ويأخذ منه الجعل، وهذا تدليس وغش، وإن عرض شىء فيه رفو، عرض ونودى عليه البراءة من

---

(١) اعلم أن الإردب مكيال ضخم لأهل مصر، وهو أربعة وعشرون صاعًا بصاع النبى صلى الله عليه وآله وسلم، فمقدار الإردب عند الحنفية = (٣,٢٥ × ٢٤ = ٧٨ كيلو جرامًا)، وعند الجمهور = (٢,٠٤ × ٢٤ = ٤٨,٩٦ كيلو جرامًا).

(٢) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص٢٣٣).

(٣) هو نوع من البقول.

(٤) هو الريف بلغتنا نحن أهل مصر.

سائر العيوب، ولا يمكن الرفاء، ولا الصقال، ولا الغسال، ولا النجار من التجارة فى هذه الصنائع، بل يكون كل رجل لازمًا لبضاعته.

ولا يمكنون باعة الكلل من فتح رءوس الصفقات، ولا يخلط فى الكلل الشرب التى من عمل تنيس، ولا شيئًا من عمل مصر بشىء من عمل تنيس، وإذا جلس عند رجل سمسار ليشترى له شيئًا من الجهاز، يأخذ الجعل منه، ولا يأخذ من البائع، ولا يأخذ أحد من المنادين من يُراد شيئًا من قماشه فيعيده إلى النداء أصلاً، ولا يزيد فى قطعة قماش من نفسه، ولا يعمل لحافًا جديدًا مقطوع الأركان إلا ويفتق بعضه ليتعين جديد هو أم عتيق، ولا يعمل الزبون إلا جديدًا مبطنًا، وربما اشترى التاجر الديباج والبربون والطنافس بنظرة إلى مدة بدينار معلوم، فإذا صار على كيسه استعمله وأكراه، فإذا جاءه الزبون أخبره برأس ماله، وهذا تدليس.

ولا يخلط طرى قديم بجديد، وسبيل السماسرة أن يكتبوا على الطنافس اسم البائع والمشترى والمنادى وثمنها على أطرافها، ولا ينادى المنادى على شىء لنفسه، ولا يأخذ الجعل إلا من يد البائع بقيراط الدينار، وإذا صفق على تاجر قماش ورضيه لم ينقصه شيئًا من ثمنه إلا برضاه، أو بعيب يظهر، فيفسخ ذلك البيع، ويتوافقون، ومن خالف عومل بما يستحق وأدب.

* * *

الباب الحادى والمائة
فى صناع الأخمرة والحرير والوقايا

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة من أهل صناعتهم، ويأمره أن يمنعهم أن لا يمدوا الأخمرة إلا كما جرت العادة، فى الطول، والعرض، وعدد الخيوط، فمن ذلك الأخمرة تكون ستة أذرع بالمرفق فى عرض سداها، وسداها. والعقل الصغار السود الملويّة طول ذراع ونصف، وعرض ثلاثة أشبار، وسداها ألف وستمائة خيط، ويؤمرون أن لا تباع إلا خامًا؛ لأنها إذا قصرت أنهرت من الدق والماء والغسل. وصفائها قد يعمل من قطن، ولا يمكنوا من ذلك، بل تكونا حريرًا. وقد يعمل فى أول خيط الطرحات، والخيط هو ثمانية طرح، فيعملون فى أوله اثنين طول كل واحدة ذراعان، والستة الباقية ذراع ونصف كل واحدة، فإذا جاء المشترى أروه أول الخيط، ثم يطوونه، وهذا تدليس، فيمنعون من ذلك أتم منع، ويعتبر عليهم جميع أشغالهم، ويؤدب فاعله شفعة لغيره.

* * *

الباب الثانى والمائة

فى الحصر العبدانى

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة عارفًا بصناعتهم، ويأمره أن يحلفهم بالله العظيم أنهم لا يصبغون السمار الأحمر إلا بالفوة، لا بالبقم، فإن البقم يتغير صبغه من الحر والشمس، وإذا وقع عليه شىء من الحموضة اصفر، ويطبع. والسمار الأسود يكون صبغه بالحديد، ويجفف مقامه، لئلا تضعف قوته. وتكون مياه الصباغ نظيفة طاهرة، ويكون جميع قيامه من غزل الكتان المعتدلة الخيط، ويعتبر ذلك[١].

* * *

الباب الثالث والمائة

فى الخيزرانيين

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة عارفًا بصناعتهم، ويأمره أن يمنعهم من عمل الخيزران الذى يشق من السلال التى يجيبون فيها الصينى إلى مصر، تعمل منه أطباقًا وتباع على الريافة بالحديد، ولا يعمل منه مكبات ولا أسفاط للعطارين ولا غيرها، لسرعة تقصف خيزرانها، بل يكون عملهم من الخيزران الصحيح، ومن خالف أدب.

* * *

الباب الرابع والمائة

فى اللبود واللبادين

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة عارفًا بصناعتهم، ويأمره أن يمنعهم أن يعملوا فى اللبود شيئًا من شعر الميتة، ويمنعهم من عمل صوف الرءوس، ويستدل عليه بفرط خشونته، ويكون وزن اللبد الأحمر أربعة أرطال بالقلعى، واللبد الأزرق والمرشحة الحمراء رطل ونصف، ويسقى الصمغ بلا مشاق، ويمنعهم من عمل اللبد المشاقة الذى يعمل قوالب فى داخل المسانيد، بل يكون من الصوف، ويكون وزن كل واحد منهما ثلاثة أرطال، ومن خالف أدب[٢].

* * *

---

(١) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص٢٣٢، ٢٣٣).

(٢) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص٢٣١).

الباب الخامس والمائة

فى الأرجوان وصناعه

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا، ويأمره إذا خرجت لهم صبغة صافية، لقلة لُكِّها وقوة شبها، أن يعمد إلى الجير القلاد، فيذرَّ منه على مقدار وزن الصبغة بالماء الحار، ثم بماء اللك الذى صبغ به أولاً، ويترك الأرجوان فيه ساعة، وينشل منه لئلا يسود، وهذا تدليس، وإنما ينبغى أن تكون الزيادة من اللك على مقدار الصبغ، والصبغة الصافية القليلة اللك أيضًا إذا خرجت بسوقها من الجير، فيكبوا لونها إلى السواد، فيسقيه البقم، وهذا تدليس، وإنما الواجب أنه كان يسقيه الشب ليقوى شبه ثانى مرة، ويسقيه اللك إلى أن يأخذ حده من الصبغ، فيراعى ذلك كله منهم، ويمنعون منه، ويستحلفون بالله العظيم على ذلك كله، والطفل الأسود قد يروق ماؤه وتزول صبغته، وكذلك الطين الرومى، وليس يضر الأرجوان، ومن خالف أدب.

* * *

الباب السادس والمائة

فى الغضار

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة من أهل معيشتهم، ويأمره أن يشترط عليهم أن لا يباع غضار الكوز إلا مفردًا من غضار التنور، ولا يخلط كوز بتنور إلا أن يكون متقاربًا بمقدار الدينار الواحد، وعلى الغضّارى إذا جاءه الزبون لشراء مائة جام كما اشترى، ووقعت المقاولة على هذا الشرط، دفع إليه الثلث غضار والثلثين دقا، ويعد له كما اشترى جامًا جامًا من كل شىء، إلا أن يؤثروا الزبون جنسًا واحدًا، ويشرط على الحمالين معاونة الزبون من الغرباء وغيرهم، وأن يستوفوا حقوقهم على الشرط الذى تقدم ذكره من الأصناف، والأصباغ، والعدد، وإزالة المعيب[1].

* * *

الباب السابع والمائة

فى الأبّارين

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة، ويمنعهم من أن تخلط الأبر الأرمهان بالفولاذ؛ لأنها إذا سقيت خلطها مَن لا دين له فى الفولاذ، بل يكون كل صنف منهم على حدته،

---

(١) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص٢٢١، ٢٢٢).

ويستحلف الصناع على ذلك، ويتفقد حالهم كل وقت، ويعتبر عليهم بالنار؛ لأن الأبر الفولاذ إذا حميت وسقيت الماء تتقصف، والغير فولاذ إذا سقيت الماء لم تنقصف، فمن فعل ذلك أدب[1].

* * *

الباب الثامن والمائة

فى الحلفاء وعدده ورسومه

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة، ويأمره أن يأمرهم أن يكون عدد الحمل مائة وخمسين عقدة، كما جرت العادة، وأن تكون الأحمال مغطاة بالعبى؛ لئلا تخرق ثياب الناس فى الطرق، ويكون مع كل ثلاثة حمير سّواقًا، والأجراس النحاس المقرعة فى أعناقها ليعملوا الجلبة، فينتبه الغافل، والمرأة، والأعمى بمجىء الدابة، وكذلك الحطابون، ومن خالف ذلك أدب.

* * *

الباب التاسع والمائة

فى المحامل وصناعتها

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا، ويأمره أن يمنعهم أن لا يعملوها من خشب السيسبان، ولا من خشب قد سوس ونخر، ولا برم بخشب فيه علة ولا ضعف، ويكون القد مخبور الطهارة، ويمنعون من الشركة، ولا تباع إلا معراة فى وسط السوق حتى يظهر ما فيها من العيوب، ولا تباع فى المخازن بوجه ولا سبب، ولا تجلد قبل بيعها، ومن خالف أدب.

* * *

الباب العاشر والمائة

فى الروايا والقرب

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة عارفًا، ويأمره أن يمنعهم أن يعملوا شيئًا من هذه الأوقات والآلات الحافظة للمياه التى فيها مادة الحياة، إلا من الجلود المدبوغة بالقرض اليمانى التى قد استحكم دباغها، وطال مكثها فى الدباغ، ولا تعمل من جلد بغل، ولا

---

(١) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص٢٢٣).

مسوس، ولا درن، ولا نجس، ولا من نطع[١]، ولا من سلفة[٢]، ولا من جلود الروايا المستعملة، ولا يعمل فم قربة إلا من أديم مصرى، أو سلفة يمانى؛ لأنها ربما عملت من البطاين والسلف المغربى، ويحلفوا على هذا كله، ويتفقد دكاكينهم كل وقتٍ[٣].

* * *

الباب الحادى عشر والمائة
فى الدباغين

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا، ويأمره أن لا تدبغ جلود المعز إلا بالقرض اليمانى، ويكون دباغها بوزنها من القرض لا على عدد الجلود، وحد كل دست منها أربعون جلدًا، ويقيم فى الحوض ثلاثة أيام، وينقل إلى حوض آخر، وعليها من القرض مقدار وزنها الأول، ويفعل بها كذلك أربع دفعات لتنقى من شحومها، ومن قصد الغش والتدليس دبغ الدست ثلاث دبغات، ويغش الثالث بالعفص، وهو مضر بالجلود يقينًا ومهلكها، وعلامة غش الدست أن جلودها تسود فى الشمس، ودباغ الصيف أجود من دباغ الشتاء وأنجب، والعفص فيه عيب، وكذلك القرض المصرى، ومن خالف أدب[٤].

* * *

الباب الثانى عشر والمائة
فى دباغ الكيمخت

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة، فقد سألت عن جلوده، فعرفت أنها من جلود الخيل، والبغال، والحمير، وأن أكثرها ميتة، فسألت الفقهاء عما يعمل من هذه الجلود، فذكروا أن استعماله جائز، إلا المقلى الذى يقلوه عليه، فإنه نجس، فينبغى أن يجتنب.

* * *

الباب الثالث عشر والمائة
فى دباغ جلود البقر

ينبغى أن يعرف عليهم عريفًا ثقة عارفًا بمعيشتهم، ويأمره أن يمنعهم أن يخلطوا جلود البقر المذبوحة بجلود الميتة، ويأمرهم بدباغ كل عشرة منها بويبة دقيق والماء العذب أيامًا

---

(١) النطع هو بساط الأديم.

(٢) السلفة هو أديم لم يحكم دبغه.

(٣) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص٢٤٠).

(٤) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص٢٢٩).

إلى أن يزول شعرها، ثم يدبغها بويبة دقيق وويبة ملح، تقيم فيه ثلاثة أسابيع، وما زاد على مقدار حر الزمان وبرده إلى العفص، فإن كانت الجلود كبارًا، وكلها ثيران، دبغت كل جلد بأثنى عشر رطل عفص بالقلعى، وإن كانت بقرًا متوسطة، كان لكل جلد منها ستة أرطال، والعجول بأربعة أرطال كل جلد، وما زاد على ذلك زائدًا فى جودة الجلد، ومن خالف أدب.

* * *

الباب الرابع عشر والمائة
فى أهل الذمة

اعلم وفقك الله أنه ينبغى أن يشترط عليهم ما اشترطه عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فى كتاب الجزية الذى كتبه لأهل الذمة، ويؤخذون بلبس الغيار، فإن كان يهوديًا عمل على كتفه خيطًا أحمر أو أصفر، وإن كان نصرانيًا، عمل فى وسطه زنارًا، وعلق فى عنقه صليبًا، وإن كانت امرأة لبست خفين أحدهما أبيض والآخر أسود، وإذا عبر ذمى إلى الحمام، ينبغى أن يكون فى عنقه صليب، أو طوق من حديد، أو نحاس، أو رصاص؛ ليختبر به عن غيره.

ويمنعهم المحتسب من ركوب الخيل، وحمل السلاح، والتقلد بالسيوف، وإذا ركبوا البغال ركبوها لا بالسرج، ولا يرفعون بنيانهم على بنيان المسلمين، ولا يتصدرون فى المجالس، ولا يزاحمون المسلمين فى الطرقات، بل يلجأون إلى أضيق الطرق، ولا يُبدأون بالسلام، ولا يُرحب بهم، ويشترط عليهم ضيافة مَن مر بهم من المسلمين، وإنزالهم فى بيوتهم وكنائسهم، ويمنعون من إظهار الخمر والخنزير، والجهر بالتوراة والإنجيل، ومن ضرب الناقوس، ومن إظهار أعيادهم، ورفع الصوت على موتاهم، فجميع ذلك اشترطه عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فيراعى المحتسب جميع ذلك.

ويأخذ منهم الجزية على قدر طبقاتهم، الفقير المقتدر دينار، والمتوسط دينارين، والغنى أربعة دنانير، عند رأس الحول، وإذا جاءه المحتسب، أو العامل لآخذ الجزية، أقامه بين يديه، ثم يلطمه بيده على صفحة عنقه، ويقول له: أدِّ الجزية يا كافر، ويُخرج الذمى يده من جيبه مطبوقة على الجزية، فيعطيها له بذلة وانكسار، ويشترط مع الجزية التزام أحكام الإسلام، فإن امتنع الذمى من لزوم الأحكام، أو قاتل المسلمين، أو زنا بمسلمة، أو أصابها باسم نكاح، أو فتن مسلمًا عن دينه، أو قطع الطريق على مسلم، أو

آوى المشركين، أو دلهم على عورات المسلمين، أو قتل مسلمًا انتقضت ذمته، وقتل فى الحال، وغُنِم ماله فى أصح القولين؛ لأن أهل الذمة قد شُرِط عليهم الكف عن جميع ذلك، والله الموفق(١).

* * *

الباب الخامس عشر والمائة

يشتمل على تفاصيل وجُمل

اعلم وفقك الله أنه قد ذكرنا فى هذا الكتاب من الحسبة على أرباب الصنائع المشهورة، من كشف غشوشهم وتدليسهم ما فيه كفاية للمحتسب، وأصلاً يفسر ما عداه مما لم نذكره، وسأذكر فى هذا الباب تفاصيل وجمل، وأذكر ما يلزم المحتسب فعله من أمور الحسبة فى مصالح الرعية غير ما ذكرناه، فمن ذلك: السوط، والدرة، والطرطور.

فأما السوط، فيتخذه وسطًا، لا بالغليظ الشديد، ولا بالرقيق اللين، بل يكون بين سوطين، حتى لا يؤلم الجسد، ولا يخشى منه غائلة. وأما الدرة، فتكون من جلد البقر، أو الجمل، محشوة بنوى التمر. وأما الطرطور، فيكون من اللبد منقوشًا بالخرق الملونة، مكللاً بألوان الخرز، والودع، والأجراس، وأذناب الثعالب والنسانيس، وتكون هذه الآلة معلقة على دكة المحتسب يشاهدها الناس، فيرعب بها قلوب المعتدين، ويزجر بها أهل التدليس.

فإذا عثر بشارب خمر، جلده بالسوط أربعين جلدة، فإذا رأى المصلحة فى جلده الثمانين جلده؛ لأن عمر، رضى الله عنه، جلد شارب الخمر ثمانين جلدة، فيجرد عن ثيابه، ثم يرفع عن يده بالسوط حتى يبين بياض أبطه، ويطرّف الضرب على كتفيه وإليتيه وفخذيه، فإذا كان زانيًا، فليكن جلده فى ملأ من الناس، كما قال الله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، فإن كانت امرأة جلدها فى إزارها وثيابها، وأما الزانى المحصن، فيجمع الناس خارج البلد، ويأمرهم برجمه، كما فعل رسول الله ﷺ، وإن كانت محصنة، حفر لها حفيرة فى الأرض، وأمر الناس برجمها كما فعل رسول الله ﷺ بالغامدية، وإن لاط بغلام ألقاه من أعلى شاهق فى البلد، هذا

---

(١) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص٣٨ - ٤٥).

كله بعد توبته عند الإمام، ثم يتولاه المحتسب[١].

* * *

الباب السادس عشر والمائة

فى ترتيب التعزير

اعلم وفقك الله أن التعزير على قدر أحوال الناس، وعلى قدر الجناية، فمن الناس من يكون تعزيره بالقول والتوبيخ، ومنهم من يضرب بالسوط ولا يبلغ به أدنى الحدود، ومنهم من يضرب بالدرة، ويلبّس الطرطور، ويركب على جمل أو حمار، وإذا رأى رجلاً حامل خمر، أو يلعب بملهاة، كالعود، والطنبور، والمزمار، وما أشبه ذلك، عزره على حساب ما يراه من المصلحة فى حقه، بعد إراقه خمره، وكسر الملهاة، وكذلك إذا رأى رجلاً أجنبيًا مع امرأة أجنبية، فى خلوة أو طريق.

ويلزم المحتسب مباشرة الأماكن التى يجتمع فيها النسوان مثل سوق الغزل، وسوق الكتان، وشطوط الأنهار، وأبواب حمامات النساء، وما أشبه ذلك، فإذا رأى شابًا معترضًا لامرأة يكلمها فى غير معاملة فى البيع والشراء، أو واقفًا ينظر إليها، عزره ومنعه من الوقوف هناك، فكثير من الشباب المفسدين يقفون فى هذه المواضع، وليس لهم حاجة غير التلاعب على النسوان.

ثم يتفقد مجالس المواعظ، ولا يدع الرجال يختلطون بالنساء، ويجعل بينهم ستارة، فإذا انفض المجلس، خرجت الرجال قبل النساء وذهبوا فى طريق، وتخرج النساء بعدهم، ويذهبن فى طريق أخرى، ومن وقف من الشباب فى طريقهن بغير حاجة عزره.

ثم يتفقد المقابر، فإذا سمع بنائحة، أو صارخة، عزرها ومنعها من ذلك؛ لأن النواح حرام، وقد قال رسول الله ﷺ: «النائحة ومن حولها فى النار»[٢]، ويأمر النساء بأن لا يخرجن لزيارة القبور، وإذا خرجن للقبور أمر النساء أن يتأخرن عن الرجال، ولا يختلطن بهم، ويمنعهن من كشف وجوههن ورءوسهن خلف الميت، ويأمر مناديًا ينادى فى البلد بالمنع من ذلك، والأولى منعهن من تشييع الجنائز، ومتى سمع بامرأة عاهر، أو مغنية، استتابها عن معصيتها، وإن عادت عزرها ونفاها من البلد. ويمنع المخنث من دخوله على

---

(١) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص١٨٤ - ١٩٠).

(٢) وفى الكبائر، قال: «لعن النائحة ومن حولها»، انظر: الكبائر (١/١٦٥)، و: «لعن النائحة والمستمعة»، أخرجه أبو داود فى الجنائز (٣/١٩٠) ح (٣١٢٨).

النسوان، وكذلك الأمرد النكريش، متى حلق لحيته ونتفها، كان ذلك دليلاً على فساده[١].

* * *

الباب السابع عشر والمائة
فى مجالس الحكام

ينبغى للمحتسب أن يتردد إلى مجالس القضاة والحكام، ويمنعهم من الجلوس فى الجوامع والمساجد للحكم بين الناس، فربما دخل الرجل الجنب، والمرأة الحائض، والصبى، والحافى، ومن لا يتحرز من النجاسة، فيؤذون بذلك الحصر، وأيضًا ترتفع الأصوات، ويكثر اللغط عند المحاكمة والمنازعة، وكل ذلك قد ورد الشرع بالنهى عنه.

وقد وجدنا مكتوبًا فى كتاب أبى القاسم الصيمرى: إن المستظهر لله أمير المؤمنين، رحمة الله عليه، ولى رجلاً من أصحاب الشافعى، رضى الله عنه، الحسبة، فنزل إلى جامع المنصور، فوجد قاضى القضاة يحكم بين الناس فيه، فقال له: سلام عليك، قال الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾ [الحج: ٤١]، وقد مكن الله خليفته المستظهر لله فى أرضه، وبسط يده بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقد جعلنى وإياك نائبين عنه فى ذلك، قائمين فى رعيته حدود الله، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه، ونحن أولى بمن يعمل بحدود الله، ولزوم ما أمر الله به، واجتناب ما نهى عنه، ليقتدى بنا العامة، ونحن ملح البلد، نصلح ما فسد من الطعام، فإذا فسد الملح من يصلحه؟ ومجلسك هذا لا يصلح فى الجامع، أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ...**﴾، إلى قوله: ﴿**وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ**﴾ [النور: ٣٦، ٣٧]، وليس فى هذا الموضع شىء من ذلك، وإنه لتدخل إليك المرأة لتحتكم مع بعلها، ومعها الطفل فيبول على الحصر، وإن الرجل ليمشى على النجاسة والقذر، ويدوس الحصر بنعله، وإن الأصوات لترتفع باللغط، وربما دخل إليك الرجل الجنب، والمرأة الحائض، وجميع ذلك أمرنا رسول الله ﷺ باجتنابه، فاجلس فى وسط البلد، بحيث لا يشق على أحد دخوله عليك، والسلام. فنهض القاضى ولم يعد بعدها يجلس فى الجامع للقضاء.

---

(١) انظر: الأحكام السلطانية للماوردى (ص٢٩٣ - ٢٩٧)، الأحكام السلطانية لأبى يعلى (ص٢٧٩ - ٢٨٤).

ومتى رأى المحتسب رجلاً يسفه فى مجالس الحكم، أو يطعن على الحاكم فى حكمه، عزره، وإذا رأى القاضى قد استشاط على رجل غيظًا، أو شتمه، أو احتد عليه فى كلامه، ردعه عن ذلك، ووعظه، وخوفه الله عز وجل، فإن القاضى لا يجوز له أن يحكم وهو غضبان، ولا يقول هجرًا، ولا يكون فظًا غليظًا(١).

* * *

الباب الثامن عشر والمائة
فى مجالس الأمراء والولاة

ينبغى للمحتسب أن يتردد إلى مجالس الولاة، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويذكرهم، ويعظهم، ويأمرهم بالشفقة عليهم، والإحسان إليهم، ويذكر لهم ما ورد فى ذلك من الأحاديث عن النبى ﷺ، وليكن فى وعظه، وردعه، وقوله بشوشًا غير جبار عبوس، وليكن شيمته الرفق، ولين القول، وطلاقة الوجه، وسهولة الأخلاق، عند أمره ونهيه، فإن ذلك أبلغ لاستمالة القلوب، وحصول المقصود، وقد قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقد ذكرنا ذلك فى أول الكتاب.

وقد قال ﷺ: «إن الله رفيق يحب كل رفيق، يعطى على الرفق ما لا يعطى على التعنيف»(٢)، وينهى الفقراء، وأهل الكدية عن قراءة القرآن فى الأسواق، فقد نهت الشريعة عن ذلك(٣).

ولو شرعت فى جميع ما يفعله المحتسب من أمور الحسبة، لضاقت به الأوراق، وطال فيه الشرح، ولكنى قد وضعت أصولاً وقواعد يستعين بها المحتسب على أموره، ولعمرى أن الضابط فى أمور الحسبة هو الشرع المطهر، فكل ما نهت عنه الشريعة وجب على المحتسب إزالته، والمنع منه، وما أباحته الشريعة أقره على ما هو عليه، ولهذا قلنا فى أول الكتاب: يجب أن يكون المحتسب فقيهًا، عالمًا بأحكام الشريعة، ومتى كان جاهلاً اختلفت عليه الأمور، ووقع فى المحذور والمحظور.

---

(١) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص٢٠٠ - ٢٠٨).

(٢) انظر: معالم القربة لابن الأخوة (ص٢١٦ - ٢١٨).

(٣) تقدم تخريجه.

فنسأل الله العون والصحة والتوفيق، إنه على ما يشاء قدير، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

* * *

المحتويات

كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لابن بسام ٣٩١